

الحياة بين الكرد.. تاريخ الأيزديين



سبيريز

**مدير عام
و رئيس التحرير
مؤيد طيب**

حقوق الطبع محفوظة



العنوان

مؤسسة سبيريز للطباعة والنشر
اقليم كردستان العراق - دهوك
حاي مازي - شارع ناشتي

www.spirez.org
www.spirezpage.net

دار سبيريز للطباعة والنشر
دهوك

- تسلسل الاصدار: (٢٤١)
- عنوان الكتاب: الحياة بين الكرد.. تاريخ الأيزديين
- تأليف: جون س. جيست
- ترجمة: عماد جميل مزوري
- تصميم: نازدار جزيري
- الغلاف: بيار جميل
- الاشراف الطباعي: شيروان احمد طيب
- الطبعة: الثانية
- عدد النسخ: (١٠٠٠) نسخة
- رقم الايداع: في مكتبة البدرخانيين في دهوك (٢٧١٧)
- لسنة ٢٠١١
- مطبعة حجي هاشم / أربيل

SPIREZ PRESS & PUBLISHER
DUHOK

الحياة بين الكرد.. تاريخ الأيزديين

تأليف
جون س. طيست

ترجمة
عماد جميل مزوري

الطبعة الثانية

2011

بيروت



إلى مارغريت

الفهرست

٩	 مقدمة الطبعة الاولى
١١	 مقدمة للطبعة الثانية
١٩	 الفصل الأول: الأسلاف
٤٧	 الفصل الثاني: شيخ آدي وعقيدته
٧٧	 الفصل الثالث: الدين الأيزيدي
١٠٥	 الفصل الرابع: البدايات الأولى للاتصال مع العالم الخارجي
١٤٣	 الفصل الخامس: أسرى على سفينة غارقة
١٧٥	 الفصل السادس: المبشرون والمكتشفون الناطقون بالانكليزية
١٩٩	 الفصل السابع: رسام و لايارد
٢٤٣	 الفصل الثامن: محنة الأمير حسين بك
٢٧٩	 الفصل التاسع: عبد الحميد والأيزيديون
٣٢٣	 الفصل العاشر: نشر الكتب المقدسة
٣٥٩	 الفصل الحادي عشر: أخ وأخت
٣٨٣	 الفصل الثاني عشر: عهد ميان خاتون
٤١٧	 الفصل الثالث عشر: الأيزيديون في ما وراء القوقاز

٤٣٩	 الخاتمة
٤٤٥	الملحق الأول: الكتب الأيزيدية المقدسة وترنيمة الشيخ آدي
	الملحق الثاني: نصوص الرسائل إلى الباب العالي و
٤٥٩	 (Sir Stratford Canning)
٤٦٥	الملحق الثالث: مقابلة مع الزعماء الدين الأيزيديين
٤٦٧	 الاسئلة والاجوبة
٤٧٩	 المؤلف في سطور
٤٨١	 ملحق الصور

الحياة بين الكرد .. تاريخ الايزيديين

هذه الطبعة من الكتاب هي طبعة منقحة ومزودة من كتاب (الأيزديون) لمؤسسة (كيگان پول) العالمية الذي نشر في العام ١٩٨٧، تم تنقيح الكتاب وإعادة طبعه لتزايد الطلب عليه الناجم من الاهتمام العالمي المتزايد بالشعب الكردي، الذي يمثل الأيزديون فيه واحدة من طوائفه الدينية العريقة.

ورد ذكر الطائفة الأيزيدية والاشارة إلى مواطنهم في وثائق للشعب الكردي يعود تاريخها إلى تسعمائة عام خلت، وربما يعود تاريخها إلى فترات أبعد لو تم تتبع آثار أسلافهم في التاريخ القديم، ويسد هذا الكتاب الذي يتناول بالوصف أصول دينهم واكتشاف الرحالة والمبشرين الغربيين في القرن التاسع عشر إياهم وأيضاً تاريخهم المأساوي القريب وظروفهم الحالية، فراغاً هاماً في تاريخ الشرق الأدنى.

يعيش مائتا ألف من أبناء الطائفة الايزيدية اليوم في الأجزاء الشمالية من العراق، وسوريا، وفي شرق تركيا، وفي ألمانيا، وجمهورية وأرمينيا وجورجيا السوفيتين السابقتين، ولهؤلاء دينهم الخاص بهم المختلف اختلافاً بيناً عن الاسلام الذي يعتنقه أغلب الكرد، ويختلف كذلك عن

المسيحية واليهودية. إذ تؤمن الأيزدية بأن الله قد تاب على إبليس المَلَكُ المطرود من الجنة والمنبوذ إلى الأرض، وأعادته إلى مرتبته رئيساً للملائكة، إن دينهم شأن تاريخهم تميز بالتماسك والصمود في وجه محن عظيمة.

وبعد أن يتناول الكتاب أصول الأيزديين وحياة الشيخ آدي - الذي يعد نبي الأيزدية والدين الأيزدي - يتطرق إلى بدايات التماس والصلة بين الأيزديين والعالم الخارجي والصدقات الحميمة التي تكونت في أربعينيات القرن التاسع عشر بين الزعماء الأيزدية وعالم الآثار البريطاني (السر هنري لايارد)، ومساعدة السفير البريطاني (السر ستراتفورد كاننك) الأيزديين لنيل حقوقهم المدنية، وقد أوردت في الملاحق رسالة شكر غير منشورة من زعماء الأيزيدية.

كما تتناول فصول الكتاب محاولات السلطان عبد الحميد الوحشية الفاشلة لإرغام الأيزديين على دخول الإسلام، والتي أدت إلى ظهور (ميان خاتون) الأميرة الأيزيدية الصلبة التي تولت زعامة الطائفة من العام ١٩١٣ إلى ١٩٥٨.

أما خاتمة الكتاب فهي تقويم للأوضاع الحالية للطائفة الأيزيدية على أساس اتصالات حديثة مع الزعماء السياسيين والدينيين لها، فقد قام المؤلف بثلاث زيارات إلى أرمينيا في العام ١٩٩٢ مما مكّنه من تعزيز معلوماته حول تاريخ الأيزيدية في ما وراء القوقاز، كما زار المؤلف في العامين ١٩٩١ و ١٩٩٢ المنطقة الآمنة التي أقامتها الأمم المتحدة في شمال العراق.

ويضم الكتاب ملحقاتاً جديداً يبين ملامح الدين الأيزيدي حسب ما يراها الزعماء الدينيون الأيزيديون المعاصرون.

مقدمة الطبعة المنقحة

قبل بضع سنوات قمت وعائلي بزيارة قرية في تركيا يقطنها الأيزديون. والأيزديون طائفة من الكرد يبلغ تعدادها حوالي مائتي ألف يعتنقون ديناً خاصاً بهم يختلف تماماً عن الاسلام الذي يتبعه أغلب الكرد، وعن المسيحية واليهودية. يعيش الأيزديون في الأجزاء الشمالية من العراق، وسوريا، وفي شرق تركيا، وفي ألمانيا، والجمهوريةين السوفيتيتين السابقتين: أرمينيا، وجورجيا (وفي أرمينيا كان الأيزديون لفترة طويلة يعدون كورداً، لكنهم الآن يعتبرون أقلية مستقلة بذاتها، ومصطلح (الكرد) يطلق على الكرد المسلمين فقط).

يعيش نصف عدد الأيزديين تقريباً في شمال العراق حيث معبدهم الديني الرئيسي، وقد تمكنت خلال رحلتين قصيرتين في العامين: ١٩٩١ و ١٩٩٢ من زيارة المعبد، وعدد من القرى الأيزيدية في المنطقة الآمنة التي أقامتها الامم المتحدة، والتقيت زعماء دينيين وأفراداً من عائلة أمرائهم، ولم أتمكن من زيارة القرى الأيزيدية في سهل شيخان شمال الموصل ولا تلك الواقعة في جبال سنجار غرباً، وكانت اتصالاتي الرئيسة مع قرويين في شرق تركيا، والذي يعيش كثير منهم ويعمل حالياً

في ألمانيا، كما التقيت مؤخراً إيزيديين في أرمينيا حيث تم الاعتراف بهم كأقلية قومية.

هذا الكتاب هو ثمرة حوار مع رجل دين ايزيدي في القرية التي أقمت بها خلال رحلتي الثانية إلى شرق تركيا، في الوقت الذي كان الكرد يعتبرون (أتراكاً جبليين نسوا لغتهم الأصلية) وكان الاستعمال العلني للغة الكردية محظوراً. قال لي صديقي وهو يشير إلى مبنى المدرسة المشيد حديثاً: إنه بعدما بدأ الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة باتوا يسألونه عن الكتب الدينية الأيزيدية، وعن تاريخ الطائفة، ومع غياب أي مادة مكتوبة فإن عليه أن يعيد عليهم التقاليد الشفوية التي تعلمها عندما كان طفلاً.

(تزامناً مع هذا حدثت مشكلة مشابهة في أرمينيا خلال السنوات الاخيرة للحكم السوفيتي، فقد كان جيل الشباب الأيزيدي يتعلم اللغتين الكردية والأرمنية وفي بعض الأحوال الروسية أيضاً، لكنه كان محروماً من المواد المكتوبة عن دينهم. وفي العام ١٩٨٩ نشرت أكاديمية العلوم الأرمنية مادة في هذا الموضوع طبع فيما بعد على شكل كراس يتحدث عن الدين الأيزيدي ويضم نصوصاً من كتبهم المقدسة في بالأرمنية).

كان الدين الأيزيدي خلال القرنين الماضيين موضوع بحث ودراسة من قبل علماء مسيحيين ومسلمين. والفصل الثالث من هذا الكتاب يعطي صورة عنه، والملحقات في نهاية الكتاب تضم تراجم إنكليزية (*) لكتابي الأيزيدية المقدسين وشرحاً مستفيضاً للدين، صدر مؤخراً على هيئة شريط فيديو من قبل السلطات الدينية الرئيسة.

(*) تمت ترجمتها إلى العربية. المترجم.

يعود ظهور الطائفة الأيزيدية في تاريخ الشعب الكردي إلى نسعمائة عام من الآن، بل إلى أبعد من ذلك لو تم تقصي آثارهم في عمق التاريخ القديم، وتعتمد مادة هذا الكتاب على شهادات الذين عايشوهم وتعاملوا معهم منذ أيامهم الأولى وإلى غاية العام ١٩٥٧، والهدف من الكتاب هو ملء فراغ في تاريخ الشرق الأدنى.

وكما كان الحال في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، فقد ارتأيت أن لا تتجاوز المادة الرئيسة له حدود العام ١٩٥٧، لأن الكثير من الاحداث التي وقعت بعد ذلك التاريخ مرتبط بأشخاص لا زالوا على قيد الحياة. ومع ذلك فإن الصور التي تشتمل عليها هذه الطبعة الجديدة تبين ضريح الشيخ آدي - النبي الأيزيدي - بشكله الجديد. وكذلك الطاووسين البرونزيين (السنجاقيين) اللذين يستخدمان لجمع التبرعات، كما أضفت معلومات جديدة ومعاصرة عن تاريخ الأيزيديين في ما وراء القوقاز.

رغم أن صديقي رجل الدين من قرية قوروكافاك قد توفي إلا أنني أرجو أن يجد أبناء قريته وكل الطائفة الايزيدية في هذا الكتاب ما يجد نجاحهم الخارق في البقاء في ظروف صعبة للغاية.

لقد تم إغناء مادة هذا الكتاب بمساعدة ونصائح تلقيتها من أطراف عديدة.

وقبل كل شيء يجدر بي تقديم الشكر والامتنان لأصدقائي الأيزيديين في العراق وتركيا وألمانيا وأرمينيا وحيثما كانوا من الذين علموني أن أتفهم كيف أن اعتدادهم بتقاليدهم الموروثة وتمسكهم بها مكنهم من الصمود قروناً بوجه الاضطهاد والملاحقة، وأنا ممتن غاية الامتنان لمكتب الوثائق العامة لتمكيني من الاطلاع على وثائق ومكتبة وزارة الهند،

ومخطوطات وتراجم الوثائق ذات حقوق الطبع الملكية في مكتب الوثائق العامة، والمواد غير المنشورة ذات حقوق الطبع الملكية من وثائق وزارة الهند والتي ضمها هذا الكتاب، بإذن من مشرف المكتب الدائم لصاحبة الجلالة.

كما إنني ممتن لحصولي على إجازة مماثلة من وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية قسم الأرشفة والوثائق ومجمع ساكرا، وكذلك الدكتور أرطغرل زكاي أوكته الذي استحصل لي نسخاً من الوثائق المتعلقة بالموضوع من الارشيف العثماني بأستنبول. والدكتور عبد السلام العوادلي المفتش العام للآثار، وهنري أ. عواد الذي تكرم بمرافقتي خلال زيارتي لضريح الشيخ زين الدين يوسف في القاهرة في وقت كان ارتياد المكان غير مسموح به للعامة، وهذا ما أتاح لي تصوير بعض الكتابات القديمة الموجودة هناك.

كما يجدر بي تقديم الشكر للمؤسسات التالية التي تكرمت بتقديم المشورة وفي حالات معينة السماح بالاقتراس من الوثائق الموجودة في أرشيفاتها وهي:

المجمع الكنسي التبشيري، مكتبة جامعة برمنغهام حيث أرشيفات مجمع الارساليات الكنسية، جمعية فيلادلفيا المشيخة التاريخية، الجمعية الملكية الجغرافية، جمعية تعزيز المعرفة المسيحية (من خلال مكاتب الراحلة الآنسة تبريزا جايلد)، الهيئة الكنسية الموحدة للإرساليات العالمية (التي حلت محل الهيئة الامريكية للإرساليات والبعثات الاجنبية)، مكتبة هوكين بجامعة هارفارد حيث أرشيفات الهيئة الامريكية للإرساليات والبعثات الاجنبية، الجمعية المتحدة لنشر التعاليم المسيحية، كما أدين بالشكر إلى

المكتبة البريطانية قسم المخطوطات لسماحها لي بمراجعة أوراق لايارد، وأقدم شكري إلى مركز الشرق الأوسط بكلية سانت أنطوني لإتاحتها لي الفرصة بمراجعة أوراق سي. جي. إدموندز التي بحوزتها، وإلى قسم الآثار في جامعة نيوكاسل تاين الذي زودني بمواد من مجموعة غيرترود بيل، ومن خلال مكاتب الأنسة الكساندرا كارسيا ماتا الكريمة إلى معهد شؤون العالم العامة (هانوفر نيو هامبشاير) لسماحه لي بالاطلاع على رسائل زميل المعهد توماس سي. گولتز.

كما أعبر عن أسفي لأن ضيق الوقت حال دون تدقيقي للمواد الزاخرة بالمعلومات الغنية في الاكاديمية الأرمينية للعلوم، وكذلك السيل الدافق من الكتب والمقالات حول الأيزديين من قبل العلماء المختصين العراقيين في السنوات الأخيرة.

ولم يكن بمقدوري إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود دون الاستعانة بمصادر من حوالي خمسين مكتبة عامة وخاصة وجامعية في بريطانيا والقارة الاوربية والشرق الأوسط وأمريكا الشمالية، التي أتاحت لي الفرصة لمراجعتها أو أرسلت لي نسخاً (وغالباً مجانية ودون أية رسوم) من المواد والمصادر التي طلبتها، ويجب أن أعبر عن شكري الجزيل وامتناني العميق بصفة خاصة لمكتبة نيويورك العامة، وخاصة العاملين في القسمين الشرقي والسلافونيك والسيد دومين بيلا وزملائه في قسم الخدمات التصويرية بالمكتبة. وفي الآونة الأخيرة للمكتبة الكردية في بروكلين بنيويورك ومديرتها التي ساعدتني كثيراً السيدة فيرا بهاء الدين سعيد بور.

أن مجازفة المؤلف بالولوج في حقل الأدب الشرق أوسطي، إنما يدين بأغلبه إلى التشجيع والنصح والإرشادات التي حصل عليها خلال العشر سنوات الماضية من الأصدقاء الأكاديميين وغيرهم (دون تحميل أي منهم المسؤولية عن محتوى هذا الكتاب).

ومن هؤلاء يشرفني أن أنوه بالدكتور أدريانو ألباكور نوفيلو، وفخري ن. بكر، وأخيه تحسين بكر، والمرحوم الدكتور آر. دي. بارنت، وروبرت أي. بيلوس الثاني، والدكتور إريكا س. بليتز، والدكتور سيباستيان بروك، والدكتور مارتن فون برونسن، والدكتور جي. إف. كوكلي، والدكتور دومينيك كولون، والبروفيسور آلان كانيكهام الذي راجع النص الكامل للطبعة الأولى وتفضل بتقديمه، والدكتور إريكا كروكشانك دود، والدكتور نوري أرن، والدكتور أحمد أفين، والبروفيسور إف. إم. فيلس، وديفيد إ. ج. فيني، والسيدة دوروثي سيللي فرانك، والآنسة نيليدا فكورا، والبروفيسور إ. ج. غوردن، وابن عمي الراحل إيفان كيست، وإ. ج. عزيز غونك، والدكتور طلعت هالمان، والبروفيسور آر. ستيفن همفريز، و والتر ج. كورنثيور، والسيدة فرنسيس ن. ليمان، والسيدة آيلين ماكيلفاين، والبروفيسور ديفيد ماككانزي، وجون ماكفي، والبروفيسور الدكتور رودولف ماكوك، وعلي إ. ج. نيازي، وادكار أوبالانس، وأندرو ج. بيك، وفتحي برنججي أوغلو، وكليف رسام، والدكتور جوليان إي. ريد، و جي. إم. روجرز، والدكتور جيمس رسل، والراحل رودني سيراي، وأي. يوشوا شيرمان، ووليام أي. تايلر، وديفيد تاونس، والراحل كوردن ووترفيلد،

وفيكترور وينستون، والدكتور إم. جَي. إل. يونك، والبروفيسور
قسطنطين زريق.

وأود تقديم شكري للسماح لي بالاطلاع على المخطوطات غير
المنشورة التي دونتها السيدة فرانك (الموجودة حالياً في مكتبة كلية
أمهيرست) والتي دونها الأب عزيز كوكل (الموجودة في حوزنه).

وأود أيضاً التعبير عن امتناني الخاص لرجلين غير عاديين: بير جَي.
إم. فيي، والراحل الدكتور هنري فيلد، اللذين كنت أرجو أن تسمح
الظروف بالبقاء مع كل منهما فترة أطول.

كما أنني ممتن بصورة خاصة للسيد دارا عطار لسماحه لي بدراسة
نصوص غير منشورة جمعها سي. جَي. إدموندز، وهي موجودة الآن في
مكتبة دارا عطار بأدنبرة كنت.

وقد حالفني حظ استثنائي بتوفر فرصة اللقاء مع اثنين من المشاركين
الرئيسيين في تاريخ الإنيزيديين في القرن العشرين الراحل اللواء إ.ج. پي.
دبليو. هيوستن، والأميرة ونسة إسماعيل الأموي، إذ كنت محظوظاً
بقضاء ساعات عديدة مع كل منهما وراجعت معهما أجزاء كتابي التي
تمس أحداث حياتهم. وفي كل الأحوال فإن الكاتب هو المسؤول الوحيد
عن طريقة سرد الأحداث التي شاركها فيها، كما اعتبر نفسي محظوظاً
لحصولي على فرصة اللقاء بأخ الاميرة ونسة، الأمير معاوية إسماعيل
الإنيزيدي مرتين وأنا مدين له بمعلومات قيمة فيما يتعلق بالعائلة
الاميرية.

وأنا شاكر جداً إعارتي مجموعة من الصور أعارنيها اللواء هيوستن،
وحفيده جالس ووكر، والأميرة ونسة وأخوها الأمير معاوية، والدكتور

دومينيك كولون، والدكتور إدوين سي. كون، وپير جَي. إم. فيي، وجون ماكفي، والمصورين الستة نامق دوروكان وتيم كيدال، وكريس ليدجر، وروبرت أي. ميتشل، وألسي تراسك ويلر، الذين طبعوا الصور التي يضمها الكتاب.

وامتناني لا يقدر للاصدقاء الذين أتاحوا لي فرصة الاستفادة من المصادر التي لا توجد إلا باللغة العربية أو التركية أو اللغات الشرقية الأخرى، ليس فقط عن طريق ترجمة بعض النصوص الأساسية لي، وإنما لقيامهم بمراجعة عدد من المنشورات المهمة كذلك، وقبل الجميع عليّ أن أعترف وأثنى دون السيدة رنده رحيم التي أرشدتني إلى مصادر عربية هامة وكانت مساعدة ومحبرة لي وكنت في أمس الحاجة إليها في القيام بالتحضيرات للطبعة الأولى من هذا الكتاب.

كما أرى أن من واجبي تقديم شكر للمتترجمين العرب الآخرين: البروفيسورة منى ميخائيل، والبروفيسور دوكلاس كرو، وأحد تلاميذ البروفيسور عبد الله كوران والذي لم يذكر اسمه، وإلى مساعدي الأتراك السيدة جانان عثمان ريفي وكونهان دمير ألب، والدكتور متين كونت، وصفر أوزدمير، والدكتور إ.ج. كريفث الذي ترجم لي بعض النصوص السريانية الصعبة، والسيدة ريزانا بطرسيان المترجمة المشاهرة لي خلال زيارتي الأخيرة إلى أرمينيا.

نيوكانان كنناتيك

حزيران ١٩٩٢

الفصل الاول

الأسلاف

الأحداث والشخصيات التي يرد ذكرها في هذا الكتاب تنتمي إلى عالم كان يعرف ذات يوم بالشرق الأدنى، وهو لا يستقطب سوى القليل من الزائرين، المدن فيه مزدحمة بالسكان، لكن الطرق والسكك الحديدية بطيئة، والأنهار تجري فيه بهدوء وسكينة صوب البحر، وحدوده في معظمها مغلقة.^(١)

في ريف هذه البلاد العريقة تتواصل الحياة كما كانت منذ آلاف السنين، فالرعاة يقومون برعاية قطعانهم من الغنم والماعز، والفلاحون يهتمون بمزارعهم المقامة على أراضي خصبة، والجمال تعين الإنسان على مواصلة الحياة في الصحراء، إلا أن هناك عنصراً مفقوداً - عنصر الحركة المستمرة للناس وحيواناتهم - التجار والمهاجرون الحجاج والخطباء الذين

(١) المادة الجغرافية والتاريخية في هذا الفصل انتقائية بالضرورة ينبغي أن تكمل بالاعتماد على المصادر المعتمدة حول الشرق الأدنى وآثاره وتاريخه وحول الأديان الرئيسة لشعوبه.

كانوا في وقت من الأوقات يطرقون الطرق التقليدية التي تربط حوض البحر الأبيض المتوسط مع العالم شرقي حلب.

فقبل أن تحدث التكنولوجيا المعاصرة الخطوط الجوية والطرق السريعة للسيارات عبر الصحراء، كان على المسافرين أن يسلكوا سبلاً تتوفر فيها المياه والمراعي لحيواناتهم، وكذلك توفر لهم أكبر قدر ممكن من الأمان من غارات قطاع الطرق القبليين. في تلك الأيام كان ثم ثلاث طرق تاريخية تربط بين مدن الشرق التجارية وبين ميسوبوتاميا الاسم الذي اعتاد الاغريق إطلاقه على العراق.^(١)

(طريق الصحراء الكبرى) أكثر الطرق استقامة وكان يتبع سلسلة من ينابيع المياه إلى الجنوب من الفرات باتجاه البصرة، لكنه غالباً ما كان محفوفاً بمخاطر الحروب القبلية. و (طريق الصحراء الصغرى) وكان يمضي محاذياً للفرات حتى منطقة توازي بغداد ويكمل مراحلها الأخيرة براً، حيث كان الفرات أيامها صالحاً للملاحة أغلب أيام السنة.

إلا أن الطريق المفضل كان هو الذي كان يربط بين حلب والموصل ويستمر نزولاً مع وادي دجلة. ففي الموصل كان المسافرون يختارون إما نقل عائلاتهم وبضائعهم على عوامات (Keleks) تدعمها قرب منفوخة

(١) الطرق التجارية التي تربط سوريا بميسوبوتاميا التي يذكرها دوكلاس كاروثرز في (طريق قوافل الصحراء الكبرى من حلب إلى البصرة) المجلة الجغرافية (لندن) ١٩١٨، ص ١٥٧-١٨٤، وفي مقدمته لـ (الطريق الصحراوي إلى الهند) ص X1 - XXXV، وكذلك يذكرها فريدريك د. هارفورد في (طريق القوافل القديمة والطرق البرية في سوريا وشبه الجزيرة العربية وميسوبوتاميا) القرن التاسع عشر العدد ٨٤، ١٩١٨، ص ٩٧-١١٣، وكريستيان فيليس غرانت في (الصحراء السورية) ومحمد علي حجيجو في (كتب الرحلات الانجليزية حول الشرق الأدنى العربي في القرن الثامن عشر) مجلة (دي فيلت دي إسلامس) العدد ٩، ١٩٦٤، ص ١-٢٠٦.

من جلود الأغنام، تسهل السفر عن طريق النهر إلى بغداد، وإما أن يختاروا عبور النهر من جسر القوراب في الموصل ثم سلوك (الطريق السلطاني) عبر أربيل وكركوك إلى بغداد.

كانت القوافل التي تشبه أرتال اليوم تنظم من قبل كبار التجار في رحلات منتظمة تتوقف في شهور الصيف الشديدة الحرارة. وكان التجار الآخرون وبائعو الماشية والمسافرون العاديون ينضمون إلى القوافل لتقليل تكاليف الحماية والمبالغ التي تدفع إلى القبائل التي تمر القوافل بأراضيها. وتتألف القافلة عادة من جمال محملة بالبضائع ترافقها آلاف الخيول والأغنام والماعز، وتقطع مسافة (٤٠٠) ميل بين حلب والموصل خلال ثلاثين أو أربعين يوماً. وبعد مغادرة القافلة حلب من باب الحديد فإنها تقطع مسافة خمسين ميلاً من أراضٍ متموجة تنتشر فيها دور مبنية على هيئة خلايا النحل ثم تبلغ الانحناء الكبرى لنهر الفرات المتدفق من منابعه في جبال الأناضول على مسافة ١٢٠ ميلاً جنوب غرب البحر الأبيض المتوسط.

ويمكن عبور النهر الذي يجري بقوة وعنف في أودية الأناضول العميقة عند بيره جك (جسر الطريق 90 E)، وجرابلس (جسر سكة حديد بغداد) وعند نقاط آخر نزولاً إلى مَسْكَنه (التي اكتسحتها بحيرة جسر تابكه)^(١). وعند هذه النقطة يتحول النهر باتجاه جنوب الشرق ليمر عبر الصحراء حتى يبلغ الأراضي المنخفضة من العراق، وهناك تصطف على جانبي النهر بساتين نخيل، وتتفرع من جهته اليسرى

(١) سجل فلم (رحلة الصحراء) لهيئة الإذاعة البريطانية رحلة (ديم فريا ستارك) بواسطة الكلث من جرابلس إلى السد في تشرين الأول ١٩٧٧.

جداول شُقت لهذا الغرض من قبل نبوخذنصر والملوك الذين تلووه، ثم يسير الفرات بهدوء ماراً ببقايا آثار بابل وأرك وأور ليلتقي بدجلة عند القرنة، المكان التقليدي لجناات عدن، ويتجه النهران المتحدان جنوباً مروراً بالبصرة ليصبا في الخليج عند الفاو.

وبعد عبور الفرات تسير القوافل بمحاذات قدمات هضبة الأناضول إلى أورفا التي كانت تعرف باسم أديسه أو كاليرهو أي مدينة الينابيع الجميلة، وقد أطلق عليها مؤخراً اسم شانلي أورفا أي أورفا الخلافة، ومن أورفا يجري نهر البليغ (Balikh) الذي يعد الموطن المفضل لسمك الشبوط، جنوباً باتجاه الفرات ماراً بحران، المكان الذي عاش فيه النبي إبراهيم مع أهله لعدة سنوات في رحلته الطويلة من أور إلى فلسطين، ثم إلى مصر وجزيرة العرب. (في تموز ١٩١١ سافر عالم الآثار البريطاني تي. إي. لورنس من حران إلى جرابلس ماشياً في ثلاثة عشر يوماً).^(١)

وفي أورفا كان بالإمكان اختيار أحد طريقين، فقوافل الجمال كانت تواصل المسير عبر حوض نهر الخابور باتجاه المنطقة السهلية جنوب ميردين، أما قوافل الماشية فكانت عموماً تسلك طريقاً تجارياً قديماً آخر يبدأ من شمال شرق أورفا عبر جبال كراجداغ إلى مدينة دياربكر المسورة على الضفة اليمنى لدجلة، ويمتد هذا الطريق ليعبر نهر دجلة واثنين من روافده جنوب دياربكر موغلاً أكثر في الشرق، ومتجهاً أخيراً شمالاً عبر وادٍ ثالث إلى مدينة بدليس التي تحتل موقعاً استراتيجياً فوق تل، وعند تجاوز بدليس يحاذي الطريق الضفة الجنوبية لبحيرة (وان) وصولاً إلى مدينة (وان)، ومن هناك يتجه غرباً نحو بلاد فارس وتركستان.

(١) رسائل تي. إي. لورنس، طبعة ديفيد كارت، ص ١١٦-١١٧.

في جنوب دياربكر تزداد سرعة جريان نهر دجلة (المعروف تقليدياً بالسهم) حيث تصب فيه روافده ويتسبب حصره بجوانبه الصخرية في اندفاعه بسرعة مخترقاً الجبال نحو سهل ميسوبوتاميا. والمسافرون الذين آثروا السفر من دياربكر بالقوارب لم ينسوا أبداً الموقع المخيف والمرعب عند انعطاف النهر مندفعاً بشدة بين جوانبه الصخرية، حيث كان المسافرون يلقون بقطع النقود المعدنية في الماء استرضاءً للدوامة المائية المخيفة. وتخف سرعة جريان النهر عند وصوله إلى جزيرة ابن عمر (حالياً جزيرة)، لكن أغلب التجار كانوا يفضلون الطريق الأسهل إلى الجنوب من دياربكر، ثم إلى مدينة ماردين ذات القلعة القديمة والمطلّة على الأراضي المنخفضة الفنية لميسوبوتاميا.

فعندما يكون الجو صحواً يتمكن المرء من ماردين مشاهدة سلسلة تلال تمتد جنوباً مع الأفق، إنها سلسلة جبل سنجار التي تبلغ (٦٠) ميلاً طويلاً و (٤٩١٤) قدماً ارتفاعاً (تغطي قممها الثلوج في الشتاء) وتبرز في الصحراء على هيئة هضبة منعزلة تعيد إلى ذاكرة المراقب الألماني قمم جبال هاليكولاند (Heligoland) العارية في بحر الشمال.^(١)

الجانب الشمالي لجبل سنجار ذو حوافٍ حادة تتقطعه وديان مغطاة بغابات البلوط، وبساتين الكروم والتين والرمان، أما الجانب الجنوبي فتدفق منه جداول مياه عذبة عبر أراضي سهلة صوب بلدة سنجار عاصمة المنطقة، ثم تتجه جنوباً نحو السهول. وماء سنجار الذي يمر عبر

(١) هلموت فون مولنكه: Memoir uber die Construction der karte von kleinasien und Turkisch Armenien طبعة كبيرة، ص ١٣.

أنفاق تحت الأرض (كهاريز) كان ذات يوم يستخدم في ري بساتين النخيل والبرتقال والليمون، ثم يمضي ليصب في الشترار (نهر ميسوبوتاميا المفقود) إلا أنه منذ قرون تحولت سهول جنوب جبل سنجار إلى صحراء مجدبة تتبخّر فيها مياه الجداول من شدة الحر أو تختفي. أما الشترار فهو اليوم ليس سوى مجرد جدول صغير يمر بمدينة الحضر المهجورة ليتلاشى في حوض غرب بغداد (تم تحويل الحوض مؤخراً إلى بحيرة مصطنعة تتم تغذيتها بمياه دجلة الفائضة).

بعد مغادرة ماردين يمر طريق القوافل بخرائب حاميقي دارا ونصيبين ثم بأرضٍ قاحلة هي هضبة مليحة تقع بين حوضي دجلة والفرات، ووتحدها سلسلتا جبال الأناضول وجبل سنجار، وهذه المرحلة من الطريق هي الأكثر صعوبة في الرحلة الطويلة التي تبدأ من حلب فالعواصف الرملية والرياح الجنوبية الحارة كفيلة بأن تسلم المرء إلى هلاك حتمي.

تقع مدينة الموصل على مسافة (٨٠) ميلاً إلى الشرق من بلد سنجار على الضفة الغربية من نهر دجلة، وتقع على النهر خرائب نينوى ومن هناك أقدم جبال كردستان، وأعلى هذه الجبال والذي يرى من الموصل وأحياناً من سنجار هو جبل (جودي) الذي يبلغ ارتفاعه (٦٨٥٤) قدماً فوق مستوى سطح البحر، وتقول الآراء المحلية التقليدية أن نوحاً رسا بسفينته على هذا الجبل.

وإلى الجنوب من الموصل تصب ثلاثة روافد نابعة من سلسلة جبال زاكروس بالمزيد من المياه العذبة في دجلة، والروافد هي: الزاب الكبير القادم من جبال هكاري، والزاب الصغير النابع من مصادر في شرق وجنوب رواندوز، ووادي ديبالى الواسع، الذي يمتد بمحاذاته طريق

التجارة القديم الذي يمتد من بغداد إلى همدان فكرمنشاه ثم إلى أسواق الشرق.

وكثيراً ما كانت حركة المسافرين والبضائع التجارية بين سوريا وميسوبوتاميا تنقطع بسبب الحروب، وقد أشارت الكتابات الهيروغليفية المصرية والمسمارية في نينوى وبابل إلى صراعات دائمة بين الامبراطوريات التي سيطرت على نهايات الطرق التجارية والتي أسفرت في بعض الأحيان عن إعادة توطين شعوب بكاملها لتوفير الأيدي العاملة لبناء الأهرام وشق القنوات وإنشاء المنشآت الأخرى.

وقد نقل الآشوريون في القرن الثامن قبل الميلاد عشر قبائل من اليهود إلى ميسوبوتاميا لكن بعد مرور مائة عام تحققت نبوءات ناحوم ويونان وأنبياء آخرين إذ دمرت نينوى بجيش بابلي متحالف مع الميديين (الذين يعتقد بعضهم أنهم أسلاف العرق الكردي)، وبعد سنوات قلائل احتل نبوخذنصر باحتلال أورشليم القدس، وعاد ومعه القبيلتان اليهوديتان المتبقيتان.

وبعد عقود قليلة تم إخضاع بابل أيضاً من قبل تحالف بين الميديين والفرس، وسمح زعيمهم كورش الذي عرفه الإغريق بلقب (الملك العظيم) وعرفه شعبه بـ (الشاه) أو (شاهنشاه = ملك الملوك) لليهود بالعودة إلى فلسطين، إلا أن الكثير من اليهود آثروا الاستيطان في ميسوبوتاميا، ومنهم (أستير) زوجة أحد خلفاء كورش وهو أحشويرش الذي ورد ذكره في التوراة.

بسط الفرس نفوذهم على هضبة الأناضول، ومع ذلك حافظت شعوب المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود على

هوياتها وامتيازاتها التجارية، وفي العام ٤٠١ ق. م أضيف إلى الوضع بعد جديد عندما تمكن أحد أحفاد أحشويرش ويدعى كورش من تجنيد جيش من المرتزقة الإغريق في محاولة جريئة منه للاستحواذ على العرش الفارسي، ولم يواجه هذا الجيش مقاومة جدية في الأناضول فتقدم مع وادي الفرات واستطاع الإغريق إلحاق الهزيمة بجيش الشاه في الفلوجة، ولكن المطالب بالعرش قتل في تلك المعركة.

وقد أتى الكاتب الإغريقي زينوفون على وصف تراجع قواته بمحاذاة وادي دجلة إلى حيث النقطة التي لا شواطئ لها عندها اضطر المرتزقة إلى شق طريقهم وهم يقاتلون الكاردوخيين وهم قوم يشبهون الكرد في الاسم والسلوك، لبلوغ البحر الأسود عند طرابزون.

وبعد سبعين عاماً توجه جيش أغريقي بقيادة الأسكندر المقدوني، بعدما أخضع الأناضول وسوريا ومصر، غرباً سالكاً طريق القوافل صوب دجلة وهزم آخر جيوش الشاه في معركة بالقرب من أربيل، لكن بعد موت الأسكندر تقاسم قادة جيشه البلاد التي كان قد فتحها، فكانت سوريا وميسوبوتاميا من نصيب سلوقس، ووافق اليوم الأول من العام الجديد من عهده الأول من تشرين الأول للعام ٣١٢ ق. م، وهو تاريخ استهلال عهد جديد ما زالت طوائف معينة تستخدمه إلى يومنا هذا، وبنى سلوقس عاصمة جديدة عرفت باسم سلوقية على الضفة اليمنى لنهر دجلة، كما بنى مدينة جديدة إلى الغرب من حلب عرفت باسم أنطاكية.

وخلال الألف سنة التالية وسع الإغريق (أولاً تحت زعامة العائلة السلوقية ثم كجزء من الامبراطورية الرومانية) حكمهم ورسخوه إلا

أنهم بدأوا بالتدريج يفقدون سيطرتهم على الأراضي الواقعة إلى الشرق من حلب. ففي أواسط هذه السنوات الألف غدا الصراع مريراً بين الثقافتين مع ظهور دينين جديدين، يمثل كل منهما امتداداً لعقيدة سبقتة.

بدأت في بلاد فارس في العام ٢٢٦ م نهضة جديدة عندما أدعى قائد يدعى أردشير الانتساب إلى الملوك القدماء، وتمكن من السيطرة على العرش وأعلن الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة، وكان العنصر الرئيس لهذا الدين - الذي بشر به زرادشت قبل ألف عام ولازال له أتباع في بعض أجزاء آسيا - هو الصراع على الانسان بين خالقه أهورا مزدا (ويسمى ايضاً بهرمزد) وأهريمن الذي هو روح الشر.

وحقق شابور بن أردشير النصر للحكم الجديد عندما تمكن جيشه من الإيقاع بالامبراطور الروماني فاليريان وجيشه، وتمت محاصرتهم في قلعة أورفا، وبفضل صلابته في المفاوضات تمكن الشاه من إرغام الامبراطور وكامل جيشه على الاستسلام، ومات فاليريان في الأسر وقد حفرت ذكرى إخضاعه في الصخر في موقع قريب من ضرائح شاهات فارس القدماء.

وفي العام ٣١٢ بعد ميلاد المسيح أعلن الامبراطور قسطنطين اعتناقه المسيحية، الدين الذي قاوم سنوات من الملاحقة والاضطهاد والخلافات الداخلية إلا أن ظهرت كنيسة نشطة منظمة معترف بها، وبنى الامبراطور عاصمة جديدة على البوسفور في بيزنطة سميت بالقسطنطينية، وحجت والدته هيلينا إلى القدس، وخلال رحلة الحج عثرت على أثر مقدس عرف بأنه الصليب الحقيقي.

أما المانوية فكان ديناً ثالثاً يجمع بين مفاهيم مسيحية وزرادشتية خاصة فيما يتعلق بالصراع بين الخير والشر، وكسب هذا الدين أتباعاً من ضمنهم - ولفترة من الزمن - شاهبور نفسه، ولكن الفرس تمكنوا أخيراً من إحراق نبي هذا الدين ماني حياً، واضطهد أتباعه وشتتوا على طرفي الحدود.

من جانبه حاول ابن أخ ملحد لقسطنطين يدعى يوليان إحياء أمجاد روما القديمة، فألغى الكنيسة المسيحية، وأجرى إصلاحات في إدارة الامبراطورية، وجند فرقاً عسكرية من المقاطعات الغربية استعداداً لحرب حاسمة على بلاد فارس التي كان يحكمها حينذاك شابور الثاني الحفيد العظيم لشابور.

وفي ربيع العام ٣٦٣ جرد الامبراطور حملة عسكرية ضخمة يرافقها أسطول من سفن المؤونة، وسلك الامبراطور وجيشه وادي الفرات نزولاً ثم اجتازوا ميسوبوتاميا عبر قناة نبوخذنصر ليتحدى الشاه عند أسوار عاصمته التوأمين: سلوقيا، وقطيسفون، حيث التزم شابور الحكمة والصبر بينما يزداد النهار طولاً وشدة حر، مما أدى في النهاية إلى اتخاذ الامبراطور قراره الحاسم بأن يعود أدراجه، فعبر الجيش دجلة وأحرق سفنه، ليتجه نحو شمال الغرب سالكاً طريق زينفون صوب التلال الكردية.

حرارة الصيف الشديدة في ميسوبوتاميا والهجمات المفاجئة المزعجة في الليل والنهار من جانب الخيالة الفرس دفعت الغزاة المنهكين الجائعين عبر حقول المحاصيل المحروقة إلى أن قتل الامبراطور بسهم طائش (لعل مجند روماني من قبيلة طي العربية أطلقه) فقام خلفه المسيحي يوفيان بالتفاوض

مع شابور للتوصل إلى معاهدة تنازل للفرس بموجبها عن جبل سنجار وأقاليم أخرى مقابل السماح لفلول الجيش الروماني بعبور دجلة والتوجه غرباً دون اعتراض سييلها.

كان يوم السبت الموافق للأول من تشرين الأول من العام ٥٨٩ فاتحة للقرن العاشر من عهد السلوقيين، وتتناول الصفحات التالية ملخصاً للأحداث التي شهدتها الأعوا المائة التي تلت هذا التاريخ، وقد تأصل كثير من هذه الأحداث في تقاليد طوائف عديدة تعيش اليوم في الشرق الأدنى.

ولأكثر من ٢٠٠ عام ظلت معاهدة يوفيان - التي كانت كثيراً ما تحرق - سارية بشأت تعيين الحدود بين الامبراطوريتين. هذه الرغبة الثنائية التي نالت صفتها الرسمية بقيام سفراء بوظيفة رسل بين العاهلين كانت انعكاساً للمخاوف المشتركة من للجانيين من قبائل الهون الشرسة، وهم خيالة من آسيا الوسطى كانوا يشكلون تهديداً مستمراً لشمال بلاد فارس.

ولما صدوا بتركستان وبسلسلة جبال القوقاز، قرر الهون التحرك نحو الغرب فكانوا أشبه ما يكون بسيل قبلي اكتسح المقاطعات الرومانية القديمة في البلقان، وألمانيا الغربية، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وإسبانيا. أما الامبراطورية الرومانية التي كانت تدار الآن من القسطنطينية فقد تقلصت لتشمل المناطق المحيطة بالعاصمة ومنحدر الأناضول مع شريط من الأرض يحاذي سواحل البحر الأبيض المتوسط، التي تضم المدن شبه المهجورة: أثينا وأنطاكية والأسكندرية وقرطاجة وجنوا ونابلس وروما.

وفي خضم هذه الكوارث باتت المسيحية - التي انتقدتها كييون واصفاً إياها بألم المصائب ووجد فيها معاصروه خير ملاذ - العقيدة السائدة للامبراطورية. وكان الامبراطور من قصره المجاور لكاتدرائية سانتا صوفيا المشيدة حديثاً يقوم على رأس هيكل هرمي من البطارقة والمطارنة والأساقفة ورجال الدين الأقل شأنًا، أما في الغرب فكان أسقف روما (الذي بات يسمى البابا) يضطع بمهام التبشير في الأقاليم الخاضعة للامبراطورية إلى أن تمكن بمرور الزمن تمكن من اقناع حكامها باعتناق المسيحية.

كان هناك عدد كبير من المسيحيين في ميسوبوتاميا، وبعد سنوات من الاضطهاد من جانب ملوك فارس استطاعوا إقامة كنيستهم الخاصة بهم والمستقلة عن الامبراطورية ويقدم عليها بطريركهم الذي يقيم في سلوقية، وأصبح فيما بعد شخصية هامة في الديوان الملكي الفارسي، ولكن رغم تسامح الكنيسة الجديدة - التي عرفت بالنسطورية لأن بعض مبادئها مأخوذ عن تعاليم نسطورس البطريك القسطنطيني من القرن الخامس - فإن الزرادشتية كان الدين الرسمي لبلاد فارس - وكانت عقوبة التحول منها إلى المسيحية الموت، وكان محظوراً بناء أبراج النواقيس فكان المصلون يدعون إلى الكنيسة باستخدام جرس خشبي.

كانت الأمور الدينية للكنائس المسيحية على جانبي الحدود بين الامبراطوريتين تدار من قبل مجاميع من الرهبان والراهبات الذين يتولون تدريب المبتدئين على الرهينة ويستنسخون مراراً مخطوطات الكتب المقدسة للأجيال المقبلة. وانتشرت الأديرة وأماكن العبادة دير الزعفران

خارج ماردين عبر الأراضي المرتفعة إلى الشرق والتي يطلق عليها طور عابدين - جبال عباد الله - إلى مار^(*) بهنام، ومار يونان (الضريح النبي المعروف) ومار متى على الضفة اليسرى لنهر دجلة. وكان يتم تمويل الأديرة من عائدات الأراضي الزراعية أو هبات الحجيج، أما الأديرة الأقل حظاً من هذه الإيرادات فكانت ترسل رهبانها الذين يحملون آثارهم المقدسة ومن بينها كرات طينية معجونة من آثار القديسين الراحلين يطوفون بها على القرى ويجمعون التبرعات.

وفي الأصقاع النائية كان النساك يقضون حياتهم في خلوات تأمل وصلاة، فالقديس سيمون أمضى حياته متنسكاً فوق قمة عمود في التلال الواقعة شمال غرب حلب (التي عرفت فيما بعد بجبل سيمان تخليداً لذكره) وتنسك إث آلاها في كهف بوادي لالش شمال نينوى^(١) وكذلك فعل آخرون.

ومن داخل الكنيسة دعا يعقوب البرادعي - ذو الملابس الرثة - إلى تبسيط الدين ونظم كنيسة سرية لها خلايا وفروع في معظم أرجاء الأناضول وميسوبوتاميا وسوريا ومصر، وتعرض أتباعه لمضايقة الامبراطور والنساطرة على حد سواء، وعرفوا بالمونوفوزيين (القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح)، أو اليعاقبة ومنهم جبرائيل السنجاري الذي نفاه النساطرة لأخذه بتعدد الزوجات، وأصبح بعد ذلك الطبيب الخاص (درسيد) لزوجة الشاه المفضلة.

* * *

(*) (مار) كلمة سريانية تعني الله.

(١) توماس، أسقف مرگه: (كتاب الحكام) طبع وترجمة بدج، المجلد الثاني، ص ٥٧٥، راجع أيضاً: بيير جي. إم. فيي (Assyric Chretienne) المجلد الثاني، ص ٨١٣-٨١٤.

في العام ٥٩٠ بدأت سلسلة الأحداث التي انتهت وإلى الأبد الصراع الطويل بين الإغريق والفرس، وأقامت العالم القائم الآن إلى الشرق من حلب، فقد تمرد قائد فارسي يستعد للحرب على الحدود الشمالية الشرقية التي كان الأتراك يهددونها، على الشاه وتزامن ذلك مع قيام عدد من النبلاء في العاصمة بخلع الشاه، وسمل عينيه، وتتويج ابنه خسرو. لكن الجيش المتمرد رفض ذلك وزحف على قطيسفون، وهزم حرس القصر مما اضطر خسرو إلى الهرب متنكراً بعد أن أمر بقتل أبيه رحمة به وتخليصاً له من المعاناة، وتوجه شمالاً عبر وادي الفرات صوب الحدود البيزنطية عند بصيرا، وهنا في الهزيع الأخير من الليل طلب (ملك الملوك) السابق الأمان من عدوه، فحصل على الملاذ من الامبراطور المضيف موريس الذي زوجه بإمرأة إغريقية وزوده بجيش استطاع أن يهزم به مغتصب عرشه ليعود العرش إلى خسرو.

وبعد اثني عشر عاماً انعكست الآية، فقد قتل موريس على أيدي جنود متمردين أعلنوا زعيمهم أمبراطوراً، فبادر خسرو يرافقه ابن مزعوم لموريس إلى احتلال الامبراطورية فاستولى على ماردين وأورفا وحلب وأنطاكية، وتمكن من النفوذ في عمق الأناضول (في هذه الفترة تم بناء قلعة جديدة، سميت لاحقاً بالموصل على الضفة اليمنى لنهر دجلة بمواجهة نينوى لتكون نقطة انطلاق للطريق الطويل إلى حلب والغرب).

خلال سنوات انحطاط البيزنطيين انتعش حكم خسرو شاه أوجه، ولما كان الشاه قد أقسم أن لا تطأ قدمه أرض قطيسفون ثانية، فقد بنى قصراً جديداً في دشتكرد عند قدماء سلسلة زاكروس، وأحاط نفسه بالفيلة والنعام والطواويس، ووافق أن يدفع له وكيل الضرائب يزدین

النسطوري الذي ينحدر من عائلة نبيلة من كركوك (وكان محبباً إلى قلب خسرو ومكانته عنده توازي مكانة يوسف في عين فرعون وربما وتفوقها) ألف قطعة ذهبية يومياً^(١) وكان لخسرو زوجتان مسيحيتان: ماري الإغريقية، وشيرين ذات الجمال الأسطوري وهي من خوزستان، وقد قام طبيها جبرائيل السنجاري بجعل ذراعها تنزف فحرمها بذلك من إنجاب ولد.^(٢)

في هذه الأثناء تمت إطاحة قاتل موريس من قبل القائد البيزنطي هرقل الذي عرض على بلاد فارس الدخول في مفاوضات، إلا أن خسرو الذي بات يكنى بلقب برويز (المنتصر) كان يرى أنه منتصر لا محالة أرسل أحد جيوشه فعبّر الأناضول، ليعسكر على طول ساحل البوسفور، وخطط لشن هجوم مشترك على القسطنطينية بمساعدة حلفائه الشماليين البرابرة، وتوجه جيش آخر بقيادة القائد الفارسي شهربراز جنوباً، واحتل دمشق والقدس، حيث اعترف البطريك تحت التعذيب بمكان إخفاء الصليب الحقيقي، الذي كان مدفوناً في حقل لزراعة الخضروات، فتم شحن المعلم الأثري مع منهوبات أخرى إلى جابي الضرائب.

(١) Anon Chronicon Guidi نشر وترجمة نولدكه، Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der wissenschaften in wien phi. Hist. Classe العدد ١٢٨، ١٨٩٣، الملحق التاسع، ص ٢٢، راجع أيضاً في " Les laics dans l'histoire de l'eglise syrenne orientale " العدد ١٤، ١٩٦٤، ص ١٧٨-١٨٢، وكذلك Assyrie Chretienne العدد ٣، ص ٢٣-٢٨ للمزيد من التفاصيل عن حياة يزدین وثبت مراجع.

(٢) Anon Guidi نولدكه، ص ١٣.

أما يزيد بن الذي كان معروفاً بين صفوف النسطوريين بلقب (أمير المؤمنين) فقد نظم حفلاً - كان بالتأكيد فريداً من نوعه بين الاحتفالات الترفيحية، سلم خلاله الصليب الحقيقي رسمياً إلى خسرو الذي تفضل بدوره على مضيفه بالإذن له بالاحتفاظ بقطعة منه لنفسه.^(١) وواصل الجنود الفرس زحفهم بهدف إخضاع مصر، إلا أنه تراءت لهم علامات تنذر بالسوء، فقد ترك القائد الفارسي في فلسطين موكندات الجيش والتحق بدير مسيحي حيث تسمى بأنستاسيوس وأمضى سنوات حتى اعتقل^(٢) وإلى الجنوب في مكة بالذات تنبأ مراقب داهية بالنصر النهائي للإغريق، وراهن صديقاً له على مائة جمل على إن لم يتحقق ما تنبأ به خلال تسع سنوات.^(٣)

لكن هرقل الذي شبهه كيون بـسيبيو العظيم، ويضاهي تشرشل في عصرنا، فلم يقف مكتوف اليدين بل بادر إلى الاعداد للحرب، وصرف لها من خزائن الكنيسة، وغادر العاصمة الحمية بأسوارها وعبر البوسفور إلى شمال الأناضول وأعاد تنظيم جيشه، وشق طريقه مقاتلاً عبر سهول موغان المعشوشبة في أذربيجان، وهناك بدأ لتحرش بالفرس حول بحيرتي أورمية ووان.

(١) الطبري، نشر وترجمة نولدكه ص ٢١٩، راجع أيضاً Anon Guidi نولدكه، ص ٢٤-٢٥.

(٢) Acta Martgris Anastasii Persae نشر أوسينر. أنظر كذلك إس. بارينك كولد: حياة القديسين، المجلد الأول، ص ٣٣٤-٣٤١، ضريح سانت أنطونيوس الفارسي موجود في دير (Tre Fontane) في مقاطعة جنوب روما.

(٣) القرآن، الجزء الثلاثون، الطبري - نولدكه، ص ٢٩٧-٣٠٠.

وفي أيلول ٦٢٧ وجه هرقل ضربته وبدأ بمراوغة الفرس المحتشدين شرق بحيرة أورمية، وتوجه نحو جنوب الغرب عبر الممرات الجبلية مجتازاً نهر الزاب الكبير إلى الجنوب حيث الأراضي المفتوحة شرق نهر دجلة. كان طقساً غريباً فبعد كسوف الشمس وخسوف القمر في وقت سابق من ذلك العام بقيت الشمس محتجبة خلف الغيوم من شهر تشرين الأول فصاعداً. وفي ١٢ كانون الأول تمكن هرقل من إلحاق الهزيمة بالفرس في معركة نينوى، وتقدم دون مقاومة جنوباً سالكاً وادي دجلة ليحتفل بعيد ميلاد المسيح في عزبة يزدين المهجورة خارج كركوك (وآنذاك كان أمير المؤمنين يزدين قد مات، وكانت عائلته تاعني من الفاقة).

بعد أيام قليلة قرر الشاه الذي أضعفه المرض - وكان قد مضى زمن ليس بالقصير على وفاة الطبيب السنجاري - وكان يعاني من الأرق نتيجة الأصوات التي تطلقها أجراس المسيحيين، التخلي عن دشتكرد منسحباً إلى قطسيفون التي يكرهها، بعد مراقبة هرقل وليلة الثانية عشرة على التوالي، أعمدة الدخان تتصاعد من خرائب القصر المحترق، إندفع نحو الجنوب مطلقاً سراح الكثير من أسرى حروب السنوات السابقة ولكن تأخر عن إنقاذ أنستاسيوس (الذي أستهشهد في ٢٢ كانون الثاني ٦٢٨).

وفي شباط قرر هرقل انسحاب قواته نحو الشمال مرة أخرى عبر الجبال تماماً في الوقت المناسب، لينجو من أكبر عاصفة ثلجية عنيفة، حيث كانت الممرات مسدودة بالثلوج، ولكن دوريات الخفر جاءت بأنباء تنذر بوقوع أحداث رهيبية في ميسوبوتاميا. وفي شهر نيسان أشرقت الشمس مرة أخرى، وأكد المبعوث الفارسي أن المتآمرين بقيادة

ثمتا بن يزدين قد قبضوا على الشاه، الذي كان الآن أضعف من أن ينجو بنفسه، وقد قتل الجميع أمام عينيه باستثناء أحد أبنائه. وتوج ابن ماريا والذي يطلب حالياً الصلح والسلام مع الامبراطورية، وحالاً تم الاتفاق على شروط الهدنة.

وبينما كان الامبراطور يتحرك ببطء صوب وطنه، توقف قصيراً لإلقاء نظرة على المكان الذي حطت عليه سفينة نوح على جبل جودي، وبدأت أيام الحساب تأتي ثقيلة وسريعة في قطيسفون، وحينئذ كان خسرو برويز قد قتل مسبقاً بالفأس في سجنه من قبل أحد المتآمرين بينما، كان ثمتا يراقبه متعففاً عن استخدام سيفه، ونهاية شريرين بقيت مجهولة، وسرعان ما انقلب الشاه الجديد على ثمتا نفسه، وقام بقطع الطريق عليه في فراره نحو الغرب، ووضع في السجن بعد أن قطع يده اليمنى. وفي الربيع أدى ذوبان الثلوج إلى فيضان دجلة مما تسبب في انهيار السدود والموانع وحفر التيار المندفِع الجارف لنفسه لم يكن بالإمكان ردمها لقرون، مما أدى إلى فيضان المستنقع الكبير بين دجلة والفرات، وانتشار وباء الطاعون ليقتل الآلاف من ضمنهم الشاه الذي خلفه ابنه على العرش.

ووفقاً لشروط الاتفاق أخلت الجيوش الفارسية المقاطعات المحتلة، وفي شهر آذار ٦٣٠ دخل هرقل كنيسة القيامة بالقدس (وكانت احترقت خلال الاحتلال، ولكن أعيد بناؤها على نفقة يزدين) لإعادة تكريس الصليب الحقيقي في احتفال خاص، ونقل مراقب إلى محمد أن نبوءته قد تحققت بالكامل.

بعد شهر عاد الجيش الفارسي المربط على البوسفور إلى قطيسفون تحت قيادة شهربراز الذي قام بخلع وقتل الشاه الصبي، وحكم لمدة أربعين يوماً قبل أن يلقي هو الآخر حتفه، وكان يقاسي آلام مرض الزحار طيلة حكمه القصير، وقد وجد شهربراز في نفسه القوة الكافية لتصفية حساب قديم. أما شمتا الذي كان قد ألحق مرة الإهانة بابنة الشاه الجديد، فقد أخرج من السجن وصلب على بوابة الكنيسة المسيحية الرئيسة في سلوقية.^(١)

إن ذكرى يزدین وابنه تومض وتخبو عبر القرون التي تفصلنا عن تلك الفترة الموعلة في القدم، ولكن رواية مآثرهم وأعمالهم الشريرة قد سجلت للأجيال المقبلة في الوثائق التاريخية المتسلسلة العائدة للكنيسة النسطورية.

* * *

في ٦٣٢ توفي محمد، وخلال القرنين التاليين تمكن العرب من اخضاع الشرق الأوسط بكامله، من أفغانستان إلى الموصل وحلب والنيل. والشاه الاخير يزدجرد الثالث حفيد خسرو وشيرين مات شريداً في تركستان، فيما تمكن البيزنطيون من الاحتفاظ بالأناضول لكنهم نقلوا البلاط إلى صقيلة، واستعدت القسطنطينية للمحاصرة.

(١) Anon Guidi نولدكه، ص ٢٩-٣٢. الطبري - نولدكه، ص ٣٨٧-٣٩٠، تاريخ النساطرة، طبع وترجمة شير وكريفيو، Patrologia Orientalis العدد ١٣، ١٩١٩، ص ٥٤٠ و ٥٥١-٥٥٢ و ٥٥٦.

القانون الأساسي للامبراطورية العربية الجديدة كان الإسلام، الدين الجديد القائم على تعاليم محمد كما هو موحى به في القرآن وأقواله المحفوظة بحرص شديد، وكان قد أمر باحترام العهد القديم وأنبيائه ورساله، وأعترف بفضائل المسيح دون ألوهيته.

وبموجبه تسامح خلفاؤه مع أهل الكتاب: اليهود، والمسيحيين، والصابئة (دين يعتقد الآن أنه منقرض) وأجازوا لهم ممارسة عقائدهم على أن يدفعوا ضريبة خاصة تجبى من زعماء الدين لكل طائفة كبديل للخدمة العسكرية، وبالمقابل اختفت الزرادشتية وأصبحت بلاد فارس معقل الإسلام.

وازدهرت الكنيسة اليعقوبية المحصورة من قبل الامبراطورية من جديد، بينما قام النسطوريون الذين أحسوا بأن قوانين الميدين والفرس في طريقها إلى الزوال بالتعاون مع الفاتح العربي، لذا تمكنوا من تعزيز ممتلكاتهم وامتيازاتهم. وقام هرمز - راهب نسطوري من خوزستان - بإنشاء دير جديد في الجبال المطلة على ألقوش، مكان ولادة النبي ناحوم على بعد ٣٠ ميلاً شمالي الموصل^(١). وانتشر المبشرون النسطوريون الآخرون شرقاً لإيجاد الكنائس في آسيا الوسطى: الصين، وفي جنوب الهند بمحاذاة سواحل مالابار وكوروماندل.

وفي أثناء تنازع الغزاة في خلافات دموية، استحوذ الخليفان الأولان لحمد أبو بكر الفائز برهان المائة جمل، والمقتصد عمر على السلطة المستحقة لأصحاب الرسول، ولكن الخليفة الثالث عثمان رغم كونه

(١) في Assyrie Chretienne (المجلد الثاني) ص ٥٣٤-٥٣٩.

أحد المهتدين الأوائل إلى الإسلام أطيح به وقتل من قبل متمردين اختاروا علياً الذي هو ابن عم وصهر محمد لإدارة دفعة الحكم.

ونشبت حرب أهلية بين علي الذي حول عاصمته من المدينة إلى الكوفة على الفرات، وبني أمية الذين ينتمي إليهم عثمان بقيادة اثنين من أبناء العمومة: معاوية بن أبي سفيان، حاكم سوريا، ومروان بن الحكم الذي كان الخازن لدى عثمان. وبعد سنوات قليلة من الاضطراب قتل علي، وأعترف ابنه حسن بمعاوية خليفة، وكان معاوية رجل دولة هادئ، حكم دون أي تحدٍ عشرين عاماً، ومن قصره بدمشق أصدر الأوامر بغزو ليبيا، وتونس، وتركستان، ولكنه أخفق في الحصول على الجائزة الكبرى ألا وهي القسطنطينية.

وقد واثته الفرصة الذهبية في ٦٦٨ حين كان الامبراطور الإغريقي كونيستانس في صقلية بعد أن ترك المسؤولية لابنه في العاصمة. وثار قائد الجيش البيزنطي في الأناضول شابور - الفارسي الأصل - وحصل على وعد من معاوية بقوة دعم عربية طارئة لدعم مطلبه في العرش، كانت القوة العربية قد وصلت إلى ملاطية عندما بلغها خبر موت شابور، بعد أن سقط من على ظهر جواد وبذلك انتهى التمرد.

في نفس هذا الوقت تقريباً - وأسباب تعاقب سلسلة هذه الأحداث غير واضحة لنا، وربما كانت غير واضحة آنذاك أيضاً - قام الامبراطور البغيض كونستانس بزيارة حمام (دفنة) في سيراكيوس، وبينما كانت عيونه مغطاة بالصابون اغتنمت تشكيلة فرنسية الفرصة واختلطت بمراقبيه، وتمكن أحد أفرادها من قتل الامبراطور عن طريق إنزال ضربة على رأسه مستخدماً الإناء المعدني الحاوي على الصابون، ونادى

المتآمرون بقائد الجيش المحلي إمبراطوراً، لكن العاصمة ظلت موالية لابن
الامبراطور كونستانس.^(١)

واستطاع العرب بطريقة ما ان يشقوا طريقهم إلى كالسيدون التي
هي حالياً كاديكوني على الساحل الآسيوي من البوسفور، وأمضت
القوة الشتاء هناك حيث أهلك الجوع والمرض القسم الأعظم من هذا
الجيش الذي كان ينظر إلى المدينة المتألثة كالسراب عبر المياه السريعة
الباردة للمضيق.

فكر الخليفة في إرسال جيش عبر الأناضول غير المحمية لتعزيز هذه
القاعدة الأمامية لكن ابنه يزيد البالغ من العمر ٢٦ سنة، والذي تزوج
لتوه من جديد، عبر عن لامبالاته في قصيدة ذات رنة عصرية بشكل
عجيب :

(مستلقياً بليل فوق بساط في دير موران، أفرغ قدح الصباح وام
كلثوم بجانبني، لم حقاً أهتم لأمر الجدري والحمى وهي تفتك بجنودنا في
كالسيدون ؟).^(٢)

إلا أن آخرين تذكروا أخيراً وعد محمد بالفردوس للمسلم الاول
الذي يهاجم القسطنطينية، فتطوع ابن الخليفة عمر ليحارب، وكذلك
فعل عبد الله بن الزبير، حفيد الخليفة أبو بكر، وابن اخت محمد، حتى
أبو أيوب المسن أحد آخر اصحاب الرسول الباقيين على قيد الحياة أصر
على مرافقة الحملة.

(١) ثيوفانس: كرونوكرافيا، طبع وترجمة دي بور، ص ٥٣٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، اقتبسه بيير هنري لامنس، مجلة جامعة سانت جوزيف
- بيروت، العدد ٣، القسم الأول، ١٩٠٨، ص ٣٠٨-٣٠٩.

وفي ربيع ٦٦٩ وصل جيش الخليفة بإمرة يزيد إلى كالسيدون، ويروي المؤرخون العرب - دون أن يؤكد ذلك من جانب مدوني وقائع الأحداث اليونانيين - أن الجيش عبر المضيق دون مقاومة، وزحف على القسطنطينية من جهة الغرب. كان الإغريق متحصنين خلف جدران المدينة، لكنهم كانوا عاجزين أن يشتتوا شمل العساكر المحتلة المحاصرة لمدينتهم، وبعد أسابيع على ذلك الوضع الحرج، انسحب العرب تاركين خلفهم جثة أبي أيوب الذي كان قد توفي أثناء المسير، وطلب من يزيد بأن يدفن في أبعد نقطة تقدم فيه العرب. وعاد يزيد وجيشه في حالة من المجد إلى دمشق حاملاً الغنائم المسلوبة من مدن الأناضول، وقصص انتصارات حقيقية ووهمية لازال الفلكلور الشرقي يزخر بها.

توفي معاوية في ٦٨٠ وكان قد استخلف يزيداص الذي وصف بأنه كان مفرطاً في دماثة الخلق وعذب المعاشرة، ومجرداً من الغرور، وكان كل الذين كانوا تحت إمرته شغوفين به، وكان يبغض الأبهة وخيلاء الملوك، وعاش كمواطن عادي^(١) مقسماً وقته بين دمشق وحوارن، على بعد ٨٠ ميلاً على حافة الصحراء، وكان مولعاً بالموسيقى والشراب، وصحبة الشعراء الفنانين المسلمين و المسيحيين على حد سواء (وأم يزيد ميسون هي الأخرى كانت شاعرة عربية مسيحية، وكذلك كانت إحدى زوجاته)، وكان بارعاً في فنون الفروسية، وحاذقاً في التعامل مع كلاب

(١) اقتبسه يوليوس فيلهالوسن: مملكى العرب وسقوطها. المصادر الرئيسة عن حكم الخليفة يزيد هي فيلهالوسن، مملكة العرب، ص ١٤٠-١٦٩، ولانمس، مجلة جامعة سانت جوزيف - بيروت، المجلد (٤)، ١٩١٠، ص ٢٣٣-٣١٢، والمجلد (٥)، ١٩١١-١٩١٢، ص ٧٩-٢٦٧ و ٥٨٩-٧٢٤، والمجلد (٦) ١٩١٣، ص ٤٠٣-٤٩٢، والمجلد (٧) ١٩١٤ - ١٩٢١، ص ٢١١-٢٤٤، أنظر أيضاً مؤلف كبرنوت روتر عن الأمويين، ص ٣٦-٥٩.

الصيد والصقور والفهود، كما كان محباً لمتعة صيد الغزلان، وغالباً ما كان يرافقه قرده الأليف المدلل، ولكن وعلى الرغم من كل هذه الصفات كان يفتقر إلى القدرة على إدارة دفة الحكم، في الحقيقة إن كيون وصفه بالحاكم الضعيف والشاب المنغمس في الملذات.^(١)

كان يعيش في المدينة اثنين من أقارب محمد: الحسين، الابن الأصغر سناً للخليفة علي من فاطمة بنت النبي، وعبد الله بن الزبير، وكلاهما لم يقدموا الولاء ليزيد بخلافة معاوية إبان وصول أخبار تسنمه العرش، ورفضوا الاعتراف به كخليفة، وهربا ليلاً إلى مكة.

وفي العراق (الاسم العربي لميسوبوتاميا) حث مؤيدو عائلة علي (الذين كانوا وصاروا يعرفون وإلى الأبد بالشيعة) حسيناً على الانضمام إليهم في الكوفة، وفي شهر آب ٦٨٠ غادر حسين وبرفقته عائلته مدينة مكة في قافلة لتعبر ٨٠٠ ميلاً من الصحراء، غير ملمين بأن حاكم العراق قد سبق وأن أخذ التمرد، وهم إنما كانوا في طريقهم إلى المصيدة، وجاءت نهايتهم في ١٠ تشرين الأول ٦٨٠ في الصحراء بالقرب من كربلاء، والتقريب الرسمي إلى يزيد يفيد بأن :

الحسين بن علي جاء إلى هنا مع ١٧ فرداً من عائلته و ٦٠ من المؤيدين له، لقد منحناهم حق الاختيار بين الحرب أو الاستسلام دون أية شروط إلى الحاكم عبيد الله، فأختاروا الحرب فهاجمناهم عند بزوغ الفجر وحاصرناهم، وعندما شعروا بضغطنا عليهم حاولوا الهروب واللجوء إلى التلال والمغارات ولم يستغرق ذلك أكثر من الوقت الذي

(١) كيرون: انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية، الفصل ٥٠.

يأخذه عملية ذبح جمل أو القيلولة وكانت لنا اليد العليا وها
إنني أرسل لكم رؤوسهم.^(١)

ذهبت رحلة الحسين هباءً، تم إرسال النساء والأطفال الباقين على قيد الحياة إلى دمشق، حيث عبر يزيد عن ندمه وسمح لهم بالعودة إلى المدينة، لكن ذكرى مقتل الحسين جعلت قلوب الشيعة تقسو وشقت صف الإسلام إلى الأبد.

بعد سنتين ثارت المدينة، كما سبق وأن سيطر ابن زبير على مكة، فأرسل الخليفة حملة داهمت المدينة، وحاصرت مكة ممطرين المسجد الحرام بوابل من الحجارة، والكعبة الحرم القديم للعرب، ويعتقد أن النبي إبراهيم بناها، وحالياً المعبد الأكثر قدسية في الإسلام شبت فيها النيران التي أتت على الحجر الأسود الشهير الموضوع في جدارها.

وفي زحمة هذه الأحداث المأساوية وفجأة مات يزيد بحوران في ١١ تشرين الثاني ٦٨٣، والظروف الخيطة بوفاة غير معروفة - باستثناء ندمه على واقعة كربلاء - كما أنه لا يوجد أي دليل عن كيف كان هو نفسه ينظر إلى أسباب مصائبه والآثار المترتبة على إدارته للأمور بصورة جائرة، والمؤرخون المسلمون يلقون اللوم على يزيد في حدوث النكبات والفواجع التي تخللت عهده، كما اعتبروه منذ زمن طويل نيرون أو (Pilate sontiuP) الإسلام.

بعد أشهر قليلة من موت يزيد، توفي ابنه الأكبر معاوية الثاني، والذي كان قد خلفه في الحكم، وذلك بوباء الطاعون، فخلفه مروان بن الحكم زعيم فرع آخر أدنى شأنًا في العائلة الأموية والذي تزوج من أرملة

(١) الطبري: تاريخ الطبري، نقله لامش في مجلة جامعة سانت جوزيف - بيروت، المجلد الخامس، ١٩١١-١٩١٢، ص ١٦٧.

يزيد، وأعلن ابن أصغر ليزيد هو خالد بن يزيد وارثاً شرعياً للخلافة، لكنه سرعان ما أهمل ونحي جانباً ليتقاعد ويتفرغ لقضاء حياته في البحوث العلمية، وابن آخر هو عبد الله ولد أم كلثوم كان رامي سهام معروفاً.

* * *

مضت حوالي ١٠٠٠ ألف سنة على دخول سلوقس لمدينة بابل وفي مدة أقصاها ثلاثة أجيال اختفى العالم القديم وإلى الابد.

كانت القسطنطينية لا تزال تتحدى المهاجرين عليها، لكن جيوش الخلفاء الذين خلفوا مروان في الحكم كانت تحمل شعلة الاسلام في البلدان الأخرى باتجاه الغرب إلى توليدو وإلى سمرقند شرقاً.

داخلياً كانت الخلافة الأموية ملطخة بالفساد والخلافات العائلية، مروان الثاني، حفيد مروان بن الحكم كان حاكماً شجاعاً وباسلاً عرف بـ (الأحق أو العنيد)، وقد حاول استعادة النظام لكنه وجد نفسه منشغلاً دائماً بمحاربة أقاربه، إضافة إلى الشيعة، وزمرة جديدة هم جماعة العباسيين المنحدرين من عم محمد، وفي العام ٧٥٠ استطاع جيش عباسي آتٍ من تركستان من إلحاق الهزيمة بمروان على الضفة اليسرى من نهر الزاب الكبير، وهرب آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر حيث لحق به هناك وقتل، وأرسل رأسه إلى المعسكر العباسي حيث لاحظ المنتصرون في شعره الأحمر والزرقة الجلية في عينيه ملامحاً تشير إلى أمه الكردية.

وانشغل العباسيون في إبادة منظمة للعائلة الاموية، حتى قبور الخليفة يزيد والعديد من خلفائه دنست، وقلة من الذين تمكنوا من البقاء على

قيد الحياة هربوا إلى المناطق النائية من العالم الإسلامي، أحدهم شق طريقه إلى إسبانيا، وسيطر على مقاليد الحكم فيها وأسس سلالة حاكمة استمر حكمها ثلاثمائة سنة.

ثم اعتقاد قديم بأن البعض من أفراد عائلة آخر خليفة أموي احتوى بجبال كردستان^(١) لكن أغلب الأمويين طوردوا وقتلوا، بضمنهم حفيد يزيد أبو محمد ابن رامي السهام الماهر الذي قتل في البلاد العربية.^(٢)

وعلى الرغم من أن العباسيين بدأوا عهدهم بالعنف، إلا أن خلفاءهم حكموا فترة تسودها الوحدة والتضامن وتدرجت نحو سبات عميق، بنى العباسيون لهم عاصمة جديدة في بغداد على بعد أميال قليلة إلى الشمال من قطيسفون، وتوقفت الفتوحات وانتشرت التجارة بحرية، كما شهد الفن والعلوم ازدهاراً كبيراً، وفي بداية القرن التاسع حدد فريق من الفلكيين العرب المسافة بين دائرتين من خطوط الطول معتمدين على ملاحظاتهم في صحراء سنجار.

وبمرور الزمن فقد الخلفاء سيطرتهم الفعلية على عدد كبير من البلدان والأقاليم التي كانوا يحكمونها، وفي القرن العاشر أسست جماعة شيعية تدعي انحدارها من فاطمة ابنة محمد، خلافة منافسة في شمال أفريقيا ومصر، والبلاد العربية كانت محكومة لفترة من قبل طائفة شيعية متطرفة شجبت زيارة الحج، وفعلاً أزال الحجر الأسود من مكة لمدة عشرين

(١) شهاب الدين بن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، نشر وترجمة كاتريمير.

(٢) تاريخ الطبري، وذكره فيلهلهاوسن في (مملكة العرب) ص ٥٥٥-٥٥٦، ولامنس، نشرة معهد الآثار الشرقية الفرنسي بالقاهرة، العدد (٢١) ١٩٢٢، ص ١٣٣-١٤١.

عاماً، وفي العراق داهمت عائلة شيعية حاكمة من فارس بغداد وأغتصبت صلاحية الخلفاء لـ ١٠٠ عام.

نجى الاسلام من هذا الوضع المعقد والمرتبك مثلما بقيت المسيحية بعد الامبراطورية الرومانية، عاماً بعد عام، وقرناً بعد قرن كرر المؤمنون خمس مرات في اليوم طقوس الصلوات التي فرضها الإسلام، حتى في المناطق التي انفصلت عن الخلافة، وكان الحكام يتنافسون فيما بينهم في بناء المساجد ودعم وتشجيع حلقات دراسة تعاليم الدين الاسلامي، وفي القرن الحادي عشر اكتسحت حركة انبعاث جديدة العالم الاسلامي المنقسم سياسياً على نفسه لكنه مازال متماسكاً في الأساس.

الفصل الثاني

الشيخ آدي وعقيدته^(١)

- (١) ألف المستشرقون وتناولوا بالبحث كتابات المسلمين التي أشارت إلى الشيخ آدي وخلفائه سواء المعاصرة له أو المتأخرة عنه، وذلك خلال السنوات المائة الأخيرة، مثل :
- أ - ن. سبيوفي (باريس) العدد (٨) المجلد (٥) ١٨٨٥، ص ٧٨-٨٧.
- ب - مصطفى نوري باشا: عبدة إبليس.
- ج - د. رودولف فرانك: Scheich Adi der grosse Heilige der Jezidis .
- د - أبي ف. ناو وجي. تينكجي: Recueil de textes et de document sur les Yezidis مجلة ROC باريس، العدد (٢) المجلد (١٠) ١٩١٥-١٩١٧، ص ١٤٩-١٥٤.
- هـ - أحمد تيمور: اليزيدية ومنشأ نخلتهم.
- و - عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية، ص ٢٨-٤٨، قام بتحليله ميشيل أنجيلو كودي وكذلك جوسبي فورلاني.
- ز - روجر ليسكو: Enquete sur les Yezidis de syie et du Djebel sindjar ص ١٩-٤٤ و ١٠١-١٠٨.
- ح - صديق الدمولوجي: اليزيدية، ص ٧٣-١١٤ و ٤٤٥-٤٤٨ و ٤٥٣-٤٥٤.
- ط - عبد الرزاق الحسني: اليزيديون في حاضرم وماضيهم، ص ١٤-٢٠.
- ي - توماس بوا: اليزيدية، المشرق، العدد (٥٥) ١٩٦١، ص ٢٠٩-٢١٦.
- ك - سعيد اليوجي: اليزيدية، ص ٤٩-١٠٨.
- ل - سامي سيد أمد: اليزيدية حياتهم ومعتقداتهم، نشره هنري فيلد، ص ٩٠-١٤٣.
- م - هـ. عزيز كونس: الأيزيدية في التاريخ، أصول الأيزيدية وتاريخهم الديني والسياسي والاجتماعي (باللغة التركية - غير مطبوع).

آدي بن مسافر الذي يتم تقديسه باعتباره نبياً للديانة الأيزدية، ولد في حوالي ١٠٧٥^(١) في القرية اللبنانية بيت فار (وتعرف حالياً بخربة قنافر) الواقعة على المنحدر الغربي الجاف لوادي البقاع على بعد ٣٧ ميلاً إلى الجنوب من بعلبك.^(٢)

وقد كان والده مسافر بن إسماعيل مسلماً ورعاً وتقياً، يتصل نسبه بالخليفة الأموي مروان بن الحكم^(٣)، أما أمه فهي يزدا^(٤) وتقع أضرحة والدي آدي وأخته تحت شجرة بلوط مطلة على وادي البقاع^(٥).

قبل ميلاد آدي بمائة مائة عام قبل ميلاد آدي، كان وادي البقاع يخضع لحكم الخلفاء الفاطميين الشيعة المتمركزين في مصر، ولكن التغييرات كانت آتية.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ترجمة البارون ماككوين دي سلين، المجلد الثاني، ص ١٩٨، يقول: إن عدي بن مسافر توفي سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) أو ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وعاش أكثر من تسعين سنة قمرية. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، نقل عنه فرانك، ص ٤٥-٤٦، إنه توفي في شهر محرم من السنة ٥٥٧ هـ (كانون الثاني ١١٦٢ م).

(٢) عبد الغني النابلسي: حالات الذهب الإبريز في رحلات بعلبك والبقاع العزيز، نقل عنه البروفيسور جي. فلوكل، مجلة ZDMG العدد (١٦) ١٨٦٢، ص ٦٥٧-٦٥٨. راجع أيضاً هربرت بوس: Abd al Geni en Nabulus Reisen im Libanon (١٦٨٩/١١١٢-١٧٠٠/الإسلام: العدد (٤٤) ١٩٦٨، ص ٧٨-٧٩، وكذلك إي. روبنسن و إي. سميث: بحوث في فلسطين وجبل سيناء والجزيرة العربية، المجلد الثالث ص ١٤١.

(٣) ماكس فان بيرخي م: Materiaux pour un Corpus Inscript ionum Arabicqrum الجزء الأول، مصر، ص ١٤٨ و ١٥١.

(٤) برلين أم أس. وى ١٧٦٩. فرانك: ص ٣٢ و ١١٨-١١٩.

(*) أنظر الصورة رقم (١).

(٥) يعبر المؤلف عن امتنانه لبيير فيي الذي سمح له بإعادة نشر صورة ضريح الشيخ مسافر.

وكان الترك - وهم قوم مؤلف من الرعاة والمحاربين - ومنذ دهور
يرعون قطعانهم في سهول آسيا الوسطى، وخاضوا حروباً ضد حكام
فارس، وفي بداية القرن الحادي عشر استطاعت هذه القبائل المحاربة
والتي اعتنقت الدين الاسلامي مؤخراً، أن تخترق الحدود الشمالية
الشرقية غير المنيعة لبلاد فارس، ثم زحفت باتجاه الغرب لاحتلال
بغداد في ١٠٥٥، وقد رحّب الخليفة العباسي الذي كان حبيس قصره
ومحاطاً بزعماء الشيعة بالترك السنة الذين استردوا له مكانته كزعيم
روحي للإسلام.

وفي بغداد أعيد النشاط والحيوية مجدداً إلى مدارس القانون والعلوم
الدينية نتيجة جهود عدد من المعلمين بقيادة أبي حامد الغزالي الذي كان
يرى بأن الحقائق الأسمى للإسلام يمكن الكشف عنها لأتباع الطريقة
الصوفية - هي طريقة باطنية لازالت تجد أنصاراً لها في العالمين الشرقي
والغربي -، وكانت طوائف المريدين تتجمع في المناطق النائية حيث يحكم
الصوفيون - الذين يعرفون بالشيوخ أو پير في الفارسية(*) - ويوجهون
أتباعهم. من هذه البدايات شكلت جماعات دينية يتميز أفرادها بعبادتهم
الصوفية المتهرئة (الخِرَق) التي تنتقل من المولى إلى المريد وفق طقوس
وشعائر دينية خاصة، وهؤلاء بدورهم يكرسون حياتهم لنشر تعاليم
مؤسسي الطريقة طبقاً لتلك المفاهيم.

وتعود سرعة انتشار الطريقة الباطنية الصوفية في الغرب إلى تقدم
الجيوش التركية التي اخترقت الأناضول في ١٠٧١ واستولت على
المدن الرئيسية ملاطية، قيصري، وقونية، فانحسرت الامبراطورية اليونانية
إلى الخلف باتجاه سواحل آسيا الصغرى، لإفساح الطريق أمام هجرة

(*) وهي تستخدم في الفارسية والكردية كذلك، وتعني بالأصل الشيخ المسن. المترجم.

القبائل التركية لغزو تلك الاقاليم والاراضي. وفي شمال سوريا تمكن الترك من الاستيلاء على حلب ودمشق، وطرّدوا المصريين من بعلبك في ١٠٧٥.

ذهب آدي بن مسافر إلى بغداد عندما كان شاباً، ودرس على يد الغزالي والمعلمين الصوفيين الآخرين، وكان بين زملائه الطلاب عبد القادر الكيلاني الكردي الذي أسس الطريقة القادرية من الصوفية (ولا زالت تلك الطريقة قائمة).^(١)

وفي حوالي نهاية القرن غادر آدي بن مسافر بغداد منسحباً إلى لالش وهو وادٍ ناءٍ يقع على بعد ٣٦ ميلاً شمال شرق الموصل، وهو أعلى ارتفاعاً من المكان الذي وجد فيه الناسك المسيحي إيثر ألالها بحوالي ٢٠٠٠ قدم، وفيه عزلة وهدوء، وهذه المنطقة الجبلية التي سكنت فيها قبيلة هكاري الكردية، قد سبق لها وأن منحت الحماية لصوفيين مشهورين هم: التقي الورع أبو الحسن علي، وهو من بني أمية، وقد توفي في ١٠٩٣، وعقيل المنبجي الذي أعطى الشيخ آدي خرقته الأولى، والمعمر في السن أبو الوفا الحلواني الذي وقع الاختيار على آدي لغسل جسده عند وفاته.^(٢)

ووادي لالش الذي يمتد طوله ميلين فقط يقع في انحناءة جبل يمكن دخوله من نهايته الشرقية عبر وادٍ صغير ضيق، والمسافرون من سهول

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، نقل عنه السوفي، المجلة الآسيوية (باريس) العدد (٨) المجلد (٥) ١٨٨٥، ص ٧٩، وفرانك ص ٥٢.

(٢) السمعاني: كتاب الأنساب، نقل عنه الغزالي، ص ١٢-١٣، وكودي، مجلة RCO روما العدد (١٣)، ١٩٣٢، ص ٣٨٢ و ٣٨٨-٣٨٩، الشطنوفي: بهجة الأسرار، نقل عنه لسكوت، ص ٢٢-٢٣، وابن تيمية: الرسالة العدوية، ضمن مجموعة الخبر، المجلد الأول، ص ٢٧٣، نقل عنه كودي في RCO (روما) العدد (١٣) ١٩٣٢، ص ٣٩٦-٣٩٧.

نينوى الجرداء يشقون طريقهم نحو الأعلى صوب قدمات التلال ليدخلوا غابات البلوط الجبلي، والزمزلاق (القطلب - وهي من فصيلة الخلدجيات ذات أزهار بيضاء أو قرنفلية)، والتوت والصفصاف، والحبة الخضراء، والزعرور البري والدفلى.

وقد لاحظ أول أوربي زار لالش على نوع من نبات الفرييون يرقة ذات بقع حمراء يتراوح طولها بين (٣-٤) إنجيات مع جسم ذي حجم مناسب^(١) على السفح الشمالي من الوادي، حيث معبد آدي الآن، وهناك تندفع مياه الينبوع صافية وعذبة من بين الصخور لتسري حذيقة من أشجار الدلب والتوت والتين، وفي الصيف يمتلئ الجو بشذى وعبير أزهار عديدة، وزقزقة الطيور، وطنين النحل، والفراشات الناعمة الرقيقة، والشتاء هناك معتدل يتخلله أحياناً سقوط الثلوج.

وباستثناء الحج إلى مكة العام ١١١٦ برفقة الكيلاني، فإن الشيخ آدي ابن مسافر قضى معظم حياته الباقية معزلاً بوادي لالش^(٢) كرئيس لطائفة دينية، وأصبح يعرف بـشيخ آدي - الاسم الذي يطلق حالياً على لالش - وتغيرت هويته الحقيقية الشامي إلى الهكاري.

وكان الشيخ آدي ينزل أحياناً من لالش ليلقي الدروس والمواظ على أهل السهل، وفي زيارة له إلى الموصل في حوالي ١١٦٠، شاهد طفل يدعى مظفر الدين الذي أصبح فيما بعد حاكماً لأربيل - وظل

(١) وليام (فرنسيس) أينسوورث: قصة زيارة إلى الكلدان، مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، العدد (١١) ١٨٤١، ص ٢٣، كذلك مؤلفه: رحلات وأبحاث في آسيا الصغرى وميسوبوتاميا وأرض الكلدان وأرمينيا، المجلد الثاني، ص ١٩٨.

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار، نقل عنه د. س. ماركوليوت في: مساهمات في سيرة عبد القادر الكيلاني، مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، ١٩٠٧، ص ٢٦٩، وفرانك، ص ٨٦-٨٧، وابن خلكان / سلين، المجلد الثاني، ص ١٩٨.

يتذكر الشيخ آدي كرجل متوسط الطول وذو بشرة سمراء مائلة إلى الاصفرار^(١)، وطبقاً للأقوال المنقولة كانت عينا آدي بن مسافر حالمتين سوداوين تشبهان عين الغزال^(٢).

وبمرور السنين أصبح الشيخ آدي معروفاً بالطاعة، والتقوى، والزهد، والقوى الخارقة، ويذكر أحد مريديه أنه كان يستطيع تلاوة القرآن بكامله مرتين في الليلة الواحدة. وقد عاش مقتاتاً على الفواكه التي يزرعها ويعتني بها بنفسه على طرف الجبل، وكان يصنع ملابسه من القطن الذي يتزود بها من حقوله. وكان نحيفاً إلى درجة أنه عندما كان ينحني لأداء الصلاة كان بمقدور المرء أن يسمع صوت ارتطام دماغه بجدران ججمته كالخصاة داخل يقطينة يابسة^(٣)، وكان سيل من الحجاج - حتى من المغرب - يأتي لرؤيته، وقد ذكر صديقه ورفيقه الحاج الكيلاني أن النبوة لو كانت تنال بالجاهدة لناها الشيخ آدي بن مسافر^(٤).

وكان الغزالي العظيم سعيداً لأن يستجيب لطلب صديقه بكتابة رسالة تشجيع وتوصية لسيد صوفي أوصاه به آدي^(٥).

(١) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٩٨.

(٢) إسماعيل بك جول: اليزيدية في الماضي والحاضر، زورباك، ص ٩٦.

(٣) محمد أمين بن خير الله العمري: مناهل الأولياء، نقل عنه سيوفي، المجلة الآسيوية (باريس)، العدد (٨)، المجلد (٥)، ١٨٨٥، ص ٨٠.

(٤) كتاب المناقب، الشيخ عدي بن مسافر (برلين Ms We ١٧٤٣) نقل عنه فرانك، ص ٥٥-٥٦، الذهبي: تاريخ الإسلام نقل عنه نوري / منزل / كروث، المجلد الأول، ص ١٨٩-١٩٠.

(٥) برلين Ms We ٨، ص ١٢٠-١٢٦، نقل عنه فرانك، ص ٤٢-٤٣.

وتتجسد التعاليم الصوفية للشيخ آدي في أربع كراسات، وبعض الترانيم المكتوبة باللغة العربية، والكراسة الأطول عنوانها (اعتقاد أهل السنة) في ١٥ صحيفة^(١)، و (كيف تربي الروح) في ثلاث صفحات^(٢)، يتبعها (تذكرة الخليفة) و (تذكرة الشيخ قايد والمريدين الآخرين)^(٣)، وجميعها تدعو إلى الالتزام الشديد بتعاليم عقيدة الإسلام السوي، وضرورة تجنب الابتداع في المذاهب، والدعوة إلى حياة التقشف والزهد والصلاة، وفي الكراس الأخير الذي وضع له عنوان يذكر آدي أتباعه ومريديه بكلمات المسيح:

«إيه أيها الحواريون، دعوا بطونكم تجوع، وأكبادكم تظمأ، وانبدوا ملبسكم، عليكم تبصرون الله في العلا، لأن الصوم هو المفتاح للازدراء بالمتع الدنيوية، وخلال الصوم تتواضع الروح والجسد، والقلب يتكامل».

وعلى العكس من اللوم والعتاب الشديدين في كتابات آدي المنشورة، نجد ترانيمه شديدة التوق والحماسة، وملئية بالحيوية، والمدح على طريقة الشعر الصوفي، والأطول (ثمانية وعشرون بيتاً شعرياً)^(٤) تستحضر في ذهنه رؤى يلهمها قدح من شراب غامض يسكبه له الله عن طريق محمد للشاعر فيعلن في مقطع شعري بقوة :

(١) برلين Ms We ١٧٤٣، ص ٢٩ ب - ٤٣ أ، تحليل فرانك، ص ١١-١٩ أنظر أيضاً مادة ٨٢٥٦ من كتاب جلبي، إعداد وترجمة فلوجل، المجلد الرابع، ص ٢٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ٤٧ ب - ٤٨ ب، تحليل فرانك، ص ٢٤-٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ٤٨ ب - ٤٩ ب، تحليل فرانك، ص ٢٦-٢٨.

(٤) المصدر نفسه ٢٧ ب، ترجمة وتحليل فرانك، ص ٢٩-٣١ و ١٠٨-١١٥.

« قَرَّبَنِي اللَّهَ فَدَنُوتَ مِنْهُ
قَدِمَ لِي شَرَاباً بَعَثَ فِي الْحَيَاةِ
وَعَدَا جَلِيسِي الْمَرْحُومَ
أَصْبَحَ رَفِيقِي الَّذِي أَحْبَبَهُ فِي خُلُوتِي ،
وَهَبَنِي الْقُوَّةَ فَوْقَ كُلِّ أَوَانِي الشَّرَابِ
وَمَا تَحْوِيهِ تِلْكَ الْأَوَانِي
عِنْدُنَا خَضَعَ الْعَاشِقُونَ لِمَشِيتِي،
وَعَدُوتُ سُلْطَانًا عَلَى جَمِيعِ عِبِيدِ اللَّهِ
وَجَاءَنِي كُلُّ مَلُوكِ الْأَرْضِ خَانِعِينَ ،
وَانْطَلَقَ فِرْسَانِي يَنْطَلِقُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ
تَقْرَعُ الطُّبُولُ عَلَى شَرَفِي فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ
وَرَسَلَ مَمْلَكَتِي يَنَادُونَ فِي الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ ».

والمخطوطة الرئيسة لكتابات شيخ آدي الصوفية نسخت بدمشق في العام ١٥٠٩، وهي محفوظة في دفتر صغير (أبعاد صحائفه ٥ X ٧ إنجات) في مكتبة الدولة ببرلين الغربية، وإحدى ترانيمه المقدسة تحتويها مخطوطة أخرى في برلين، واثنان غيرها موجودتان في المكتبة البريطانية. وفي العام ١٩٣٤ وجدت قصائد صوفية أخرى من نظم الشيخ آدي، اكتشفها الانثروبوجي الأمريكي هنري فيلد في جبل سنجار، ونسخ من هذه النصوص موجودة في مكتبة الكونغرس.^(١)

(١) فرانك، ص ١٠-١١ و ٣٤-٣٦. أنيس فريه: نصوص يزيدية جديدة من بلد سنجار (العراق) مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، العدد (٦٦) ١٩٤٦، ص ١٨-١٩ و ٣٠-٤٠.

وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر عبر المراقبون والمعلقون المسلمون عن رضاهم عن تعاليم الشيخ آدي، ولم يكونوا على دراية بعملين آخرين ينسبان إلى الشيخ آدي، وسيرد ذكرهما في الفصل التالي، وهما يشكلان الكتب الأكثر قدسية في الدين الأيزدي والأنشودة الرئيسة لأتباعه (وتغير موقف المسلمين فيما بعد إلى الارتباك والاحراج، وفي إحدى مخطوطات برلين فإن اسم آدي قد حُرّف بصورة ما ليبدو مؤلف الكتاب هو معاصر آدي أحمد بن علي الرفاعي صاحب طريقة صوفية تقليدية).^(١)

* * *

توفي آدي بن مسافر في شهر كانون الثاني عام ١١٦٢، وكان قد جاوز التسعين من عمره، ودفن في لالش، وسرعان ما أصبح ضريحه مزاراً للحجاج. وحسب أحد المصادر فإن التفويض الرسمي لإنشاء مؤسسة دينية وقعت من قبل الأتابك نور الدين رئيس السلالة الحاكمة في حلب والموصل.^(٢)

وتنفيذاً لوصيته اختار أتباعه ابن أخيه أبا البركات بن صخر - الذي كان قد جاء إلى لالش منذ سنوات من بيت فار، وكان محل تقدير لأعماله الثقافية وتقواه - خليفة له.

(١) فرانك: ص ١٠-١١.

(٢) أوليا جلبي سياحتنامه، إعداد جودت وآسم، المجلد الخامس، ص ٨.

يوصف أبو البركات بأنه كان فاضلاً سمحاً، وخجولاً، وتحت زعامته، عرفت الطريقة الصوفية التي باتت تعرف بالعدوية، وجذبت انتباه طلاب ومريدين جدد، وطرأ ازدياد مضطرد على الحجاج إلى المزار، وعاش أبو البركات حتى تقدم به العمر، ودفن بالقرب من ضريح الشيخ آدي. واشتهر ابنه وخليفته التقى الزاهد آدي بن أبي البركات بمحبته للحجاج، وعرف بأبي الأعمال الخيرية، كما كان يسمى أيضاً بآدي الكردي لأنه الأول من أسرة الشيوخ يولد في جبال هكاري.^(١)

الطائفة المتفرغة للتعبد بلالش كانت في منأى عن أحداث وتأثيرات العالم الخارجي، وفي أواخر القرن الحادي عشر استولت حملة صليبية من أوروبا الغربية على الساحل الفلسطيني، وأعادت الحكم المسيحي إلى القدس وأسست - ولمدة - إقطاعية شرق الفرات وعاصمتها أورفة، لكن المسلمين احتفظوا بالمدن الرئيسية: حلب، وبعليك، ودمشق.

وفي منتصف القرن الثاني عشر استرجع المسلمون أورفة وبيراجك وواصل الأتابك نورالدين الضغط على الصليبيين.^(*)

وفي ١١٧١ استحوذ أحد قادته - وهو صلاح الدين الكردي المولد - على مصر، ووضع النهاية للخلافة الفاطمية، وبعد وفاة نور الدين عمل صلاح الدين على توحيد المسلمين في مصر، وسوريا، والعراق، وتمكن من تدمير المملكة الصليبية في القدس، (وكان مظفر الدين كوكبوري

(١) الشطنوفي: بهجة، والنادي: قلاند الجواهر، نقل عنهما العزاوي، ص ٤١-٤٦، وكودي RCO (روما) العدد (١٣) ١٩٣٢، ص ٤١٤-٤١٥.

(*) وهناك كرامة تعزى للشيخ آدي مفادها أنه أنقذ (٤٠) أسيراً مسلماً من طرابلس حامية الصليبيين، ونقلهم بمعزة إلى نصيبين في ليلة واحدة. كتاب المناقب (مخطوطة برلين We ١٧٤٣)، ١٧ ب - ٢١ ب) إعداد وترجمة فرانك، ص ٦٩-٧٧ و ١٢٨-١٣٤.

من بين قواده، وهو منذ صباه يعتبر أحد المعجبين بالشيخ آدي، وقد تزوج لاحقاً من أخت صلاح الدين).

وفي نهاية القرن الثاني عشر كانت مقاطعة الموصل تحكم من قبل عائلة نور الدين، الخليف غير الثابت لصلاح الدين وخلفائه في الغرب، وللخليفة العباسي الذي كانت سلطته تقتلص في وسط العراق، ولكن الموصل ومنذ ١٢١١ فصاعداً باتت تحكم فعلياً من قبل بدرالدين لؤلؤ، وهو ابن عبد أرمي وكان وصياً على أتابك سقيم، وبعد موته أصبح وصياً على ابنائه، الذين مات جميعهم قبل بلوغ سن الرشد. وفي ١٢٣٣ حصل لؤلؤ - الذي كان قد أصبح مسلماً - على لقب أتابك من الخليفة.

وفي لالش انتعشت الطريقة العدوية بفضل حسن بن آدي، المولود في ١١٩٥ والذي خلف والده التقي، وهو شخص حاد الذكاء، كرس حياته للعبادة، وكان شديد التمرس نتيجة لست سنوات قضائها في الخلوة (حيث ألف كتاباً بعنوان إفشاء أسرار فنون الاعتزال^(*)) وهو الآن مفقود) كان حسن شديد التبجيل للشيخ آدي، وحظي بالولاء المطلق من مريديه وألف كراساً صغيراً يدعو فيه المريدين إلى الإيمان المطلق والزهد، وهذا ما ختمت به كتابات الشيخ آدي التي تتضمنها مخطوطة برلين.^(١)

(*) اسمه كما في المصادر: الخلوة لأهل الجلوة، وهو في عداد الكتب المفقودة كما يذكر المؤلف. المترجم.

(١) ابن طولون: ذخائر القصر، نقل عنه تيمور، ص ٢٠، وكودي RCO (روما) العدد ١٣ (١٩٣٢) ص ٤١٧. ولسكوت، ص ٣٤، مخطوطة برلين We ١٧٤٣، ٤٩ ب - ٥٢ أ، تحليل فرانك، ص ٤٦-٥٠.

وبخلاف طبيعة أسلافه النازعين إلى التأمل والعزلة اشترك الشيخ حسن في مناقشات ومجادلات دينية نشطة، وفي إحدى المناسبات تأثر بكلام أحد الواعظين إلى درجة أنه تأوه وأغمي عليه، فقام مريدوه العدويون - حالياً أغلبيتهم من الكرد - بقتل الواعظ بتهمة تسببه في فقدان الشيخ لهدوئه وسكينته.^(١)

والكتاب المقدس الثاني الأيزدي المصحف الاسود (مصحفا رش)، والذي يضع قواعد للسلوك، ينسب عادة إلى الشيخ حسن (هناك مقطع غامض في هذا الكتاب، من الممكن أن يكون قد أضيف إليه لاحقاً، ينسب سلالة العائلة الأميرية للطائفة إلى شاهات فارس شاهبور الأول وشاهبور الثاني).^(٢)

هذا في الوقت الذي كان الحدث العظيم يتشكل في الشرق: المغول، وهم أقوام تعبد الأرواح، وتلهمهم رؤى زعيمهم جنكيزخان في إخضاع العالم، وتدعمهم الصفات الإدارية الحاذقة التي يتمتع بها أتباعه الصينيون. نزل هؤلاء المغول من مواطنهم المجدية (والمعروفة للعالم الإسلامي بأرض يأجوج ومأجوج) عبر تركستان إلى بلاد فارس (وكانت توجد بين الغزاة قبيلة اعتنقت المسيحية على أيدي المبشرين النسطوريين)، وفي عام ١٢٣١ وبعد أربعة أعوام على موت جنكيزخان شنت المغول آخر

(١) ابن شاکر الکتبی: فوات الوفيات، نقل عنه تیمور، ص ١٩، وکودي، المصدر السابق، ص ٤١٧.

(٢) الدكتور ل. إي. برووسكي: الأيزدية ودينهم، Das Aus land، العدد ٥٩ (١٨٨٦) ص ٧٦٤. راجع أرشيفات الهيئة الأمريكية للإرساليات للبعثات الخارجية ١٦-٨-٤، المجلد الأول، البعثة الآشورية (١٨٥٠-١٨٥٩) المادة ٨٣، رسالة هنري لوبدل المؤرخة في ٢٠ كانون الأول ١٨٥٢ والموجه إلى أندرسن، ومقال لوبدل المؤرخ في الأول من كانون الأول ١٨٥٢ في (نيويورك ديلي تريبيون) عدد آذار ١٨٥٣، ص ٥.

جيوش الفرس قرب ديار بكر، وزحفوا باتجاه الغرب للهجوم على سهل ملاطية الغني قبل أن يعودوا إلى معسكراتهم الشتوية في سهول موغان المعشوشبة شمال شرق تبريز، وهو عين المكان الذي اختاره الامبراطور هرقل قبل ستة قرون لراحة جيوشه قبل الاشتباك في معركة مصيرية مع خسرو.

تجمعت القوى الاسلامية على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط، لصدهجوم الصليبيين القادمين من أوروبا، وكانت هذه القوى غير مهيأة لمجابهة هذا العدو الجديد، لكن الاستراتيجية المغولية المخطط لها في قره قوروم (٣٠٠ ميل غرب مدينة أولان باتور الحالية) كانت تتقدم ببطء، ولسنوات عديدة انحصرت جهودهم في شن فرسانهم غارات على العراق، وانتهت إحدى هذه الغارات بالاستيلاء على أربيل ونهبها، وأسفرت غارة أخرى عن عبور نهر دجلة وإبادة قافلة كاملة قرب سنجار كانت متوجهة نحو حلب.

وأخيراً جاء الاندفاع المغولي الكبير، ففي ١٢٣٦ تحركت جيوشهم من تركستان نحو الغرب متجاهلين بذلك العراق والأناضول، إذ الهدف كان الاستيلاء على جنوب روسيا ومواصلة الزحف عبر هنغاريا إلى الساحل الادرياتيكي، وفي نهاية العام انسحبوا من أواسط أوروبا لتدعيم وتعزيز تواجدهم في الاراضي التي استولوا عليها في روسيا، حيث كانت أغلبية الأهالي آنذاك من الأتراك الذين وجدوا أن الطريقة الوحيدة لدفع الضرائب إلى الحكام الجدد هي بيع أولادهم إلى تجار العبيد، ليقوم هؤلاء بدورهم ببيع هؤلاء الاطفال في سوق النخاسين الرائج بمصر.

وفي العام ١٢٤٣ غزا القائد المغولي (بايجو) بلاد الأناضول، وألحق الهزيمة بالجيش التركي قرب أرزنجان، وأرغم السلطان على دفع الجزية إلى الخان العظيم والسماح لقواته باستخدام طرق وحاميات الأناضول. وفي العام التالي شن فرسان المغول غارة على أطراف مدينة حلب، وبذلك التفتت هذه القوى على الطريق الحيوي الذي يربط سوريا بوادي دجلة، وهذا عرض الموصل وبغداد إلى أخطار جسيمة، وخلال كل هذه السنوات المشؤومة استمر لؤلؤ في حكم الموصل، مخصصاً وقته في تزيين وزخرفة عاصمته وموسعاً ممتلكاته، لكن الكرد الذين كانت نخبة جنودهم تخدم خلفاء صلاح الدين في سوريا ومصر لم يهدأوا، وخشي لؤلؤ أن يدفع الطموح الزعيم العدوي الجديد إلى إعطاء الإشارة لنشر الفوضى فيشمل ذلك كل المقاطعة، فقام في ١٢٤٦ باعتقال حسن بن آدي وسجنه ثم شنقه في قلعة الموصل.^(١)

لم يمر طويل وقت حتى بان عدم الاكتراث الذي أظهره لؤلؤ تجاه التهديد المغولي، وحساسيته تجاه الكرد.

ففي عامي ١٢٤٦-١٢٤٧ مر اثنان من الرهبان الدومينيكان بالموصل، دون اعتراض من السلطات المحلية، مهمتهما تبادل الرسائل بين البابا انسنت الرابع والمغول، وفي ١٢٤٩ عاد أحدهم يرافقه حراس مغول إلى الموصل على رأس وفد إلى الخان العظيم من لويس التاسع الفرنسي الذي كان آنذاك على رأس حملة صليبية موجهة ضد مصر.

(١) الكتبي: فوات الوفيات، نقل عنه تيمور، ص ١٩. وكودي (المصدر السابق) ص ٤١٧، ولسكوت، ص ١٠٢.

وختم تعاون لؤلؤ مع المغول بزواج ابنه من إحدى أميرات ديوان الخان مما أنذر بسوء العاقبة لبغداد، وفي عام ١٢٥٣ عام الشور عند المغول، أرسل الخان العظيم جيشاً كبيراً على رأسه أخوه هولأكو مع تعليمات بإبادة الكرد واللر (قوم قريب إلى الكرد) ثم التقدم لغزو العالم الاسلامي.^(١)

وفي نفس الوقت جاء جابي الضرائب للخان العظيم مسافراً بطريقة أسرع من هولأكو، بملاحظة تنبئ بزيادة الحمل على دافعي الجزية. وفي ١٢٥٤ وجد لؤلؤ أنه من الضروري إرسال حملة عقابية ضد العدويين المستائين من المعاملة الغليظة، والأحكام الجائرة، والضرائب الثقيلة. سجل مؤرخ معاصر ما يلي :

«بعد اشتباكات دامية، لحق بالعدويين الكرد هزيمة نكراء، بعضهم قتل والبعض الآخر أسر. وصلب لؤلؤ مائة رجل كما أعدم مائة آخرين. وأمر بقطع أذرع وأرجل أميرهم وصلبه على بوابة الموصل، وكذلك أرسل الرجال لاستخراج بقايا عظام الشيخ آدي من قبره وحرقها».^(٢)

نقطة في بحر عظيم آت، هذا السرد القصير الذي لا يذكر حتى اسم الزعيم العدوي المقتول هو خاتمة عهد موثق من التاريخ المحلي، وبعد ذلك لا نجد سوى إشارات خاطفة إلى الطائفة في سجلات وقائع أحداث عهد مظلم.

(١) رشيد الدين: تاريخ المغول وفارس، إعداد وترجم كاتريمير، ص ١٤٣-١٤٥.

(٢) ابن الفواتي: الحوادث الجامعة، نقل عنه العزاوي، ص ٤٦، وكودي (المصدر السبق) ص ٤١٧، ولسكوت، ص ١٠٢.

بينما كان جيش هولوكو يتقدم نحو هدفه دون رحمة، دارت حوادث في الأناضول هي أشبه ما تكون بتراجيديا كوميدية^(١)، المغول الحربية كانت تقضي ببلوغ هولوكو سهل موغان في أواخر العام ١٢٥٦، ونقل بايجو معسكره الشتوي إلى غرب الأناضول، وكان على السلطات التركية القيام بالترتيبات اللازمة.

وفي قونية - العاصمة التركية - ثار خلاف لسنوات بين أميرين متنافسين هما: عز الدين كايكاوس الثاني، وأخيه ركن الدين قليج أرسلان الرابع، وأرسل وفد إلى منغوليا ليقرر الخان العظيم إلى من سيؤول الحكم، وكانت مقاليد السلطة بيد عز الدين عندما وصلت أوامر بايجو إلى قونية. حاول عز الدين صد تقدم المغول باتجاه الأناضول، لكنه هزم فلجاً إلى الامبراطور اليوناني، فقام بايجو بتنصيب ركن الدين سلطاناً، وعسكر حيث كان مخططاً، وغادر في بداية عام ١٢٥٧ متوجهاً إلى موغان ليقدّم تقريره إلى هولوكو، وفعل ركن الدين الشيء نفسه إذ توجه نحو الشرق لزيارة أخ الخان العظيم.

بسرعة خاطفة استطاع عز الدين التسلل عبر الحدود عائداً إلى بلده، وسيطر على مقاليد الحكم في قونية، وجيش بايجو الذي كان بدون زعيم وجد نفسه مشلولاً تماماً بسبب الشتاء، وأكتشف أن خطوط مواصلته أصبحت غير مضمونة بعد أن سيطر أتباع عز الدين على الحاميات الرئيسية: ملاطية وخربوت (إيلازيغ الحالية) في الاطراف الشمالية من

(١) عن الوضع السياسي في الأناضول في الفترة (١٢٥٤ - ١٢٥٧) أنظر: فكرت إيشيلتان: Die seltshuken – Geschichte des Akserayi وهربرت دبليو. دودا: Die Seltshukegeschichte des Ibn Bibi وكلاود كاهن: تركيا ما قبل العثمانيين.

الفرات، وملاطية كانت تحت سيطرة رؤساء قبيلة هكاري الكردية، بينما خربوت كان قد عهد بها إلى شرف الدين محمد، ابن الشيخ العدوي حسن الذي قتله لؤلؤ قبل عشر سنوات.

منيت مغامرة عز الدين الجريئة بالفشل، لأن قوة مغولية بقيادة (أليغاق) أحد قواد هولاكو كانت في طريقها نحو الغرب لإعادة نصب ركن الدين سلطاناً، مكتسحاً المقاومة التركية في أرزنجان، واصطدم المغول بشرف الدين عند مضيق (كماء) ٣٣ ميلاً نزولاً في أسفل النهر، حيث هزم العدوي غير المخطوط وقتل.^(١)

والمثير أن الموقف مال مؤقتاً لصالح عز الدين بوصول الوفد التركي إلى منغوليا والذي استغرق مسيره ثلاثة أعوام، وصل بعد أيام قلائل على معركة مضيق (كماء) حاملاً معه أوامر الخان العظيم القاضي بأن الأناضول يجب تقسيمها مناصفة بين الأخوين، فأعيد السلام، وفي الربيع تحرك جيش بابجو باتجاه الشرق عبر ملاطية وخربوت كما كان مقرراً. كانت ساعة حظ شرف الدين قصيرة، ولا توجد أية دلائل أو مؤشرات بخصوص حياته السابقة أو سبب تواجده في شرق الأناضول.

* * *

في خريف عام ١٢٥٧ وضعت الخطة الاستراتيجية المغولية موضع تنفيذ، فتقدم الجيش الرئيس تحت قيادة هولاكو على طريق القوافل القديم من همدان مروراً بخرائب قصر خسرو في دشتكرد وقصر زوجته

(١) بار هابراوس: تاريخ، إعداد بيجان، ترجمة بدج، المجلد (١) ص ٤٢٥.

بقصر شيرين متجهاً نحو الجنوب صوب وادي دجلة، وبحلول تشرين الأول أوصلت المسيرة الطويلة بايجو إلى مشارف الموصل، حيث لاحظ الأهالي بارتباك شديد عبور جيش المغول من على الجسر إلى نينوى جنوباً للحاق بهولاكو، تتبعه قوة محلية صغيرة بقيادة اسماعيل بن لؤلؤ. سقطت بغداد بسرعة، وجنود بايجو الذين لم يعرفوا الكلل خاضوا في نهر دجلة عند تكريت مستخدمين مستلزمات بناء الجسور التي زودهم بها لؤلؤ، وهاجموا المدينة من ناحية الغرب، بينما هاجم هولاكو المدينة من الشرق.

وفي شهر شباط من العام ١٢٥٨ استسلم الخليفة المستعصم الذي كان شديد الحب للحمام إلا أنه كان حاكماً غير كفوء وقتل، وسلمت رؤوس قيادته العليا واثنين من مستشاريه الرئيسيين إلى إسماعيل مع تعليمات تقتضي بأن يعلقها والده لؤلؤ على الخازوق فوق جدران الموصل، وكانت مهمة صعبة على لؤلؤ، لأن أحد القادة كان صديقاً له.^(١)

هذه الرسالة التذكيرية المروعة والمثيرة للاشمئزاز بالقوة المغولية دفعت لؤلؤ - الذي لم يشترك جنوده في معركة بغداد - إلى مساعدة أكثر فعالية في تقليل محاور المقاومة، وجاء التراضي في شهر آب عام ١٢٥٨ عندما عبر الأتابك البالغ من العمر ٩٣ عاماً جبال كردستان محملاً بالهدايا في زيارة إلى هولاكو بمعسكره الصيفي قرب بحيرة أورمية.

(١) رشيد الدين، المصدر السابق، ص ٢٩٧ و ٢٩٩.

وذكر مؤرخ معاصر لتلك الفترة أنه بعد أن تخلص لؤلؤ من خوفه من لقاء الخان^(١) «فان العجوز الآثم تجراً وشعر بحرية الكلام تجاه ملك الملوك حتى أنه صعد إلى حيث العرش جنب هولاكو وأمسك بإذنه، وبيديه الاثنتين علق قرطاً من اللؤلؤ النفيس في أذنه»^(*) مات لؤلؤ في تموز عام ١٢٥٩ بعدما أمضى سنوات من الخزي والعار، وخلفه ابنه إسماعيل كأتابك. وزحفت الجيوش المغولية دون مقاومة تذكر نحو الغرب مكتسحة حلب في ١٢٦٠ ومحتلة سوريا دون مقاومة على الإطلاق، وتم ترميم المسجد الكبير بدمشق - الذي كان في وقت ما كاتدرائية - وأعيد إلى المسيحيين، وبدأ وكأن ناقوس الموت للإسلام يقرع.

لعب الثبات والجلد والحظ دوراً في صد المد المغولي لسنوات، وكان الجيش المصري في السابق يجند من الأناضول وكردستان، وكانت قد شكلت فرق من العبيد الترك الذين يسمون بالمماليك ويستوردون من جنوب روسيا، وفي ١٢٥٠ تسلم هؤلاء الجنود «الذين تشربوا منذ نعومة أظفارهم برباطة جأش وتحمس»^(**) تسلموا مقاليد الحكم في القاهرة، وبعد مضي عشر سنوات، وعندما رجع هولاكو إلى موطنه لحضور مراسيم جنازة الخان العظيم، زحف هؤلاء المماليك على جيوش المغول، وأكتسحوا مواقعهم في سوريا واستعادوا السيطرة على دمشق

(١) بار هيراروس، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٤٢٥.

(*) في لقاء لاحق قدم سلطانا الأناضول التركيان فروض الولاء، وتم الصفح عن عزالدين عن جرائمه بعدما أهدى هولاكو حذاء فاخراً رسم على نعله صورة للسلطان. (رشيد الدين، المصدر نفسه، ص ٣٢٣).

(**) كيبون: انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية، الفصل ١١٤.

وحلب، وطوال جيل كامل حارب هولاء وخلفاءه المماليك، ولكن المغول فشلوا في استعادة سوريا، كما فشل المصريون في استعادة العراق، ومحاولتهم الوحيدة تمخضت عن كارثة لآل لؤلؤ.^(١)

* * *

كان الابن الأصغر للؤلؤ قد هرب من العراق للحاق بالمصريين، وفي شهر مايس من العام ١٢٦١ هرب الأتابك إسماعيل نتيجة للاشتباه فيه بالخيانة من الموصل إلى سوريا، وبعد فترة قصيرة لحق به أخ ثالث له. في هذه الأثناء وصل لاجئ آخر إلى سوريا، أسمر السحنة يدعى المستنصر، وزعم أنه عم آخر الخلفاء، فقام سلطان مصر بتنصيبه خليفة على العرش، وأكرم أبناء لؤلؤ باعتبارهم ضيوفاً، وأخذ مشروع جريء يتشكل.

وفي الخريف من عام ١٢٦١ قاد المستنصر والإخوة الثلاث قوة صغيرة عبر وادي الفرات نحو بغداد، وفي الحال باشر أبناء لؤلؤ بالمغادرة، اثنان منهما وصلا جبل سنجار، بينما ذهب إسماعيل إلى الموصل حيث نودي به من قبل رعاياه السابقين، فيما استمر "الخليفة الأسود" في مسيره فصادف عباسياً آخر بقي على قيد الحياة واسمه أحمد وكان قد منح الحماية من قبل عرب البادية، ووصل في فراره إلى الأنبار، في هذا المكان الذي يبعد ٧٠ ميلاً فقط عن بغداد، لكنه قريب من ساحة

(١) حول سقوط آل لؤلؤ راجع: عز الدين بن شداد في كتابه (الأعلاق الخطيرة) تحليل كلاود كاهن، وبار هيرايوس / بدج، المصدر السابق. وابن عبد الزاهر بيسرس الأول المعري، والمقريري: تاريخ سلاطين المماليك في مصر.

المعركة التي فقد فيها متظاهرين آخر وكورش حياتهما، هزم المستنصر وقتل من قبل المغول، وفر أخو الأتابك وأحمد^(*) عائدين إلى القاهرة مخلفين إسماعيل في المصيدة في الموصل.

وبعد سبعة أشهر، وبعد أن هزمت قوة دعم مصرية قرب سنجار، استسلم إسماعيل إلى المغول معتمداً على خدمات والده للمغول، فاقترب من معسكر المغول المحاصرين له حيث كانت الموسيقى تعزف، والألعاب الأكروباتية تجري، لكن المغول لم يكونوا في مزاج حسن، فنهبت الموصل وأقيمت مذابح للأهالي، بينما أخذ الأتابك إلى المقر الصيفي لهولاكو حيث قتل شر قتلة.

كان خلفاء هولاكو يدينون بالولاء لابن عمه الخان العظيم قبلاي في بكين، وفي الواقع لم يكن هناك أي تعاون بين زعماء المغول، فحاكم كولدن هورد في جنوب روسيا أعتنق الإسلام وتحالف مع المصريين، والحاكم المغول في فارس والعراق الذين عرفوا بالإلخانية اعتمدوا بصورة مضطردة على المسيحيين واليهود في حكمهم للأراضي التي غالبية مواطنيها من المسلمين، وبينما كانت قبضة المغول تضعف، ظهر الكرد مرة أخرى يتصيدون المسيحيين الذين تعاطفوا مع المغول في العراق.

في ١٢٧٥ وبعد مضي ثلاث عشرة سنة على نهب وتدمير الموصل سجل مراقب معاصر لتلك الأحداث الوقائع والأخبار المتعلقة بالطائفة العدوية، وذكر أن أخوين من عائلة الشيخ آدي كانا على خلاف، لأن الأخ الأصغر كان قد تزوج من امرأة مغولية، فيما استغل الأخ الأكبر الهدوء النسبي القصير الذي ساد جو الحرب بين المغول والمماليك،

(*) عاش أحمد وأسس سلالة جديدة من الخلفاء في القاهرة.

فانتقل إلى سوريا ومعه أربع مائة تابع، وبرفقتهم خيولهم وغنمهم
وثيرانهم، وفي السنة التالية فر الأخ الأصغر إلى مصر وبمعيته زوجته.^(١)
في تلك السنوات كانت الحكومة المحلية بالموصل موضع نزاع بين
طوائف المسيحيين والمسلمين، لكن المؤرخ - وهو يعقوبي - لا يذكر
سبب هجرة الأخوين، وفي عام ١٢٨١ عاد إلى العراق الأخ العدوي
الذي فر إلى سوريا، وطلب العفو من الحكام الإلخانيين لارتداده، لكن
التوقيت كان سيئاً، إذ كان المغول في حرب مع المماليك، فقتلوا
العدوي.^(٢)

بهذه المواد الشحيحة في تاريخ بار هيرأوس تنتهي التقارير المعاصرة
لتلك الفترة حول الطائفة في لالش.^(٣)

وبينما كان القرن الثالث عشر يقترب من نهايته تحول وضع
المسيحيين في العراق نحو الأسوء. فالحكام المغول انقطعوا تدريجياً عن
مواطنهم القديمة، وانصهروا في عالم ميسوبوتاميا، واعتنق بعض الحام

(١) بار هيرأوس / بدج، المصدر السابق، ج ١، ٤٥٣-٤٥٤ و ٤٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٤.

(٣) هناك مخطوطة نسطورية من ألقوش يزعم أنها كتبت في العام ١٤٥٢ واستنسخت في
١٥٨٨ ث في ١٨٨٠ ونشرت في العام ١٩١٧، مختلفة تماماً في إيراد تاريخ لالش في القرن
الثالث عشر. والكثير من التفاصيل التي أوردتها عن النزاعات مختلفة عن التي وردت في
التواريخ المعاصرة والنص (الذي استنسخه القس أندروز في ١٩١٢ وأعيد اكتشافه من قبل
بير أنستاس في العام ١٩٢٢) يعتبر مزوراً. ناو تفنكي، ROC (باريس) العدد (٢) المجلد
(١٠) ١٩١٥-١٩١٧، ص ١٤٦-١٤٨ و ١٧٢-٢٠٠ و ٢٢٥-٢٤٢. بيير
أنستاس ماري دي سانت - إيلي (OCD) ((الكلمة الأخيرة في أصل الدين اليزيدي))
المقتطف، العدد ٦١ (١٩٢٢) ص ١١٣-١١٩. بوا، المشرق، العدد ٥
١٩٦١) ص ١١٣-١١٤ و ١٢٧ و ٢٢٣ و ٢٢٩ و ٢٣٠. وفي، المصدر السابق
ج ٢، ص ٨٠٦-٨١٢.

الإيلخانيين الإسلام، وسكتوا عن هجمات المسلمين والكرد على المسيحيين.

وفي تشرين الأول من العام ١٢٩٥ أعلن غازان وهو أكبر أحفاد هولاكو الإسلام ديناً رسمياً للدولة، وأمر بهدم كنائس المسيحيين واليهود، وبالرغم من توقف الاضطهاد والملاحقات في ربيع العام ١٢٩٦، فإن المسيحيين عادوا إلى الموقع الاجتماعي الأدنى الذي فرضه قانون الإسلام.^(١)

* * *

في هذه الأثناء ازدهرت الطريقة العدوية بسوريا - في ظل حماية جيوش المماليك.

كتب أحدهم سيرة الشيخ آدي ونسب إليه كرامات عدة، وقد اختصرت أجزاء من عمله هذا في كتاب لسيرة الكيلاني ومعاصريه من قبل الكاتب المصري الشطنوفي في أواخر القرن الثالث عشر.^(٢) أسكن زين الدين يوسف ابن القليل شرف الدين بدمشق، ثم أنتقل لاحقاً إلى قرية أجداده بيت فار، وهنا كان يمد بأسباب الحياة الهدايا من قبل التابعين الكرد الواعين - من بينهم امرأة منحتهم كل ثروتها - وقام الشيخ ببناء ملجأ اعتزال اشتهر بسجاده الفخم والمترف، ومزهريات

(١) في Chretiens syriagues sous les Mongols، ص ٦٦-٦٨.

(٢) كتاب المناقب (مخطوطة برلين ١٧٤٣) ١ أ - ٢٧ أ، تحليل فرانك، ص ٥٥-٨٣. الشطنوفي: بهجة، تحليل ماركوليوت، مجلة الجمعية الملكية الآسيوية (١٩٠٧) ص ٢٦٨-٢٧١، وتحليل فرانك، ص ٨٣-٨٧.

من الذهب والفضة، وأواني الفخار الصيني العامرة ومختلف أنواع الشراب، (ضيف كريم وحليم ذو مبادئ سامية)، أسس زين الدين أسس طائفة أخرى في القاهرة، حيث توفي في العام ١٢٩٧. ^(١)

وقد أتت النار على ضريحه في ١٩٠٧ ولكن أعيد ترميمه الآن، وهو يعتبر من المعالم الإسلامية البارزة في القاهرة. ^(٢)

وفي وقت كان المجتمع الإسلامي كله مهدداً، أولى رجال الدين المسلمين اهتماماً بالغاً بالتفسير السني للشريعة الإسلامية، وفي السنوات الأولى من القرن الرابع عشر نشر عالم الدين السوري ابن تيمية رسالة دينية طويلة موجهة إلى العدويين يحثهم فيها على الاعتدال أو التخفيف من تبجيلهم للشيخ آدي مؤنباً ومنتقداً بقسوة حسن بن آدي لمبالغته في تعظيم وتقديس مؤسس الطائفة مستهدفاً من ورائها رفع شأن فرقته الدينية، كما أدان أيضاً بدعة أخرى نسبت إلى حسن ألا وهي تمجيد الخليفة يزيد. ^(٣)

طوال ستة قرون من وفاة يزيد، ناقش علماء الدين موقفه من الإسلام فقد أبغظه الشيعة واعتبروه قاتلاً للحسين، لكن سمعته بين السنة تلطفت

(١) السخاوي: تحفة الأحياء. المقرئ: الخطاة، وابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، نقل عنهم كودي RCO (روما) المجلد ١٣ (١٩٣٢) ص ٤١٨-٤١٩.

(٢) فان برخم: Materiaux: Egypte، ص ١٤٧-١٥٢، ر. ل. ديفونشير: بعض مساجد القاهرة ومؤسسيها، ص ٤٠-٤٨، ك. أ. سي. كريويل: فن العمارة الإسلامي في مصر، ج ٢، ص ٢٢٩-٢٣٣. Repertoire chronologique d epigraphie arabe المادتان ٥٠٤١ و ٥٠٤٢، المجلد ١٣، ص ١٦٩-١٧٢.

(٣) ابن تيمية، ج ١، ص ٢٦٢-٣١٧، تحليل العزاوي، ص ١٤-٢١، وتحليل كودي RCO (روما) المجلد (١٣) ١٩٣٢، ص ٣٩٤-٤٠٣، وتحليل لسكوت، ص ٣٧-٤٢.

بمرور الزمن، وهناك من يذكره بخير بين الفينة والأخرى⁽¹⁾ وقد وصفه شيخ آدي بـ "الإمام ابن الإمام الذي حارب الكفار"، وأي شخص يشتم يزيداً يجلب الازدراء على نفسه⁽²⁾ وابن تيمية الذي يتأسف على محاربة العدويين ليزيد يرى وينصح بأن الخليفة الذي هو موضع الجدل لا تجوز عبادته ولا شتمه.⁽³⁾

وشجب عالم دين آخر معاصر لدى إجابته على سؤال بعض أهالي وادي الفرات التعصب الديني واضعاً بعض الطوائف الشيعية على أحد قطبي التطرف والعدويين والأيزديين الطرف الآخر، والكاتب يلمح إلى أن مصطلح (يزيدي) يعني العدويين في العراق، لأنه يذكر بعثة الشيخ حسن من الوعاظ الذين أرسلوا إلى هيت والمدن الأخرى على طول الفرات حيث قام هؤلاء بحث الاهالي على قتل كل من يذكر يزيداً بسوء.⁽⁴⁾

في خضم هذا الاضطراب أصبح زين الدين بن عز الدين رئيساً على العدويين في سوريا، وفي ١٣٣٠-١٣٣١ علم السلطان المصري - الذي

(١) السمعاني: كتاب الأنساب، نقل عنه العزاوي، ص ٩-١٢، وكودي (المصدر السابق) ص ٣٨١، وفرانك SMSR ج ١٢ (١٩٣٦) ص ١٥٤-١٥٥، وفرترز ماير Der Neme s der Yazidi s في WAIFR.T ص ٢٤٨-٢٤٩. الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، تحليل إيسيا جوزيف ((نصوص يزيدية)) AJSL العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ١١٦-١١٧.

(٢) تيمور، ص ٥٨، نقل عنه ماير، ص ٢٥٤.

(٣) ابن تيمية، ج ١، ص ٢٩٩-٣٠٢، نقل عنه كودي (المصدر السابق) ص ٤٠٠-٤٠٢.

(٤) أبو الفراس عبيد الله: كتاب الرد على الرافضة واليزيدية، تحليل محمد شرف الدين ((اليزيدية)) مجموعة لية دار الفنون للإهيات (اسطنبول) ج ١، العدد ٣ (١٩٢٦) ص ٣٢-٣٥، والعزاوي، ص ٨١-٨٣، وكودي ((اليزيدية)) ص ٥٦٠-٥٦١، ولسكوت ص ٣٦.

كان منزعجاً من انتشار شعبية زين الدين بين الكرد - أن اتباعه كانوا يجمعون الخيول والأسلحة والجهزة، وتحت تحقيق أن العدويين في القاهرة يخططون للاستيلاء على مصر أو اليمن، أنكر عز الدين كل هذه الخطط ولغرض تهدئة الاوضاع تم إيداعه السجن، حيث توفي فيه.⁽¹⁾

استمر العدويين لبعض الوقت في مصر وسوريا كطريقة دينية صوفية، لكن بعد وفاة عز الدين لا توجد أية وثائق تتعلق بهذا الفرع من عائلة الشيخ آدي (رغم أن مخطوطاً من جبل سمعان يشير إلى أن سلالة شقيق عزالدين قد عاشت هناك على الأقل خمسة أجيال).⁽²⁾

* * *

في العام ١٣٢٢ وقعت معاهدة سلام بين المغول والمماليك تم بموجبها تثبيت نهر الفرات حدوداً بين الدولتين.

وقصائد زين الدين تصف بإسهاب وادي لالش، ولكنه ليس هناك تقارير من القرن الرابع عشر تتحدث عن كان يقيم فيه، وفي ١٣٢٧ زار الرحالة المراكشي ابن بطوطة الموصل، وجزيرة ابن عمر، وبلد سنجار (حيث ألقى الكثير من الكرد)⁽³⁾، ويتبين من كتابات الموسوعي المصري ابن فضل الله العمري في ١٣٣٨ أنه عرف العدويين السوريين،

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، نقل عنه تيمور، ص ٢٦-٢٧، وكودي RCO المجلد ١٣ (١٩٣٢) ص ٤١٩، ولسكوت ص ١٠٦، وابن فضل الله: مسالك الأبصار، نقل عنه تيمور، ص ٢٥-٢٦، ولسكوت، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) لسكرت، ص ٤٤ و ٢٢٥-٢٣٧.

(٣) ابن بطوطة: الرحلات ١٣٢٥-١٣٥٤، ترجمة هـ. أ. ر. كيب، ج ١، ص ٣٥٢.

وخصص ثماني عشرة صفحة لإحصائية حول عشائر كردستان^(١) ولكن أحداً من هؤلاء الكتاب لم يذكر الطائفة الموجودة في لالش.

لم يتعافَ العراق تماماً من غزو المغول، وفي ١٣٣٩ كان ثلث مدينة الموصل لا يزال خراباً، وجاء منتصف القرن بكارثتين أخريين: الموت الأسود، وانقسام الامبراطورية المغولية، مما ساد الفوضى والاضطراب بين الإمارات المتحاربة.

والحظ الأوفر من الضرر ناله المسيحيون كان المغول قد بدأوا بتقريهم في بداية الامر، لكنهم لوحقوا وتعرضوا إلى اضطهاد وحشي فيما بعد، وانكمشت الكنيسة النسطورية التي كانت بارزة ذات يوم على طول طرق التجارة بآسيا، وأصبحت محصورة في المنطقة المحددة بالموصل وأورمية ودياربكر، مع اتصالات ضعيفة بالابرشية النائية في مالابار بجنوب الهند.

واستطاع اليعاقبة الاحتفاظ بوجودهم في الأناضول الشرقية وطور عابدين.

وأتاح انهيار السلطة المركزية الفرصة للكرد، فأقاموا شمال الموصل في الجبال التي وراء لالش إمارة بهدينان في العمادية وطرّدوا الهكاريين الذين اتجهوا شمالاً ليستقروا في جنوب شرق وان. واستحوذ البوطيون على بقايا خرائب مدينة جزيرة ابن عمر.

(١) ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ترجمة كاتريمير (المصدر السابق) ج ١٣ (١٨٣٨) القسم الأول، ص ٣٠٥-٣٢٥.

وأبعد من ذلك باتجاه أعلى النهر سيطر خلفاء صلاح الدين على قلعة حصنكيف والجسر العظيم القائم على دجلة، البقايا الأخيرة لإمبراطورية كانت شاسعة ومترامية الأطراف في يوم من الأيام.

وفي ١٣٩٣ تهافت الرؤساء الكرد لتقبيل البساط الذي تحت قدمي تيمور - الغازي الجديد للعالم من تركستان - الذي أكتسح العراق مخلفاً وراءه أبراجاً من الجماجم، العديد منهم مسيحيون، تنوهج في الليل كمؤشر دائم على مروره بتلك المنطقة، بعد ثماني سنوات، وبعد الاستيلاء على الهند وشرق الأناضول وشمال سوريا، إنحدر جنوباً مرة أخرى بهدف القضاء على ثورة في بغداد، تاركاً مائة ألف مدني قتيلاً، الغازي الأعرج (يعرف في الغرب بـتيمورلنك) مات في ١٤٠٥، تاركاً العراق مرة أخرى لقمة سائغة يتنازعها الزعماء والقواد العسكريون.

وفي بداية العام ١٤١٥ فاجأت القاهرة معلومات من كردستان مفادها أن أتباع الشيخ آدي المنسيين لفترة طويلة قد أصبحوا ذوي قوة وزخم كبيرين إلى درجة أن عز الدين أمير جزيرة ابن عمر واستجابة لشكاوى واعظ صوفي فارسي قد جهز حملة ضدهم، يساعده في ذلك العادل الحصكفي الذي هو من سلالة صلاح الدين ومسمى باسم أخيه، كما ساهم معه زعيمان آخران، احتلت القوة المشتركة جبال هكاري، وقتلت جمهوراً كبيراً من أتباع الشيخ آدي الذين كانوا يسمون آنذاك من قبل الكرد بالصحبية (الأصحاب) وأخذوا معهم العديد من الأسرى.

وعقب المعركة توجه المهاجمون إلى القرية التي كان الشيخ آدي مدفوناً فيها، ودمروا ضريحه كما أضرموا النار في رفاتة أمام أعين الأسرى، وحاملين معهم الكثير من الغنائم.

وسجل المؤرخ الأحداث تقي الدين المقرئ أن الأصحاب أعادوا مجتمعهم كما أعادوا بناء الضريح، ويضيف بأنه في وقت كتاباته تلك (بعد عشرين سنة من الأحداث) كانت الجماعة لا زالت مزدهرة^(١). والمثير أن الطائفة الصغيرة بلالش استمرت وعاشت لشرى سقوط العباسيين، والمغول، والموت الأسود، وحملات تيمور.

ولكن باستثناء هذا السرد القصير في تاريخ المقرئ، هناك فجوة لأكثر من ٢٠٠ عام من تاريخ إعدام أفراد عائلة الشيخ آدي في ١٢٨١ وإلى أن يتم ذكر أتباعه في بداية القرن السادس عشر، عند ذلك كانت الجماعة الأيزدية المغمورة قد أصبحت ديناً يحتضن آلاف الكرد، ولكن تعاليمه ومبادئه ابتعدت تطورت بعيداً عن الطريقة الصوفية، أما محمد الذي ينادي به المسلمون خمس مرات في اليوم على أنه الرسول الحقيقي من سواحل المحيط الأطلسي وإلى بحر الصين فلم يكن له أي دور في هذا الدين الجديد، الذي نبذ التفسير القرآني بأول ما فعله الله بعد أن خلق الإنسان والذي يشترك في الإيمان به المسيحيون واليهود، وكذب ذلك الدين الأيزيدي، ونادى بشفيق جديد للمؤمنين، وكان الطاووس رمزاً له.

(١) المقرئ: كتاب السلوك، نقل عنه فرانك، ص ٧٨-٩٢، وناو / تفينكجي ROC العدد (٢) المجلد ١٠ (١٩١٥-١٩١٧) ص ١٥٣-١٥٤، وكودي (المصدر السابق) ص ٤٢٠.

الفصل الثالث

الدين الايزيدي

إن ولادة دين جديد هو حدث جلل في الشؤون الإنسانية، وبخلاف الخرافات التافهة التي يبحث عنها الحكام الدنيويون لإضفاء الشرعية والقدسية على حكمهم، فإن الأديان تعيش وتدوم مئات بل آلاف السنين.

إن أسماء الملوك والغزاة تنسى ولكن يبقى التبجيل والاحترام لذكرى الشهداء الذين ضحوا بحياتهم من أجل عقيدة جديدة، والمبشرين الذين مسّت كلماتهم أفئدة المستمعين، وأكثر من هذا وذاك القلة التي غيرت مبادئها الموحاة العالم.

مؤسس الدين الأيزيدي غير معروف^(١) وليس له ذكر لا في تقاليدهم أو معتقداتهم الموروثة، ولا في سجلات الوقائع والأحداث التي دونت من قبل جيرانهم المسلمين والمسيحيين، ومن منطلق هذا الفراغ الغريب، توصل بعض الباحثين إلى أنه في أثناء الفوضى والاضطراب اللذين سادا القرنين الثالث عشر والرابع عشر تمكنت الجماعات الكردية بصورة ما من صياغة دين لهم خليط غير منظم من العقائد والطقوس التي مارسها الجيران من الطوائف المسيحية والإسلامية.

وهناك نظرية أخرى يفضلها العديد من الأيزيديين ترى بأن الدين الأيزيدي غائر في القدم إلى درجة أن التفاصيل التاريخية المتعلقة بتأسيسه ضاعت بين طيات التاريخ، ووفقاً لهذه النظرية فإن هذه العقيدة استطاعت المحافظة على بقائها وديمومتها عبر القرون، لأن المؤمنين بهذا الدين كانوا يسمحون لأنفسهم بالتظاهر باعتناق الأديان الجديدة مثل المسيحية والإسلام، بينما يحتفظون في الأساس باعتقاداتهم القديمة.

إن وحدة الدين تمت صيانتها عن طريق عملية تناسخ الأرواح - وهو اعتقاد أيزيدي رئيس - بين الحين والآخر تتحد شخصية قديس ورع، سواء عن وعي أم دون وعي، مع روح أيزيدي تقي زاهد، وهو يقوم بدوره بنقلها إلى شخص آخر، وآخر تناسخ روحي مقدس حدث مع الشيخ آدي بن مسافر.

(١) المصادر الأساسية التي اعتمدت في هذا الفصل هي: سي. جي. إدموندز: حجة إلى لالش. توماس بوا: اليزيدية، المشرق، العدد ٥٥، (١٩٦١) ص ١٠٩-١٢٨ و ١٩٠-٢٤٢. إي. إس. ستيفنس و ليدي دراور الملك طاووس. روجر لسكوت Enguete sur les Yezidis de syrie et du Djebel sinjar. راجع كذلك: إسماعيل بك جول: اليزيدي في الماضي والحاضر، نشره زريق. سامي سيد أحمد: اليزيدية حياتهم ومعتقداتهم، نشره هنري فيلد. الأمير معاوية بن إسماعيل اليزيدي (كول) خاطبنا زرادشت، راجع أيضاً المصادر المذكورة في الهامش الأول من الفصل الثاني.

الانتشار السريع للديانة الأيزيدية في القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر في صفوف المسلمين السابقين - وبدرجة أقل بين المسيحيين - إنما يدل على أن الرسالة قد وصلت إلى آذان صاغية، ولكن ليس هناك أية معلومات تشير إلى أي عمل تبشيري للأيزيديين، وليس معروفاً كذلك كيف أو من قام بتنظيم هذا الدين ولا فيما إذا كان قد بدأ كوحي جديد، أو كان إحياءاً لدين قديم لا زال قائماً.

أول تاريخ للاعتقادات والطقوس والعادات الأيزيدية كتب من قبل مبشر كاثوليكي فرنسي بحلب بعد أن ترسخت وانتشرت ديانتهم بين الكرد بحوالي ٣٠٠ سنة^(١)، وقدم المبشرون الإيطاليون في العراق وصفاً مختصراً لهم في ١٧٦٩، و ١٧٨١، و ١٨١٠.^(٢)

هذه التقارير وكذلك ملاحظات الرحالة، تؤكد على أن الأيزيديين كانوا مترددين في مناقشة المسائل الدينية، ويجيبون السائلين بأجوبة يهدفون من ورائها ترضيتهم.

(١) ميشيل فينفر: (C. M. A.): Specchio o vero descrizione della Turchia و Teatro della Turchia.

(٢) ب. دومينيكو لانزا: op. Viaggi Compendiosa Relazione Istorica dei viaggi e viaggi e Della setta delli Jazidi ضمن: أبيست دومينيكو سستيني Viaggi e opuscoli diversi ص ٢٠٣-٢١٢. الترجمة الفرنسية لسلفستر دي سيسي بعنوان Notice sur les Yezidis ضمن م (جين - بابتست لويس a. k. a جوزيف روسو) Description du pachalik de Bagdad ص ١٩١-٢١٥. (رفائيلو) م. Storia della regione del Kurditan e delle di كوسيسي كامبانيل religioni ivi esistenti. انظر كذلك: بوا - Les dominicains a L avant grade de la Kurdologie au XVIII e siecle Archivum fratrum praedicatorum العدد ٣٥، ١٩٦٥ ص ٢٦٨-٢٨٠.

علم دراسة الأيزيدية نشأ أصلاً في ١٨٥٠ في تقرير تلاه الدكتور أوكست نيندر أستاذ الدين بجامعة برلين على مسامع الأكاديمية البروسية للعلوم قبل وفاته بزمان يسير^(١)، وثارت الرغبة في نفوس المستشرقين للبحث مجدداً في الموضوع بعد ثلاثة عقود من ذلك التاريخ، عندما نشرت مجلة الجمعية الفرنسية الآسيوية موجزاً عن الديانة نقلاً عن مصادر أيزيدية.^(٢)

وفي المائة سنة الماضية ظهر سيل من الكتابات ذات العلاقة في المطبوعات الأوروبية، والأمريكية والمشرقية.^(*)

في العام ١٩٩٠ سمح أصحاب الشأن الأيزدي في لالش لشريط فيديو مدته ساعتان تحت عنوان (فيلم ديني ١٩٩٠/٥/٦ لالش)، والجزء الأكبر منه عبارة عن صور للضرائح والمعابد والمزارات في وادي لالش وسهل شيخان إلى الجنوب، وهو يسجل إجراءات طقوسية: الصلوات، والترانيم الدينية، مع تعليقات باللغة الكردية، وقد خصصت الخمسة والأربعون دقيقة الأخيرة منه لجلسة حوار، هي الأخرى باللغة الكردية، وفيها يرد رجال الدين وأصحاب الشأن والمقام على أسئلة تخص العقيدة والمجتمع الأيزدي، يقوم بطرحها أتباع الدين المحليون (هناك

(١) أوكست نيندر: *Über die Elemente aus denen die Lehren der Yeziden hervorgegangen zu sein scheinen*.

(٢) ن. سيوفي: ملاحظات عن الطائفة اليزيدية، المجلة الآسيوية (باريس) العدد ٧، المجلد ٢٠ (١٨٨٢) ص ٢٥٢-٢٦٨.

(*) انظر ثبت المراجع للاطلاع على الكتب والمقالات الرئيسة عن الدين الأيزدي.

ترجمة لهذه الجلسة، وهو أول عرض للديانة الأيزدية خارج الدائرة الرسمية منذ سنوات عدة، في الملحق الثالث).

لا يرمي السرد الوارد في الصفحات التالية إلى تجميع نتاج أجيال من العلماء، بل إنه يهدف إلى خلق إطار يحتوي على معلومات هي مقبولة بصورة عامة حول الدين الأيزيدي⁽¹⁾ ويضم بين طياته قصة تاريخ هذه الطائفة.

* * *

يؤمن الأيزديون بإله واحد يدعونه بالاسم الكردي (خودا) ويعبدونه على أنه السبب الأول والحرّك الرئيس للكون، أما مهمة خلق العالم والنبات والحيوان على الأرض فقد أنيطت بسبعة ملائكة أعظمهم هو عزازيل، وخلق الله الإنسان بنفسه.

إن قصة عزازيل الأبي، ورفضه السجود لآدم، وطرده من أمام مرأى الله، اعتقاد قديم معروف لدى اليهود، والمسيحيين، والمسلمين على حدٍ سواء.

ولكن ما يعقب ذلك من ربط الملاك المطرود إلى روح الشر، فلا تجد له ذكراً في الديانة الأيزدية، بل يعتقد الأيزديون أن الله قد عفا عن

(١) خالف الاجماع حول الدين الأيزيدي الأمير معاوية بن إسماعيل (كول) وهو واحد من أفراد سلالة حاكمة يقطن ألمانيا حالياً، وقد أسس جمعية إيزيدية زرادشتية هدفها تعزيز الفكرة القائلة بأن الدين الإيزيدي يستمد جذوره من الزرادشتية، وقد خالطه شيء من الإسلام أدخله فيه الشيخ آدي والشيخ حسن وشرف الدين، راجع كتابه (خاطبنا زرادشت. .).

معصيته، والذين يعترفون بالملك ويقرون باستعادته منزلته السامية مرة أخرى فسوف يتمتعون بحمايته الخاصة.

بات اسم عزازيل الآن قليل الاستعمال، والشيطان - المصطلح المتعسف المستخدم من قبل العقائد الأخرى - كلمة محظورة عند الأيزديين، وإذا ما استعمل في حضورهم من قبل الآخرين فإن ذلك يعتبر إهانة توجب الانتقام في الحال (وفي الحقيقة يتجنب الأيزديون تقليدياً استخدام الكلمات الكردية أو العربية التي تجمع بين الحروفين (ش) مع (ط) لارتباطهما بكلمة شيطان)، والأيزديون يستخدمون لقب "ملك طاووس" ويستعملون ما يمثل الطاووس كرمز لعقيدتهم، والشيء الأكثر قدسية الذي يملكونه هو تمثال برونزي بالحجم الحقيقي ويدعى: طاووس آنزال (قديم)، كما يسمى أيضاً بالطاووس العظيم، أو طاووس منصور. وهم يدمجون المبادئ العالمية لآداب السلوك مع تعاليم الأخلاق: الحق، الخطأ، العدل، الحقيقة، الأخلاص، الرحمة والحب.

وأرواح الموتى إما تنتهي إلى الجنة أو إلى النار، حسب أعمالهم، ولكنها في الأغلب تعود إلى الأرض من خلال تناسخ الأرواح، وأحياناً على شكل حيوانات.

والشر معترف به كحقيقة من واقع الحياة، وهو لا يعتبر من عمل قوى فوق الطبيعية.

وقصة آدم وحواء هي جزء من العقيدة الأيزيدية، وبعيداً عن تسببه بطرد آدم يصور الملاك على أنه أسدى النصيحة له عملاً بخصوص الوظائف البايولوجية للجسم.

وهناك نظرية أخرى عند الأيزديين ترجع بأصولهم إلى آدم وحده (وليس إلى آدم وحواء).

والعديد من أساطيرهم وهي غير متوافقة دائماً تسجل أحداث ما قبل التاريخ.

ويشترك الأيزيديون مع الطوائف الأخرى في شمال العراق في الذكرى التي لا تنسى عن الفيضان، وبناء سفينة نوح (ويعتقد الأيزديون أنها صنعت في عين سفنى وهي قرية على بعد ستة أميال جنوب لالش)، والرحلة البحرية المخوفة بالمخاطر عبر وادي دجلة الذي فاض، وثقب بدن السفينة بواسطة القمة الناتئة (لسن القلوب) في جبل سنجار، ثم إنقاذها من قبل ثعبان التف حول نفسه وسد الثقب، وأخيراً النهاية السعيدة برسو السفينة على سفح جبل جودي.

والاسماء التاريخية لبعض المصادر غير المؤكدة يعثر عليها هنا وهناك ضمن العقيدة الأيزدية، فلقد حافظوا على ذكرى آهاب الملك الوثني لإسرائيل، ونبوخذ نصر البابلي، الذي أخذ اليهود أسرى معه، و أحشويرش الشاه الإيراني الذي أحب أستر، وشاهبور الأول، وحفيده شاهبور الثاني الذي هزم وقتل أباطرة الرومان، وحاكم بيزنطيني غامض يدعى أغريقالوس ومن الممكن أنه يكون تحويراً لهرقل.

مقام الخليفة يزيد في الديانة غير واضح، ويمكن أن يكون ذلك عن تعمد، فجماعته تمتع بالقوة أكثر حول حلب وفي جبل سنجار، وفي هذه المقاطعات حيث جيرانهم المسلمون من أتباع الطائفة السنية، التقاليد الأيزدية تحيي ذكرى مآثر وفضائل الخليفة، وثم قصيدة طويلة أُلقيت من

قبل شيخ ايزدي قرب حلب في ١٩٣٦ تورّد معجزات يزيد خلال الحصار الأول على القسطنطينية.^(١)

والأيزديون القاطنون شرقي دجلة هم أقرب إلى الشيعة أتباع الشهيد الإمام الحسين، إذ يتكرر ذكر اسم الخليفة عندهم في فلكلورهم بشكل أقل، ومع ذلك فإن يزيد يبجل كتناسخ لروح مقدسة، ويعد يوم ميلاده أهم احتفالاتهم، وبهذا النحو الملائم فإن الإجازة المقدسة للأيزديين بمعاقرة الخمر والشراب إنما تُعزى إليه.

والرابطة الواهنة بين الخليفة الأموي والدين الايزيدي دعت العلماء للبحث عن أسباب أكثر منطقية في تفسير اسمهم، عدد منهم لاحظ التشابه بين اسمهم وبين الكلمة الفارسية (يزد) والتي تعني "الكائن الأسمى" أو الله، والمحاولات التي استهدفت ربط اسمهم بأسماء أشخاص آخرين يحملون اسم يزيد قوبلت ببرود^(٢) وإحدى النظريات الأكثر جرأة ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وربطت بين الأيزديين وبين صاحب خزانة الشاه خسرو - أمير المؤمنين النسطوري يزدين - لأن بيته الريفي كان خارج كركوك وقد عرفت سجلات الوقائع اليونانية بمكان بيته الذي احتفل فيه الامبراطور هرقل بمولد المسيح سنة ٦٢٧، كان قريباً جداً إلى مواطن الإيزيديين في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ويبدو أنه من الأرجح ان اسم (يزيدي)

(١) لسكوت، ص ٦١-٦٤ و ٢٣٦-٢٣٨.

(٢) جي. س. بكنكهام: رحلات في ميسوبوتاميا، ج ٢، ص ١٠٧-١١٠. الرائد هـ. سي. راولنسن: ملاحظات حول رحلة من تبريز، مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، العدد ١٠ (١٨٤١) ص ٩٢. أوستن هنري لايارد: نينوى وبقاياها، ج ١، ص ٣٠٠.

أطلقه المسلمون وخاصة الشيعة بقصد التعريض بأتباع هذه العقيدة الغربية، وبمرور الزمن أصبحوا يعرفون به بصورة رسمية.

والنبي العظيم للدين الأيزيدي الذي يربط بين ماضي العقيدة والخرافة السحيق مع الثمانمائة سنة الأخيرة من التاريخ المسجل هو الشيخ آدي بن مسافر، والذي يعد ضريحه أقدس آثارهم في لالش.

العقيدة الأيزيدية تصف المولود المعجزة لزوجين كهلين، ومغادرته لبيته باحثاً عن قدره في سن الخامسة عشر، وبعد خمس سنوات وبينما كان راكباً في ضوء القمر عبر أرض سهلة أتاه الوحي، وخرج من الأرض من أمام ضريح قديم شبح: جملان يبلغ طول أرجلهما ثمانية أقدام، ورأساهما كرأس الجاموس، وشعر كث طويل، وعيون واسعة مدورة خضراء متهوجة تشبه عيون الثور، وجلد أسود فاحم، ومع ذلك كانا يشبهان البشر، وفي هذه الأثناء ازداد حجم الضريح وارتفع حتى لمس الغيوم، وتشكل بصورة منارة منيفة، بدأت تهتز، ومن هول المنظر تعثر الشيخ آدي بوعاء الماء الذي كان على مقربة منه، والآن تحول الشبح إلى صبي وسيم الحيا، له ذيل طاووس، وقال له :

((لا تخف، من الجائز أن تسقط المنارة وتدمر العالم،
لكنك وأتباعك الذين يطيعونك لن يلحقهم بهم الأذى،
وأنتم تحكمون بقايا العالم، أنا ملك طاووس وقد اخترتك
لتدعو العالم إلى الدين الحق)).

وللتو أخذ روح آدي معه إلى السماء لمدة سبع سنوات، وكشف الله له هناك حقائق كل شيء، بينما كان جسده بقرب الضريح في سبات

عميق، وعندما هبطت روحه من السماء كي تعود إلى جسده كان الماء لا يزال جارياً من الوعاء المنقلب.^(١)

وتصف العقيدة كيف أنه تسليح بقوى خارقة ومعجزة، واختار السكنى في لالش، وشرع في نشر مبادئ دعوته بين كورد هكاري المضطربين، الذين وافقوا أخيراً على اتباعه، وعقد اجتماع عظيم وضع فيه الشيخ آدي مراسيم وطقوس العبادة، وحدد طبقات المؤمنين، وقواعد السلوك التي يجب على الأتباع أن يلتزموا بها جميعاً.

ومن بين مفاهيم الشيخ آدي: التحذير من الكتب المدونة، وهذا التحذير مع الظروف التي كانوا يعيشون في ظلها، جعلت الأيزديين طائفة تسودها الأمية إلى عقود قريبة، وعلى الضد من ذلك فإنهم أصحاب تراث غني انتقل إليهم شفويّاً عن أجدادهم، وهو تراث لم ينبش فيه الباحثون إلا قليلاً.

وهناك كتابات أيزدية قليلة تنسب إلى الشيخ آدي حفظت من الضياع.^(٢)

والإنتاج الأكثر شهرة هو عبارة عن كتاب ترانيم دينية إلهامية نشرت لأول مرة في العام ١٨٥٣ (انظر ترجمته في الملحق الثالث)، والوصية العظمى التي أورثها النبي لأتباعه كان كتاب الجلوة (الترجمة العربية لكتاب الوحي)، والذي يعتقد بأنه أملاه على مساعده فخر الدين قبل وفاته بفترة قصيرة، وهو نتاج مختصر باللغة العربية يحتوي على أقل بقليل

(١) الدكتور ل. ي. براوسكي: اليزيدية ودينهم، Das Ausland العدد ٥٩ (١٨٨٦) ص ٧٩٠.

(٢) لا يقر الإيزيديون الكتابات الصوفية للشيخ آدي (راجع الفصل السابق).

عن ٥٠٠ كلمة، ويعتبر الجلوة الكتاب الأكثر قدسية في الدين الأيزيدي، وقد نشرت مقتطفات منه في العام ١٨٩١، والنص الكامل في العام ١٨٩٥^(١) (انظر ترجمته في الملحق الأول).

وضريح الشيخ آدي مغطى بقطعة قماش مطرز باللون الزعفراني وموشى بشال حريري ملون، وينتصب في غرفة داخلية بحرم لالش الذي تم ترميمه مؤخراً بصورة كاملة، والمحل المتواضع للضريح (انظر الصورة رقم ٢٢) تم تشييده وتحويله إلى مكان رحب جيد الإضاءة، واجهته مكسوة بحجارة المرمر من كل الاصناف، وترتفع الحائط الحجري تتخلله الشرفة بين الطابق الأرضي الذي يعلوه، حيث الحائط الحجري تتخلله كوة عمودية تتشابك فيها القضبان البرونزية، والذي يرتفع فوقه الجدار مكسوً بالآجر المتناغم ليصل إلى الأعلى، والسقف المبنى جزئياً على النسق العربي متوج بقبة مخروطية بيضاء (انظر الصورة رقم ٢٣). أصحاب الشيخ آدي الأوائل مبعجلون من قبل أخلافهم وكل الطائفة الأيزدية، والأعظم تبجيلاً من بين هؤلاء هو الشيخ شمس الدين، والذي يقع ضريحه بالقرب من الحرم الرئيس، وتعرف سلالته بشسماني، وهي تشكل إحدى الجماعات الرئيسة الثلاث التي تتألف منها طبقة الشيوخ الأيزدية. أما ضريح أخيه فخر الدين فيبعد عنه بمسافة قصيرة.

(١) رسالة جرميا شامير المؤرخة في ٢٨ تشرين الأول ١٨٩٢ إلى أ. ن. أندروس نقلها إيسيا جوزيف في (نصوص يزيديّة) المجلة الأمريكية للغات والآداب السامية، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ٢٤٧. مقال أندروس (اليزيدية) موسوعة البعثات (طبعة ١٨٩١) المجلد الثاني، ص ٥٢٦-٥٢٧. هناك منقولة عن (مصحفا رش) أوسوالد هـ. باري: ستة أشهر في دير سوري، ص ٣٧٤-٣٧٦.

والمرجع الديني الرئيس للأيزديين يعرف بـ "بابا شيخ"، ويتم اختياره من بين أفراد عائلة فخر الدين.

وأبو بكر وهو من أصحاب نبيهم ومن أقارب والده مسافر، وبالنتيجة هو أموي مثل يزيد، أسس سلالة شيوخ قاتاني، ويعتبر من أجداد سلالة جول الحالية لأمرء الأيزديين، ويقع ضريحه داخل حرم لالش.

أما حسن بن آدي وهو ابن حفيد شقيق الشيخ آدي وهو الذي وضع توجيهات وتعليمات جديدة لطائفة لالش ووقع ضحية غضب الأتابك لؤلؤ، فإنه مدفون في غرفة بجانب ضريح الشيخ آدي. (منذ ورود عائلة جول الأميرية الذين تسلموا زعامة الأيزديين من سلالة الشيخ حسن في القرن السابع عشر أصبحت ذكراه تحيى تحت اسم حسن البصري كسلف للصوفي المتوفى في ٧٢٨).

ويعتبر الشيخ حسن مؤلفاً للكتاب المقدس للدين الايزيدي "مصحف رش" المصحف الاسود، وقد نشر هذا الكتاب بروايات عديدة بين ١٨٨٦ و ١٩٠٩، وهو يحتوي ما يعتقده الأيزديون فيما يتعلق بخلق العالم، وأصل الإنسان، وقصة آدم وحواء، مع قائمة المحرمات الرئيسية في الديانة الأيزيدية (وتجد ترجمة له في الملحق الأول).

الجماعة الثالثة من الشيوخ هم: الآداني، ومهمتهم التقليدية الحفاظ على طهارة العقيدة، وهؤلاء ينسبون أصولهم إلى الشيخ حسن، وفرع من هذه العائلة يعيش في بهزان، يتولى عملية تدريب القوالين (كوال) الذين يزورون القرى الأيزيدية لإلقاء المواعظ الدينية، وجمع الصدقات.

ولسنوات عديدة كان الشيخ الذي يتولى هذا المنصب هو الوحيد الذي يسمح له بتعلم القراءة والكتابة، كما كان هو الأمين الرسمي للكتاب المقدس الجلوة ووظيفة (البشمام) المشرف على عقود واحتفالات الزواج كان يتولاها دائماً أحد أفراد هذه الجماعة.

أما شرف الدين الابن غير المخطوط للشيخ حسن والذي فقد حياته وهو يحارب المغول إلى جانب الأتراك، فقد حقق شهرة بعد الموت بصفته القديس حامي أو راعي سنجار، والأيزديون الخليون يعتبرونه الرجل الذي نشر دينهم في منطقة الجبل.

ورجال القبائل على السفح الشرقي يرسلون شعرهم يتدلى إلى الأسفل على هيئة ظفائر طويلة وفقاً لتعليماتهم وأوامرهم، وهناك معبد صغير مكرس لشرف الدين على قمة جلميران، الذروة الأكثر ارتفاعاً للجبل، وهناك معبد آخر أكبر بني مؤخراً في قرية في أسفل الجبل. ويتم إنفاق نصف الدخل المتجمع من الصدقات التي تجمع باسم شرف الدين على صيانة المعبد، والنصف الآخر يودع ولقرون في كهف بمكان ما على جبل (ويقال بأنه في دير عاص، على بعد ميلين إلى الشمال من بلدة سنجار).

هؤلاء الصحابة وخلفاء الشيخ آدي الشبه مبجلين تضعهم أساطير الأيزيدية في مصاف الملائكة الذين قدموا يد العون والمساعدة لله والملك طاووس في خلق الكون. وفضلاً عن هؤلاء هناك عدد كبير من القديسين الذين تتمتع معابدهم بأهمية وقدسية كبيرة لدى أهالي المنطقة وتتميز بأشكالها المخروطية.

وفي غياب الوثائق التاريخية ليس بالإمكان اقتفاء آثار ونشأة الدين الأيزيدي، وكيفية تطوره عبر القرون، فالإطار الأساسي له مماثل لطريقة صوفية لكن مع بعض الاختلافات المهمة، ومنذ أن ورد ولأول مرة ذكر هذه الديانة في بداية القرن التاسع عشر^(١) وإلى اليوم بقي هذا الدين كما كان ولم يشهد إلا تغيراً طفيفاً.

وهناك عدد من الطبقات في الهرم الديني الأيزيدي :

(الأمير) الذي يمثل السلطة الدنيوية أو العلمانية للطائفة، ومقر الإقامة التقليدية للأمير هو (باعدري) على بعد أميال قليلة من لالش، ولكن الأمير الحالي يعيش معظم الوقت بين بغداد والموصل، أما تعاقب الأمراء على هذا المنصب الصعب فسوف يتم سرده في الفصول المقبلة. و (الشيوخ) الذين يستخدمون سلطاتهم ومقدرتهم على الاتصال الباطني بالنبي هم كهنة العقيدة، رئيسهم (بابا شيخ) يعين من قبل الأمير، ويوجد حالياً حوالي ٣٠٠ عائلة من الشيوخ يقوم أفرادها بواجب الكهان للعوائل الاعتيادية وتودع إدارة شؤونها الدينية بعهدتهم، كما يقوم الشيوخ بمسؤولية ترتيب الاحتفالات الدينية في لالش وغيرها من المعابد.

ويأتي في الدرجة الثانية من حيث التقديس والتبجيل پير (المعمر في اللغة الفارسية^(*)) هناك ما يناهز ٢٠٠ عائلة من هؤلاء،

(١) هنري أ. هومز: الطائفة الإيزيدية في ميسوبوتاميا (مستودع الكتاب المقدس والنقد الكلاسيكي) العدد ٢، المجلد ٧ (١٨٤٢) ص ٣٣٧-٣٣٨.

(*) وفي الكردية كذلك. المترجم.

وهم ينتمون إلى أربع جماعات رئيسة وهؤلاء متمردون من أوائل المريدين الكرد للشيخ آدي، يطلق تسمية أو لقب حامي حرم لالش على بابا چاوش (الحاجب) الأكبر، وهو أعلى رجال هذه الطبقة مرتبة، وعليه أن يبقى غير متزوج مدى الحياة والآخرين من هذه الطبقة يقومون بمهمة المجاورين (الأمناء) للمعابد المحلية.

يشترك الـ (پير) مع الشيوخ في الطقوس والاحتفالات الدينية، لكن لا علاقة لهم بأداء الواجبات الإدارية ويكرسون معظم أوقاتهم للتأمل والصلاة، والتابعون للشيوخ هم القوالون (وبعني الرواة) وهؤلاء يرجعون إلى عائلتين تعيشان في قريتي بعشيقية (بعشيقية) وبهزان، وفي لالش يقوم هؤلاء بدور جوقة المرتلين في الاحتفالات الدينية، ولكن مهمتهم الرئيسة ولأكثر من قرن كانت تنحصر في زيارة كل قرية أيزيدية - مهما كانت نائية - حاملين معهم نسخة مطابقة للطاووس العظيم إثباتاً لهويتهم، وحين يأتي القوال إلى قرية ما يقوم المختار بتخصيص غرفة له في داره، حيث يقوم القوال بتهيئة الطاووس، ونصبه، لإقامة القداس مع آنية جمع الصدقات، ويباشر الخدمة وجمع الصدقات نيابة عن السنجاقي.

وتقليدياً كانت هناك ست نسخ مطابقة، كل واحدة تدعى باسم المنطقة المخصصة لها: شيخان (شمال العراق)، سنجار، زوزان (الأناضول)، الشام (سوريا)، تبريز وموسقوف (موسكوفي) والسنجاقي الموسكوفي أبطل العمل به خلال السنوات الطويلة من الاضطهاد السوفيتي، ولحد الآن لم يتم استخدامه بعد في زيارة القرى الأيزيدية بمنطقة ما وراء القفقاز. وتوقف التجوال بسنجاقي تبريز، وكان يحتفظ

بهذه النماذج - في الوقت الذي لا تكون في تجوال وتطواف - في قصر الأمير في باعديري، أما الآن فهي مخزونة في أماكن مختلفة.^(*)

إن أصل نظام جمع الصدقات غير معروف، وحسب أحد المصادر كان كل سنجاق يعتبر من ممتلكات أحد الشيوخ وكان يستخدم ريعها لدعم أوقافهم، وفي حوالي العام ١٨٤٠ طلب الأمير لسد نفقات الجزية التي يدفعها، توحيد كل الصدقات في مبلغ واحد تدفع منه النفقات الدينية كما أصبح بالامكان تقديم يد المساعدة إلى الآخرين.^(١)

والطبقة التي تليها من حيث الأهمية هي طبقة (الفقراء)، وهم يتميزون بلباسهم العادي الطويل الذي كان الشيخ آدي يرتديه، وهو كساء فضفاض أسود ذو حاشية حمراء يتوسطه حزام باللونين الأحمر والأبيض وعلى شكل ضفيرة، وعمامة سوداء، وتحت هذا الثوب يرتدون عقداً من حبل منسوج باللونين الأحمر والأسود، وكما كان الصوفيون يدخلون في طرق صوفية عن طريق أداء شعائر وطقوس خاصة، فإن الفقير يصل إلى منصبه عن طريق التكفير عن الخطيئة، وكذلك الصلاة.

(*) كلمة سنجاق تعني بالشكل الدقيق: منتصب أو قائم، لكنها عادة تستخدم بالمعنى الذي يصف الأيقونة مركبة في كامل صورتها، وتستخدم أيضاً بصورة عامة للدلالة على الحق الممنوح لجماعة من القوالين لجمع الصدقات في منطقة معينة. ونفس الكلمة كانت تستخدم لتدل على منطقة إدارية صغيرة في الامبراطورية العثمانية. والصور ٢٦ و ٣٠ تظهر مخططاً لسنجاق الأناضول والشيخان تم إعداده في ١٨٤٩ و ١٨٥١، والصور ٢٩ و ٣١ تظهر سنجاق سنجار والشيخان اليوم، صورتها الأولى مرة في ١٩٩٠).

(١) عبد الرزاق الحسني: البيزيون في ماضيهم وحاضرهم، ص ٤٥، الأمير بايزيد الأموي: الطاووس - سنجاق يزيد (التراث الشعبي) العدد ٤ (١٩٧٣) ص ٥٧-٥٨. إدموندز، ص ٣٩.

وطبقة الفقير - نظرياً - مفتوحة الأبواب لكل أيزدي، لكنها في الواقع وراثية تنتقل من الأب إلى الابن، وفي جبل سنجار توجد عشيرة كاملة من الفقراء (فقيران)، وواجبات الفقير تنحصر في القيام بمهام الكاهن عند غياب الشيخ، وبعضهم يقوم مقام مساعد الكاهن في لالش.

والأكثر الفاتاً للنظر من كل الطبقات في الدين الايزيدي هو طبقة الكوچك (الصغار) وأغليتهم من الحجاج الذين تركوا بيوتهم للعيش في لالش والعمل في الحرم حطابين، وخلال الاحتفالات الدينية يقوم الكوچك بالاعتناء بتلبية احتياجات الزوار، ولكن يوجد بين صفوفهم موهوبون ذوو قوى جذب صوفية وهم يزعمون أن لهم القدرة على الاتصال مباشرة بالملك طاووس نفسه. وفي حوالي منتصف القرن الثامن عشر أعلن كوچك لبابا شيخ أنه رأى الملك طاووس في المنام فأوصاه قائلاً: إن اللون الأزرق للقمصان التي كان الأيزديون يرتدونها مشئوم، وهو يثير استياء وغضب الملك طاووس، فصدرت الأوامر في الحال بنبد الملابس الزرقاء، وارتداء الملابس البيضاء^(١) ولا تزال هذه القاعدة متبعة في أماكن عديدة^(*) وعدد أفراد طبقة الكوچك في انخفاض مستمر، وهناك فئة من النسوة الخادومات ذوات الأردية البيضاء تدعى بالفقيرات، عدد صغير من الأرامل، والبنات اللاتي نذرن أنفسهن للخدمة في لالش وفضلن العزوبية، وهن تحت إشراف الأم التي هي رئيسة للراهبات وتقوم هؤلاء بنسج فتائل القناديل.

(١) غارزوني / سستيني، ص ٢٠٨ (روسو، ص ٢٠١-٢٠٢).

(*) المحظورات الاخرى تتضمن أكل الخس، ولحم السمك ولحم الغزال.

والأيزديون الاعتياديون يسمون بالمريدين، وهو الاسم التقليدي الذي كان يطلق على الرهبان الصوفيين، ولكل مرید شیخ وله پیر أيضاً، وهو يقدم لهم قرابين مالية، وخدمات بأية طريقة ممكنة.

وعندما يبلغ الطفل تسعة أشهر من العمر يتم إدخاله في طائفة المريدين بطقوس وشعائر يطلق عليها بسك (خصلات الشعر الجانبية) حيث يقوم الشيخ بقص خصلة صدغي الطفل، وعلى الرغم من المنزلة الاجتماعية والدينية الدنيا التي يتمتع بها هؤلاء، فالمريدون - الزعماء، ومالكو الأراضي، والرعاة، والفلاحون وعامة العاملين - يشكلون الدعامة الأساسية للمجتمع الأيزدي، وأعمالهم تدعم وتسند البناء الديني الضخم (إحدى أبرز المبركات هي عزيزة عمار تمويان الرئيسة الحالية للاتحاد القومي الأيزدي في أرمينيا).

* * *

الخطات الهامة في حياة الانسان تحيي ويحتفل بها في العوائل الأيزيدية بخليط من العادات العشائرية والتقاليد الدينية، فعند الولادة يعمد الطفل من قبل الشيخ والبير، مستخدمين الماء من لالش أو مياهاً محلية بعد أن يذر فيها تراب من ضريح الشيخ آدي. ويعتبر الختان أحد الطقوس الدينية المهمة في الديانة الأيزيدية، وثمت عادة فريدة وغريبة تعرف بـ (كريف)، وهي عادة تتبع في شمال العراق، حيث يوضع الصبي الأيزدي المزمع ختانه في حجر رجل مسلم، فتشكل بذلك أخوة الدم وإلى الأبد بين العائلتين المسلمة واليزيدية.

وهناك علاقة أخرى محصورة في الأيزديين تنشأ عند بلوغ سن الرشد، وذلك عندما يقوم كل مرید باختيار (أخ أو أخت فيما بعد) من عائلة

الشيوخ غير إخوانه من الأبوين، وبالإضافة إلى ذلك يقوم بعض الأيزديين باختيار مرشد، وهو عادة يكون من عائلة بير لا يمت هو لها بصلة.

تقليدياً ينظم الزواج من قبل والدي العروسين، والعنصر المهم هو المفاوضات حول مهر مناسب مرضٍ للعروس يدفع من قبل العريس إلى عائلة العروس (وهذا المبلغ مستحق الدفع حتى في حالة فرار الزوجة من بيت الزوجية).

وشعائر الزواج تنفذ من قبل شيخ وبير، وبحضور (أخ - أخت فيما بعد) لكل من العروسين، ويتبع هذا باحتفال ورقص وإطلاق نار في الهواء، والتقاليد تحظر على الأيزديين الزواج خارج نطاق عقيدتهم، لكن أرخي هذا الحظر مؤخراً شرط أن يعتنق الطرف الآخر الدين الأيزدي.

وطائفة الشيوخ والبير يسمح لهم بالزواج ضمن دائرة طبقتهم فقط، والشيوخ مقيدون بالزواج ضمن جماعتهم الخاصة، والفقير ميال للزواج من داخل طبقتهم، أما القوالون فسمح لهم مؤخراً بالزواج من طبقة الميردين، لأن طبقتهم باتت في طريقها إلى الزوال، وأتبع وطورت طقوس زواج خاصة على مرور السنين للعائلة الأميرية الأيزيدية، التي كان يسمح لرجالها بالزواج فقط من الأقارب ضمن عائلتهم أو أفراد عائلة أخرى ذات أصول نبيلة. وعلى الرغم من أن الدين الأيزيدي يسمح للرجال بالتزوج من أكثر من امرأة واحدة، فإن ذلك غير شائع، والطلاق مسموح به لكنه نادر الحصول.

وتقام مراسيم الدفن من قبل الشيخ ويحضرها (إخوة لفيما بعد)، وبعد أن يتم ذر غبار لالش على العينين والأذنين والقم، يلف جسد الميت في كفن أبيض وينزل إلى القبر.

* * *

وكل هذه الشعائر تمارس وتقام في المكان الذي تعيش فيه العائلة. الأيزديون ليس لديهم أماكن عامة للعبادة في قراهم، وهم يؤدون الصلاة سراً ثلاث مرات في اليوم متوجهين نحو الشرق في الصباح، والغرب عند الغروب، والشرق مرة أخرى في الليل. وهناك خمسة أعياد رئيسة في السنة الدينية الأيزيدية، حيث تبدأ السنة بأول يوم أربعاء من شهر نيسان في التقويم السلوقي (منتصف نيسان حسب التقويم الكريكوري). واحتفال سريسال (الكلمة الفارسية ليوم السنة الجديدة)^(*) يحتفل به في كل قرية يعيش فيها الأيزديون، حيث تقدم الأطعمة للمارة وعابري السبيل، ويقومون بقطف وجمع أزهار الحوذان لتنزيين بيوتهم بها، ويزخرفون البيض بزخارف ملونة، وهم يعتقدون أن الملائكة يمرون في منتصف الليل.

والاحتفال الأكثر إتقاناً هو الذي يجري في القرى الأيزيدية في بعشقة وبهزان شرقي لالش، إذ يقوم بابا شيخ وفي صحبته الأمير وأفراد عائلته بأداء الطقوس هناك، ويتضمن الاحتفال إجراء مراسيم العبادة في مزار

(*) هي في الحقيقة كلمة كردية صرفة مركبة من كلمتين: (سر) وتعني رأس أو بداية، و (سال) وتعني السنة، وقد غفل عن ذلك المؤلف كما فعل من سبقه، علماً أن هناك كلمات كردية عديدة في اللغات الشرق أوسطية تنسب إلى الفارسية. المترجم.

الشيخ محمد (القديس المحلي)، وملكى ميران (جد شهير للعائلة الأميرية) وآخرين. ويرفع الستار فيه عن سنجاق شيخان، وهذه المناسبة التي تعد بداية ربيع طويل تحتتم بإجراء سباق للخيل وفي الأغلب يحضرها ضيوف مدعوون من الموصل.

وفي جبل سنجار تقام الاحتفالات في معبد شرف الدين على قمة جبل چلميران تتخللها إطلاق ألعاب نارية مدشنة بداية عام جديد.

والاحتفال الثاني يحى في لالش ويمتد لثلاثة أيام من مساء ١٨ تموز وإلى صباح ٢١ تموز (التقويم السلوقي) أو ٣١ تموز وإلى ٣ آب (كريكوري)، وهو يعرف بعيد الشيخ آدي، عيد الصيف أو عيد الأربعينية، ويرمز إلى نهاية صيام الصيف الذي يصومه خلال ساعات النهار البابا شيخ والكوجك في ذكرى صيام مماثل أداه الشيخ آدي.

والعيد الرئيسي للعام هو عيد أيام التجمع السبعة، يقام في لالش إحياءً لذكرى الدعوة الأصلية للشيخ آدي، وتبدأ الاحتفالات من مساء ٢٣ أيلول وإلى صباح ٣٠ أيلول (حسب التقويم السلوقي)، وهذه التواريخ وافقت في القرن التاسع عشر ٥-١٢ تشرين الأول، وفي هذا القرن توافق مع ٦-١٣ تشرين الأول، والالتزام بحضور الاحتفال هو أحد بنود العقيدة الأيزيدية، وتتوارد الوفود من كل قبيلة من الطائفة عندما تسمح الظروف السياسية والاقتصادية بذلك.

وهذا الاحتفال يجمع بين ممارسة للانبعاث وبين مباهج الكرنفال، والمراسيم التي تؤدي نادراً ما يشهدها ضيوف أجانب منذ ١٨٤٦^(*).

(*) هناك رواية مثيرة للاحتفال من قبل أول أجنبي حضر المراسيم في الفصل السابع.

ويضم الاحتفال طقوس الغسل من قبل الحجاج الوافدين وتعميد الأطفال في المعبد حيث تتدفق المياه من ينبوع الأبيض لتصب في أحواض يعيش بها سمندل الماء المقدس، وتوزيع كرات طينية مصنوعة من مزج الغبار والثرى من الحرم مع الماء المأخوذ من ينبوع الأكثر قدسية الموجود أسفل ضريح الشيخ آدي، وزيارات المراقد والأماكن المقدسة العديدة، والاشتراك في الصلاة والمواكب، والأغاني والرقص الذي يستمر طوال الأسبوع، ويجري عادة توفير أماكن إقامة الزوار في منازل ودور صغيرة منتشرة على طول الوادي، وتقوم كل قبيلة بواجباتها في الحفاظ على هذه المساكن وإسكان أفرادها فيها، بينما ينصب الحجاج الآخرون خيامهم على السفوح، ويجري حالياً بناء دار حديثة للضيوف، ويجلب الزوار طعامهم معهم، لكن الأمير يزود المطبخ قرب المعبد ببعض الوجبات، وفي إحدى هذه الحفلات يقذف بقطع من اللحم نحو الحشد في ذكرى وجبة اعترضها وصول أحد أصحاب الشيخ آدي بعد غياب طويل، وفي يوم آخر تتسابق مجموعة من الشباب صعوداً نحو طرف الجبل، ويطلقون النار، ويتظاهرون بسلب ثور سيستعرضونه حول ضريح الشيخ شمس الدين، قبل توزيع الوجبة على الزوار والزعماء الأيضية، وعيد التجمع مناسبة مقدسة تناقش خلاله شؤون الطائفة، ويطلب من الملك طاووس التوجيه والهداية، وطبيعة هذه المراسيم والطقوس سر لا يباح به لأحد، ويؤتى بالطاووس العظيم إلى لالش بمناسبة العيد ويحل وقت انتهاء جولات السناجق اعتماداً على نتائج جمع الصدقات هذه، ويتم تحديد نفقات العام المقبل.

وطوال الأسبوع يختلط البابا شيخ والأمير وشرفاء الأيزيدية بحرية مع الزوار، وهذه هي الفرصة الوحيدة التي يستطيعون فيها اللقاء بالعديد من أتباعهم، وقنواتهم العادية للاتصال مع أهل القرى الأيزيدية النائية كانت تتمثل بالقوالين، ومؤخراً عن طريق توزيع شرائط فيديو دينية.^(١) والعيد الرسمي الرابع في التقويم الأيزدي يسبق بثلاثة أيام من الصيام العام، يبدأ في يوم الجمعة الأول من شهر كانون الأول (التقويم السلوقي) أو في منتصف شهر كانون الأول (كريكوري). وهذا الاحتفال هو إحياء لذكرى ميلاد يزيد. وهناك أيضاً عيد الشتاء في شهر كانون الثاني، منهياً صوم أربعين يوماً يشبه صيام الصيف بل يفوقه صعوبة.

وفضلاً عن هذه الأعياد الدينية الخمسة يحتفل الأيزديون عادة ببعض الأعياد الإسلامية والمسيحية مثل: عيد خدر إلياس^(*) في البلاد التركية والعربية، وعيد سانت سيرجيوس الأرمني في ما وراء القفقاز.

* * *

(١) يتألف شريط الفيديو المسجل عليه الفلم الديني عشرين دقيقة من جولة في مزار الشيخ آدي وبتر زمزم مع تعليقات رجال دين كبار، للحصول على رواية سهلة لزيارة إلى المزار في العام ١٩٩١، راجع رسالة توماس سي. كولتز TCG - q المؤرخة في ١٤ تموز ١٩٩١ إلى بيتر بويد مارتن المدير التنفيذي لمعهد شؤون عالم اليوم، هانوفر - نيوهامبشاير، الولايات المتحدة الأمريكية.

(*) يحتفل بهذا العيد في الربيع، والخضر قديس أسطوري عربي، ينسب أحياناً إلى النبي إيلياء وأحياناً إلى المسيحي سانت جورج، وأحياناً أخرى إلى الشهيد المسيحي (النسطوري) مار بهنام) وعن خضر إلياس الغامض راجع ف. دبليو. هاسلوك: المسيحية والإسلام في ظل السلاطين، ج ١، ص ٣١٩-٣٣٦، وجي. ب. جي. فينج: سانت جورج والخضر، مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى، العدد ٣٣ (١٩٤٦) ص ٢٣٦-٢٣٨.

تحول لالش من ملجأ للطريقة العدوية إلى معقل للدين الإيزيدي أدى إلى ظهور عدد من المباني والساحات المحاطة من جهات ثلاث بجدران من أحجار مربعة منحوتة، ومن الجهة الشمالية بصخور الجبل، ويجري جدول ماء عبر الوادي نحو الأسفل من أمام الحرم ويلتقي بالرافد القادم من النبع الأبيض والجدول الأخرى الجارية عبر المنطقة، وهناك نبع كبير يدعى زمزم (وهو نفس الاسم الذي يطلقه المسلمون على العين المقدسة في مكة) يتفجر من الجبل تحت ضريح الشيخ آدي، يوحد المياه في رافد واحد يجري بجانب طريق الشرق مزوداً بالمياه محطة مسافرين مهجورة حالياً.

وتفاصيل مخطط الحرم التي تظهر في الصورة 6a لا زالت كما هي بوجه عام، رغم أن البوابات الفردية، والساحات والغرف قد تم تغييرها وتحديثها، وخاصة في السنوات الأخيرة عندما بوشر ببرنامج كبير للترميم والتحديث، وفي المناطق المحاطة بالحرم، أقيمت عدة مبانٍ جديدة خلال الثمانين سنة التي تلت رسم المخطط البسيط الذي يظهر في الصورة 6b.

ويمكن الوصول إلى لالش من جهة الشرق عبر الطريق الذي يفضله الزوار القادمون بالسيارات والباصات، وكذلك من الغرب عبر مشاة يبدأ من باعديري، وهذا الطريق يسلكه تقليدياً الأمير وبطانته، وكان المدخل إلى الحرم في الأصل من جهة الغرب عبر بوابة مؤدية إلى ساحة خارجية تصطف عليها مرابط الخيول، والجداران الغربي والجنوبي لهذا الفناء قد هدمتا، ومن هناك يتخرج الزوار ليعبروا الجدول المتدفق من

النبع الأبيض إلى باحة مفتوحة لا زالت أشجار التوت الهرمة بشمارها الحلوة البيضاء توجد فيها.

وفي الزاوية الشمالية الشرقية من هذا الفناء الخارجي هناك مدخل مهيب مع بوابة خشبية ثقيلة، بنيت من قبل ميان خاتون (جدة الأمير الحالي) وتم تجديدها في العام ١٩٧٩، يرمز إلى مدخل الحرم. والجدران على الجانبين مزخرفة هنا وهناك بنقوش ترمز إلى العاملين والحيوانات وأشكال هندسية. وثم ممر على شكل قنطرة يخلع عنده الزائر حدائه قبل دخول المناطق المقدسة وبعده تأتي عتبة حجرية وبعض سالماً إلى الأسفل حيث توجد ساحة داخلية مسوّرة (الجدار الغربي الذي يظهر في الصورة ١٥ أعيد ترميمه قبل سنوات، لكن بعض الأحجار القديمة المنقوشة لا زالت ترى في الحائط الجديد).

الباحة الداخلية مبلطة ببلاط حجري وتظلل أغلبها أشجار التوت المعمرة. وفي الزاوية الشمالية الغربية يزين جدار واطيء عريشاً حيث يستقبل بابا شيخ ضيوفه ويشرف على توزيع الـ (بَرات). وفي العيد تجري حفلات راقصة تحت ظلال الأشجار.

وفي أقصى يسار الجدار الشرقي لهذه الباحة يؤدي مدخل منخفض إلى الضريح، رمم لمرات عديدة خلال القرن العشرين، وهذه البوابة تحمل على مدخلها زخارف ورسوم أصلية صورت لأول مرة في ١٨٤٩، ومباشرة إلى الجهة اليمنى من المدخل هناك صورة أفعى منقوشة يصل ارتفاعها إلى ٦ أقدام وأهميتها غير معروفة، وفي الأماكن الأخرى على الجدار الشرقي الذي أعيد بناؤه كلياً بين الأعوام ١٩٧٩ و ١٩٨١، وعدد قليل من الأحجار القديمة لا زالت تعرض رموز الماضي أثر فيها

الجو، وفي أحد الأمكنة كتابات نذرية قام بتكليفها حجاج القرن الثامن عشر لا زالت محفوظة.

والحجرة الأولى في المعبد طولها ٨٠ قدماً وعرضها ٣٦ قدماً تم ترميمها في السنوات الأخيرة، وهناك خمسة أعمدة حجرية تقسم الغرفة طولياً، وهي الآن مغطاة بأقمشة ملونة ودرج صغير يجعل الجانب الأيسر أعلى بقليل من الجانب الأيمن، وهناك في الطرف الأيمن من المدخل حوض ماء عمقه ٣ أقدام يسمى باسم الشيخ ناصر الدين، وكل قطرة ماء تسيل من ذلك الحوض تسجل ولادة أو وفاة شخص أيزدي.

وهناك ضريح عند وسط الجدار إلى اليسار ويعتقد أنه يعود للشيخ أبي البركات، الخليفة الأول للشيخ آدي، وعلى بعد أقدام بمحاذاة نفس الجدار هناك غطاء منقوش معلق على الشباك، ومن خلاله يمكن رؤية الجانب الخلفي لضريح الشيخ آدي في الغرفة المجاورة، وعند نهاية الحجرة هناك باب يؤدي إلى غرفة أخرى - صالة شرف الدين - تتصل بالزوايا التي بمربع يشغلها الأمير عند الأعياد، وإلى اليسار من هذا الباب تجد مدخلاً آخر يؤدي إلى غرفة صغيرة تحتوي على تابوت الشيخ حسن، وقبة مخروطية ترتفع ٣٥ قدماً فوق السطح المستوي للمبنى.

إلى الطرف الغربي من هذه الغرفة، هناك غرفة أخرى يفصلها جدار عن الحجرة الرئيسة تحتوي على ضريح الشيخ آدي الذي تم ذكره قبلاً في هذا الفصل، وغرفة طويلة إلى الغرب من الحجرة التي تحتوي على ضريح الشيخ آدي، تستخدم لخزن جرار زيت القناديل، وتمتد غرفتان أخيرتان بعيداً باتجاه الغرب، وعند نهاية الغرفة الأخيرة يقع ضريح الشيخ أبي بكر، صاحب الشيخ آدي الذي تنحدر العائلة الأميرية الأيزدية من نسله، كما تقوم قبة مخروطية فوق هذا الضريح.

وهناك سلم حلزوني يؤدي إلى الحجرة التي تضم ضريح الشيخ حسن بالأسفل في المبنى التحتاني من المعبد، وبخطوات قليلة إلى الأسفل يتراءى للزائر ممر مظلم يربط عدداً من الغرف وهو عبارة عن قناة مهمتها نقل المياه الفائضة من زمزم إلى أحواض مغلقة حيث تقام مراسيم تعميد الكهنة والحجاج.

المصدر الرئيسي للنبع - حسبما يعتقد - هو تدفق المياه من الصخرة استجابة لدعوة الشيخ آدي، والذي صور ولأول مرة في العام ١٩٩٠، ولكن الأيزديين وحدهم مسموح لهم بالوصول إلى هذه المنطقة^(١)، وغرفة أخرى لا يراها الزوار وهي "خزينة الرحمن" حيث يودع فيها الطاووس العظيم والسناجق عند حلول عيد التجمع.

وادي لالش مجموعة مزارات أصغر هي: بيت المعمودية على علو من النبع الأبيض، ومعبد الشيخ شمس الدين بقبته المخروطية الشكل، والتي تعلوها كرة مطلية بالذهب تعكس الأشعة الأولى لشمس الصباح، ومعبد بير هاجالي، ومعابد أخرى عديدة، وحسب أحد المصادر هناك معابد مكرسة لصديق الشيخ آدي، عبد القادر الكيلاني والحسين بن منصور الحلاج، الصوفي الغامض الذي كان أول من صرح بعفو الله عن الملاك المطرود و صلب بتهمة الزندقة والإلحاد في العام ٩٢٢ م.^(٢)

(١) إسحق، جهيل، ص ٦٧، كرتروود لوثيان بيل: عامورا إلى عامورا، ص ٢٧٧-٢٧٨. ستيفنس / دراور: ملك طاووس، ص ١٩٧-٢٠١.

(٢) ر. ي. و جَي. ل. يونك: رواية لتاريخ وطقوس يزيدي الموصل، La Museon، العدد ٨٥ (١٩٧٢) ص ٥٠٠، ورد هذا أيضاً في باري، ص ٣٧١. لويس ماسيكنون: الحلاج، Revue de l'histoire des religions العدد ٦٣ (١٩١١) ص ١٩٥-٢٠٧. انظر أيضاً بيتر جَي. آون: مأساة وخلص الشيطان: إبليس في السايكولوجيا الصوفية، ص ١٩٦-١٩٧، و كرتروود بيل: عامورا إلى عامورا، ص ٢٧٩.

وهناك تقليد حافظ عليه بثبات وعناد كلدانيو شمال العراق مفاده أن معبد الشيخ آدي كان في يوم ما كنيسة نصرانية أنشئت حسب بعض المصادر من قبل راهبين نسطوريين يدعيان جون وجيسوا سابران عاشا في القرن السابع بعد الميلاد.

ويقوم هذا الزعم على أساس وثائق ذات قيمة مريبة ومشكوك فيها، وهناك خبير بارز في تاريخ شؤون الكنيسة النسطورية يعتقد بأن موضع كنيستهم كان على جبل مقلوب مطلاً على بعشيقة وبهزان، ربما في الموقع الذي تشغله الآن القرية الأيزدية محمد رشان.

ويبقى أصل معبد لالش لغزاً، بعض الخبراء يزعمون بأنهم تعرفوا فيه على ملامح خاصة بالهندسة النسطورية، بينما الآخرون يعتبرون المبنى مسجداً جبلياً^(١)، والأيزديون أنفسهم يسلمون بأنه من الجائز أن يكون المعبد في يوم من الأيام كنيسة مسيحية.

إن إصدار الحكم استناداً إلى كتابات القرن العشرين.^(*)

(١) فالتر باخمان: Kirchen und Moscheen in Armenien und Kurdistan، ص ٩-١٥. والصور ١٤-١٦. في Jean de Dailam et l'imbroglio POC، de ses fondations (القدس) العدد ١٠ (١٩٦٠) ص ٢٠٥-٢١٠، و Assyrie Chretienne (العدد ٢) ص ٧٩٦-٨١٥. بوا Monasteres chretiens et temples Yezidis dans le Kurdistan irakien، المشرق، العدد ٦١ (١٩٦٧) ص ٨٤-١٠٠.

(*) (كان قد أعيد ترميم المدخل بصورة كاملة بين العامين ١٩١١ و ١٩٢٢، ولقد لاحظ العديد من المسافرين الكتابات عند المدخل، لكن نصه لم يسجل باستثناء التاريخ ١٣٣٣هـ = ٧٥٠-٧٥١ م = العام الذي تلا إسقاط الخليفة الأموي مروان الثاني، ولجوء بعض أتباعه إلى كردستان) هـ. أ. ج. بيرس واللورد ووركورث: ملاحظات من مفكرة يومية في تركيا الآسيوية، ص ١٨٥.

فوق المدخل المؤدي إلى المعبد والتي تظهر قدم ميناها هو التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

خالق السماء والارض

تحت هذا المبنى

يرقد الشيخ آدى الهكاري

شيخ الأيزديين ٦٩٥ .»⁽¹⁾

ويبدأ التاريخ الهجري ٦٩٥ من ١٠ تشرين الثاني ١٢٩٥ وإلى ٢٩

تشرين الأول ١٢٩٦ ، وهذا هو العام الذي اعتنق المغولي الخان غازان

فيه الإسلام واستهله بملاحقة الكنيسة النسطورية.

(١) الحسين، ص ٣٣.

الفصل الرابع

البدايات الأولى للاتصال مع العالم الخارجي

ترك قليل من المؤرخين وثائق عن العصر المظلم الذي تبع انهيار الامبراطورية المغولية، وكنتيجة لذلك ليس هناك أية معلومات معاصرة لتلك الحقبة عن بدايات انتشار الدين الأيزدي في القرن الرابع عشر. تظهر الإشارات الأولى إلى الدين الأيزدي في (الشرفنامه) وهو يدعى أحياناً ((سجل وقائع التاريخ الكردي))، وقد كتب في العام ١٥٩٧ إحياء لذكرى حوالي ثلاثين قبيلة كوردية وسلالات عوائلها الحاكمة، والمؤلف شرف الدين خان كان أمير بتليس، ويرجع تاريخ عائلته إلى عهد تيمورلنك، والتاريخ الذي يسبق ذلك العهد يخلط بين الحقيقة والاسطورة، ووفقاً لما يذهب إليه شرف الدين، فإن سبعة من القبائل الكردية الرئيسية في وقت أو آخر كانت كلياً أو جزئياً أيزدية، الدين الذي يصف المؤلف أتباعه بالتالي :

«هم يعتقدون خطأ بأن الشيخ آدي قد أخذ على عاتقه القيام بأداء واجباتهم من صيام وصلاة، وفي يوم البعث

سينقلون إلى اللجنة دون التعرض إلى أي عقاب أو توبيخ،
هؤلاء الكرد قد أقسموا على الكراهية والعداوة العنيدة
لفضائل الاسلام^(١) الحكيمة».

القبيلة الأيزدية الرئيسية آنذاك - والآن - هي (داسني)، التي تعيش
عند قدمات الجبال شمال وشرق الموصل وصولاً إلى معبد الشيخ آدي في
لالش، وقد عرفت منطقتهم في القرنين الأخيرين بشيخان، وقد عرفهم
ابن فضل الله في مسحه لكردستان، بأنهم فرع من البوط، عاشوا في
الجبال شمالي الموصل، وذكر بأن القبيلة قد انحلت وتبعثرت عندما غادر
زعيمهم بدر بن كبانك بحثاً عن مراعي أفضل تاركاً وراءه أقل من
١٠٠٠ ألف رجل في منطقة الموصل، وحوالي ٥٠٠ خمسمائة رجل آخر
في منطقة آكري (عقرة).^(٢)

ومقدمة كتاب الشرفنامه تدرج ضمن محتويات الكتاب فصلاً عن
داسني، لكن المخطوطة الأصلية للشرفنامه الموقعة من قبل المؤلف
والموجودة حالياً في نص الكتاب الثالث، الجزء الثاني، ينتقل المؤلف من
نهاية الفصل السادس إلى بداية الفصل العاشر دون أن يترك إيضاحاً في
النص أو الهامش^(٣) (والناسخون اللاحقون للشرفنامه تنبهوا للفجوة،
واضعين اللوم على المخطوط الذي اعتمدوا عليه في استساخهم)^(٤)

(١) شرف الدين البديسي: الشرفنامه، ترجمة كرومي، المجلد الأول، ص ٢٨.

(٢) شهاب الدين ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ترجمة كواتريمير.

(٣) يتقدم المؤلف بالشكر إلى السيد سي. ويكفيلد من قسم الكتب الشرقية بمكتبة بودليان في
أكسفورد للمساعدة القيمة التي قدمها له.

(٤) الشرفنامه / كرومي، ج ١، القسم الثاني، ص ٢٠٥، و ج ٢، القسم الثاني، ص ١٢٨ -
١٣١.

تتعامل الفصول الثلاثة المحذوفة مع قبائل تازرا، أوستوني (لم يعرف شرف الدين أياً من الاثنين بأنه أيزدي) وداسني.

وآنذاك كانت منطقة داسني تمتد باتجاه الجنوب الشرقي حتى أديابين وهي منطقة تقع بين الزابين الأكبر والأصغر، حيث كان لهم ضغينة مع أعدائهم التقليديين في سوران.

بقيت الموصل معقل الإسلام، ولكن إلى الشمال وباتجاه أعالي النهر تمكن الدين الأيزدي من إيجاد موالين كثيرين، وحول جزيرة ابن عمر اعتنقت نسبة كبيرة من قبيلة البوط الدين الأيزدي لوهلة (ربما قبل ١٤١٥) إن أمراءهم تقيّدوا بعبادات ومبادئ الأيزديين الوريين، لكنهم تراجعوا عن ذلك لاحقاً وتصالخوا مع الإسلام.^(١)

وفي حصنكيف حافظ خلفاء صلاح الدين على دينهم الإسلامي، وشاركوا في حملة ١٤١٥، ولكن مناطقهم شمال دجلة قدمت المراعي الصيفية لقبائل البدو الأيزدية الـ (خالتي) شرق باتمان و (بازيان) حول ميافارقين (سيلفان الحالية).^(٢)

وجاء ذكر قبيلتين أخريين في تقرير ابن فضل الله، قدمتا في الأصل من منطقة جزيرة ابن عمر، وحملتا معهما الاعتقاد الأيزدي: المحمودي، الذين شغلوا حامية هوساب القائمة على جرف صخري شديد الانحدار جنوب شرق وان، بينما انتقلت دونبلي إلى الجبال غرب بحيرة أورمية.^(٣)

(١) المصدر نفسه، ج ١، القسم الثاني، ص ٢٨ و ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، القسم الثاني، ص ٢٨ و ج ٢، القسم الأول، ص ١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، القسم الأول، ص ١٥٨-١٧٧.

ويعصف الشرفنامه جماعة أيزدية أخرى بعيداً إلى الغرب في شمال سوريا ذات تقاليد تعود إلى أفواج هكاري التي عملت تحت قيادة صلاح الدين، وبعد مضي زمن على طرد الصليبيين تم منح زعيم هكاري واسمه مند القلعة الصليبية في قصير (غربي حلب) وإقطاعية فأصبح ذا سلطة على الكرد المحليين الذين كان أغلبهم أيزديين آنذاك^(١)، والمنطقة الوعرة لجبل سمعان بين قصير وحلب، التي كانت تعج في يوم ما بالحجاج الذين كانوا يزورون ضريح سانت سيمون ستيلايتيس لا زالت تحتوي على قرى أيزدية.^(*)

وأحياناً يذكر كتاب شرف الدين جبل سنجار، لكنه لا يلقي الضوء على سكانه.

إن غياب السلطة التي أتاحت للإمارات الكردية الفرصة لتزدهر، وللدين الأيزيدي ليحقق توسعاً لم يدم طويلاً.

مات تيمورلنك في قمة عظمته، فظهرت تحالفات جديدة على السطح لتتحدى خلفاءه وتثير التنافس فيما بينهم في شرق الأناضول والعراق، ولكن في نهاية القرن الخامس عشر ظهر نوع جديد من القادة العسكريين.

إسماعيل الصفوي - أول شاه لإيران في العصر الحديث - كان زعيماً بالوراثة للطريقة الصوفية المتمركزة في أردبيل - مدينة في أذربيجان - وكانت تعاليمه قائمة على الأسس الشيعية، وكان يتمتع بالشعبية

(١) المصدر نفسه، ج ٢، القسم الأول، ص ٦٦-٦٩.

(*) راجع الفصل الثاني.

الواسعة بين صفوف الأتراك في شرق الأناضول، كما كان مصدر إلهام لسيل من المتطوعين المتعصين الذين انضموا إلى جيشه.

في سنة ١٥٠١ نودي بإسماعيل ذي الأربع والعشرين عاماً، والمنتصر على أعدائه شاهنشاهاً - أول (ملك الملوك) منذ أن فر يزدجرد من موطنه قبل ٨٠٠ سنة - وخلال سنوات قليلة تمكن إسماعيل من الاستيلاء على بلاد فارس، والعراق، وكل الأناضول شرقي الفرات، واحتل ديار بكر في ١٥٠٧، وبغداد في السنة التالية.

تمايل الزعماء الكرد - كل بطريقته - مع الريح، الدنيلي والحمودي وهما أقرب إلى بلاد فارس أظهرًا ولأيهما لإسماعيل، وأمير العمادية اعتماداً على الشيعة الغزاة استولى على الحامية الأيزيدية بدهوك على بعد ثمانية عشر ميلاً غرب لالش^(١) وانتظر وفد يمثل ثلاثة عشر زعماء آخرين قدوم إسماعيل تواقين لأن يؤكد ويثبت لهم إقطاعاتهم القديمة، وذلك بعد سقوط ديار بكر، وقبل الشاه باثنين منهم كقادة له، بينما أودع الآخرين في السجن، ومن ضمنهم أمراء جزيرة ابن عمر، وحصن كيف وبتليس، وبعد مرور ثلاث سنوات أطلق سراح السجناء وأرسلوا عائدين إلى قبائلهم، باستثناء اثنين منهم، أحدهم كان أمير حصن كيفا، والآخر جد شرف الدين، أمير بتليس، الذي هرب وحاول استعادة حاميته لكنه فشل في ذلك، وأخيراً ناشد ملوك الغرب لتقديم المساعدة له.

* * *

(١) المصدر نفسه، ج ١، القسم الثاني، ص ١٣٥.

وفي العام ١٥١٤ عندما وصلت رسالة الامير الهارب إلى السلطان سليم، كانت الامبراطورية العثمانية قد غزت وسط وغرب الأناضول، وأجزاء كبيرة من جنوب روسيا، ورومانيا، مع كامل شبه جزر البلقان، وكانت عاصمتها هي مدينة استانبول حيث حكم جوليان وهرقل وخلفائهم، كل هذه الغزوات والفتوحات تمت خلال ١٥٠ عاماً بعد أن عبر المرتزقة الترك العثمانيون إلى أوروبا للاشتراك في الحرب الأهلية اليونانية، ولكن على العكس من سلسلة انتصاراتهم على الدول المسيحية الضعيفة، وجد العثمانيون صعوبات جمة في التوسيع نحو الشرق، ووقع أحد السلاطين في أسر تيمورلنك، وكان العثمانيون محظوظين باستعادة استقلالهم على أثر موت تيمورلنك.

ولكن مجيء الشاه إسماعيل ومناشدته شبه الدينية لأتراك الأناضول شكل تهديداً خطيراً للامبراطورية، فبعد القضاء على تمرد أثاره أتباع إسماعيل، أمر السلطان سليم - سني متمت سمي للتو بالمتجههم - بايقاع المذابح بحق كل الشيعة في الأناضول، وهكذا فتح ممر أمين فتقدم الجيش العثماني نحو الشرق لإلحاق هزيمة منكرة بالشاه عند چالديران (شمالى بحيرة أورمية) في آب ١٥١٤، وخلال سنوات قليلة أصبحت كل من دياربكر، وأورفة، وماردين، والموصل، وسنجان واقعة تحت الحكم العثماني، فأسند الحكم في تلك المقاطعات الشرقية الجديدة للامبراطورية إلى ولاية عثمانيين، سمح حكمهم للإقطاعيات الكردية القديمة شرق دجلة بالبقاء والاستمرار كإمارات حدودية ذات حكم ذاتي.

وفي ١٥١٦ احتل سليم سوريا، ملحقاً الهزيمة بالجيش المصري، واستولى على حلب ودمشق. وأعلن قاسم بك زعيم كورد غربي حلب أعلن ولاءه للسلطان، وكان منذ فترة طويلة على خلاف مع المصريين الذين حاولوا نصب أيزيدي وهو الشيخ عز الدين مكانه، وفي السنة التالية بعد أن احتل سليم مصر وافق قاسم بك السلطان في مسيره عند عودته من رحلة النصر تلك إلى استنبول في حين تمكن الشيخ عز الدين من الفوز بالخطوة لدى الوالي العثماني الجديد لحلب، ورتب الايقاع بقاسم بك حتى أعدم بتهمة الخيانة، وعين الزعيم الأيزيدي أميراً على الكرد، ذلك المنصب الذي أحتفظ به حين وفاته، ولكنه لم يخلف أي أولاد، وبعد سنوات تمكن ورثة قاسم بك من استعادة الإمارة.^(١)

كانت من مزايا احتلال مصر السيطرة على الحج إلى مكة والمدينة، وبعد أن حصل السلطان سليم على ولاء السلطات المحلية تقلد لقب "ال خليفة وخادم الحرمين" وقطع وألغى سلسلة نسب الخلفاء العباسيين الذين تولوا الحكم في القاهرة منذ سقوط بغداد. وفي فترة حكم خلف سليم، السلطان سليمان العظيم، شهد التوسع العثماني في أوروبا أول مقاومة وصد حاسم على أيدي آل هابسبورك - عائلة نمساوية كانت تحكم ألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا والبلاد الغنية المكتشفة حديثاً في مكسيكو وبيرو - وبعد مرور سنوات قليلة على فشله في احتلال فينا، وقّع السلطان معاهدة تاريخية مع فرنسا - التي كانت حينها دولة غنية وذات حيوية يطمع فيها آل هابسبورك - وأعطى الحق للملك فرنسا لإقامة

(١) المصدر نفسه، ج ٢، القسم الأول، ص ٦٨-٧١.

محطات تجارية، يديرها قناصل مخولون، وصلاحيات غير عادية في حلب والموانئ المختلفة.

وبعد معركة جالديران، والموت المبكر لإسماعيل خف التهديد الفارسي في الشرق، وفي ١٥٣٤ شن سليمان حملة ضد خليفة إسماعيل، فانسحب جنود الفرس عند تحرك العساكر العثمانية الكبيرة من ديار بكر إلى وان (المكان الذي قبل فيه سليمان ولاء قبيلة محمودي)^(١) وتبريز، نحو الجنوب عبر الجليد والثلوج إلى همدان، وأخيراً بالاتجاه الجنوبي الغربي على طول طريق هولكو القديم إلى بغداد التي استلمت في شهر كانون الأول.

وخلافاً للمغول لم يستخدم سليمان الموصل كنقطة انطلاق لجيش ثانٍ موجهٍ إلى الجنوب عبر دجلة إلى بغداد، إذ كانت المنطقة الواقعة جنوب الزاب الكبير والحاميتان الأساسيتان: أربيل وكركوك، على طول الطريق من الموصل إلى بغداد، كانت تحت سيطرة قبيلة سوران الكردية الشيعية الذين هم خلفاء الشاه. وبعد احتلال بغداد قام السلطان - ولأجل تأمين مواصلاته مع الموصل - بإعدام أمير سوران، وعين أيزيدياً - وهو حسين بك من قبيلة داسني - ليكون حاكم أربيل، ولم تمضِ إلا فترة قصيرة حتى مات خلف الأمير المقتول وبذلك حاز حسين بك إمارة سوران كاملة.

إتصف الحكم الأيزيدي على قبيلة سوران باضطهاد عقيدة الشيعة، ولكنه كان قصير العمر، فأحد أبناء عمومة أمراء سوران الذي كان قد فر إلى بلاد فارس تمكن من السيطرة على أربيل في غياب حسين بك،

(١) المصدر نفسه، ج ٢، القسم الأول، ص ١٦٢.

وعلى أثره جمع الزعيم الأيزيدي قوة لاستعادة أربيل، لكنه هزم من قبل السوران وخسر ٥٠٠ رجل وكثيراً من الغنائم، وبعد صد محاولته الثانية، استدعي حسين بك إلى استنبول ليدفع حياته ثمناً لإخفاقه (وبعد ذلك أعلن السوران ولاءهم للحكم العثماني).

وفي غضون ذلك عاد السلطان إلى عاصمته عن طريق بحيرة أورميه وتبريز، ورتب شؤون كردستان، وأعدم الزعيم الخمودي المختل^(١)، وخلال عهده الطويل خاض سليمان حرين آخرين ضد بلاد فارس، و لكن الحدود رسمت تبعاً لاتفاقية العام ١٥٥٥ التي تتطابق إلى حد كبير مع الحدود الغربية الحالية لإيران.

وبحلول نهاية القرن السادس عشر كانت قبيلة دونبلي قد وقعت على الجانب الفارسي من الحدود، والزعماء وأكثر رجالها تحولوا إلى المذهب السني المسلم، ولكن أقلية منهم تشبثت بالعقيدة الأيزيدية، وهاجر بعضهم لاحقاً إلى الأناضول^(٢) أما أعداؤهم التقليديون الخموديون فقد سكنوا في الطرف العثماني من الحدود جنوب شرق وان، وغالبية هذه القبيلة اعتنقت الإسلام بدعوة من زعيمها.^(٣)

حافظ الدين الأيزيدي على وجوده على طول وادي دجلة بين دياربكر والموصل، وبقعة في جبل سمعان غرب حلب، وحوالي هذه الفترة بدأت الديانة تأخذ شكلاً جديداً وتزدهر في جبال سنجار المنعزلة

(١) المصدر نفسه، ج ٢، القسم الأول، ص ١٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، القسم الأول، ص ١٦٩. جين أوتر: رحلة إلى تركيا وبلاد فارس، ج ١، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٣) الشرفنامه / كرومي، ج ٢، القسم الأول، ص ١٦٥.

المهملة منذ أيام الاتابك لؤلؤ، والتي دخلت ضمن الامبراطورية العثمانية منذ ١٥١٧.

* * *

في بداية القرن السابع عشر نجح الأيزديون بجبل سنجار في إلحاق هزيمة نكراء بالقائد العسكري العثماني نصوح باشا.^(١)

في القرن السابع عشر كفة الميزان بين الامبراطورية العثمانية المنهمكة بشكل عميق في الحروب الاوربية، وبلاد فارس التي كان يحكمها الشاه عباس، مالت إلى جانب بلاد فارس وسمح حاكم بغداد المتمرد للفرس بإعادة احتلال المدينة في ١٦٢٣، وبذا فقد العثمانيون لفترة قصيرة كركوك والموصل، لكنهم سرعان ما استعادوهما.

وفي فترة ما من هذا العهد المضطرب انقطعت سلسلة نسب حكام داسني المنحدرين من الشهيد الشيخ حسن وذلك بإزاحته من قبل زعيم في جبال سوران وراء الزاب الكبير والذي أرجع نسبه إلى الشيخ أبي بكر أحد أبناء عمومة الشيخ آدي، وبعد قتل الأمير الداسني وثمانين من أتباعه أسس الشيخ محمد - المعروف بالكردي الأربيلي الباطني - عائلة حاكمة أميرية لا زالت تحكم الأيزديين وتقوم بحماية حرم لالش، وعين الأمير الجديد تابعين له من عائلة نبيلة قريبة له (باسماريا)^(*) لتبثت

(١) أوليا جلبي: سياحتنامه - جودت وعاصم، ج ٤، ص ٦٧، نقل عنه الدكتور ثيودور منزل في مساهمته في مؤلف هوكو كروث، ج ١، ص ٢٠٦.

(*) يتبين أن الكاتب اخطأ في ذكر اسم هذه العائلة اذ من الواضح انه يقصد عائلة (بسميران) والتي هي قريبة من العائلة الاميرية كما تبين من الاسم. المترجم.

حكمه^(١)، في حين أن السلطان العثماني مراد الرابع، الخليفة الجديد والكفوء للسلطان سليم المتجهم، قاد جيشاً تحت قيادته الشخصية لاستعادة بغداد، دون أن يعطي الأقدار أية فرصة، وبدأ حملته بحلب فأورفة، دياربكر، ماردين، الموصل، وكركوك، وصولاً إلى أسوار بغداد في اليوم ١٩٧ من مسيرته، وفي نهاية كانون الأول من العام ١٦٣٨ أكتسح المدينة واستعادها، وسجل مؤرخون معاصرون مآثر وبطولات فرقة داسنية تحت قيادة زعيم يدعى ميرزا بك^(٢) وفي كانون الثاني ١٦٣٩، غادر مراد باتجاه استنبول حيث مات في السنة التالية، وهو يعتبر السلطان العثماني الثاني والأخير الذي زار العراق، وبعد مرور سنوات على وفاة السلطان مراد، كانت السياسة العثمانية تترنح في مسيرتها بتأثير القوى المتنازعة والمتنافسة.

في ١٦٤٩ قام الوزير الأعظم (الباب العالي) قره مراد باشا بتعيين الداسني ميرزا بك والياً على الموصل برتبة باشا، وفي السنة التالية تمت تنحية الباب العالي فذهب ميرزا باشا إلى استنبول بحثاً عن وسيلة تحفظ له منصبه.

الباب العالي الجديد مَلَكَ أحمد باشا لم يكن يثق بالأيزيديين، ففي ١٦٤٠ عندما كان والياً على دياربكر قاد حملة تأديبية ضد كورد ساحلي قبيلة أيزيدية تسكن جبل سنجار، والتي كانت تقوم بقطع الطريق ونهب قوافل التجار والحجاج وشن الغارات على القرى في سهل

(١) هنري فيلد: يزيدو العراق، في فيلد و ج. ب. كلوب: اليزيدية والسوبا وقبائل أخرى في العراق والمناطق المجاورة، ص ٥. صديق الدمولوجي: اليزيديون، ص ٢٠-٢١ يذكر أن هذه الثورة قامت في أوائل القرن الحادي عشر الهجري (١٥٩٢/١٥٩٣ - ١٦٨٨/١٦٨٩ م).

(٢) مصطفى نعيمة: تاريخ نعيمة، ج ٥، ص ٩٢-٩٣.

ماردين، حاصر الجيش العثماني الجبل واكتسح المواقع الأيزيدية، وبعد خسائر فادحة من الجانبين أفلح في استرداد البضائع والسلع المنهوبة.^(١) وبعد شهور من المحاولات المكلفة وغير المجدية رجع ميرزا باشا من اسطنبول إلى موطنه، فتمكن منافسوه من اقناع الباب العالي بأنه يزمع على إثارة المتاعب والمشاكل، فاعترضت مجموعة من العساكر يرافقها نسيب للباب العالي وهو أوليا جلبي سبيل الزعيم الداسني بعد مغادرته العاصمة بفترة قليلة، وأعدم في طريق عودته، وأرسل رأسه إلى القصر ليتم عرضه من فوق بوابة طوب قابي.^(٢)

وبعد أيام قليلة صرف ملك أحمد باشا عن منصبه، وكان الباب العالي السابق يشغل منصباً هاماً في البلقان، وفي أوائل العام ١٦٥٥ عين والياً على وان، وإحدى خطواته الأولى كان إرسال نسيبه أوليا جلبي إلى دياربكر لاستحصال دين قديم من الوالي المحلي فراري مصطفى باشا، وقد سجل أوليا جلبي أسفاره العديدة هذه في كتاب هام وصلنا الكثير منه.

ويذكر أوليا جلبي أنه عندما وصل إلى دياربكر علم بأن الوالي قد غادر في حملة لجمع الضرائب من أيزيديي سنجار، وأنه التقى بمصطفى باشا في شهر مايس ١٦٥٥ معسكراً في السهل أسفل بلد سنجار، الجبليون كانوا على القمم والسفوح، ولم يكن الوالي يدري كيف يبدأ بالتقدم، فأعاد أوليا جلبي عليه سرد قصة حملة عمه عليهم في ١٦٤٠،

(١) أوليا، ج ٤، ص ٦٥-٦٨ و ٧٠، نقل عنه منزل / كروث، ج ١، ص ٢٠٤-٢٠٦ و ٢١١.

(٢) أوليا، ج ٣، ص ٢٦٧-٢٧٨، نعيمه، ج ٥، ص ٩٢-٩٧.

وأخيراً أرسل الوالي إليهم وفداً (ضم أوليا نفسه) للتفاوض مع المتمردين، وطلب منهم دفع الضرائب، فرد الكرد عليه بأنه إذا عاد ملك أحمد باشا لمحاربتهم فإنهم على استعداد لأن يمرغوا وجوههم تحت قدميه، ولكنهم لن يدفعوا لمصطفى باشا سوى عشرة أحمال من الحرير، فامتلك الباشا السخط والحنق، وطلب الامدادات.

عندها عاد أوليا باشا أدراجه وبقيت نتائج الحملة غير معروفة. قضى أوليا مع الوفد ليلة في الجبل، وهو يصفه بأنه فردوس خارج على القانون، يرويه سبعون ينبوع ماء، مأهول برجال ذوي أجساد قوية ممتلئة وقصار القامة نسبياً، مع شعر أشعث، وعيون مستديرة سوداء، يرتدون البسة صوفية ملونة، وأحزمة وعمائم من الحرير، وأحذية ثقيلة من الخيزران، مسلحين بالخناجر والسيوف المعقوفة وفؤوس الحرب والبنادق، إنهم ماهرون إلى درجة أنهم يستطيعون إصابة البرغوث في عينه، ونسأؤهم يدعن شعرهن ينمو ليطول ويتدلى حتى يبلغ الكاهل، الكلاب - وأغلبها أسود - عزيزة عندهم، غذاؤهم اليومي يتألف من خبز الدخن، مع لحم الضأن، وأحياناً لحم طائر السمّان، ولديهم المن والعسل والزبيب والحرير وكلها بضائع ذات قيمة عظيمة لدى التجار في ماردين وبغداد.

ولم يخض في ديانة الأيزيديين بسنجار، وهو يصفهم بالملحدين، وقد لاحظ أنه بالإضافة إلى الأيزيديين، فإن أهالي الجبال يضمون مسلمين كورداً وعرباً، والأراضي الصحراوية إلى الغرب كانت مراعي تستخدم في عهد جوليان، من قبل قبيلة طي العربية.^(١)

(١) أوليا، ج ٤، ص ٦١-٧١، نقل عنه منزل / كروث، ج ١، ص ١٩٤-٢١١.

مهمة أوليا الثانية في تلك السنة أخذته إلى تبريز الخاضعة مرة أخرى للنفوذ الفارسي، حيث فاض من أجل إطلاق سراح والي بغداد العثماني الذي اختطفه قطاع الطرق من قبيلة دونبلي، وبعد جولة في غرب بلاد فارس يصل أوليا إلى بغداد في شهر كانون الثاني من العام ١٦٥٦ - وبعد أسابيع قليلة يغادر إلى الموصل في رحلة طويلة عائداً إلى وان، ولكنه بعد مغادرته للموصل يلتف في انعطافة طويلة بطريقه متجهاً أولاً إلى الجنوب إلى برقانا المكان الذي يلتقي فيه دجلة والزاب الكبير، ومن هناك اتجه شمالاً نحو موطن داسني، فشمالاً مرة أخرى صوب العمادية وأخيراً اتجه غرباً إلى جزيرة ابن عمر.

ومن المؤسف أن وصف أوليا لزيارته إلى داسني قصير ومختصر جداً. إثر تركه برقانا كانت محطته الأولى مانار، وهي قرية تتكون من ٥٠٠ بيت تعود إلى منطقة اكري (عقرة) وهي تتبع الموصل، كانت مأهولة بالأيزيديين، وكلهم مسلحون بالبنادق، وحاذقون ورماة مهرة، بمقدورهم إصابة العصفور في عينه، وكل مسلم وجه شتيمة إلى الشيطان أو يزيد أو "الكلب الأسود" يكون قد جازف بالموت الفوري المحتم، وكانت العقوبة نفسها تفرض على كل شخص داس على البصل أو اعتدى بالضرب على كلب أسود.

وفي اليوم التالي وصلت جماعة أوليا إلى مقر الزعيم الداسني الذي وصفه بأنه "أحد الزعماء القبائليين العظام في منطقة دهوك تتبع الموصل"، وقد بذل لهم الزعيم أقصى درجات الضيافة، ويصفه أوليا بأنه رجل ذو عزم وشجاعة وأخلاق حميدة، كما لاحظ بأن هناك عشرة آلاف مسلح بالبنادق تحت إمرته، وأن الأيزيديين يكونون البغض والكراهية للشيعية.

ويقول أوليا: إن حرم الشيخ آدي يقع في مركز المنطقة الأيزيدية، وأنه كان عبارة عن "دير كبير إلى جانب ضريح تعلوه قبة عالية، من بين مئات ألوف المعابد السنية الكردية، ولا معبد يجاري هذا الصرح بزخارفه الذهبية الفاخرة".

حاول الأيزيديون إقناع أوليا بأن الشيخ آدي كان أحد أتباع الإمام حسين في كربلاء وقد تركه وانضم إلى أعدائه، ووفق هذا المصدر فإن أوليا سخر من هذه المعلومة البارعة بل غير صحيحة، مفضلاً تصديق أن الشيخ آدي كان صحابياً للنبي محمد، الذي توفي بجراح أصابته عند استيلاء العرب على الموصل.^(١)

في ١٦٧٢ صادف الراهب الكرملبي بير جان ماري دى جيسس على مقربة من نصيين إحدى القبائل المهاجرة التي كانت تشكل عنصراً مهماً في الحياة الأيزيدية للقرن السابع عشر. يقول في يومياته :

«التقينا بالملك) أو (الأمير) الأيزيدي أو الكردي، الذي كان في طريقه من الصحراء لقضاء الصيف في برودة الجبال، مع عدد لا يحصى من الناس، كلهم فقراء وبائسون، وكانوا يقودون أعداداً كبيرة من الأغنام والأبقار التي يعتمدون عليها في معيشتهم. ويتقدم هذا الأمير - إن صحت تسميته بذلك - شعار محمول، له حاشية حمراء يتخللها اللون الأصفر موشح برمز محمدي فقد كان مرسوماً عليه الهلال والأوسمة السبعة، وعلى الجانب الآخر سيف منفرج الطرف، وتبع ذلك حوالي سبعة أشخاص على ظهور الخيول مسلحين بالسهام والسكاكين، وأخيراً

(١) أوليا، ج ٥، ص ٦-٩.

جاء الملك متلفعاً بكساء من القرو عليه خطوط خضراء،
وعلى رأسه عمامة تركية بيضاء، كما كان هو الآخر ممتطياً
صهوة جواد، ويمكن القول بأنه كان هزياً.. شاهدنا كل
هذا على نصف مسافة رمية حجر^(١).

لم تكن عودة ظهور المبشرين المسيحيين صدفة في الشرق الأدنى، فقد
كان توازن القوى قد تغير في أوروبا، آل هابسبورك، الذين أنهكتهم
الحرب الأهلية في ألمانيا، وإفلاس إسبانيا، أديا إلى انحسار الدولتين.
وأصبحت فرنسا الآن القوة البارزة في الغرب، وفي النصف الأول
من القرن السابع عشر غدا كبار كهنتها كرادلة في الكنيسة الكاثوليكية.
وفي ١٦٢٢ أسس البابا كريكوري الخامس عشر جماعة الحشد
المقدس لنشر العقيدة وهي مؤسسة تعرف بصورة عامة بمجمع التبشير
هدفها هداية الكفار إلى المسيحية، وإعادة بروتستانتية شمال أوروبا
والطوائف النصرانية في المشرق إلى الكنيسة الكاثوليكية.

وبالرغم من أن الامبراطورية العثمانية كانت قد حافظت على النظام
التقليدي للخلفاء في التعامل مع أهل الكتاب، والذي بموجبه يقوم
بطريك بإدارة شؤون الطوائف المسيحية وجباية الضرائب، لكن ظروف
الكنائس كانت مأساوية، الكنيسة النسطورية - وهي أقدمها جميعاً -
دامت تحت ظل نظام وراثي لبطريك يعيش في ألقوش، ولكن أيام مجدها
كانت قد أفلت وأنقضت منذ زمن بعيد، ففي القرن السادس عشر
انشقت الاسقفية الشمالية التي امتدت من ديار بكر وماردين إلى جبال
هكاري وبحيرة أورمية تحت بطريك منافس انضم إلى روما (وعند نهاية

(١) تاريخ للكرومليين في بلاد فارس والبعثة البابوية في القرنين ١٧ و ١٨، هـ. ج، جك، ج ١،
ص ٤٢٧-٤٢٨.

القرن السابع عشر قطعت هذه البطيركية التي كانت قد انتقلت إلى منطقة أورمية علاقتها مع البابا)، وفي جنوب الهند البعيدة كان النسطوريون المضطهدون بصفتهم ملحدين من قبل البرتغاليين قد قدموا ولاءهم للكنيسة اليعقوبية في ١٦٦٥، وقبل ذلك بسنوات قليلة مات آخر مطران نسطوري بسنجار، ولم يعين أي خليفة له، وبعد فترة اعتنق أتباعه الدين الأيزيدي.^(١)

البطريك اليعقوبي كان لا يزال يعيش في كنيسة دير الزعفران خارج ماردين، ويدير شؤون الطائفة المنكمشة كثيراً على نفسها في طور عابدين، ونائبه في العراق، الملقب بـ (Maphrian) كان قد اتخذ من الموصل مقراً لإقامته.

أنيط العمل التبشيري الكاثوليكي في الشرق الأدنى من قبل مجمع التبشير إلى المقاطعات الفرنسية لطوائف الكبوشية والكرملية واليسوعية (بعثة فرانسيسكانية، يجند حالياً أفرادها بصورة رئيسية من إيطاليا وإسبانيا، وكانت تقوم ومنذ فترة طويلة بحماية الأماكن المقدسة المسيحية في القدس وبيت لحم والناصره، واهتمت باحتياجات الحجاج والقناصل الفرنسيون في حلب والمدن الأخرى وقروا - إلى حد ما - الحماية الدبلوماسية للمبشرين. وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان الراهب الكبوشي لمقاطعة تورين يدعم البعثات التبشيرية في مصر،

(١) ف. ليوناردو سيسيليا، Carmelito scalzo Mesopotamia ovvero Terzo viaggio dell Oriente، ص ٥٤. (أسحق البرطلي) مخطوطة حول اليزيديين، القسم الثاني، ترجمة بونكون، تحت عنوان: ROC، sur les Yezidis du sindjar، المجلد ١٠ (١٩١٥-١٩١٧) ص ٣٢٧-٣٢٩. راجع أيضاً جي. م. فيسي Assyrie Chretienne، ج ٢، ص ٤٦٥-٤٦٦.

وقبرص، وسوريا، وميسوبوتاميا، وبلاد فارس، والهند، ويشرف عليها " Custos " في حلب.

كان بير جان بابتست دي سانت ايكسان المولود في قرية صغيرة واقعة على نهر (Cher) شرق (Tours) مبشراً لأكثر من ستة عشر عاماً عند قدومه إلى حلب في ١٦٦١، وبعد إتقانه اللغة العربية أسندت إليه ميسوبوتاميا، وتسجل وثائق أرشيف كنيسته أنه كان رجلاً غير عادي من حيث العزيمة والتصميم (وفق أحد المصادر: إنه ذهب مرة من الموصل إلى حلب مشياً في اثنين وثلاثين يوماً) وقام بنشر التعاليم المسيحية في كل أنحاء سوريا، والأناضول، والعراق.

وقد وفق بير جان - بابتست لهداية البعض إلى المسيحية وهم على فراش الموت، وكان عندما يخرج قارورة محتوية على الماء المقدس (في هيئة محلول نفيس) يفرك قطرتين أو ثلاثة على معدة المريض، ويسكب قطرات أخرى على رأسه، مردداً بنعومة كلمات السر المقدس.^(١)

وفي ربيع العام ١٦٦٧ أستدعي من الموصل إلى مقر البعثة في حلب، وفي الطريق تم احتجازه في ديار بكر لشهور عديدة بغرض معالجة الباشا وأخيه اللذين كانا قد أصيبا بداء مميت (ومكافأة له على عمله أذن له بفتح بعثة تبشيرية في تلك المدينة للعمل مع النسطوريين المحليين الذين تحول أسقفهم لاحقاً إلى الكاثوليكية وأسس خطاً جديداً للبطاركة

(١) تقرير بير جان - بابتست ايكسان المؤرخ في ٢٠ أيار ١٦٦٩ في (Documenti inediti sull' and manuscript not published, ص ١٣ و ١٨-٢٤ نقل عنها ب. كيلمانت دا ترزوريو وقد اطلع المؤلف شاكرًا على مخطوطة أبريكي من لدن Bibliothegue Franciscaine provinciale باريس. راجع أيضاً ألبرت لامبارت Ein Martyrer der union mit ROM: joseph I 1681- 1696 patriarch der Chaldaer ص ٨٥-٩٥.

الكلدان). وعندما وصل أخيراً إلى حلب في العام ١٦٦٨، أسندت إليه مسؤولية إدارة البعثة المحلية هناك، وبعد مضي سنة عين (Custos) لكل بعثات التبشيرية الكبوشية في الشرق الأدنى.

ومن بين القلة من الرهبان الكبوشيين في حلب كان بير جستين دي نوفي سور لوار مبشراً يملك خمس سنوات من التجربة والعيش بين الأرمن المحليين، كما كان يتكلم العربية بطلاقة ويلم باللغة الكردية، وفي مستهل العام ١٦٦٨ ونتيجة اتصالاته مع الأرمن بلغته أخبار إليه حول الأيزيديين الذين يعيشون على مقربة من هناك في جبل سمعان وكان هناك تبادلاً للعلاقات التجارية فيما بينهم.^(١)

وبصورة ما التقى اثنان من الزعماء الأيزيديين مؤخراً بقس بروتستانتى للجالية الانكليزية في حلب، فأخبراه بأنهما ولأربعين عاماً يدعوان الله أن يريهم الطريق القويم إلى الخلاص وأن علامات وحوافز قوية وإيمان داخلي أقنعهما بضرورة اعتناق المسيحية، فرحب القس بهما بلطف لكنه لم يمنحهما الهداية.

أخفق الأرمن في اطلاع الأيزيديين على حقيقة أن الانكليز أنفسهم قد ضلوا وانسلخوا عن الكنيسة الكاثوليكية، فذهب كل من بير جان - بابتست و بير جستين على الفور إلى الأرمن الذين كان الأيزيديان ينزلان ضيوفاً عليهم، وبعد أيام من المناقشات والمجادلات أيقن المبشرون أن الأيزيديين كانوا مخلصين في مسعاهما فتم إقناعهما بأن البابا هو الأب الحقيقي لكل المسيحيين، وتم ترتيب الزيارة لبير جستين

(١) AP / SOCG العدد ٢٣٩، ٢٢٨ ر - ٢٣٨ ف: تقرير جان - بابتست المؤرخ في ٤ تموز ١٦٦٨ إلى مجمع التبشير (يضم النص الكامل لتقرير بير جستين دي نوفي حول زيارته الأولى للأيزيديين).

إلى الطائفة في الأسبوع الذي يليه، وفي تقريره المقدم بكامله إلى مجمع التبشير يصف مغادرته لحلب مشياً على الاقدام برفقة دليلين أيزيديين، وبعد الابتعاد عن المدينة بمسافة نصف فرسخ ألبساه ثوباً عادياً بعد أن نزعا عنه ما كان يرتديه، وأركباه على حصان متوجهين نحو المناطق الأيزيدية، أخبر مرافقه المتطفلين الفضوليين بأنه في زيارة إلى المعابد المسيحية، وفي الصباح بلغوا قدمات الجبال حيث كان هناك شيخ أيزيدي يدعى عادي بانتظارهم، وألقى التحية على المبشر بالحناءة كبيرة، واحتضان ودي حار، وجرعة من البراندي، وكان وصول الشيخ الآخر متوقعاً بوقت قصير من قليس - مدينة تبعد حوالي إحدى عشرة ساعة -، وعندما وصل بير جستين إلى المعسكر الأيزيدي، شرعوا بذبح خروف أمامه ترحيباً بقدومه، وذلك على أصوات موسيقى الناي والدف والطبول والعزف على العود، وخرجت النساء من خيام سوداء وهن يرتدين أجمل ملابسهن ويهلهلن فرحاً، وامتد الاحتفال لعدد من الأيام مع رقصة شعائرية على شرف البابا، والملك الفرنسي، والقنصل الفرنسي، والبعثة التبشيرية الكبوشية، واستهلكت كميات كبيرة من البراندي، ومع ذلك فإن رجال القبيلة وشيوخها احتفظوا بوقارهم، وطول فترة بقاءه لم يسمع المبشر كلمة واحدة طائشة أو تصرف مستهتر، ووصف الأيزيديين بأنهم متحفظون متواضعون وصريحون.

رغب الجميع من الشيوخ، والكهنة ذوي الأردية السوداء، ورجال القبيلة - الذين إرتدوا ملابس بيضاء قطعت بصورة مستديرة عند العنق - في الحصول على معلومات حول الدين المسيحي، كانت هناك خطة لإجراء قداس مع أصوات الدف والطبول في بقايا خرائب كنيسة

سانت سيمون ستايلت وكان هناك حديث حول اجتماع وفود تمثل كل المناطق الأيزيدية في بلاد فارس والامبراطورية العثمانية لإرسال وفود تمثلها إلى البابا.

اقنع الأيزيديون بير جستين بأنهم لا يعبدون الشيطان، وأن رفضهم توجيه الشتيمة واللعنة إليه إنما هو جزء من حكم عام يلتزمون به ألا وهو عدم جواز توجيه اللعنة إلى أي من مخلوقات الله يقول المبشر: "وعندما رأيت حماسهم وانجذابهم نحو احتضان الكنيسة، دموعهم وعواطفهم إعتقدت بأنني في الحلم لا في الواقع".

خرج بير جان بابتست من حلب بتشجيع من بير جستين محتفلاً بيوم سمي باسمه عن طريق إقامة قداس فجر في ٢٤ حزيران من عام ١٦٦٨ في جبل سمعان. وقراءة للفصل الأول من سفر إرميا كان كافياً لتهدئة قلقه من أن الأيزيديين ربما لا يفقهون التلاوة اللاتينية والتي أجريت من قبل اثنين من الرهبان الكبوشيين وثلاثة إخوة أرمن، أحدهم كان يلبس رداء كهنوتياً أبيض، بدأ القداس بترنيمة (Veni Sreator Spiritus - تعالي أيتها الروح المقدسة، تعال أيها الخالق المبارك) واختتم بتعميد الشيخين تحت اسمين جديدين هما بيتر وبول.

تجمع حشد كبير من الأيزيديين للترحيب ولقاء المبشرين، تذكر أحد رجال القبيلة قصة موروثة مفادها أن جماعته منحدره من بعض الصليبيين القدماء الذين فروا إلى الجبال بعد سقوط أنطاكية، المضايقة الوحيدة جاءت من الأرمن الذين أصروا على صيد السمك رغم مناشدة الأيزيديين إياهم لحفظ حياة الحيوانات المقدسة، وعندما عاد بير جان -

بابتست إلى حلب حل محله في إدارة شؤون البعثة بير جستين، وقضى سبعة شهور في الجبال، وقام بتعميد ثلاثة عشر أيزيدياً آخرين، وفي شهر تشرين الثاني عام ١٦٦٩ كان في حلب ينتظر قدوم الدليل لأخذه إلى تجمع زعماء أيزيديين على بعد أربعة أو خمسة أيام. . عندها اقلب الحلم إلى حقيقة، الأرمن الذين قاموا في الأصل بتعريف بير جستين بالأيزيديين عليه وأقنعوا دليله المتوقع وصوله بتقديم شكوى بأن المبشر قد اغتصب سلطات زعيمهم، وأن رجال القبيلة يفضلون التعامل مع إحدى الكنائس الأخرى.

رفض الكرمليون الاقتراح، ولكن اليسوعيين الذين كانوا قد استهدفوا الأيزيديين كمرشحين لاعتناق المسيحية قبل ثماني عشرة سنة^(١) قبلوا، وزار أيزيديان آخرون - زعيم يدعى درويش سوار، وشيخ ذو نفوذ كبير يسمى بركات بك - الكاهنين اليسوعيين، وترك تشابه اسميهما وزيهما انطباعاً جيداً على الزائرين. وألح الأرمن إلى أن تقديم إعانة مالية لأصدقائهم الأيزيديين سوف تكون مقبولة جداً.^(٢)

وأخيراً تم حل الخلاف من قبل القنصل الفرنسي الذي حكم بأن اية محاولة تبشيرية تشمل أو تستلزم دفع المال، يجب أن تحصل على موافقة ومصادقة البعثات الثلاث معلقاً بذلك العمل بين الأيزيديين المحليين.

ولم يكن بير جان - بابتست دي سانت ايگنان بالرجل الذي يصيبه اليأس بسرعة، ففي شهر نيسان من العام ١٦٧٠ أخطر وزير المالية

(١) ثير جان أميو: تفوق البعثات اليسوعية في سوريا وبلاد فارس، التقرير السوري للعام ١٦٥٠ المؤرخ في ١٦ كانون الثاني ١٦٥١.

(٢) AP / SOCG العدد ٢٣٩، تقرير البعثة الكبوشية (في حلب) في الأول من نيسان ١٦٧٠ إلى مجمع التبشير.

الفرنسي سولبر بأنه ما زال مستمراً في اتصاله مع الأيزيديين، وذكر له بأنهم أبدوا استعدادهم التام لتجهيز فرنسا بثلاثين ألف رجل متى ما قرر الملك مهاجمة أعدائهم المشتركين، كما كتب بذلك إلى المرجع الأعلى لكنسيته بفرنسا لاحقاً، وفي ذلك العام حصل على موافقة مجمع التبشير على مواصلة عمله في البعثة الأيزيدية مع ضرورة المحافظة على الهدوء والكتمان ودون إعلام البعثات الأخرى.^(١)

وفي وقت مبكر من عام ١٦٧١ وصل إلى حلب قنصل فرنسي جديد هو جوزيف دوبون وفي رسالته الأولى الموجهة إلى مجمع التبشير أثار مسألة البعثة التبشيرية لدى الأيزيديين، غير مطلع على التعليمات السرية في روما، واقترح تقسيم المنطقة بين الكنيسة الكبوشية واليسوعية مشيراً إلى أن القسم الأكبر من الطائفة الأيزيدية لا زال أقرب والوصول إليه أسهل من قبل البعثات الكبوشية في ديار بكر والموصل، وتبعاً للإجراءات الرسمية الاعتيادية، قام بإرسال نسخة بعد شهر مع ذيل دوّن فيه بعض التفاصيل التي نسي ذكرها في حينه.^(٢)

روى بأن الزعماء الروحيين للأيزيدية الموفدين من مناطق نائية من قبل كاهن كبير يدعى شيرسوار قد تجمعوا ومنذ أشهر قرب معبد سانت سيمون ستايلات منتظرين بصبر جواباً من البعثات الكبوشية، واثنان منهم كانا قد التقيا باليسوعيين مؤخراً.

(١) رسالة جان - بابتست في ٦ نيسان ١٦٧٠ إلى كولبرت الموجود في Documents inedits، ج ١، ص ٥١٢. AP / Acta العدد ٣٩ (١٦٧٠) ص ١١٠-١١٢: تقرير الكاردينال بونا في ٧ تموز ١٦٧٠، AP / SOCG العدد ٤٢٩ (١٦٧١): رسالة جان بابتست في ٨ تشرين الثاني ١٦٧٠ إلى مجمع التبشير.

(٢) AP / SOCG العدد ٤٢٩ (١٦٧١): رسائل دوبون ٧ شباط و ٤ آذار ١٦٧١ إلى مجمع التبشير ملخصة في AP / Acta العدد ٤١ (١٦٧١).

ورسالة دوبون الثانية استهدفت التخفيف من قلق روما بشأن كون المناطق الأيزدية غير آمنة، وفي النظرة العامة لكن المختصرة - الدراسة الأولى من نوعها منذ دراسة الشرفنامه غير الكاملة - وصف حالة الطوائف الواقعة شرق حلب، وبصورة غير مقصودة كشف عن الاتصالات الجيدة القائمة بينهم.

وعلى جبل سنجار انتهت ثلاث سنوات من المعارك المحتدمة بين قبيلة ساجلي وجيوش الباشوات، بانتصار الجبلين الذين أسروا أكثر من أربعة آلاف شخص، مما جعل الطريق إلى جبل سنجار سالكاً. وكان رجال قبيلة أنيدي (دندي) الذين يعيشون في السهل أسفل ماردين، أكثر عرضة للخطر، فقد كانوا يرسلون هدايا سنوية وبعض الماشية إلى السلطان، وإلى باشا ماردين أيضاً.

وقبيلة الداسنية التي تعيش بالقرب من الموصل إلى جانب نهر الزاب، كان لها أميرها، وأعلنوا على الشهود بأنه لو قام النصرانيون بحمل إشارة الصليب على جباههم فإنهم (الأيزيديون) سوف يحملونه على رؤسهم.

وأخيراً وليس آخراً الخالية قبيلة تسطو وتنهب وتعيش بمحاذاة نهر باتمان على مقربة من بتليس (صادفها في ١٦٠٠ جان كارترايت وهي رحالة إنكليزية)^(١)، وكانوا يدينون بالولاء المباشر للكاهن الأعلى شيرسوار ولمثليه المجتمعين الآن على جبل سمعان.

(١) جون كارترايت: رحلات المبشر، ص ٢٠-٢١ ملخص في ساموئيل بيركاس: رحلاته، ج ٨، ص ٤٨٧-٤٨٨.

المصادقة من مجمع التبشير جاءت متأخرة، ففي شهر حزيران من العام ١٦٧١ روى بير جان - بابتست ورؤساء الكنائس الكرملية والفرنسيسكانية بحلب باقتضاب: إثر تيقننا بعد تجاربنا هناك بأن لدينا القليل من الفرصة لتحقيق أي مكسب مع عبدة الشيطان الأيزدية، توصلنا إلى قرار التوقف عن محاولتنا لهدايتهم أما اليسوعيون فقد استمروا في عملهم.^(١)

وتاريخ الامبراطورية العثمانية الذي نشر في عام ١٦٨٠ من قبل السر بول رايكوت وهو إنكليزي أقام في استنبول وأزمير لفترة طويلة، يروي قصة عن الأيزيديين "من أمثال هؤلاء من مواطنينا، الذين أمتعنا بهم المجتمع مؤخراً" يقول :

((الموطن الرئيس، وبلدة هؤلاء قرب حلب تدعى جومي (الاسم الكردي لوادي عفرين) المكان الذي لديهم فيه دير يعيش فيه اثنا عشر راهباً برفقة رئيس أعلى يشرف عليهم، ودير آخر مثله قرب الموصل أو نينوى، زعيما هذين الديرين يجتمعان في أوقات محددة للمشاورة وتحقيق المصلحة العامة، يقومون بممارسة طقوس العبادة في سر وعزلة بداخل كهف، يتكلمون عن كتاب واحد يحوي على قوانينهم وطقوس شعائهم)).

ولا يذكر رايكوت الجهود المجهضة للمبشرين الانكليز، لكنه يدعي إمامه بها :

(١) AP / SOCG العدد ٤٣٤ (١٦٧٢): رسالة جان بابتست في الأول من حزيران ١٦٧١ إلى مجمع التبشير ملخصة في AP / Acta العدد ٤٢ (١٦٧٢) راجع أيضاً AP / SOCG العدد ٤٣٨ (١٦٧٣) رسالة بير جان - فرانسوا سيفن في ٢٨ كانون الأول ١٦٧٢ إلى مجمع التبشير ملخصة في AP / Acta العدد ٤٣ (١٦٧٣).

((في يوم من الأيام وجه الأيزيديون دعوة إلى أحد أعضاء الكنيسة الكبوشية، وقطعوا له وعداً بإتاحة الفرصة له لرؤية كتاب الطقوس والشعائر الدينية، ولما وصل إلى جومي احتجز ليوم أو اثنين في كهف بذريعة أن كاهنهم الرئيسي الآخر من الموصل - والذي كان هناك هو الآخر - شخص صارم وقاسٍ، وإذا ما علم بأمر وجوده فإن مصيره سيكون الموت بالتأكيد، باعتباره قد جاء ليغير معتقدتهم، ولما ساور الكبوشي الشك في أمرهم نسي فضوله، وفر إلى الأمان بالسرعة الممكنة)).^(١)

قبل ذلك بسنوات، وفي عام ١٦٧٤، نشر كتاب في روما تحت عنوان: (Specchio O Vero Descrizione Della Turchia) مهداة إلى ملكة السويد الكاثوليكية السابقة كرستينا من قبل المؤلف ر. ب. ف. ميشيل فييفر دي نوفي. وفي السنة التالية نشرت طبعة فرنسية في باريس، وكانت مهداة إلى الملك لويس الرابع عشر، وطبعة موسعة عنوانها Teatro della Turchia هي الأخرى مهداة إلى البابا إينوسنت الحادي عشر، نشرت في عام ١٦٨١ وترجمت لاحقاً إلى لغات عديدة، وقد احتوى العملان على وصف مركز ودقيق للامبراطورية العثمانية وأقليتها غير المسلمة، بما فيها الأيزيديون. المؤلف، الذي كان اسمه محل جدل وخلاف^(*)، أعطى معلومات دقيقة ووافية عن الطائفة الأيزيدية، معتمداً

(١) السر بول رايكوت: تاريخ الامبراطورية التركية من العام ١٦٢٣ إلى العام ١٦٧٧، ص ٩٣.

(*) بعض العلماء والمؤرخين ينسبون الكتاب إلى بير جان - بابتست دي سانت ايكنان، وآخرون ينسبونه إلى بير جنستين دي نوفي (رينيه دي ناتس Etudes Franciscains OMC

على تجارب الرهبان الكبوشيون في جبل سمعان^(١) (إضافة إلى قوله بأن عدد الأيزديين كانت مائتي ألف أغلبهم ضمن الامبراطورية العثمانية لكن بعضهم في بلاد فارس، فان فييفر لم يشر إلى هؤلاء الذين يعيشون شرقي حلب) وكان وصفه لديانتهم يختلف قليلاً عن المعالم المذكورة في الفصل السابق من هذا الكتاب، رغم أنه تم التأكيد على أوجه التشابه بين الدين الأيزيدي والمسيحي تم التعريف بالملك طاووس بطريقة صحيحة: ذكر الشيخ آدي بصفته قديساً، دون تفاصيل أكثر، احترام الأيزيديين للحيوانات عزي إلى اعتقادهم بتناسخ الأرواح، ولم يذكر المؤلف جماعة الكلب الأسود التي أخبرنا عنها أوليا (وكذلك من قبل رايكوت).^(٢)

في هذا الأثناء حافظ القنصل الفرنسي جوزيف دوبون على اتصاله مع أيزيديي جبل سمعان عبر البعثة التبشيرية اليسوعية، وعندما زار السفير الفرنسي ماركوس دي نونتل حلب في عام ١٦٧٤ تم ترتيب اجتماع

العدد ٢١ (١٩٠٩) ص ١٨١. رسالة ادورد دي أليسون ١٣ شباط ١٩٠٩ (المصدر نفسه) ص ٤٣٥-٤٣٨. ك. كابريلي Il pensiero Missionario العدد ٤ (١٩٣٢) ص ٢٨٤-٢٨٩. كلمنت دي ترزوريو Collectanea Franciscana العدد ٣ (١٩٣٣) ص ٣٨٤-٣٩٥. كابريلي (المصدر نفسه) العدد ٥ (١٩٣٣) ص ٣٣٩-٣٤٠. راجع أيضاً كتاب بروس م. لاندلي: من أجل فائدة عالمية للمسيحية، قسم التاريخ، جامعة ييل، ١٩٨٣.

(١) فييفر: Speechio o vero descrizione delle Turchia ص ١١٥-١٢٩ و L'Etat presenta de la Tuchia ص ٣١٨-٣٣٦ و Teatro della Tuchia ص ٣٤٣-٣٥٢ (طبعة ميلان وبولونكا ١٦٨٣) ص ٢٦١-٢٦٧ (طبعة بولونكا ١٦٨٤) و Theatre de la Turguie ص ٣٦٣-٣٧٣.

(٢) رايكوت، ص ٩٢. راجع أيضاً كتاب كلاوس إي. موللر: Kulturhistorisch studien zur Genese pseudo islamischer Sekfengebilde in Vorderasien، ص ٢٠٣-٢٠٤.

سري ليلي بينه وبين زعيم الأيزيديين "رجل حكيم وبارع" الذي سأل عن الملك لويس الرابع عشر ونواياه، وعرض على السفير استعداده بتهيئة خمسين ألف جندي لمساعدة الملك الفرنسي في الاستيلاء على فلسطين وسوريا، وفي طريق عودتهم من دير سانت سيمون إلى الساحل صادف رهط السفير الزعيم الأيزيدي ومرافقيه الفرسان مرتدين ملابس غريبة، ومسلحين بالرماح والأقواس والسهام، وهم يهتفون للفرنسيين بعبارة: (au revoir) التي تعني الوداع.^(١)

وبعد أشهر قليلة تلقى نونتل خبراً مفاده أن قبيلة ساجيلي في جبل سنجار المتحالفة مع قبيلة جلكي الأيزيدية بالتعاون مع قبيلة مسلمة قد ألحقوا هزيمة نكراء بالقائد العثماني قابلان باشا.^(٢)

استمر رئيس البعثة اليسوعية العنيد بير جوزيف بيسن في اتصالاته مع الأيزيديين، وفي ١٦٧٩ السنة التي تقاعد فيها جوزيف دوبون جاءت الأخبار من باريس بأن م. بيير دوبون الذي وصف بأنه راهب ويحمل دكتوراه في اللاهوت، قد أنشأ جمعية خيرية جمعت ٦٠٠ Livres (ما يعادل ٤٢١٠ دولار) في السنة لتمويل البعثة اليسوعية لدى الأيزيديين.^(٣)

(١) كورنيليو ماكي Nel Quanto di curioso e vago Ha potuto raccorre secondo biennio de esso consumato in viaggi e dimore per la Turchia، ج ٢، ص ٣٩٤-٣٩٧ و ٤١١.

(٢) رسائل نونتل، ١٠ آب ١٦٧٤، إلى بومبون، نقلها ألبرت فاندال، ص ٣٢٧. وفي ٩ أيار ١٦٧٥ إلى بومبون، نقلها بول بيردزوت، نشرة الجمعية الجغرافية (١٩٠٣) ص ٢٩١-٢٩٢.

(٣) هنري لامنس، Relations d Orient SJ (بيروت - ١٩٢٩) ص ١٧٠-١٧١. المؤلف ممن للأب مارتن ج. ماكديرموت لتزويده بنسخة من هذا المقال.

لكن بير بيسن أيضاً كان عليه أن يعترف بالفشل، ويذكر أحد المؤرخين أن "البعثات التبشيرية التي بعثها لم تلبث أن علمت بأن ساعة هداية هذا القوم التعس لم تحن بعد. . وعادت جميعها بخفي حنين"^(١) وفي شتاء عام ١٦٨١-١٦٨٢ بذل آخر جهد غير ذي نفع في منطقة ماردين من قبل يسوعي آخر هو بير ميتشل نوا^(٢) (في حوالي هذه الفترة كتب أحد يسوعيين حلب مجهول الهوية وصفاً للأيزيديين، وفيه تكرر لتفاصيل عديدة وردت في رسالة دوبيون وذكر علاقة الكاتب التي استغرقت ست سنوات مع دلو - أمير أيزيدي لجبل جوميه - وزعيمهم الروحي شيخ سوارد)^(٣) توفي نوا في عام ١٦٨٣ وتبعه بيسن بعد ثماني سنوات، و (Custos) الكبوشي، أما بيرجان - بابتست دي سانت - ايگنان فقد توفي في ١٦٨٥.

وهناك مصادر تشير إلى أول اتصال للأيزيديين بالعالم المسيحي، لكن أغلبها تخدم أغراضها الخاصة، وتترك ثغرات كبيرة وأحداث غير معللة، ولكن وقوع حادث ملفت للنظر في سنوات سابقة بماردين يلقي الكثير من الضوء على الوضع غير المعترف به للأقليات في الامبراطورية العثمانية ولهفة تلك الأقليات إلى شمولها بعطف الدولة تجاه أقليات معينة.

(١) أنطون ناجي، الرئيس الأعلى لإرساليات سوريا ومصر، رسالة (١٧٢٠) إلى مايلو أنجيلو تامبوريني الزعيم اليسوعي.

(٢) شفالير (لورانت) دي آرفكس، مذكرات، ج ٦، ص ٣٦٢-٣٧٧. أنظر كذلك دبلير. إ.ج. لويس، مغامر لافانتين، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) De la nation des Curdes Iasidies guon oppelle Adorateurs du Diable مخطوطة لمؤلف مجهول (حوالي ١٧٠٠) توجد ضمن بيردزوت، نشرة جمعية الشرق الجغرافية ١٩٠٣، ص ٤٣٣.

عندما مر السلطان مراد الرابع بماردين عائداً من بغداد، جذب انتباهه حقيقة أن في المدينة مائة عائلة يطلق عليها شمسية لا زالت تؤمن باعتقاد ما قبل التاريخ ألا وهو عبادة الشمس، وليس لديهم كتب دينية ما يجعلهم محكومين من قبل القانون الاسلامي بأختيار المنفى أو الموت، حلت محتهم أخيراً من قبل البطريك اليعقوبي الذي تغاضى عن عبادتهم الوثنية ووافق على إدخالهم إلى طائفته، وبعد مرور قرنين لا زالت هذه الجماعة المتميزة من اليعاقبة في ماردين.^(١)

* * *

خلال الفترة بين العامين ١٦٨٠ و ١٧٢٠ سجل ميزان القوى بين الامبراطورية العثمانية والعالم الغربي تبديلاً حاسماً، مما اضطّر السلاطين إلى إعادة أقاليم كان قد سيطر عليها أجدادهم قبل مائتي عام إلى آل هابسبورك.

(١) فييفر، specchio، ص ١٦٨-١٧٠ و L'Etat ص ٤٣٧-٤٤٠. Teatro della Tarchia ص ٤٦٣-٤٦٤ (طبعنا ميلان وبولوكنا ١٦٨٣) ص ٣٥٤-٣٥٥ (طبعة بولوكنا ١٦٨٤) و Theare de la Turguie ص ٥٠٠-٥٠٣. كارستن نيبر Reisbeschreibung nach Arabian und andern umliegenden Landern ج ٢، ص ٣٩٦-٣٩٧. أبييت دومينيكو سستيني Viggio da Costantinopoli a Bassora ص ١١٦-١١٧. (رافائيلو) م. كوسيبي كامبانييل Storia della regione del Kurdistan e della sette de religioni ivi esistenti ص ١٩٤-٢٠٠. هوراتيو ساوثكيت، حكاية رحلة عبر أرمينيا وكردستان وبلاد فارس وميسوبوتاميا، ج ٢، ص ٢٨٧-٢٨٨.

أما حليفهم التقليدية فرنسا فقد كانت منهكة في حروب باهضة التكاليف في البر، وفي البحر، والتي استمرت بصورة متقطعة طوال القرن الثامن عشر، ومكنت بريطانيا من السيطرة على أجزاء كبيرة من الهند. وفي الشرق واجهت الجيوش العثمانية بلاد فارس - التي كانت في أغلب الأحيان كان عدواً أقل بأساً - وفي الحقيقة وافق العثمانيون في فترة ما على تقسيم ممتلكات الشاه في شرق ما وراء القوقاز مع القيصر الروسي بيتر العظيم، أما في العراق فإن حكم السلطان كان يضعف تدريجياً بفعل قاداته، ومنذ العام ١٧٠٤ فصاعداً كان يحكم بغداد زعماء عسكريون أثبتوا أركان حكمهم على مرّ السنوات، بينما كانت الموصل تحكمها عائلة محلية - عائلة الجليليين -، والتعيينات المقررة في الحال والمفروضة بقوة السلاح في أغلب الأحيان كان يصادق عليها بطريقة صورية في استنبول.

والمعلومات المستقاة من المصادر بصورة مباشرة حول الأيزيديين في القرن الثامن عشر وبخلاف ما كان عليه الأمر في السابق كانت نادرة، فكتاب الجغرافي العثماني كاتب جلبلي المعنون (Cosmorama) والذي كتب في عام ١٦٥٥ ونشر في عام ١٧٣٢ أشار إلى عين المواطن التي تقطنها القبائل الأيزيدية التي ذكرها شرف الدين.

والرحالة الأوروبيون - بعضهم من المبشرين الكاثوليك وبعضهم عاملون في شركة الهند الشرقية البريطانية الشريفة - الذين فضلوا المسلك البري القصير عن طريق البصرة وحلب على الرحلات البحرية الطويلة التي تطلبت الدوران حول رأس الرجاء الصالح، هؤلاء شعروا

بأنه من الواجب ذكر الأيزيديين، المعروفين جيداً في أوروبا منذ نشر كتاب (Teatro della Turchia) كما ظفرت الطائفة الأيزيدية في شمال سوريا بذكر عابر في مصادر هؤلاء الرحالة.

وفي عام ١٧٠٤ وجدت قبيلة الخالتي التي تمتهن النهب والسرقعة، والقاطنة بمقاطعة ديار بكر، ذكراً يدينهم في الأرشيفات العثمانية.^(١)

وفي الربع الثاني من القرن الثامن عشر كان العراق الغارق في نوم عميق قد عكرت سكينته لسنوات غازٍ عالمي جديد، تركي المولد تمكن من الاستيلاء على مقاليد الحكم في بلاد فارس وأصبح يعرف بنادر شاه، فبعد إعادته الاستيلاء على ما وراء القوقاز، قام بضرب طوق من الحصار على مدينة بغداد (التي أنقذت بوصول قوة نجدة من الأناضول) وقام لاحقاً بنشر النهب والخراب والدمار في الهند وتركستان.

غزا نادر شاه العراق مرة أخرى في العام ١٧٤٣، مستهدفاً هذه المرة الموصل.

وبعد الاستيلاء على كركوك وآلتون كبري، أرسل قوة لاختضاع الزعيم الأيزيدي آس الذي طالما شن غارات على المقاطعات الغربية لبلاد فارس منطلقاً من قاعدته في الجبال حوالي كويسنجق لكن الفرس فاقوه براعة في المناورات وألحقوا هزيمة منكرة بالجيش الأيزيدي المؤلف من آلاف عدة، فقتلوا زعيمهم يزيد، ولكن آس الداهية تمكن من الهرب، واستطاع تجنيد حلفاء جدد وضرب الحصار على خرائب حامية كان الحرس الفرس قد سجنوا النساء الأيزيديات فيها.

(١) الارشيفات العثمانية، مهمة دفترلري، رقم ١١٤، ص ٢٢٩. رسائل البلاط للأيام العشرة الأولى من جمادى الأولى ١١١٥ هجرية (١٢-٢٢ أيلول ١٧٠٣ م) إلى الوزير حسن باشا حاكم ديار بكر.

كان المدافعون عن الحامية على حافة الانهيار عندما جاء ابن أخ الشاه بالتعزيزات العسكرية وفك الحصار، ولما تخلى عنه حلفاؤه فكر آس في الانتحار، ولكنه استسلم أخيراً لنادر شاه فعين والياً على المقاطعة.^(١) واصل نادر شاه مسيره لمخاصرة الموصل، ولكنه انسحب بعد مضي أربعين يوماً، وقتل في ١٧٤٧.

بعد هذه الفترة هناك ذكر لعدد قليل من الأيزيديين، في جنوب الزاب الكبير، رغم أنهم ولأكثر من قرن كانوا يقومون بتشغيل العبارة عبر النهر في نقطة تسمى وعلى نحو مناسب بـ (كلك).^(٢)

خلال القرن الثامن عشر أصبح أمراء الأيزيدية في شيخان من رعايا الإمارة الكردية في العمادية، وهي إحدى الإمارات شبه المستقلة القائمة بحراسة وحماية الحدود الشرقية العثمانية، والعائلة الأميرية، المسلمة السنية المتشددة، تعتقد بتحدر نسبها من العباسيين، وكانت قد حكمت العمادية منذ أيام تيمورلنك، وتمتع حكامها بلقب الباشا الوراثي الممنوح من قبل السلطان العثماني، وحسب أحد المصادر، فإن وقار وجلال الأمير حتم عليه تناول الطعام بمفرده.^(٣)

(١) محمد كاظم، نامده نوله ماناي نادري، طبعة ميكولوفو - ماكلاي، ج ٣، ص ١٣ و ٣٨-٥٢. راجع أيضاً: لورانس لوكهارت، نادر شاه، ص ٢٢٩. وروبرت و. أولسن، حصار الموصل والعلاقات الفارسية العثمانية (١٧١٨-١٧٤٣) ص ١٦٥.

(٢) ادورد ايفس، رحلة من انكلترا إلى الهند، ص ٣١٧-٣١٨. جي. س. بكنكهام، رحلات في ميسوبوتاميا، ج ٢، ص ٨١-٩٠ و ١٠٧-١١٠.

(٣) الدملوجي، إمارة بهدينان الكردية. وليام (فرنسيس) أينسوورث، رحلات وبحوث في آسيا الصغرى وميسوبوتاميا وكلدنيا وأرمينيا، ج ٢، ص ١٩٧.

كانت تعيش في العمادية طائفة يهودية ذات شأن، كما عاش في المقاطعة نساطرة اهدتوا بسرعة ونشاط على يد البعثة الدومنيكانية التي عملت هناك من ١٧٥٩ إلى ١٧٧٩.

كتب المبشر القس موريزيو غارزوني ملاحظات مختصرة حول الأيزيديين قائلاً بأن أمير العمادية كان دوماً يسند وظيفة الجلالد إلى أيزيدي لا يتردد أبداً من هدر دماء المسلمين.^(١)

في ١٧٧٠-١٧٧١ انضم بداخ بك - أحد أمراء الشيخان - إلى ثورة ضد أمير العمادية إسماعيل باشا، لكن ألقى القبض عليه وفرضت عليه غرامة، وبعد مرور ست عشرة سنة اشترك ابنه جولو بك في ثورة أخرى، وتحتم عليه الهروب واللجوء إلى الجبال. وكان جولو لا زال أميراً في ١٧٨٩-١٧٩٠، عندما حارب قبيلة طي العربية التي كانت تشن الغارات على الشيخان، ولكن في السنة التالية أعدم مع أخيه من قبل إسماعيل باشا، الذي نصب أميراً جديداً هو خنجر بك، من عائلة باسمايا التي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الترتيب الطبقي الديني، وفي ١٧٩١-١٧٩٢ أعيدت العائلة القديمة إلى الحكم عندما حدث خلاف بين إسماعيل باشا وخنجر الذي استبدل بحسن بك بن جولو بك.^(٢)

(١) موريزيو كارزوني: Della setta delli Jazidi، الترجمة الفرنسية من قبل سلفستر دي ساكي ضمن كتاب جان بابتست لويس وجوزيف روسو، وصف لباشوية بغداد، ص ١٩١-٢١٠. برنارد ماري كورماكتيك، تاريخ البعثة الدومنيكانية في ميسوبوتاميا وكردستان. راجع أيضاً مقال ك. فورلاني في SMSR العدد ٨ (١٩٣٢) ص ١٦٦-١٧٥. ومقال توماس بوا في Archivum Fratrum Praedicatorum العدد ٣٥ (١٩٦٥) ص ٢٤٧-٢٧٧.

(٢) ياسين بن خير الله العمري، زبدة الآثار الجلية، وغرائب الآثار. نقل عنه عباس العزاوي في تاريخ اليزيدية، ص ١١٩ و ١٢١-١٢٣.

كان كل من يسيطر على الشيخان يجني منافع مادية من حركة الحجاج والزوار إلى لالش. وتشهد كتابات نذرية في الحرم يعود تاريخها إلى ١٧٧٩ و ١٧٨١ على ورع وسخاء الحجاج^(١) والعديد منهم جاء من جبل سنجار.

سجل القرن الثامن عشر ذروة النهب والسلب لدى أيزيديي سنجار الذين أضحوا مصدر خوف على كل قافلة تمر بين الموصل وماردين (حتى الطريق الصغير في الصحراء لم ينجُ منهم، وفي العام ١٧٢٨ هاجمت إحدى هذه الجماعات قافلة كانت في طريقها من عانة على الفرات إلى بغداد، واستولت على حمولة ٣٠ حملاً من السلع القطنية والقوافل التي كان يرافقها حراس مسلحون جيداً يمكن الاعتماد عليهم كانت تدافع جيداً عن نفسها ضد المغيرين، أما مصير الآخرين فكان دفع الفدية أو خسارة كل شيء، وأفضل الأهداف كان السعاة الرسميين المسلحين بأسلحة خفيفة وبدون حراس معتمدين على السرعة بغية الوصول إلى المخططة التالية مع رزمهم الرسمية وطرودهم البريدية الخاصة، وفي مناسبة جديدة بالذكر وجد ساع أسير يحمل أربعين ألف قيراط لؤلؤ من الدرجة الجيدة.^(٢) هذه الاعمال الشريرة لم تذهب دون عقاب،

(١) آي. برزين (يزيدي)، مجلة Zemlevedeniya I puteshestvy العدد ٣ (١٨٥٤) ص ٤٣٣ و ٤٣٩، الترجمة الإنكليزية من قبل يوجين بروتوف بعنوان زيارة إلى الإيزيديين في ١٨٤٣ موجودة ضمن كتاب هنري فيلد (أنثروبولوجيا العراق) راجع كذلك جورج بيرسي بادجر، النساطرة وطقوسهم، ج ١، ص ١٠٦ و ١٠٨.

(٢) الدكتور إي. تي. هامي، مقال في مجلة NCIG العدد ٣، ص ٣٧٠-٣٧١، ياسين العمري زبدة.

لكن الأيزيديين في سنجار انتفعوا كثيراً من قرار للحكومة المركزية تم بموجبه تحويل منطقة ماردين من إدارة مقاطعة ديار بكر إلى مقاطعة بغداد. انطلقت الحملة التأديبية الأولى من بغداد في العام ١٧١٥ وألحقت خسائر كبيرة كما فعلت ضربة لاحقة في عام ١٧٥٣، الحملات اللاحقة ضد سنجار من بغداد والموصل - التي أحصي ثمانية منها على الأقل بين العامين ١٧٦٧ و ١٨٠٩ - كانت أقل تركيزاً، ويمكن اعتبارها من قبل قطاع الطرق ثناً لما يقومون به، والعمليات العسكرية وجعل أسرى الحرب عبيداً كانت أعمال مشروعة أجازها علماء الدين المسلمين الذين أتهموا الأيزيديين بالإلحاد والكفر.^(١)

وفي عام ١٧٨٥ وقعت حادثة جديرة بالاهتمام عندما قاد عبد الباقي باشا والي الموصل غارة على قبيلة الدندي الأيزيدية القاطنة شرقي دجلة، وبينما كان جنوده ينهبون القرى وقع الباشا وأخوه في كمين وقتلا فيه، وفر الجنود خائفين إلى الموصل^(٢) وليست هناك معلومات عن نتائج هذا الحادث.

وفي نحو نهاية القرن الثامن عشر بدأت البعثات التبشيرية الكاثوليكية في العراق تتلاشى وتذبل فقد حدثت ثورة في فرنسا، وأعدم الملك والملكة، وصودرت أملاك الكنائس، ونشبت حرب عامة في أوروبا، تلك التي خرجت فرنسا منها منتصرة تحت راية قائد جديد هو نابليون بونابرت، وفي ١٧٩٨ قاد نابليون حملة بحرية إلى مصر وسوريا انتهت

(١) العزاوي، ص ١١٥-١٢٩، إسماعيل بك كول: الإيزيدية في الماضي والحاضر (طبعة زريق) ص ١٠٩-١١٠ و ١١٢-١١٣.

(٢) سعيد الديوجي: اليزيدية، ص ٢٢٦-٢٢٧. هناك ترجمة إنكليزية للفتاوى في كتاب سامي سعيد أحمد: اليزيدية حياتهم ومعتقداتهم.

بعد ثلاث سنوات باستسلام المحتلين الفرنسيين إلى قوة عثمانية - بريطانية مشتركة، ولكن نابليون توج أمبراطوراً في القارة الأوروبية في عام ١٨٠٤، وكان في ذروة قوته، وحط من شأن عرش آل هابسبرك واقتيد البابا أسيراً إلى فرنسا، وبعد معارك عديدة أزيح نابليون من السلطة في ١٨١٤، وعاد لفترة وجيزة إلى السلطة في السنة التالية، وأخيراً هُزم في واترلو، وأستردت الإدارات السابقة في فرنسا والبلدان الأخرى.

دولتان خرجتا أقوى من الحروب النابليونية هما: روسيا، التي حاربت جيوشها الفرنسيين من موسكو إلى بوابات باريس، وكانت على أهبة الاستعداد لاستئناف اندفاعها نحو الجنوب على طول سواحل القوقاز والبلقان على البحر الأسود. وبريطانيا، المحمية بالجغرافيا والقوة البحرية اليقظة والمتفوقة في التبادل التجاري، التي قادت العالم بطرق ونظم جديدة من الانتاج والملاحة البخارية، وقد كان تطورها المادي متطابقاً مع انتشار التعليم فيها، وظهور حركات دينية جديدة ألهمت محاولات تبشيرية جديدة في الشرق الأدنى. ترابط وتوافق الأحداث التي ضمت بريطانيا وروسيا والامبراطورية العثمانية سرعان ما كان سيؤدي إلى تمزيق حياة الطائفة الأيزيدية وإعادة ترتيبها.

الفصل الخامس

أسرى على سفينة غارقة

خرجت الامبراطورية العثمانية من الحروب النابليونية سليمة في الظاهر، لكن قوتها الداخلية كانت قد وهنت . في العاصمة كان نفوذ السلطان يواجه تحدياً من قبل جيش متمرد.

وظهر زعماء ثوار في البلقان واليونان، وفي المناطق الاسلامية كانت الحكومة المركزية لا تحظى إلا بولاء اسمي من حكام شمال أفريقيا، بما فيهم محمد علي، الحاكم الطموح لمصر، ومن باشوات بغداد الذين كانوا يخدمون مصالحهم الذاتية.

كان النظام العثماني القديم ينهار، وكان على وشك الدخول في مأزق يكاد أن يكون، والذي سوف تخرج منه الامبراطورية كرجل أوروبا المريض، يُستبد به ويُنهب من قبل الأصدقاء والأعداء على السواء.

ان وضع الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به العراق يعود في أغلبه إلى التجارة مع الهند. وفي ١٨٠٨ عينت شركة الهند الشرقية ممثلاً لها في

بغداد الآيرلندي كلوديوس جيمس ريج البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة، وقد شغل هذا المنصب حتى رحيله المبكر نتيجة إصابته بالكوليرا في ١٨٢١.

قدم ريج مع زوجته من بريطانيا في العام ١٨١٣ وأقاما في الموصل مع القس رافائيلو كامبانيلي النابولي الطيب الذي خدم في البعثة الدومينيكانية من ١٨٠٣ إلى ١٨١٥، وكان الأوربي الأول الذي ذكر وبصورة مباشرة الأيزيديين في سنجار، في كتابه المنشور في العام ١٨١٨^(١)، حيث يصف طائفة تتألف من ستة عشر ألف شخص، ويعدد قراهم الثلاث عشرة، ويكيل المدح لمرارة بلوطهم والجوز والبندق، والرز والزبيب والعسل، والشمع والفواكه، وخاصة تينهم الخفيف الكبير الحجم والذي منه كانوا يصنعون "شراباً يشبه العسل بمذاقه الرائع".

ويذكر بأن نسيم الجبل المنعش مكن كل واحد منهم تقريباً لأن يعيش مائة سنة، ومنح النساء القدرة على الحمل حتى بلوغهن الستين من العمر، ومصدر دخلهم الرئيس كان نهب القوافل التي يعينها جواسيس ايزيديون أما قبيلة طي العربية الجارة لهم فقد كلفهم العثمانيون بحماية القوافل كما كانت تستسلم مبلغ ألف قرش (خمسین جنيهاً سترلينياً) في السنة من الأيزيديين، وكان عشر ما يغنمه الأيزيديون يلقي في بئر عميق داخل كهف^(*). في أوائل القرن التاسع عشر تم تسجيل حملتين

(١) (رافائيلو) م. كوسيبي كامبانيلي e Storia della regione del Kurdistan delle sette di religioni ivi esistenti، ص ٥٦-٥٩ و ١٥٧-١٥٨. راجع

أيضاً توماس بوا، مجلة AFP العدد ٣٥ (١٩٦٥) ص ٢٧٧-٢٨٠، كونستانس م.

ألكسندر، بغداد في الأيام الغابرة، ص ١٢٥.

(*) راجع الفصل الثالث.

عثمانيتين فقط على سنجار: الهجوم الواسع من قبل علي باشا والي بغداد في ١٨٠٣، والتي ادت إلى تدمير ثلاث أو أربع قرى واستبعاد عدة عوائل، والغارة التي شنت في ١٨٠٩ من قبل خلفه سليمان باشا.

وفي تلك الفترة كان يقود الأيزيديين بسنجار حسين دبلاين (يحتمل أن يكون أحد أفراد قبيلة دونبلي، التي لا زال بعض أفرادها يعيشون في جبل سنجار وفي شيخان).

وعندما مر ريج بالموصل للمرة الثانية في عام ١٨١٦ التقى بأربعة من زعماء سنجار "رجال أقوياء، ذوو بنية متينة، لا يختلف لباسهم عن لباس الكرد، مع صدارات وسترات بيضاء، ويعتمدون بطرايش حمراء وعباءات من اللون ذاته، لم يخلقوا أبداً ذقونهم أو يقصوا شعرهم، ويتمتعون بمظهر همجي" (**)، أخبروه بأنه :

تم التوقيع على اتفاق منذ فترة وجيزة بينهم وبين الباشا، والقسم الذي كان ملزماً تم إيفأؤه بطريقة غريبة وفضولية، غُرَزَ خنجر في الأرض، وألقي عليه منديل أبيض، ووضعوا أياديهم اليمنى عليه، وأقسموا على الوفاء بالعهد.^(١)

* * *

(**) انظر الصورة ٦٤.

(١) ألكسندر، ص ٢٣٥. راجع كذلك رسالة جارس بلينو في ١٦ أيار ١٨١٦ إلى هامر في Fundgruben des Orients العدد ٥ (١٨١٦) ص ٤٨.

وفي شيخان ازدهرت حالة الأيزيديين تحت قيادة حسن بك الذي أعاد بناء معبد لالش في ١٨٠٦، ولكنه قتل غيلة بعد سنوات قليلة من قبل أمير العمادية^(١)، وقد بقيت ذكرى موته حية لفترة طويلة، وفي العام ١٨٢٠ بينما كان ريج وزوجته يقضيان ليلة في قرية أيزيدية، تناهى إلى سمعهما مرثاة تندب الأمير المقتول، كان يغنيها عازف بزق ضرير يدعى لاسو.^(*)

وبعد خمسين عاماً استنسخ مستشرق ألماني قصيدة تحكي قصة معركة وقعت بين أميرين من بهدينان، والتي تمكن رجال قبائل شيخان ودندي أثناءها من أخذ ثأر حسن بك.^(٢)

خلف صالح بك حسناً في الإمارة، ويقال عنه بأنه كان يحظى بالاحترام والمكانة الكبيرة من أفراد قبيلته، لكنه هو الآخر قتل من قبل شخص يضمّر له الحقد والضعينة في الموصل. وتبع ذلك فترة من التنافس والصراع الداخلي انتهى بتبوء علي بك (العظيم) ابن الأمير حسن بك^(٣) الإمارة الأيزيدية.

(١) جورج بيرسي بادجر: النساطرة وطقوسهم، ج ١، ص ١١٠.
(*) انظر الصورة ٦٤.

(٢) كلوديس جيمس ريج: رحلة إلى ديار كردستان (ط. ماري ريج) ج ٢، ص ٨٦-٨٧.
ألكسندر، ص ٢٨٩ مخطط صورة لاسو في الصحيفة المقابلة للصحيفة ٢٨٧.
Erzählungen und Lieder im Didekte von Bohtan (ط. ألبرت سوسين).

(٣) ريج، ج ٢، ص ٨٦، ليس موقع صالح بك في شجرة عائلة كول واضحاً. سي. جي. إدموندز: حجة إل لالش، ص ٢٨-٢٩ يذكر أنه ابن عم لمير حسن بك وأنه من "الفرع الرئيس" للعائلة وله ابن اسمه علي وحفيد اسمه جاسم. الدمولوجي: اليزيدية، ص ٣٢ يقول إن صالح بك هو ابن لعللي ووالد جاسم، إلا أن الشجرة المواجهة للصفحة ٢٢ تظهر أن صالح بك هو ابن لمير حسن بك، ربما كان ثم أكثر من شخص واحد يحملون الاسم نفسه.

عاش الأيزيديون بتفاهم وصداقة مع جيرانهم النصارى، فقد تواجد وتصاحب جماعة منهم مع النساطرة في جبال هكاري شمال العمادية حتى بداية القرن التاسع عشر، عندما رحلوا إلى شيخان وجبل سنجار. وكانت إحدى المقابر الأيزيدية الرئيسة تقع في قرية بوزان بشيخان على بعد أميال قليلة فقط من القوش، مقر قديم لبطيركية وبقايا دير ربّان هرمز الذي أعيد سكناه منذ ١٨٠٨ من قبل رهبنة كلدان^(١) وهم جماعة أسست من قبل غابرييل دمبو من أهل ماردين.

وكان أيزيدو سنجار يرتبطون تقليدياً بعلاقات أخوية مع المسيحيين، ووفق أحد المصادر (كُتب قبل مصالحة ١٨٣٠ بين البطيركية وروما) كان زعيمهم الشيخ يقوم بزيارة رسمية إلى القوش^(٢) كل عام. ومثال آخر على الصداقة بين الأيزيديين والمسيحيين نقل عن قرية رضوان التي تقع شرق دياربكر على الضفة اليسرى لكرزان (فرع من دجلة يعرف منذ فترة طويلة بنهر اليزيدخانة) حيث يقيم حالياً رجال قبيلة خالتي والتي كانت مهيبة ذات يوم، يعيشون معاً في أمن ودعة مع جيرانهم المسيحيين. قام الزعيم الأيزيدي ميرزا آغا ببناء كنيسة للأرمنيين أسكنت وداراً للقس غازار تبر غفانديان وعلم ميرزا آغا أولاده اللغتين الأرمنية والتركية (ولسوء الحظ - وفق ما ذكر الراهب لاحقاً - فقد وجد الطلاب اسم الشيطان في كتاب المنهج ما فتح أبواب جهنم).^(٣)

(*) النسطوريون الذين تحولوا إلى الكاثوليكية أصبحوا يسمون بالكدانيين.

(١) لو كاس إنجييان Ashkhara kirutiun نقل عنه هنري أ. هومز في "الطائفة اليزيدية في ميسوبوتاميا" وكذلك أوكست وموريتز فاكنر.

(٢) جون مكدونالد كيناير: رحلة عبر آسيا الصغرى وأرمينيا وكرديستان، ص ٤١٤-٤١٥. أوستن جي. لايارد "اكتشافات في أنقاض نينوى وبابل" ص ٤٥، خاجاتور أبوفيان "الكرديون واليزيديون" مقال غير منشور. م. فاكنر Reise nach penien ج ٢، ص ٢٥٤-٢٥٥.

وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر ترأس ميرزا بك إمارة ذات حكم ذاتي، وكان في صراع مستمر مع الزعماء الكرد الآخرين ومع جباة ضرائب السلطان، حتى إن مآثر وبطولات محاربيه - وعدد كبير منهم كانوا من الأرمنيين ويقودهم كاهن سابق يدعى بوغوص لا زالت ذكراهم حية في الفلكلور الكردي.^(١)

* * *

وفي الأبعد إلى الشرق، بدأ خطر جديد بالتشكل، فروسيا التي فشل نابليون في إخضاعها شرعت في تهديد العثمانيين ليس في البلقان فقط، بل حتى في الأناضول نفسها، وجيورجيا المملكة المسيحية التي طالما كانت قاعدة تجنيد للأفواج العثمانية، وكذلك مصدراً للجواري انضمت إلى روسيا في عام ١٨٠١.

دخل الروس في معارك عديدة مع بلاد فارس على طول سواحل بحر قزوين والتي توجت بحملة ظافرة للجنرال كونت باسكيفيتش في ١٨٢٧-١٨٢٨، والتي أسفرت عن الاستيلاء على أردبيل، حيث نقل من مكتبة الدولة واحدة من أقدم مخطوطات شرفنامه، وأجبر الشاه على التنازل عن مقاطعة أريفان.

وفي شهر نيسان من العام ١٨٢٨ نشبت حرب بين روسيا والامبراطورية العثمانية في البلقان وفيها استطاع العثمانيون تحت قيادة

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٥-٢٥٨. الدكتور هـ. يولوفيتش، ص ٦٢٨-٦٢٩. أ. ج. جيب: اليزيدية، ألكمانيه تسايترك، العدد ٢٠٤، ٢ أيلول ١٨٩٠، جليلي جليل، إيرانسكايا فيلولوجيا، ص ١٣٠-١٤٣.

الجيورجي رشيد باشا - وهو مقاتل شجاع لكنه ليس استراتيجياً - المحافظة والدفاع عن خط دانوب رغم فقدان فارنا على البحر الأسود، ولكن في صيف العام ١٨٢٩ تفوق الروس بمناوراتهم، واكتسبوا ساحل البحر الأسود مستولين على أدرنه، على مبعدة ١٥٠ ميلاً فقط من أستنبول، وفي الشرق تمكن باسكيفيتش من اقتحام حامية قارس واستولى على أرضروم، واستولى جناحه الأيسر بقيادة الجنرال الجورجي الأمير ألكسندر جافجاذزه على بايزيد.

وفي حزيران من العام ١٨٢٩ زار الشاعر الروسي ألكسندر بوشكن أخاه الضابط في فرسان نيثيگورودسكي، واشترك في الالتفاف الحاسم حول الموقع العثماني على قمة جبل هوغانلي الذي كان يشكل عائقاً على الطريق إلى أرضروم، من بين الذين حضروا إلى الواجب تحت قيادة الجنرال رايفسكي قائد الخيالة الروس، ولفت انتباه الشاعر "رجل كالغول طويل القامة يلبس رداءً طويلاً أحمر ويعتمر قلنسوة سوداء" زعيم الكتيبة الأيزيدية التي تخدم مع الجيش الروسي، الشاعر الذي كان يحمل معه نسخة من كتاب غارزونى "ملاحظات حول الأيزيديين" طلب معرفة ديانتهم وشعر بالارتياح عندما علم بأن الأيزيديين يعبدون الله لا الشيطان.^(١)

ومصدر معلومات الشاعر بوشكن كان حسن آغا، البالغ من العمر ستين عاماً وزعيم قبيلة حَسَنلي التي كانت تسكن في الأقاليم العثمانية قرب بايزيد - واحدة من العديد من القبائل الكردية التي شعرت بهبوب

(١) ألكسندر بوشكن Ruteshestviye v Arzum vo vremya pokhoda 1829 goda سوفرمنيك، العدد (١) ١٨٣٦، ص ٥٩-٦٠، الترجمة الإنكليزية ب. انكمانسن تحت عنوان "رحلة إلى أرضروم" ص ٦١-٦٢.

رياح جديدة في شرق الأناضول - سترته الحمراء ذات حواشٍ من الفراء، كانت هدية من الجنرال جافجاذزه اعترافاً له بخدمته الجليلة مع الروس في الاستيلاء على ألكسندروبول غربي بايزيد.^(١)

وفي شهر آب من العام ١٨٢٩ تم التوقيع على اتفاقية سلام وبموجبها أعطيت روسيا مكاسب إقليمية صغيرة في القوقاز.

وفي ربيع عام ١٨٣٠ انسحب جيش باسكيفيتش من الأناضول مصطحباً معه آلاف الأرمن الذين عرض عليهم القيصر إعادة توطينهم في مقاطعة أيريفان.

انتقلت قبيلة حسنلي إلى سرمالو على السفح الشمالي لجبل آارات مباشرة داخل الحدود الروسية، حيث يقوم زعيمهم وباعتزاز باستعراض سترته على الزوار حتى في الجو المشمس الحار.^(٢)

تسجل الأرشيفات الروسية سجلاً دقيقاً عن حملة باسكيفيتش في كانون الأول من العام ١٨٣٠ يذكر رجل يدعى بطرس مسيحياً جاء إلى مقر القيادة الروسية في تفليس مع رسالة إلى نائب القيصر من ميرزا آغا الرضواني. فيها يصرح الزعيم الأيزيدي بأن هذه هي محاولته الثالثة للاتصال بالروس، ففي ١٨٢٩ عندما سمع بأن الروس وصلوا إلى منطقة بحيرة وان بعث رسولين يفترض بأنهما قتلا (أحد هؤلاء السعاة لحق في الحقيقة بالروس في بايزيد، رغم أن رسالة ميرزا آغا كانت قد وقعت في أيدي العثمانيين).

(١) أكتاي، العدد ٧: المادة رقم ٧٦٨، ص ٧٦٨-٧٦٩. تقرير الكونت باسكيفيتش في ٢٣ أيلول ١٨٢٨ إلى القيصر.

(٢) زوبريف: مقال في Tifisskiye Vedomosti ١٣ نيسان ١٨٢٩، أعيد طبعه في Russky Invalid (١٨٣٠) ص ٨٦٨ و ٨٧١-٨٧٢.

وفي مرحلة لاحقة من ذلك العام أرسل ميرزا آغا أرمنياً يدعى قراقوس وصل أرضروم وعاد برسالة جوابية باللغة الروسية لم يكن هناك أحد في القرية قادراً على قراءتها.

وفي محاولته الثالثة، غير عالم بأن الحرب قد وضعت أوزارها، أرسل قراقوس وبطرس يعرض ألف وخمسمائة فارس وخمسة آلاف راجل استعداداً للانضمام إلى الروس عند وصولهم بتليس، وعندما اكتشف السعاة بأن باسكيفيتش قد غادر أرضروم تتبعوه مقتفين أثره إلى تفليس، حيث مات قراقوس بالكوليرا تاركاً لبطرس اتمام مهمة تسليم الرسالة، وينتهي القائل بملاحظة أنه في شباط عام ١٨٣١ عاد بطرس ومعه سترة مطرزة بالأحمر قيمتها ٧٥ روبلاً (١٧٦ر١١٠) جنيهاً استرلينياً) هدية إلى ميرزا آغا مع بعض أدوية العيون لأبنه.^(١)

الانتصار السهل لروسيا في الأناضول فُسر في بريطانيا بأنه تهديد كامن لطرق مواصلاتها مع الهند، التي أقيمت منذ ١٨٠٠ بمحطة وحيدة بين حلب والبصرة، تتصل ببومباي عن طريق البحر.

مدّ الكولونيل روبرت تايلر الذي حل محل ريج كممثل مقيم في بغداد الوالي داود باشا بالأسلحة وحثه على الحصول على أسلحة أخرى أكثر فاعلية - بواخر نهريّة مسلحة لحماية النظام على طول نهري دجلة والفرات، وكان شقيق المقيم جيمس تايلر في طريقه من الموصل للشروع في مسح الفرات عندما وقعت مجموعته في كمين على مقربة من تل كوجك (نقطة الحدود الحالية بين سوريا والعراق) من قبل أيزيديي

(١) أكتاي، العدد ٧، المادة رقم ٩٣١، ص ٩٥٧: عريضة بطرس خازاروف في ١٧ كانون الأول ١٨٣٠ إلى باسكيفيتش، وتقرير اللواء بانكراتيف في ١٢ كانون الثاني ١٨٢٩ إلى باسكيفيتش، نقله جليل في إيرانسكاي فيلولوجيا، ص ١٣٢.

سنجار وأتراك^(*) تلغفر (طائفة أزهرت على تلقي الغنائم الأيزدية المنهوبة) وفي تبادل لإطلاق النار قتل أيزيدي بينما قطعت أجساد تايلر الأخ ورفيقين بريطانيين بصحبته إرباً - مناسبة نادرة لوقوع خلاف بين الأيزيديين والغربيين.^(١)

واستخلص السلطان محمود الثاني أيضاً عبيراً من الحرب مع روسيا التي أضعفت ولاء ولايته على المقاطعتين الأكثر رفاهاً وغنى: مصر والعراق.

محمد علي الذي حكم مصر لمدة خمسة وعشرين عاماً كان يملك جيشاً عصرياً تم تدريبه من قبل عناصر تخلفوا عن الجيش النابليوني، وكان أقوى من أن يتم تأديبه، ومن الجهة الأخرى بدا وكأن داود باشا النقي الفاسد وغير القادر على اتخاذ قرار أسهل منالاً.

وفي ١٨٣٠ أصدر السلطان أوامر إلى علي رضا باشا والي حلب بتسليم مقاليد الحكم في ولايته إلى محمد باشا أنجة بيرقदार (مقاتل محنك شارك في حصار فارنا، وأطلق سراحه مؤخراً من السجون الروسية) والتقدم مع العساكر المخلصة والموالية للاستيلاء على بغداد وهكذا وبعد ثمانية شهور من الحصار وتفشي داء الطاعون والفيضان والحرب الأهلية، استسلم داود باشا ونصبت إدارة جديدة في بغداد بولاية معينين.

(*) استخدم المؤلف كلمة الأتراك، ولكن من الواضح أنه يعني التركمان. المترجم.

(١) وزارة الهندل/ ب و س / ٩ / ٩١ رسالة روبرت تايلر المرقمة ٣١ (١٤ تشرين الأول ١٨٣٠) إلى السكرتير الرئيس، بومباي، جارلس راتبون لـ "تاريخ البحرية الهندية ١٦١٣-١٨٦٣" ج ١، ص ٥٢٤. فردريك فوربس "زيارة إلى تلال سنجار خلال رحلة من القسطنطينية إلى الموصل في ١٨٣٩-١٨٤٠" مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١٠ (١٨٤١) ص ٥٢٧-٥٢٨. وكذلك مؤلفه "رحلات وأبحاث في آسيا الصغرى وميسوبوتاميا وكالديا وأرمينيا" ج ٢، ص ١٢٠-١٢١. بادجر، ج ١، ٣٠٢.

عقب أستسلام داود باشا بأسابيع قليلة، تحرك محمد علي إذ احتل جيش مصري جيد العدة تحت قيادة ابنه إبراهيم وضابط فرنسي كبير فلسطين وسوريا.

وفي تموز من العام ١٨٣٢ هزم الجيش العثماني في معركة حاسمة خارج حمص، تلك التي عرفت بـ "هزيمة الباشوات" لأن الجيش العثماني ضم بين صفوفه تسعة باشوات، ثلاثة منهم باسم عثمان وثلاثة آخرين باسم محمد، ومن بين الآخرين اثنان كانا قد شاركا في حملة بلقان: محمد كريتلي أوغلو والي سيلستريا الذي شن هجوماً خيالياً الأخير وغير المجدي بمواجهة البنادق المصرية، ومحمد أنجة بيرقدار الوالي الجديد لحلب الذي فر جيشه غير النظامي بسرعة من ساحة معركة حمص إلى درجة أنه بقي وحيداً دون عساكر.^(١)

احتل إبراهيم خلال صيف عام ١٨٣٢ دمشق وحلب وأذنه وأورفة، والطرق التاريخية بين حلب والموصل، وبين دمشق ومكة، والتي بقيت تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية لثلاثة قرون، فأصبحت الاتصالات عن طريقها عسيرة، وباتت الامبراطورية والسلالة الحاكمة مهددين بخطر داهم.

انتقل رشيد باشا - الذي بات يحتل الآن منصب الباب العالي - إلى قونية، المدينة التاريخية التي كان يعث ويلهو فيها في يوم ما الأخوان عز الدين وركن الدين مع المغول. في هذا الموقع المحمي بجبال طوروس شكل

(١) (إي. دي كالفيني و إي. بارو Histoire de la guerre de Mehemed - Ali contre la porte ottomane ص ١٥٩-١٩٢. راجع أيضاً الجنرال (ماكسيم) ويكاند Histoire miliare de Mohammed Aly et de ses fils ج ٢، ص ٣٢-٤٣.

رشيد باشا جيشاً جديداً من التعزيزات القادمة من الأناضول وأوروبا، لكن جيش إبراهيم عبر بوابة كيليكيا على ارتفاع ٣٥٠٠ قدم فوق جبل طوروس، ودمر جيش رشيد باشا خارج قونية في كانون الأول من العام ١٨٣٢، وأسر الباب العالي، وكانت العاصمة على مسيرة خمسة عشر يوماً فقط.

كان محمد علي - مثله كمثل الخليفة القديم معاوية - رجلاً حذراً، وتلقى إبراهيم تعليمات بمواصلة الزحف بالسرعة الممكنة عبر الأناضول التي غطتها الثلوج، وفي شباط عام ١٨٣٣ وصلت طلائع جيشه إلى مشارف بحر مرمرة بمسافة خمسين ميلاً فقط، ولكن على العكس من يزيد بن معاوية، لم يكتب لإبراهيم الوصول إلى المياه.

أستدعي جيش روسي من قبل السلطان اليائس، فتمركز على الساحل الآسيوي من البوسفور وقطع الطريق على الجيش المصري. تم بعد ذلك ترتيب عملية سلام، مكنت محمد علي وابنه من الاحتفاظ بفلسطين وسوريا وكيليكيا، وغادر الروس، لكن بدأت تلوح معالم مشاكل جديدة في الشرق.

* * *

الفوضى في العراق خلقت فرصة مناسبة للكرد السوران من راوندوز - أعداء الأيزديين الداسنيين منذ أمد طويل - للمبادرة إلى السيطرة على مناطق من أربيل وآلتون كوبرى على الطريق بين بغداد

والموصل، وتمكنوا من إنشاء دولة مستقلة اعترف بها على مضض والي بغداد الجديد.

زعيم السوران محمد كور (الأعمى) بك الراوندوزي كان قد وصف من قبل شهود عيان في العام ١٨٣٣ بأنه:

«رجل وسيم، مطبوع على حب الخير، يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، أبيض البشرة، خَلَفَ مرض الجدري آثاراً على وجهه، وإحدى عينيه مكفوفة، تبدو كبقعة معتمة. كانت لحيته بطول اثني عشر إنجاً بنية اللون، الجزء الأدنى من لحيته متبلد، أما من النواحي الأخرى فكان يعتني بهندامه، كان في إحدى رجله عرج نتيجة رفس حصان، وكان يتكلم بصوت خافت وهادئ».

وكانت خيمته في حملاته الحربية متواضعة من حيث الأثاث، فقد كانت مزودة بسرير من الخشب، وعدد من البسط والسجاجيد، ومسند إنكليزي قديم ذي فوهتين، وبندقية، وسيف، وناظور، ومظلة. كان مسلماً سنياً متشداً وييدي احتراماً عميقاً لرجال الدين.^(١)

في وقت مبكر من العام ١٨٣٢ شن أمير راوندوز غارات على السهول شرقي الموصل والعائدة إلى إمارة العمادية، وكانت حجتة قيام

(١) ملخص من مجلة الدكتور جون روس نقله جَي. بيلي فريسز "رحلات في كردستان وميسوبوتاميا" ج ١، ص ٧٧-٧٨. أما وصف كور محمد فهو مأخوذ عن جمال الدين نبز "الأمير الكردي مير محمد الواندزي" رسالة دكتوراه، جامعة هامبورك، ١٩٧٠. راجع أيضاً أدي شير "حلقات من تاريخ كردستان" المجلة الآسيوية (باريس) العدد ١٠ المجلد ١٥ (١٩١٠) ص ١١٩ و ١٣٢-١٣٩. وادي جويده "الحركة القومية الكردية: أصولها وتطورها" رسالة دكتوراه، جامعة سيراكوس، ١٩٦٠، ص ١٥١-١٧٣. جليلي جليل Kurdy Osmanskoy Imperiyi v pervoy polovine XIX veka ص ٨٠-١١٤.

الأمير الأيزيدي في الشيخان بعمل طائش غير حكيم، وكانت هناك
عداوة منذ أمد طويل بين علي بك وزعيم كوردي من المنطقة القريبة من
منطقته يدعى علي آغا^(١)، وأخيراً بعث علي بك رسالة مصالحة له،
يدعوه فيها للمجئ إلى باعدري ليصبح كريفاً - أخاً - لابن الزعيم
الأيزيدي اعتبر علي آغا الذي كان مسلماً ملتزماً - هذا العرض إطراءً،
وحضر إلى مقر الأمير الأيزيدي مع عدد قليل من الحرس والخدم، بحيث
عجزوا عن مساعدة زعيمهم عندما شرع رجال الأمير الأيزيدي علي
بك بقتل ضيفه الذي لم يساوره أي شك فيما أضرر ودبر له.

ربما ندم الأمير الأيزيدي على ما فعل أو خشي عواقبه، لذا دعا إليه
أربعين من أشراف ونبلاء الأيزيدية، وأمر كل واحد منهم بطعن جثة
علي آغا، ويُعتقد بأنه كان لأمير العمادية الذي كان يمثل السلطة الأعلى
في المنطقة يد في المسألة، لأنه رفض السماح لقبيلة علي آغا بالانتقام
وأخذ الثأر، لكن الزعيم المقتول كان يمت بصلة قرابة لرجل دين
كوردي بارز ذائع الصيت، الذي قدم شكواه في البداية إلى علي رضا
باشا في بغداد ولكن دون نتيجة فأشفعها بشكوى أخرى قدمها إلى الأمير
كور محمد. فاستجاب لها كور محمد في الحال وبعنف وشدة.^(٢)

تصف قصيدة كوردية كيف أن علي بك لدى علمه بقرب وصول
العدو امتطى صهوة فرسه الكميّت ذي اللون الكستنائي الغامق، مرخياً
أردان قميصه ليمسك بقبضة خنجره المطلّي بالذهب، متوجهاً دون

(*) وهو علي آغا المزوري عم الملا يحيى المزوري، وهو من قرية (بالتة). المترجم.

(١) الدملوجي: الأيزيدية، ص ٤٦١-٤٦٣. راجع أيضاً مؤلفه ك إمارة بهدينان الكردية، ص

٤٣-٤٥. جريدة، ص ١٥٦-١٦٤. نبز، ص ٥٦-٥٨. جليل: Kurdy ص ٩١-٩٢.

مرافقة للقاء زعيم السوران الأعور، فدعاه كور محمد بالتخلي علناً عن ديانتته واعتناق الإسلام، فرفض علي بك ذلك فأرسل مخفوراً إلى راوندوز يرافقه خادم وحيد، وبعد جهود غير مجدية بهدف اقناع الأمير بتغيير معتقده، قطع كور محمد رأسه وطلب من خادمه بمد يديه على نحو أفقي فقطعهما قائلاً له عُذْ أدراجك واخبر أهلك بما رأيت.^(١)

واستمر كور محمد في حملته لقتل كل أيزيدي يُعثر عليه، وفي ألقوش داهموا المسيحيين واليهود والأيزيديين على السواء، ناهيين ضريح ناحوم، كما قتلوا ثلاثة من رهبان دير الربان هرمز بما فيهم رئيس الدير كابريل دمبو الذي عاد لتوه من مقابلة مع البابا كريكوري السادس عشر في روما.^(٢)

وسرعان ما تمرد الأيزيديون على أسيادهم السوران وقتلوا ممثل الأمير، وليست هناك مصادر معاصرة لتلك الفترة عن نتائج المذابح، لكن رجلاً إنكليزياً صادق الأيزيديين لاحقاً، أخبر بما يلي :

فر سكان شيخان باتجاه الموصل، وكان الفصل ربيعاً والنهر في فيضان، وكان الجسر المؤلف من القوارب قد أزيل، نجح عدد قليل في عبور النهر، لكن حشداً كبيراً من الرجال والنساء والأطفال تركوا على الطرف المقابل، فجمعوا على تل قويونجك الكبير فتبعهم بك راوندوز وحدثت مذبحه عشوائية لم تميز بين امرأة أو رجل

(١) شير، المجلة الآسيوية (باريس) العدد ١٠، المجلد ١٥ (١٩١٠) ص ١٣٤-١٣٦. هنري جيمس روس " رسائل من الشرق ١٨٣٧-١٨٥٧ " طبعة جانب روس، ص ١٣٧.

(٢) يوجين بور Annals de la philosophie ehretienne العدد ٣ المجلد ٨ (١٨٤٣) ص ٩٩-١٠٢. ب. لويس سوآيا Histoire du couvent de Rabban Hormizd de 1808 a 1832. ب. ستيفان بيلو.

أو طفل، وأهل الموصل يتفرجون من شرفات بيوتهم قتل هؤلاء الهاربين العائري الحظ، والذين كانوا يطلقون صيحات طلب المساعدة دون جدوى.^(١)

هذه المأساة لا زالت تذكر كـ (مذبحة سوران) وتمثل نكسة في التاريخ الأيزيدي، وعلى أثر ذلك اضطر ابن علي بك الصغير حسين بك إلى الاختفاء في سنجار، فتولى جاسم بك - وكان ينتمي إلى فرع كبير من عائلة جول - مقاليد الإمارة في شيخان.^(٢)

ولكن سلسلة من الأحداث التي سوف تجلب الخلاص للأيزيديين كانت قد بدأت فعلاً ففي آذار من العام ١٨٣٧ زار قريتهم الواقعة على مقربة من دير الربان هرمز شخصان يعملان في خدمة الحكومة البريطانية، كانا ينتميان إلى حملة تنقيب الفرات الاكتشافية، وكانا يأملان في العثور على الفحم.

* * *

تأتي حملة فرات للتنقيب من حيث الأهمية في مصاف رحلة كولومبس البحرية الأولى وإطلاق سبوتنيك السوفيتية، ضمن المشاريع

(١) شير، المجلة الآسيوية (باريس) العدد ١٠، المجلد ١٥ (١٩١٠) ص ١٣٦-١٣٧. القس سليمان الصانع "تاريخ الموصل" ج ١، ص ٣٠٧، اقتبس عنه جريدة، ص ١٦٢-١٦٣. لا يارد "نينوى وبقاياها" ج ١، ص ٢٧٦.

(٢) الدمولوجي "اليزيدية" ص ٢٣ و ٤٦٩ يذكر بأن جاسم بك هو ابن مير صالح بك. أما آدموندز، ص ٢٨-٢٩ فيذكر أن جاسم هو حفيد صالح. راجع الهامش (٦) من هذا الفصل.

الجريئة التي قامت بها أية حكومة^(١) فبعد الاحتلال النابليوني القصير الأمد لمصر وسوريا أدركت بريطانيا بحدة ذكائها أهمية وجود مواصلات أمينة وسريعة مع الهند، الطريق الرئيسي المار بمصر كان لا يستخدم في شهري حزيران وأيلول، حيث كانت الرياح الموسمية الجنوب شرقية تمنع ملاحاة السفن من بومباي إلى البحر الأحمر، وهذا بالضبط كان الموسم الذي يعتقد بأن الملاحاة كانت صالحة وممكنة في مجرى مائي آخر ألا وهو نهر الفرات وبالاتجاهين بين بيرجك والبصرة بواسطة زورق عصري واسع الاستخدام - الباخرة ذات القاعدة المسطحة - وكانت هذه هي النتائج التي تم التوصل إليها في العام ١٨٣٤ من قبل لجنة الطاقة البخارية في مجلس العموم البريطاني^(*)، اعتماداً على الاستشارة التكنيكية للمختصين (التي وجدت عدم صلاحية السفن البخارية للملاحاة في المحيط) وكذلك اعتماداً على مسح سري جرى في العامين ١٨٣١ و ١٨٣٢ على الجزء السفلي من الفرات من قبل ضابط من سلاح المدفعية البريطاني كابتن فرنسيس چسني (وارتضت اللجنة بدراسة ما سجله الامبراطور جولييان، ورحالة القرن السادس عشر الآخرين، الذين اقتنعوا بأن أجزاء من أعالي النهر من بيرجك فنزولاً كان صالحاً للملاحاة).

(١) يتحدث چسني في مؤلفه "قصة حملة الفرات" و "حملة مسح نهري الفرات ودجلة" عن حملة تنقيب الفرات، راجع أيضاً چسني وجين أودونيل "حياة الجنرال الراحل ف. ر. چسني" ط. لين بول، كذلك راجع أينسوورث "سيرة ذاتية عن حملة الفرات" وبولين، كونتيسة نوستنز "رحلات الدكتور والسيدة هلفر في سوريا وميسوبوتاميا وبورما وبلاد أخرى" ترجمة شتورك، ج ١. ولوو "البحرية الهندية" ج ٢، ص ٣١-٥٠.

(*) عمل الجد الأكبر للمؤلف جوسيا جون گست عضو البرلمان عن ميرثاير تايدفيل جنوب ويلز كان عضواً في هذه اللجنة.

بناءً عليه شكلت حملة استكشافية، وأعطيت لها تعليمات بالإبحار من انكلترا إلى الساحل السوري، حاملين معهم قطع وأقسام سفينتين بخاريتين كانتا قد صنعتا مؤخراً، الفرات (طولها ١٠٨ قدم، وعرضها في الوسط ١٩ قدماً، وقوة كل من محركيها ٢٥ قوة حصانية) ودجلة (بطول ٦٨ قدماً وعرض ١٥ قدماً، ومحركين بقوة عشرة أحصنة) سحب الاثنان بمحاذاة المياه وعلى مسافة أقل من ثلاثة أقدام منها، ليتم نقلهما على اليابسة بعد ذلك إلى نقطة مقابلة لبرجك حيث تنزل السفينتان إلى المياه لتبحرا مسافة ١١١٧ ميلاً إلى البصرة ثم العودة مع ١٣٧ طناً من الفحم ليتم وضعه في أماكن ملائمة على طول النهر.

أنيطت قيادة الحملة نفرنسيس چسني الذي تم تعيينه كولونياً بصفة مؤقتة، وهو إيرلندي ذو شجاعة كبيرة وصاحب قرار، متحمس لفكرة المشروع وانضم إلى الحملة خمسون شخصاً من ضباط البحرية والجيش إلى جانب عدد قليل من المدنيين، بضمنهم ويليام ف. أينسوورث البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، والذي كان جراحاً وجيولوجياً.

بعد انقضاء ستة أشهر على بدأ المشروع كان كل شيء مهيباً، وافق السلطان محمود على المشروع، وكان يعتقد بأن محمد علي سوف لا يعترض عليه.

وفي شباط من العام ١٨٣٥ بعث كل من الملك ويليام الرابع ودوق ويلنكتون الذي كان حينئذ وزيراً للخارجية برسائل منفصلة إلى الحملة، التي كانت وصلت إلى مالطا، وهي مستعمرة بريطانية استولي عليها خلال الحروب النابليونية في ١٢ آذار من العام ١٨٣٥، وفي غضون الاسبوع الذي أمضوه في مالطا استخدم الكولونيل چسني

مترجماً ينطق بالعربية بتوصية من مصرفي محلي والذي كان زميل دراسة لچسني.^(١)

وقع المترجم اسمه في العقد ك. أ. رسام ولد عيسى أنطون رسام الرجل الذي دخل بالأيزيديين في القرن التاسع عشر في عام ١٨٠٨. وكان والده أنطون رسام رئيساً للشمامسة في الكنيسة الكلدانية، أما والدته تيريزا فقد كانت حفيدة إسحق الحلبي، من مدينة حلب. وليس معروفاً فيما إذا كان مولد الابن في حلب أو الموصل، لكنه دائماً اعتبر نفسه موصلياً.^(٢)

وهناك أكثر من مصدر حول أصول عائلة رسام، التي لا زال لها أعضاء بين صفوف العوائل المسيحية البارزة في العراق (وتعني كلمة رسام في اللغة العربية مصمم في تخطيط النماذج على الأنسجة)، وفي العام ١٨٣٢ أعلن عيسى بأن والده كان في الأصل مواطناً إنكليزياً جاء إلى الموصل عندما كان شاباً من الهند الشرقية.^(٣)

وحسب ما أفاد به الكولونيل چسني عن الحملة بأن والد جد عيسى هو الذي هاجر إلى الموصل من ساحل ملابار^(٤)، وفي العام ١٨٣٧ صرح رسام فيما يخص والد جده :

(١) إ.ج. جي. روس، ص VII.

(٢) ت. ج. بينجس، سيرة هرمز رسام، قاموس السير الوطني، الملحق ١٩٠١-١٩١١، ج ٣ ص ١٥٨-١٥٩. يتقدم المؤلف بالشكر إلى كليف رسام لتزويده إياه بمعلومات قيمة عن حياة كريستيان رسام (سرد ذكرها في سيرة هرمز رسام فيما سيأتي).

(٣) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M4، ص ٦٥: رسالة سي. إف. شلاينتس في ٢٨ أيار ١٨٣٢ إلى الوزارات.

(٤) چسني "قصة" ص ٥٥٥.

بأنه كان إسبانياً ثرياً أرسله البابا في محاولة للمصالحة مع
النسطوريين مات في حلب بعد أن كان قد تزوج من امرأة
محلية تاركاً وراءه عائلة، انتقل جده مع إخوته إلى الموصل
أو نينوى، وتزوج من أول امرأة مسيحية هناك، وكان
السبب في استمالة خمسة وعشرين أبرشية في السهل لأن
تؤدي الولاء لروما.^(١)

في العام ١٨٢٧ أرسل والد عيسى ابنه إلى روما لدراسة الكهنوت
برفقة راهبين، وعلى مقربة من حلب تعرضت قافلته إلى غارة من قبل
عرب الصحراء الذين قتلوا الراهبين وسلبوا عيسى كل ما كان بحوزته
باستثناء مال قليل مكنه من الوصول إلى القاهرة، حيث استطاع أن يجد
سكناً وعملاً مع أحد أبناء عمومته.^(٢)

وفي القاهرة تعرّف على مبشرين من جمعية البعثات الكنسية مؤسسة
بريطانية باشرت مؤخراً بفتح مدرسة للأطفال المسيحيين المحليين تدرس
مواد تعليمية تأتيتها من مالطا، حيث يملك المجتمع الكنسي مطبعة
بالحروف العربية، وكانت بعثة مالطا ومنذ وقت تبحث عن مترجم قدير،
وأخيراً وفي العام ١٨٢٩ قرر المبشرون بالقاهرة تعليم وتدريب مترجم
من هناك وتحضيره وتهئته لمالطا، ووقع اختيارهم على عيسى
البغدادي الذي تمت تزكيته على كونه ذكياً وقديراً وشاباً ذا أخلاق
حميدة.

(١) راوندل بالمر، إيرل سيلبون "مذكرات" ط. ليدي صوفيا م. بالمر، القسم الأول:
العائلة والذات، ج ١، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M4، ص ٦٥ شلاينتس في ٢٨ أيار ١٨٣٢ إلى
الوزارات.

بالإضافة إلى انشغاله بالتعلم فقد عمل بكد واجتهاد على تعلم اللغة الانكليزية والأدب العربي، وأثني عليه بالمديح والاطراء لـ "حماسته التي لا تعرف الكلل للفيلولوجيا - فقه اللغة التاريخي والمقارن -"، وكان يتقاضى راتباً قدره عشرة دولارت إسبانية في الشهر، فزيد لاحقاً إلى ١٥. (١)

أبدى عيسى تحسناً جيداً، وعندما غادر متوجهاً إلى مالطا في العام ١٨٣٢، كان قد ترجم كتاب إسحق واطس المعنون (أسئلة وأجوبة تاريخية) إلى العربية.

امتدح رئيس بعثة القاهرة صفاته النبيلة قائلاً: ((كان دائماً على استعداد القيام بالخدمة، يعمل بكد وعناية، ولم نلاحظ أبداً فيه حب العرب للمال، قانع بما هو ضروري من الزاد والكساء، ليس له ميل نحو جمع ثروة)). (٢)

وفي مالطا ترك انطباعاً جيداً على المبشرين الذين وصفوه بأنه شاب (متزن وميال إلى التعاون) و (يبدل قصارى جهده في دراسة الكتاب المقدس، ويبدو متلهفاً لاحتضان كل فرصة تتاح له لتحسين مواهبه)، وبعد سنوات قليلة لاحظ كاتب آخر (قامته الطويلة اللافتة للنظر، وبشرته السمراء الداكنة، وتعابير وجهه الطفولية اللطيفة التي تشكل

(١) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M4 ص ١٦٨ و ٣٤٢-٣٤٣، رسائل ويليام كروز في ٢٠ تشرين الأول ١٨٢٩ إلى شلاينتس وفي ٥ تموز ١٨٣٠ إلى بيتر برينر.

(٢) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M4 ص ٣٤٢-٣٤٣ و ٥٦٣. رسائل كروز في ٥ تموز ١٨٣٠ و ٢٨ تموز ١٨٣١ إلى برينر.

وحدة متكاملة، في الحقيقة كان طفلاً في زهده وابتعاده عن العالم حوله^(١).

وفي عيد رأس السنة ١٨٣٥ تزوج مايتلدا بادجر التي كان والدها ضابطاً ورئيس المدرسة العسكرية، توفي مخلفاً وراءه أرملة تقيّة ورعة، وبناتاً، وابناً يدعى بيرسي وكان يعمل في المطبعة المحلية^(٢).

إن تجنيد رسام الذي كان قد مضى على زواجه عشرة أسابيع فقط قبل وصول حملة الفرات الاستكشافية إلى مالطا، لم يكن مهمة سهلة. وبناءً على ذلك كتب چسني: ((إن رسام ترك وظيفته بشوق وتلهف، وعبر عن ارتياحه لتحرره من القواعد المتشددة التي كان أهله المزمعون في مالطا يلتزمون بها))^(٣) لكنه في ذلك الوقت كتب الشخص الذي كان يقوم مقام رئيس جمعية البعثات الكنسية عن رسام:

بعد تردد كبير استسلم للتوسلات الملحة والدؤوبة
للكولونيل چسني والشخصيات الأخرى من الحملة الذين
وجدوا معرفته لتلك البلدان والشعوب ولغاتهم ذات أهمية
كبيرة بالنسبة إلى هدف حملته، إلى درجة أنهم بدأوا
يعتقدون بعدم إمكانية استمرارهم دونه، ولم يقتنع إلا بعد
تدخل الوالي (الحاكم) وإعطائه الوعد بحضور شخصياً

(١) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M4 ص ٦٥، شلاينتس في ٢٨ أيار ١٨٣٢ إلى الوزارات.

(٢) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M4 ص ٤-٥، رسالة برينر في ٢ كانون الثاني ١٨٣٥ إلى الوزارات. إض. جي. روس، ص ٤٧.

(٣) چسني " قصة " ص ١٦٦. يومية الدكتور هلفر ٢٤ آذار ١٨٣٦ نقلها نوستيتز، ج ١، ص ١٩٥.

والآخرين بأن اشتراكه سوف يكون محل رضى المجتمع
الكنيسي نيابة عن سيادته، عندها فقط قرر اللحاق بهم.

على الرغم من أن رسام ألحق بالحملة متطوعاً فقد اتخذت الترتيبات
اللازمة اتخذت لتقديم دعم مالي لزوجته خلال فترة غيابه (وكان من
المفترض ان لا تتعدى خمسة أو ستة أشهر) وراتب تقاعدي لو لقي حتفه
خلال عمله ضمن الحملة.^(١)

وقد لاحظ أحد أفراد الحملة لاحقاً بأنه "كان لاعب شطرنج ممتاز لا
نظير له".^(٢)

تقدمت الحملة باتجاه الشرق بعد هذه الوقفة القصيرة الموثقة جيداً،
وفي وقت مبكر من شهر مايس وصلت سفينتهم، مريحة بها من قبل
الفلامنكو، ولكن دون أن يكون في استقبالهم أي مسؤول مصري،
وبدأت الحملة تفرغ حمولتها في أجزاء السفينة التجارية على شواطئ
خليج أنطاكية، وسمي المكان بمستودع أميليا على شرف أخت ويليام
الرابع التي توفيت وهي في السابعة والعشرين من العمر، وخططت
الحملة للانتقال إلى العمق الداخلي في موقع للتجميع سمي بورت ويليام
على الضفة اليمنى من نهر الفرات على بعد ١٤٠ ميلاً إلى الشرق.
انقضى اثنا عشر شهراً من خيبة الأمل وتبسيط الهمم قبل أن تنزل
الزوارق البخارية إلى النهر الكبير، وأقيم طريق راسخ قادر على تحمل
أوزان تمرّ عليه تصل إلى خمسة أطنان، يمتد من أنطاكية إلى الفرات.

(١) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M4 ص ٢٧: رسالة حاكم مالطا السرف. سي.
بونسيني في ٩ نيسان ١٨٣٥ إلى السرف. ر. إض. إنجلس، ص ٤٥-٤٦: رسالة برينر في ٩
نيسان ١٨٣٥، ص ٢١١: رسالة چسني في ٢٧ أيلول ١٨٣٥ إلى الوزارات بالمر
"مذكرات" القسم الأول، ج ١ ص ٢٦٣.

(٢) يومية الدكتور هلفر ٢٤ آذار ١٨٣٦ نقلها نوستيتز، ج ١، ص ١٩٥.

خلف المترجم العربي رسام انطباعاً جيداً عند رؤسائه بمواهبه في إنجاز وتدبير العربات والثيران والعمال (رغم أن الطريق اتبع القسم الأدنى من وادي أفرين، فمن الغريب أنه لم يرد ذكر رؤية الأيزيديين) وأغلب التأخير يمكن أن يعزى إلى أسباب بشرية وتكنيكية، والمشاكل الصحية المترتبة على إدخال تطورات ونتاج القرن التاسع عشر إلى مجتمع تقليدي، ولكن ما كان يكمن تحت هذه العقبات هو التعارض السياسي الأساسي بين نظام محمد علي، والثوار الظافرين، وسلطته الأعلى بالاسم فقط السلطان محمود الذي كان قد قاطع الحملة.

وبعد اتفاقية ١٨٣٣ المهينة كان جل هم السلطان أن يسترد سيطرته على الأناضول، كي يستخدم قواها البشرية التي لا تنضب لإنشاء جيش جديد لاستعادة سوريا، وأسندت المسؤولية إلى رشيد باشا الذي اطلق سراحه من الأسر، وخطوته الأولى كانت مد طريق عسكري بطول ٤٠٠ ميل من البحر الأسود إلى ديار بكر، كي يمكن نقل الأسلحة والبنادق عليها.

وفي عامي ١٨٣٤-١٨٣٥ قام بقمع كورد وسط وشمال شرق الأناضول، ومن بين الذين أخضعوا كان الزعيم الأيزيدي ميرزا آغا الرضواني.

وفي نفس الوقت قامت العساكر العثمانية بإعادة الاستيلاء على أورفه، وإخماد ثورة في ماردين.

في هذه الفترة أعيقت الاتصالات بين الأناضول ومنطقة العراق التي تم الاستيلاء عليها مجدداً، وذلك بسبب غزو محمد علي لحلب، كما تعرضت إلى تهديد أكثر نتيجة توسع كور محمد الرواندوزي نحو الغرب،

بعد استيلائه على العمادية في العام ١٨٣٤ والسيطرة على عبور دجلة عند جزيرة ابن عمر بعقده حلفاً مع كوردي آخر وهو بدرخان بك أمير بوتان.

في ربيع عام ١٨٣٦ توجه جيش رشيد باشا من ديار بكر باتجاه الشرق، وكان جيد التزود بالمدافع، فقصفت جزيرة ابن عمر بالمدافع لعدة أشهر، وتركت كومة من الخرائب وأبيد أو استعبد الأهالي التي كانت غالبيتهم من الأيزيديين.^(١)

وحاصر الأمير بدرخان بك في قلعة الجبلية أربعين يوماً استسلم بعدها وانضم إلى الباشا، أما كور محمد الذي فاقه الجيش العثماني في العدة والعدد فقد انسحب باتجاه راوندوز، واستسلم أخيراً إلى العثمانيين في شهر آب من ذلك العام، فأرسل أسيراً إلى استنبول، وبعد شهور قليلة أعفي عنه وأعيد تعيينه من قبل السلطان حاكماً على راوندوز وفي طريق العودة لحق به رسول من قبل السلطان مزود بتعليمات جديدة، وتوفي على حين غرة في أماسيا إثر احتسائه فنجان قهوة.^(٢)

(١) جي. شيل "ملاحظات عن رحلة من تبريز عبر كردستان" مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٨ (١٨٣٨) ص ٨٦-٨٨. ب. أكس. كوست "مذكرات" ص ٤٠٩-٤١٠. هلموت فون مولتكه، المصدر السابق، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٢) وزارة الهند (لندن) سجلات سياسية وسرية ٩ / ١٠٠، تقرير ريجارد وود في ٣ أيلول ١٨٣٦، راجع أيضاً أي. ب. كاننكهام "المراسلات الأولى لريجارد وود ١٨٣١-١٨٤١" ص ٩٠-١٠٨. نيز، ص ١٦٤-١٦٩. الميجر فردريك ميلنكن "حياة البداوة بين الكرد" ص ١٨٥-١٨٧. جي. ب. فرينر "رحلات في كردستان" ج ١، ص ٨٢. أينسوورث "رحلات وبحوث" ج ٢، ص ٣٢٢-٣٢٣. توماس لوري "الدكتور غرانت ونساطرة الجبال" ص ٢٢١.

وفي طريق العودة من شمال العراق شن رشيد باشا هجوماً على أيزيدي سنجار ملحقاً بهم أضراراً بالغة.^(١)

وفي كانون الثاني من العام ١٨٣٧ مات رشيد باشا نتيجة إصابته بالكوليرا، فخلفه حافظ باشا، وهو رجل مفعم بالنشاط والحيوية، جركسي اشتهر بشجاعته وبراعته في المبارزة بالسيف، وثقته بتفاسير القرآن ونصائح العرافين.

* * *

وفي منتصف آذار من العام ١٨٣٦ غادر زورق الفرات ليتبعه بعد قليل زورق دجلة وعند نزول الزورقين باتجاه الجنوب على النهر العريض المتموج والمتعرج كانا في الغالب يقفان مرتطمين بالقاع في أماكن ضحلة مجهولة على الضفاف الرملية، ولكن بحلول بداية شهر مايس كان الزورقان على أتم الاستعداد لمغادرة مسكنه حيث يلتفت الفرات بانعطافته الكبيرة باتجاه الجنوب الشرقي، والمسافة التي تلت ذلك وهي بطول ١٦٠ ميلاً كانت الملاحاة فيها خالية من المشاكل.

كان الزورق الصغير دجلة، والذي أقام چسنبي على ظهره مقره بمثابة الدليل لزورق الفرات، الذي حمل بدوره كلاً من أينسوورث ورسام وأغلبية أفراد الحملة.

(١) الدملوجي "اليزيدية" ص ٤٦٧ و ٤٩٨. لا يارد "نينوى وبقاياها" ج ١، ص ٢٧٧. ليس تاريخ هجوم رشيد باشا على جبل سنجار معلوماً إلا أن رسالة ريجارد وود في ٢٨ حزيران ١٨٣٦ إلى بونسباي التي نقلها كاننكهام، ص ٩٥، تذكر أن الهجوم وقع بعد استسلام كور محمد.

وعند بوصيرا حيث يتلقي الخابور بالجدول الرئيسي في المكان الذي لجأ إليه ذات مرة خسرو برويز طلباً للحماية، هنا يبحر زورق دجلة لمسافة عشرة أميال باتجاه الشمال في النهر، ولكنه يعود أدراجه بعد استطلاع آراء العرب المصطفين على الضفة، والذين أبدوا تشاؤمهم من إمكانية بلوغ سنجار عند ذلك الطريق.

وبعد مضي يومين وأميل قليلة إلى الجنوب من (بوصيرا) وقعت الكارثة في صورة عاصفة رملية عنيفة أغرقت زورق دجلة ومعها خسرو عشرون شخصاً أرواحهم، وتمكن چسني مع قلة آخرين من السباحة نحو الشاطئ. وأنقذ الفرات عن طريق رسوه على الضفة النهر، غير هباب أو مكترث للمأساة - وللأوامر التي وصلته من لندن بإيقاف الحملة بحلول نهاية تموز -.

أنهى چسني رحلته النهرية بزورق الفرات، ووصل البصرة في ١٩ حزيران، والحكومة البريطانية أجازت التمديد لستة أشهر مما ممكن الفرات بأن يبحر في دجلة باتجاه الشمال إلى بغداد والعودة إلى البصرة ثانية، ليعلن بأن موعد رحلة العودة باتجاه الأعلى سوف يكون في شهر تشرين الأول، لكن وبينما كان الزورق يمر عبر مستنقعات انكسرت قطعة ذات أهمية من الحرك مما اضطر الزورق للعودة إلى البصرة، وبذلك انتهت الحملة وعاد أفرادها الذي كانوا يرتدون الزي العسكري إلى واجباتهم.

كانت المغامرة لا زالت تثير اثنين من المدنيين وتغريهم بضرورة مواصلتها، حصل أينسوورث على إذن يسمح له بالعودة إلى وطنه عن طريق الموصل وكردستان، يرافقه كريستيان رسام (الاسم الذي أتخذه

آنذاك) مع تعليمات تلزمه بالاعلام عن أية ترسبات فحمية أو معادن أخرى يعثرون عليها.

تركوا بغداد في شباط عام ١٨٣٧ ووصلوا الموصل في نهاية الشهر، كانت تلك رؤية رسام الأولى لمدينته منذ مغادرته لها قبل عشرة أعوام^(١) ومن الموصل توجه المنقبان شمالاً، وقضيا ليلتهما الأولى في القرية الأيزيدية (ذُلب) حيث لاحظ أينسوورث أن الأهالي كانوا غير راغبين في استقبالنا^(٢)، فاستمروا في التقدم بعد ملاحظتهما ما يشبه عيد سلحفاة البر، لأنهم تجمعوا في زمر قارعين أتراسهم بالبعض محدثين ضجة كبيرة.^(٣)

وبعد المرور بجزيرة ابن عمر حاولا الذهاب مباشرة إلى ديار بكر بمحاذاة مضائق دجلة، لكنهما رُدا على أعقابهما من قبل فرسان كورد ثوار، فاضطرا لاتخاذ طريق ماردين (التي وصفها أينسوورث بما يناسبها على كونها كويتو الميسوبوتاميا).^(٤)

وفي ديار بكر - والتي وصلها في بداية شهر نيسان - إلتقى أينسوورث ورسام بحافظ باشا، وعلما منه سبب عدم استقبال الأيزيديين لهما بحرارة، الباشا الذي كان لا زال يشعر باللوعة والألم على فقدانه لشحنة من الألبسة العسكرية تعرضت للنهب على أيدي لصوص سنجار، كان يجهز حملة ليقمع بها إلى الأبد آخر أكثر مشيري

(١) أينسوورث "تقرير عن رحلة من بغداد إلى القسطنطينية عبر كردستان (١٨٣٧). الملحق (١١) جسني "قصة" ص ٤٩٢-٥٢٥، وكذلك سيرته الذاتية، ج ٢، ص ٢٨٧-٣٨٢.

(٢) أينسوورث، السيرة الذاتية، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٧.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤١.

المتاعب، والذين يشكلون مصدر تهديد على خط المواصلات الذي أنشئ حديثاً بين ديار بكر والموصل.^(١)

وبعد أسابيع قليلة تقدم جيش حافظ باشا على جبل سنجار من الغرب، بينما اكتسح الجنود تلعفر من الموصل، ووصلوا الجبال من جهة الشرق، غير متأكد من طبيعة المنطقة لكن مدفوعاً بتشجيعاً من حلم ترائي فيه لأحد مساعديه مخلوق سماوي ينبؤ بهزيمته الأيزيديين، قام حافظ بضرب طوق من الحصار على الجبل طالباً من الأيزيديين الاستسلام تحدى قبيلة واحدة وهي (مهركان) أوامر الباشا، وفتحت النار على عساكر الباشا بعد أن أرسلت النساء والأطفال والشيوخ إلى أماكن آمنة بالكهوف. واستمرت المعارك لمدة ثلاثة أشهر، لحقت خلالها خسائر جسيمة بالطرفين بما فيهم حافظ باشا نفسه الذي لدغته أم الأربع والأربعين.^(٢)

وأخيراً أوشك عتاد الأيزيديين على النفاد فاستسلم زعيمهم لالو دون أية شروط وحينما كانوا يظهرون من أماكن اختبائهم تم تعدادهم بما لا يقل عن ٥١٦ شخصاً خرجوا من كهف واحد، ومن بين الغنائم عثر على البزات العسكرية المنهوبة، وعشرين سرجاً كانت قد سلبت من سعاة الحكومة، وثلاثين ألف رأس غنم، وعدد من النساء الأسيرات

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٩. چسني " قصة " ص ٥٢١.

(٢) الدكتور ج.ي. روس "ملاحظات حول رحلتين من بغداد إلى خرائب الحضر في ميسوبوتاميا في ١٨٣٦ و ١٨٣٧" مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٩ (١٨٣٩) ص ٤٦٣-٤٦٤. أينسوورث "رحلات وبحوث" ج ١، ص ٢٩٣، وسيرته الذاتية، ج ٢ ص ٣٤٩. حافظ: اللدغة تنسب إلى عقرب. إسماعيل بك كول "اليزيديون ماضيهم وحاضرهم" ط. زوريك، ص ١١٣-١١٥. الدمولوجي "اليزيدية" ص ٤٩٨-٤٩٩.

اللاتي عدن على الباشا بثمان يتراوح بين ٤٥ و ٣٠ دولاراً في سوق النخاسة بماردين.

ويصرح أحد المصادر بأن الأيزيديين سلموا كنوزهم المدفونة إلى حافظ لكن وفق مصدر آخر إنهم كشفوا له عن كهف واحد حيث احتفظوا ببعض النفائس، بينما لم يبوحوا له بسر المكان الحقيقي الذي يحوي على كنوزهم المخبوءة.^(١) وبعد التفكير في ترحيل رجال القبيلة إلى السهل سمح لهم حافظ باشا بالبقاء في الجبل، كما أجاز لهم الاحتفاظ بديانتهم وعاداتهم وقوانينهم، ولكنهم درجوا ضمن قوائم الذين يجب عليهم دفع الضريبة إلى الامبراطورية، ووضعت حامية عسكرية على الطريق الرئيسي عند نصيين.^(٢)

وفي السنة التالية حصل رحلة إنكليزي على إذن بزيارة الجبل وكان يرافقه شيخ أيزيدي من بعشيقة في هذا المصدر الذي يتألف من ثلاثين صفحة، يذكر الدكتور فوريس زيارة إلى كُرسى وهي قرية تعسة تقع على السفح الشمالي من الجبل، وعندما سأل الرحالة عن سبب عدم قيام الأهالي بأي عمل، أجابه الدليل :

((هل ترى التل المقابل للقرية ؟ قبل مجيى حافظ باشا كان الشغل شاغل للأهالي هو الجلوس على قمة ذلك التل

(١) هوراتيد ساوثكيت " قصة رحلة عبر أرمينيا وكردستان وبلاد فارس وميسوبوتاميا " ج ٢، ص ٢٦٦-٢٦٧. الدكتور أساهيل غرانت " النساطرة أو القبائل المفقودة " ص ٤٦-٤٧. المكتبة البريطانية، أوراق لايارد، المخطوطة ٣٩٠٩٦. يومية لايارد ١٠ تشرين الثاني ١٨٤٩.

(٢) الأرشيفات العثمانية " الخط الهمايوني ٢٢٣٥٠ د " رسالة حافظ باشا في ٢٤ جمادى الأول ١٢٥٣ هـ (٢٧ آب ١٨٣٧ م) إلى بورت. ساوثكيت " أرمينيا " ج ٢، ص ٢٧٣. فوريس مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٩ (١٨٣٩) ص ٤٠٩ و ٤٢١.

طوال اليوم يترصدون المسافرين والقوافل بغرض قطع الطريق عليهم وسلبهم، والآن انتهى ذلك فليس لديهم ما يقومون به)).^(١)

حوالي هذه الفترة وضع حافظ باشا نهاية لما كان يتمتع به ميرزا آغا الرضواني من حكم ذاتي في شرق ديار بكر، وفي عهد رشيد باشا كان قد تم تنصيب حاكم عثماني على القصر، لكنه اختطف زوجة ميرزا آغا فقتل انتقاماً من قبل الأيزيديين، وأعفي عن ميرزا آغا وأعيد له الاعتباره كحاكم، لكنه بعد موت رشيد باشا أستدعي إلى مقر القائد العثماني الجديد حيث تم قتله^(٢) وعاش أبنائه لسنوات طويلة في رضوان كمواطنين عاديين.^(٣)

وفي ١٨٣٨ جدد حافظ باشا حملته لاختضاع الكرد المتمردين إلى الحكم العثماني ودفع الضرائب لدعم جيشه الجديد، وأرسل له السلطان مستشارين تم إعادتهما من بروسيا: الكابتن البارون هلموت فون مولتكه من هيئة الأركان العامة، والضابط المهندس الكابتن هاينرخ فون مولباخ الذي جلب بمعيته مخططه كوربورال أوفلاهرتي.^(٤)

وأول واجبات مولتكه التكتيكية كان تقديم المساعدة لأحد قادة حافظ لسحق حامية كوردية قرب جبل جودي، وتضمنت القوة

(١) المصدر السابق، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٩ (١٨٣٩) ص ٤١٨.

(٢) لا يارد "نينوى وبابل" ص ٤٦.

(٣) فيتال كوني La Turguie d Asie ج ٢، ص ٦٠٧.

(٤) يتحدث مولتكه "Briefe" و "Drastellung" بالتفصيل عن معاناة البعثة العسكرية البروسية. راجع أيضاً رينهولد فاكنر "Moltke und Mulbach". وكذلك يهودا ل. فالاخ " " ص ١٥-٢٩.

العثمانية قوة غير نظامية من الكرد تحت قيادة بدرخان بك أمير بوتان، وفي ليلة شديدة البرودة في وقت مبكر من شهر مايس كان البارون مولتكه سعيداً بمشاركة الأمير لغطائه الفرائي عندما غطوا في النوم على نتوء جبلي تحت النجوم^(١)، وفي تموز قطعت عمليات حافظ العسكرية شمال شرق ديار بكر بعد صدور أوامر سلطانية له بضرورة التركيز على ملاطية والاستعداد للزحف جنوباً. فقد كان محمود الثاني يعد العدة لاستعادة الأقاليم التي خسرها لصالح المصريين.

(١) مولتكه Briefe ص ٢٩٤ (طبعة ١٨٩٣).

الفصل السادس

المبشرون والمستكشفون الناطقون بالانكليزية

في العام ١٨٠٠ كان عدد نفوس الولايات السبع الشمالية الشرقية للولايات المتحدة الأمريكية المشتملة على نيويورك ونيوانگلاند (٢٦٣٥٠٠٠). هذه الجماعة الصغيرة والمتعلمة جيداً دعمت عدداً من الكليات والمدارس اللاهوتية، والصحوة الدينية التي اكتسحت بريطانيا في القرن الثامن عشر كانت قد تركت آثارها على المستعمرات الأمريكية.

وبحلول بدايات القرن التالي كان جزء صغير من أهالي نيويورك ونيوانكلاند البروتستانت ينتمون إلى كنيسة أسقفية مرتبطة بكنيسة انكلترا، بينما انتسب أغلبهم إلى أبرشية ومشيخية وكنائس أخرى منشقة. إن اندفاع القوة التبشيرية التي نجمت عن هذه الصحوة كان لها تأثير قوي عبر المحيط، وما عززها هو القلق من أنه ليس هناك متسع من الوقت لهداية الكفار، وبعث وتجديد العقيدة المسيحية.

وفي سنة ١٧٩٨ توصل رئيس كلية يال وهو كاهن أبرشية مستقلة - عند اطلاعه على حالة أوروبا وآسيا - إلى أن تنبؤات العهد القديم قد بدأت تتحقق و "أن مجئ المسيح قد أصبح في أقل ما يقال على الأبواب".^(١)

وفي العام ١٨١٠ الجمعية العامة للرهبان المستقلين في ماساشوستس والهيئة الأمريكية لمندوبي البعثات التبشيرية الأجنبية^(٢) التي مركزها كنتاكي والتي انضم إليها خلال سنوات قلائل كل من الكنيسة المشيخية والإصلاحية الهولندية بعد عشرين سنة كانت الهيئة الأمريكية تدير بعثات في الأقاليم الأمريكية التي يعيش فيها الهنود الحمر، وفي هاواي، وشرق البحر المتوسط، وفي الهند وسيلان.

حاول مبشرو الهيئة الأمريكية في سوريا وفلسطين، وغرب الأناضول، واليونان، تحسين وتطوير فهم وإدراك المسيحيين المحليين لديانتهم عن طريق التبشير وإلقاء المواعظ والتعليم، وقامت مطبعة مالطا بتزويدهم بالأدبيات والآثار الدينية اللازمة.

ومن بين الذين استخدموا للعمل هناك شاب انكليزي يدعى بيرسي بادجر الذي كانت اخته قد تزوجت من عيسى الذي عرف فيما بعد بكريستيان برسام.

(١) تيموثي دوايت " واجب الأمريكان في الأزمة الحالية " ص ٣١.

(٢) المصادر الرئيسة عن إرساليات الهيئة الأمريكية في الأناضول الشرقية وإيران والعراق هي أرشيفات الهيئة في مكتبة هوكتن - كامبردج ماساشوستس. راجع أيضاً: روفوس أندرسن "تاريخ إرساليات الهيئة الأمريكية للإرساليات للبعثات الأجنبية إلى كنائس الشرق" وبيتر كاويراو Amerika und die orientalischen kirchen .

في نهاية العام ١٨٣٤ انتقل القسم العربي من المطبعة إلى بيروت وتبعه بادجر الذي كتب إلى بعثة مجمع البعثات الكنسية على أن صهره كان "يتمتع باحترام وتقدير بالغين من قبل الضباط" (المنخرطين في بعثة فرات الاكتشافية) لذا ربما يتم احتجازه من قبل الكولونيل چسني بعد انتهاء مدة خدمته البالغة ستة أشهر^(١). في حين لاحت آفاق جديدة للهيئة الأمريكية اثر الاتفاقية التي أنهت حرب ١٨٢٨-١٨٢٩ بين الامبراطورية العثمانية وروسيا أعيد فتح البحر الأسود أمام السفن الأجنبية فسهل الوصول المباشر إلى شمال شرق الأناضول وطريق التجارة القديم من طرابزون عبر الحدود الفارسية إلى تبريز.

وفي العام ١٨٣٠ انطلق مبشران أمريكيان في رحلة من مالطا بحثاً عن امكانية النشاط بين الأرمن، وكذلك للتحقيق في حالة وظروف النسطوريين الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الفارسي في السهول الخصيبة غربي بحيرة أورمية، ترأس بطيركهيم سيمون السابع عشر أبراهام المعروف عادة بمار شمعون - الذي عاش في الاقليم العثماني بجمال هكاري - فرع الكنيسة النسطورية التي اتحدت ذات مرة ولفترة وجيزة مع روما لكنها انفصلت منذ ١٦٧٢^(*) وكانت الرحلة إلى بلاد فارس مثمرة.^(٢)

(١) أرشيفات جمعية البعثات الكنسية CM / M5 ص ١٨٨-١٩١ و ٢٨٠-٢٨٣، رسائل بادجر في ٣٠ حزيران و ٢٨ تشرين الثاني ١٨٣٥ إلى شلايتنز.

(*) أنظر 52 PP.

(٢) إيلي سميث و إ.ج. ج. أو. دوايت "أبحاث الإرساليات في أرمينيا".

سمح الشاه بإنشاء بعثة ومدرسة تابعتين للهيئة الأمريكية، وأول رئيس للبعثة كان جستين بيركنز قوي العزيمة من سبرنكفيلد ماساشوست، وفي العام ١٨٣٧ التقى بيركنز في الطريق من أورمية إلى أرضروم بجماعة من سبيكي وهي قبيلة أيزيدية تنتقل على طول الفرات الأعلى جنوب جبل آرات، المصادفة الأولى المثبتة في الوثائق بين الأيزيديين وأمريكي، وكان الناطق باسمهم ودوداً ولكنه رفض الخوض في مناقشة حول ديانته.^(١)

إن تجربة بيرجان بابتست دي سانت ايگنان وآخرين عديدين أثبتت أن المؤهلات الطبية مكنت المبشرين من الحصول على ثقة الناس، وأحياناً درجة من التسامح من حكامهم عندما كان هؤلاء يحتاجون إلى مساعدة الأطباء الغربيين، ووفقاً لهذا المبدأ عينت الهيئة الأمريكية عضواً غير أكليركي في بعثة أورمية وهو الدكتور أساهيل گرانت خريج معهد بسفيلد الطبي - ماساشوستس الذي كان قد مارس المهنة في أوتيكا نيو يورك.^(٢)

ولد بمزرعة في عام ١٨٠٧ في مقاطعة أليكاني البعيدة - نيو يورك -، كان أساهيل گرانت أرملاً، وله ابنان في رعاية أقاربه، عندما استقر مع

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧، ٨، ١٦ المجلد الثاني نساطرة بلاد فارس ١٨٣٨ - ١٨٤٤، ج ١، المادة ١٢٢، مادة مجلة جوستين بيركنز ١٠ أيار ١٨٣٧. راجع أيضاً "الإقامة ثماني سنوات في بلاد فارس" ص ٣١١-٣١٢.

(٢) المصدر الأساس عن حياة أساهيل گرانت هو أرشيفات الهيئة الأمريكية وبضمنها مخطوطة له غير منشورة عنوانها "الحياة في كردستان" (أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية رقم ٣٥). راجع أيضاً گرانت "النساطرة أو القبائل المفقودة". توماس لوري "الدكتور گرانت ونساطرة الجبل". ديفيد أض. فيني "رواد الشرق" ص ٢١٣-٢٤١.

زوجته الجديدة بأورمية في عام ١٨٣٥. ووصفه معاصر له على أنه "رجل متوسط القامة، له بشرة سمراء، وعيون سوداء براقية، سيماء ودية، مع قليل من روح المغامرة والحماس"^(١) كان سكرتير الهيئة الأمريكية التي استخدمته متأثراً بشكل خاص مع "مظهره الذي يدل على القدرة على القيادة، يضاف إلى ذلك القرار الحصيف والجرأة".^(٢)

هذه الأحكام المتزنة على الرجل لا تصل إلى مستوى تأثير شخصيته التي لا تقهر دوماً، خلفه على معاصريه من انطباع جيد. ملأت بعثة أورمية فراغاً جدياً، فخلال سنوات قليلة أصبحت هناك حوالي اثني عشرة مدرسة قروية، بينما عالج غرانت سيلاً غير منقطع من المرضى.

لكن الطبيب كان يشاقق للابتعاد عن "التملق الذليل المعروف"^(٣) لدى الفلاحين في السهول، والشروع بدلاً عن ذلك في بعثة إلى الجبال باتجاه الغرب، وبعد مجادلات كثيرة أذنت الهيئة الأمريكية لغرانت بمناقشة مشروع بعثة إلى الجبال مع مار شمعون، لكنها أشارت عليه بشق

(١) (لوري) مادة (غرانت، أساهيل) "دائرة معارف الإرساليات" طبعة ١٨٩١، ج ١، ص ٣٩٤. راجع كذلك أ. سي. لاثروب "مذكرات أساهيل غرانت، طبيب الأدوية، بعثة إلى النساطرة" ص ١٩١. وكذلك سي. ساندريجيكي *Reise nach Mosul und darch Kurdistan nach Urumia* ج ٣، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) أندرسن، ج ١، ص ١٦٧.

(٣) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧، ٨، ١٦، المجلد الرابع نساطرة الجبل ١٨٣٨-١٧٤٤، المادة ٧٤، مادة مجلة لغرانت في ١٥ تشرين الأول ١٨٣٩ (مشنري هيرالد) العدد ٣٧ (١٨٤١) ص ١٢٢.

طريقه إلى مقاطعة هكاري عبر طريق ملتو يمر بأرضروم ودياربكر وماردين والموصل، فغادر أورمية في شهر نيسان عام ١٨٣٩ وبعد أسابيع قليلة فقط من وفاة زوجته نتيجة إصابتها بالمalaria تاركاً ثلاثة أطفال عهدت العناية بهم إلى عوائل أفراد البعثة الآخرين.

* * *

إن نجاح بعثة الهيئة الأمريكية بين النسطوريين في أورمية جذب انتباه الكنائس الأخرى المستقلة، فأودت الكنيسة الأسقفية البروتستانتية في الولايات المتحدة مباشرة يدعى هوراتيو ساوثكيت للكشف عما هو ممكن في بلاد فارس والعراق والأناضول في العامين ١٨٣٧-١٨٣٨. كما قام فرنسي كاثوليكي غير أكليركي يوجين بور بتغطية نفس المنطقة بين ١٨٣٨-١٨٤٢، واستطاع اقناع الطائفة اللازارية بإنشاء بعثة للكلدان في سهل أورمية، وكذلك فتح مدرسة كاثوليكية جديدة في الموصل.^(١)

كانت بريطانيا التي تتوهج ثراءً وحيوية في بداية العهد الفكتوري، ولم تفوت فرصة لاستخدام الإيراد غير المتوقع الوارد من مبلغ ٤٠,٠٠٠ جنيهًا استرلينيًا استثمارته في حملة فرات الاكتشافية، الحضور إلى لندن من قبل نسطوري بروتستانتي ذي شخصية جذابة ومثقف

(١) هوراتيو ساوثكيت "قصة رحلة عبر أرمينيا وكردستان وبلاد فارس وميسوبوتاميا". يوجين بور "مراسلات رحالة إلى الشرق".

داهية، يتمتع بتجارب في عمل البعثات التبشيرية ويعرف اللغات المشرقية وشعوبها.

رَحَّبَ چسنی بکریستیان رسام ترحیباً حاراً عند وصوله إلى لندن في منتصف عام ١٨٣٧، وشارك في التهليل والتصفيق الذي منحه، ذلك الشعب الكريم إلى المحاولات الفاشلة، ترك انطباعاً جيداً على الكنيسة والجامعة والدوائر السياسية ومنح جائزة كرونوميتر ذهبية من قبل هيئة الشرف لشركة الهند الشرقية.^(١)

خلال شهور قليلة شكلت الجمعية الجغرافية الملكية وجمعية دعم وتشجيع التعاليم المسيحية معاً (بعثة استكشافية لكردستان) مدتها سنتان.

وتتألف من كل من أينسوورث ورسام ومساح خبير في التلسكوب المنصوب على ثلاثة أقدام، والتجهيزات العلمية الأخرى العائدة للبعثة، وكان الهدف الأساسي للبعثة إجراء كشوفات في وسط وشرق الأناضول، وشمال العراق، وسنجار، وكذلك لجمع المعلومات حول حالة واحتياجات الكنيستين النسطورية واليعقوبية. وازافت التعليمات ما يلي:

الحالة السياسية والمعنوية للقبائل الكردية الحمدية في
أنحاء المنطقة، لغتهم، معتقداتهم الخرافية، وخصوصياتهم
الأخرى أيضاً ينبغي أن لا تنجو من ملاحظاتكم، وسيكون

(١) ويليام (فرانسيس) أينسوورث " رحلات وأبحاث في آسيا الصغرى وميسوبوتاميا وكالديا وأرمينيا " ج ١، ص ٧٨.

أمرًا مرغوباً كتابة تقارير تتعلق بالأيزيديين، أو عبدة النار،
أو (شهيتان په رست) أو (عبدة الشيطان).^(١)

وفي أيلول من العام ١٨٣٨ تجمعت البعثة الجديدة في استنبول بعد أن تمكن رسام من قضاء الوقت في مالطا في زيارة لزوجته، وحسم بعض الحسابات مع البعثة، حيث كان صهره بيرسي بادجر الذي كان قد عاد من سوريا بعد أن تعلم العربية جيداً، يشغل مسؤولية مطبعة مجمع البعثات الكنسية، ورافقت ماتيلدا رسام زوجها إلى استنبول، لكنها نصحت بالعدول عن قرارها في الانضمام إلى البعثة.^(٢)

توجه الرحالة إلى المناطق الداخلية للأناضول، ولكن تراكم الثلوج اضطرهم للبقاء في أنقرة لأسابيع عدة، ووصلوا ملاطيا في نهاية شهر مايس عام ١٨٣٩.

(١) المصادر الرئيسة حول بعثة كردستان هي مجلة الجمعية الجغرافية الملكية العدد ٨ (١٨٣٨) ص VII والعدد ٩ (١٩٣٩) ص XII-XXII. أينسوورث "رحلات وأبحاث" ومقالاته في المجلة المذكورة: (ملاحظات حول رحلة من القسطنطينية عبر هيراقليا إلى أنكورا في خريف ١٨٣٨) العدد ٩ (١٩٣٩) ص ٢١٦-٢٧٦، و (رحلة من أنكورا عبر قيصيرية وقلعة كركان إلى بير أو بيرجك) العدد ١٠ (١٨٤١) ص ٢٧٥-٣٤٠، و (ملاحظات أخذت عن رحلة من القسطنطينية إلى الموصل في ١٨٣٩-١٨٤٠) العدد (١٨٤١) ص ٤٨٩-٥٢٩، و (وقائع زيارة إلى الكلدان القاطنين وسط كردستان) و (توقل قمة رواندز "طور شيخاوه" في صيف ١٨٤٠) العدد ١١ (١٨٤١) ص ٢١-٧٦. وتقرير السيد أينسوورث والسيد رسام إلى المجمع لتعزيز المعرفة المسحية بخصوص المسيحيين في كردستان. راجع أيضاً: ت. م. رسل "معركة نزيب" مجلة يوناتيد سيرفس (١٨٤٠) ص ٤٣٤-٤٤٨. روبرت ب. بيرى "الاستكشاف الأوربي في كردستان التركية ١٨٠٠-١٨٤٢" أطروحة، الجامعة الأمريكية - بيروت (١٩٦٥) ص ١٦٠-١٩٦.

(٢) أرشيفات مجمع البعثات الكنسية ص ٢٦٥، ف: رسائل برينر في ٢٢ آذار و ١٧ أيار ١٨٣٨ إلى سكرتير لاي. جون أ. كلارك "لحات من العالم القديم" ج ١، ص ١٣٤ و ١٤٨. بيرى، ص ١٦٣ و ١٦٦-١٦٧.

وهنا كان أمامهم خياران بين اتخاذ الطريق الذي يتوجه مباشرة نحو الشرق إلى الموصل التي وطأتها أقدام بايجو وعساكره المغولية قبل ستة قرون خلت، أو الانعطاف نحو الجنوب إلى بيرجك حيث أقام حافظ باشا للتو مقر قيادته بعد مسيرة صعبة ومتعبة عبر الجبال، يرافقه مستشاروه التكنيكيون البروسيون، والملاهي المتضلعين في التعاليم الإسلامية. وتذكراً لصداقة الباشا قبل سنتين، ورغبة في زيارة موقع بورت ويليام وشم رائحة التاريخ وهو يصنع، كل هذه العوامل مشتركة أقيمت أينسوورث بالتوجه نحو الجنوب.

في يوم ٢١ تموز عام ١٨٣٩ - وهو أطول يوم في السنة - شوهد الرحالة الثلاثة وهم يجربون عن الأنظار كضيوف شرف في معسكر حافظ باشا في نيسيب على بعد عشرة أميال غرب الفرات.

يقول أينسوورث في وصف مركز خيمتهم التي كانت قريبة من خيمة حافظ باشا: ((كانت الحواشي ذات خطوط زخرفية منتظمة محفورة باللون الأحمر، وكانت الأرضية مغطاة بالبسط، وفي الأمام صف مزدوج من الوسائد مكسوة بالحرير الملون بالأصفر والأحمر، مطرزة عليها بعناية فائقة زهور ذهبية)).^(١)

حاول الباشا ثنيهم عن فكرة مواصلة المسير إلى سنجار، حيث يثبت الأيزيديون كونهم مثيري مشاكل، وحثهم للبقاء ومشاهدة جيشه الذي قوامه ٣٤ ألف رجل وهو يخوض غمار حرب حقيقية مع القوات المصرية المتمركزة مباشرة إلى الجنوب، وفي نفس الليلة تحرك بجذر الجيش المصري الأقل عدداً والأحسن عدة والذي يقوده إبراهيم باشا مع رئيس

(١) أينسوورث "رحلات وأبحاث" ج ١، ص ٣٠٨-٣١٢.

أركانہ الفرنسي - قائد نابليوني عتيد - حول جناح الجيش العثماني بُغية الاستيلاء على مؤخرة جيش حافظ المكشوفة وغير الحمية.

وبحلول الصباح التالي ظهر بوضوح خطورة التهديد، كان لحافظ خياران: إما مهاجمة المصريين وهم في حركة، أو التراجع إلى الخلف لتعزيز مواقعه بمحاذاة الفرات، لكن الباشا بقي مكانه غير قائم بأي نشاط، غارقاً ومشدوهاً إلى دراسة التنبؤات القديمة وتفسير الأحلام.

لقد وصف أينسوورث الموقف المتوتر تحت خيمة حافظ في ذلك المساء من ٢٢ تموز، عندما أصر كل من مولباخ ومولتكه مستخدمين رسام كمترجم، على الانسحاب قبل أن يتم انفصال الجيش عن قاعدته، تردد الباشا، ظهر في البداية على أنه يوافق على الأجراء، لكن الملالي أقنعوه بالوقوف والقتال.^(١)

في اليوم التالي استعد الجيشان لخوض غمار المعركة.

ارتفعت معنويات العثمانيين نتيجة وصول التعزيزات، بضمنهم ٧٥٠ رجلاً من غير النظاميين تحت قيادة بدرخان بك - أمير بوتان - الذين أوكلت إليهم مهمة الصمود في موقع أساسي على الجناح^(٢) والبروسيون - وحسب ما يملّي عليهم واجبهم - أشرفوا على توزيع جنود حافظ.

استعد أينسوورث ورفاقه للرحيل.

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٣-٣٣٥. رسل، مجلة يونيتد سيرفيس (١٨٤٠) ص ٤٤٣.

راينهولد فاكنر Moltke und Muhlbach zusammen unter dem Halbmond ص ٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٤ و ٢٦٦-٢٦٧.

استغرقت معركة نيسيب ساعتين فقط في ٢٤ تموز عام ١٨٣٩ ، الجنود العثمانيون، وأغلبهم مجندون كورد، كانوا غير مدربين على مواجهة نار المدفعية المستمرة، فانتشر الخوف والهلع، وتحول الجنود إلى لصوص ونهابين متوجهين نحو الجبال رغم جهود حافظ والبروسيين لصد الهجمة.

انفصل أينسوورث والمساح عن رسام، وضاعت حقائبهم وتجهيزاتهم. المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة يعترفون بأن معركة نيسيب تعد حدثاً هاماً في التاريخ العثماني، والسلطان محمود الثاني - الذي تبعثرت خططه الموضوعية بعناية واناة في صباح يوم واحد - مات قبل أن تصل إلى مسامعه أخبار الهزيمة. والوزراء الذين أحاطوا بخلفه الشاب الغض طلبوا المساعدة من أعداء الامبراطورية القديما: روسيا وامبراطورية هابسبورك، والصديقان الجديدان: بريطانيا وروسيا. وتحت تأثير الضغط الدبلوماسي والعسكري الذي مارسه هذه القوى وافق محمد علي أخيراً على سحب جنوده من سوريا وفلسطين مقابل عدم التعرض لمصر والاعتراف بحقه وأولاده فيها وإلى الأبد.

سار مجندو حافظ الكرد عبر الأناضول محتفظين بأسلحتهم وعتادهم نحو الشرق عائدين إلى بيوتهم، وعاد بدرخان بك الذي سحب قواته مبكراً من المعركة^(*) عاد أدراجه إلى إمارته بوتان وهو يعيد النظر في ولائه للسلطان.

(*) في عام ١٨٨٦ وبعد مضي سبعة وأربعين سنة على معركة (Nisib) لم يتذكر (Moltke) حتى وجود بدرخان بك في ساحة المعركة. (ف. نيفوهر، مجلة ZDMG العدد ١٣٣ (١٩٨٣) ص ١٣٤-١٤٤. انظر هامش ص ١٥٢ من هذا الفصل. راينهولد فاكنر "مولتكه ومولباخ" ص ٢٧١.

تم تغيير أشخاص ومناصب أخرى نتيجة معركة نيسيب، قدم حافظ باشا إلى المحكمة العسكرية، وفصل من واجبه، وعين والياً على أرضروم. وعاد مولتكه وزملاؤه للحاق بالجيش البروسي، والتأم شمل أعضاء بعثة كردستان بعد أن فقدوا كل شيء، فواصلو مسيرهم إلى استنبول، حيث تمكن كل من أينسوورث ورسام أن يقوموا بالرحلة الثانية في وقت لاحق من ذلك العام.

كان الدكتور غرانت عند سماعه بأخبار معركة نيسيب في طريقه إلى الموصل برفقة مبشر آخر وهو هنري هومز حيث وصلا إلى ديار بكر وواصل السير نحو ماردین، ولكنهما تأخرا هناك لمدة شهرين بسبب مرض غرانت والفوضى العارمة التي توجت بأعمال شغب قام خلالها الغوغاء بقتل الوالي والأشراف الآخرين، وطاردوا المبشرين إلى دير الزعفران خارج المدينة، حيث آوهم البطريك اليعقوبي في الوقت المناسب.

وبعد أسبوع استطاع جنود يقودهم والي الموصل من إعادة النظام وقرر الذي كان يقضي أوقاته بجمع المواد والمعلومات حول الأيزيديين العودة إلى استنبول ولكن، وكما كتبه غرانت لاحقاً ((بينما دعت العناية الإلهية للعودة إلى القسطنطينية ولكن بدا لي أنها تدعوني بقوة إلى الأمام نحو الجبال)).^(١)

* * *

(١) غرانت "النساطرة" ص ٣١-٣٨. لوري "غرانت" ص ١١١-١١٤. هنري أ. هومز "طائفة اليزيديين في ميسوبوتاميا" مجلة بايبيكال ريبوزيتوري أند كلاسيك ريفيو، العدد ٢، المجلد ٧ (١٨٤٢) ص ٣٢٩-٣٥١.

وعند وصول غرانت إلى الموصل، كان حاكمها محمد باشا أنجه بيرقدار في نهاية الخمسينيات من عمره^(١) وهو تركي الأصل، بدأ حياته كسائس خيول، ولم يتعلم أبداً القراءة والكتابة، وهو رجل مميز وبارز بين معاصريه، ويوصف بأنه يتكلم بصوت خافت وهادئ، ولكنه رجل عديم الرحمة، نموذج معروف للذين يعيشون في وقت الاضطرابات والمشاكل كالامبراطورية الرومانية في القرن الثالث، أو السنوات الأخيرة للقرن العشرين، وكان الشيب قد نال من حية انجه بيرقدار عندما نقل من سوريا لتقديم المساعدة إلى إدارة علي رضا الجديدة في العراق. في البداية أعجب المقيم البريطاني الكولونيل تايلر بالقائد الجديد وكتب يقول: ((رغم فشل هذا الرجل النبيل أمام القوات المصرية، لكن يبدو لي أنه رجل ذو سمات أسمى، ويتفوق بمواهبه على أي ضابط تركي حالياً هنا)).^(٢)

وبعد مضي سنتين تعرف نفس المراقب على جانب مظلم في شخصية الباشا، وسماه (الطاغية الذي لا يضاهيه أحد في الوضاعة أو قلة

(١) إضافة إلى المصادر المذكورة في بقية هوامش هذا الفصل، يورد كومت (إدورد) دي سيرسي أوصافاً لإنجه بيرقدار في Une ambassade extraordinaire: La perse en 1839-1840 ص ٣٥٤-٣٥٦. مقال آي. برزين "الموصل" Bdch العدد ١٣٣ (١٨٥٥) ص ١٨٦-١٨٩. و "sovremennaya Turtsiya" OZ العدد ١٠٤ (١٨٥٦) ص ٤٠٠-٤٠١. القس سليمان الصائغ "تاريخ الموصل" ج ١، ص ٣١٠-٣١٤. محمد ثريا "التاريخ العثماني" ج ٤، ص ٢٩١، يذكر أن لقبه هو إنجه بيرقدار زاده، زاعماً أن لقبه ربما كان اسماً للعائلة.

(٢) وزارة الهند، سجلات القسم السياسي والسري ٩ / ٩٥. برقية تايلر رقم ٥ (١٤ أيار ١٨٣٣) إلى اللجنة السرية ووزارة الخارجية ١٩٥ / ١١٣ رسالة تايلر في ١٥ أيار ١٨٣٣ إلى السفارة.

الكفاءة)^(١) تصف يوميات ضابط هندسة عثماني مجهول الهوية الرعب والرهبة اللتين رافقتا حملة تأديبية إلى ماردين قادها انجه بيرقدار، الذي وسمه الكاتب بالقائد الوحشي القاسي، والذي يصدر الأحكام الاعباطية، والمدمن على قضاء أوقات فراغه بشرب الخمر في صحبة راقصين غلمان.^(٢)

وفي العام ١٨٣٥ عين انجه بيرقدار والياً على الموصل، مدينة كانت ذات مرة مزدهرة أصابها الخراب والدمار نتيجة تفشي وباء الطاعون، والكوليرا، والجماعة، والفوضى المدنية، واستطاع بسرعة مسح لطخة العار عن جبينه عند فراره من حصص، وذلك بقيامه بمساعدة رشيد باشا في إلحاق الهزيمة ببك راوندوز، وكان تعاونه مع حافظ باشا في حملة سنجار مثمراً أكثر، والاستيلاء على تلغفر أوقع في يديه كنزاً تراكم على مدى قرنين بطرق غير شرعية.^(٣)

في الموصل تمكن من إعادة النظام عن طريق الاعدامات المنتقاة، ووضع اليد على ممتلكات الآخرين، وتجنب الاغتيال بأختيار موقع جيد خارج جدران المدينة لإقامة مقره، حيث بنى ثكنات عسكرية (مع مصادر مياه صممت من قبل مولتكه)، ومعمل لصناعة الأسلحة وعربات المدافع، ومعمل عتاد يعتمد على احتياجاته من السلفور على ما ينجم محلياً. وكان من عادته إرسال فاتورة الاصلاحات إلى الحكومة المركزية

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ١١٣ برقية تايلر المرقمة ١١٧ (٣ تشرين الأول ١٨٣٥) إلى السفارة.

(٢) (ريمي) أوكر - أيلوي Relations de voyages en Orient de 1830 a 1838 ج ١، ص ٩٩-١٣٢.

(٣) أوستن هنري لايارد "نينوى وبقاياها" ج ١، ص ٣١٤.

بينما يحتفظ هو لنفسه بالجزء الأكبر من إيرادات دخل الولاية، وإرسال مبلغ ضئيل إلى العاصمة للإبقاء على حقه في فرض ضريبة على المزارع، حتى أنه أعلن ذات مرة بأن خزينة السلطان تدين له بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه سترليني.^(١)

وفي صيف عام ١٨٣٩ وبعد هزيمة العثمانيين في نيسيب نقل والي بغداد إلى إنجه بيرقدار صلاحية السلطة على إمارة العمادية الكردية التي لا زالت لها من بين رعاياها أيزيدي شيخان^(٢) لكن أمير العمادية إسماعيل باشا المعروف أحياناً بالعباسي الأخير تحدى هذه السيادة الجديدة، لكنه هزم في عقرة، واعتقل وسجن في الموصل، وعين قريب له يدعى محمد سعيد باشا خلفاً له في عقرة لكنه منع من دخول العمادية، حيث وضعت قوة عسكرية^(٣) في شمال العمادية، وكانت القبائل النسطورية تدين بالولاء إلى الأمير الهكاري نور الله بك، وهو عباسي آخر معروف، وصف بأنه: "رجل ذو سيماء نبيلة صورته تبعث على الطاعة، ويتمتع بصفات الرجولة والقوة، هذا إن لم يتأثر مزاجه بأي شبهة وارتياب".^(٤)

البطريك مار شمعون من جانبه أدرك أن الحكم الذاتي الكردي في ظل الامبراطورية العثمانية قد حانت نهايته، فسعى لأن يصبح الزعيم الديني والمدني لطائفته الجبلية. وبالرغم من أن البطريك كان ملماً بنشاط البعثة

(١) برزين Bdch العدد ١٣٣ (١٨٥٥) ص ١٨٦-١٨٧. هلموت فون مولتكه Briefe ص ٢٥٥ (طبعة ١٨٩٣). لوري "غرانت" ص ٢٠٦-٢٠٩. جورج بيرسي بادجر "النساطرة وطقوسهم" ج ١، ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٥.

(٣) "غرانت" النساطرة ص ٥٤-٥٧.

(٤) لوري "غرانت" ص ١٤٩.

الأمريكية في أورمية، إلا أنه لم يسبق له أن التقى أجنبياً سوى مرة واحدة في عام ١٨٢٩ عندما زاره فريدرك شولتز وهو عالم آثار ألماني، قتل البطريك بعد ذلك بفترة قصيرة بين هكاري وبحيرة وان بأمر من نور الله بك.

زعيم آخر اسمه خان محمود ويدعى عادة بـ (the Rob Roy at Kudistan)^(١) كان مسيطراً على المنطقة جنوب البحيرة، بينما كان شريف بك الذي ترجع أصوله إلى مؤلف الشرفنامه كان يحكم على بدليس.

استغل كل هؤلاء الزعماء ضعف السلطة العثمانية، واستفادوا منها بعد كارثة نيسيب، لكن الأكثر قوة وجرأة وتعصباً من الجميع كان بدرخان بك - من سلالة آريزان - الذي كان يحكم جزيرة ابن عمر والجبال إلى الشمال والغرب، المنطقة يسكن فيها المسلمون والأيزيدون والنصرانيون اليعاقبة القرويون.

وفي العام ١٨٤٤ يتذكره زائر كونه ((رجلاً جميل الملامح، يتمتع بمظهر الصحة والقوة، ويبلغ من العمر ٣٥ عاماً، وتكاد تصل قامته إلى ستة أقدام، وتبدو على وجهه آثار مندثرة لمرض الجدري، له شاربان خفيفان، ولكن بدون لحية)).^(٢)

(١) جي. شيل "ملاحظات حول رحلة من تبريز عبر كردستان" مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٨ (١٨٣٨) ص ٦٩.

(٢) وزارة الخارجية ٧٨ / ٢٦٩٨، ر. دبليو. ستيفنس "تقرير عن زيارة إلى بدرخان بك" ١٠ تموز ١٨٤٤. يقول ستيفنس في تقريره "أنه كان في معركة نيسيب يقود مجموعة من الفرسان الكرد" انظر هامش صفحة ١٤٨ من هذا الفصل.

تأثر رحالة آخر أكثر بهذه الشخصية إذ صادفه والامير الممتطي جواده ترافقه قوات من الحرس والحشم بمحاذاة الطريق، يصفه بأنه شخصية صارمة وغامضة، يلف جسمه شال كشميري، مع حلية وشوارب مصبوغة باللون الأسود، وأنف إغريقي أحمر يتحدى عينيه السوداوين^(١) ورغم أنه كان يمارس السلطة المطلقة إلا أنه كان يبذل جهداً كبيراً ليوّضح للناس أنه يحكم باسم أخيه سيف الدين، الأمير الشرعي الذي وضع تحت حراسة سرية مشددة.^(٢)

هذا هو الجو السياسي الساخن المشحون الذي كان ينتظر أساهيل غرانت عندما بدأ رحلته من موصل في شهر تشرين الأول من العام ١٨٣٩، الأولى من خمس رحلات قام بها إلى النسطوريين الجبليين. أكد له أنجه بيرقدار بأنه ((إلى أبعد حدود موطننا، أؤكد لك بأن بمقدورك حمل الذهب ولا تخف !)) ورتب له مواصلة مسيره إلى عقرة للحصول على قوة عسكرية مرافقة من أمير العمادية، الذي رحب به بحرارة وطلب منه معاينة نبضه، كما أن غرانت أوصى بوصفة علاجية لقائد الجنود العثمانيين أيضاً، والذي كان مصاباً بهذيان شديد. وبعد وقفة قصيرة في العمادية واصل السير إلى جبال هكاري ووصل محل إقامة البطريك في نهاية الشهر.^(٣)

(١) ف. ديتل Bdch العدد ٩٥ (١٨٤٩) ص ٢١٠.

(٢) لايارد "اكتشافات في خرائب نينوى وبابل" ص ٥٤. راجع أيضاً جليل Kurdy Osmanskoy Imperiyi v pervoy polovine XIX veka ص ١٢٥-١٤٨.

(٣) غرانت "الناطقة" ص ٤١-١٠٠. لوري "غرانت" ص ١٢٩-١٤٥.

وبعد البقاء خمسة أسابيع مشجعة عند مار شمعون، قام غرانت بزيارة إلى أمير هكاري الرهيب، الذي طلب في الحال معالجة "الحالة شديدة من البرد كان يعاني منها مصحوبة بالحمى والالتهاب".

وفي منتصف الليل أوقف غرانت ليسمع بأن نور الله بك تسوء حالته الصحية، من غرفة الأمير تسنى لغرانت إلقاء نظرة سريعة، حيث شاهد السيوف، والمسدسات، والبنادق، والخناجر معلقة على الجدران، وبعد إجراء فحص أوصى له الطبيب بدواء مقيئ والذي ابتلعه المريض بعد أن أجبر أحد خادمية على تناوله أولاً، تعافى نور الله بسرعة مذهلة، فأعطى غرانت جواداً لركوبه في رحلته التالية إلى أورمية، حيث وصلها في شهر كانون الأول.^(١)

بعد شهر واحد عانى الطبيب من مصيبتين وذلك عندما توفيت ابنتاه التوأمان البالغتان سبعة عشر شهراً.

غادر غرانت أورمية في مايس عام ١٨٤٠ مرة أخرى متوجهاً إلى بوسطن، ليقدم تقريره شخصياً إلى الهيئة الأمريكية، حاملاً على ذراعيه ابنه هنري البالغ من العمر أربع سنوات، وغالباً ما كان ينام معه على الثلج، انقلب المبشر على عقبيه عبر الجبال على طول الدرب الذي سلكته جيوش هرقل، وبعد مضي أسبوع وصل إلى منابع نهر الزاب.^(٢)

في هذه الأثناء أعيد التأكيد على مشروع البعثة التبشيرية من قبل كل من البطريك ونائب أمير هكاري (القاتل الحقيقي لشولتز).

(١) غرانت "النساطرة" ص ١٠٩-١١٢. لوري "غرانت" ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) غرانت "النساطرة" ص ١١٣-١١٦. لوري "غرانت" ص ١٥٨-١٦٠.

واصل الطبيب رحلته بصحبة رفيقه الصغير إلى وان وطرابزون وأخيراً الولايات المتحدة الأمريكية، ليحني كلمة إطراء من أحد المراقبين (لقد أفسد جندي جيد عندما أصبح هذا الرجل مبشراً).^(١)

وبعد أن غادر غرانت بثلاثة أسابيع زارت بعثة استكشاف كردستان مار شمعون ورغم فقدانها للمساح الذي أعيد إلى انكلترة، اتفقت الجماعتان على تمويل مشروع جديد من شخصين هما: أينسوورث ورسام (غير ملم باسم الضامن، أضاف أينسوورث عضواً ثالثاً إلى مجموعته: فتاة شابة تزوجها في غضون الصيف باستانبول)، غادروا العاصمة مرة أخرى في تشرين الثاني من العام ١٨٣٩، وسافروا على خط غير مستقيم عبر غرب الأناضول إلى حلب، ومن هناك مروا بنسيب موقع المعركة إلى أورفة فماردين، ووصلوا الموصل في شهر كانون الثاني من العام ١٨٤٠ وبعد مرور فترة قصيرة على وصولهم ذهب رسام إلى بغداد للاجتماع بالكالونيل تايلر وعند عودته قام أينسوورث ورسام برحلة جانبية إلى بقايا خرائب حضر وبرفقتهما رحلان إنكليزيان شابان، هنري لايارد وادوارد متفورد، اللذان كانا في طريقهما إلى جزيرة سيلان (سيريلانكا حالياً)، كان هذا في أوائل شهر تموز وقبيل قيامهم باداء مهمة (Spck) في الاتصال بالطريكية النسطورية^(٢)، متجنبين الطريق الرئيسي المؤدي إلى العمادية بسبب

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٢) أينسوورث، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١١ (١٨٤١) ص ٤٨٩-٥٢٩، وكذلك "ملاحظات من نزهة إلى قلعة شرقايط (أورس الفرس) وخرائب الحضر" مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١١ (١٨٤١) ص ١-٢٠، ومؤلفه "رحلات وأبحاث" ج ٢، ص ٤٣-١٠٨. أدورد لدويك متفورد "مسيرة برية من انكلترا إلى سيلان قبل أربعين عاماً" ج ١، ص ٢٨٢-٣٠٠. بيري، ص ١٨٣-١٨٤ و ١٨٧-١٨٩.

سلوكه من قبل عساكر انجه بيرقدار وهو في إحدى حملاته التأديبية، اتخذ أينسوورث ورسام طريقاً ثانوياً مكنهما من انجاز مهمتهما الملقاة على عاتقهم من قبل الجمعية الجغرافية الملكية.

في اليوم الثاني من خروجهم من الموصل - ٨ تموز ١٨٤٠ - إرتقوا الوادي شمال عين سفني فأصبحوا بمواجهة وادٍ آخر ضيق مشجّر، (ومن خلال بستان كثيف الشجر جميل على رأس هذا الوادي ارتفعت ذروة القبة المخروطية للمعبد أو ضريح الشيخ آدي، وفي الحال تحول المكان إلى مكان منعزل وذو جمال رائع)، وبعد ربط بغالهم في وادٍ مجاور، شق أينسوورث ورسام طريقهما باتجاه الحرم الأيزيدي، فقادهم الحارس متردداً وبقليل من الشك عبر المبنى المقدس. . الأضرار الناجمة عن زيارتين قام بهما جنود كور محمد، كان قد تم إصلاحها دون إبطاء، والحرم كان نظيفاً إلى درجة كبيرة وبجو منعش بداخله، والمبنى بحالة سليمة.

تجنب الدليل بصورة مؤدبة الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالديانة الأيزيدية.

سعيدان ومنتعشان بهدية التوديع التي كانت عبارة عن كمية من التوت الطازج، غذ الرحالة سيرهما إلى العمادية، ومنها إلى حيث يقيم مار شمعون في جبال هكاري^(١)، التقى أينسوورث ورسام بالبطريرك النسطوري في ٢٠ تموز، وتبادلا معه الحديث لمدة ثماني ساعات.

(١) أينسوورث، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١١ (١٨٤١) ص ٢٣-٢٦، و "رحلات وأبحاث" ج ٢، ص ١٨١-١٨٥ و ١٩٠.

كان مار شمعون قد سبق له وأن سمع بإنكلتره لكنه لم يكن يملك أية معلومات حول الكنيسة، واحتاج لبعض الوقت لاستيعاب الاختلاف بين مبادئها ومبادئ الرومان الكاثوليك والبعثات التبشيرية الأمريكية. قَبَلَ هدايا الحملة وهي قطعة من قماش خام قطني وأحذية، والزيتون وأغطية لغليون التدخين، والصابون، وتبغ السعوط، كما وأعلن أيضاً بأنه يرغب في ساعة يدوية.^(١)

لم تتسنَ لهم الفرصة لمقابلة بك هكاري أو نائبه، كما لم يزوروا البعثات الأمريكية لدى قدومهم إلى أورمية (علل أينسوورث سلوكهم الفض هذا بعدم امتلاكهم لألبسة لائقة، وضيق الوقت وتفضيله قضاء الليل في الخارج).^(٢)

عاد أينسوورث ورسام إلى أورمية عن طريق راوندوز التي كان يحكمها حينئذ بأمن وسلام شقيق البك المتوفي (ويقصد الأمير كور محمد) ووصلا إلى الموصل في شهر حزيران عام ١٨٤٠، والامكانيات المادية لبعثة كردستان أجبرت الرحالة على البقاء في الموصل للأسابيع الستة التالية، وأخيراً وصلت أجهزة وأدوات جديدة لتحل محل المفقودة منها في نيسيب لكن الصناديق المحتوية عليها كانت قد شحنت في سوريا على ظهور الجمال مما أدى إلى دمج كل شيء فيها وتحويلها إلى كِسْر صغيرة).^(٣)

(١) أينسوورث، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١١ (١٨٤١) ص ٥١، و "رحلات وأبحاث" ج ٢، ص ٢٤٦-٢٥٣.

(٢) أينسوورث، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ١١ (١٨٤١) ص ٦١، و "رحلات وأبحاث" ج ٢، ص ٣٠٣-٣٠٥. لوري "كرانت" ١٣٣.

(٣) أينسوورث "رحلات وأبحاث" ج ٢، ص ٣٠٦-٣٣٠.

غادرت المجموعة الموصل في نهاية شهر آب من العام ١٨٤٠ متخذين طريق وادي دجلة الذي كان مسدوداً بوجههم قبل ثلاث سنوات، وواصلوا طريقهم مارّين برضوان، سعيرت وبدليس وموش، ولكن في الفاصلة الأخيرة والباردة من مسيرهم فوق سلسلة بنگول داغ إلى أرضروم، موجة من الملاريا اضطرتهم للتوقف.

رسام، الذي كان قد بُلغ رسمياً للتو بتعيينه نائباً للقنصل البريطاني في الموصل^(*)، غد السير إلى الأمام مع بعض الرحالة الآخرين إلى أرضروم. وجيمس برانت الممثل البريطاني المحلي، الذي كان قد ساعد عدداً كبيراً من المسافرين والرحالة الذين عانوا من مشاكل، أعلمت السفارة بوصول رسّام، مضيفاً أنه بعد أيام قليلة من وصول الدكتور أينسوورث وزوجته كان الاثنان في حالة صحية رديئة، فارقت زوجته بصورة مؤسفة الحياة يوم أمس كنتيجة لذلك. ووصفها أينسوورث بالطيبة الحنونة المطبوعة على الورع والتقوى^(١) بقي أسمها مجهولاً.

عاد أينسوورث إلى انكلترة في منتصف عام ١٨٤١ حزيناً على فقدان زوجته، ليجد نفسه في مواجهة قيام الضامين للحملة بتدقيق وفحص الحسابات معه بحلول ذلك الوقت، وكان رسام وزوجته ماتيلدا

(*) كان أينسوورث يأمل الحصول على هذا المنصب، وزعم بأن ذلك كان السبب في اصطحابه لزوجته معه إلى الموصل.

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٥-٣٩٠، وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٧٥ برقية جيمس برانت القنصل البريطاني بأرضروم المرقمة ٣٥ (٢١ أيلول ١٨٤٠) إلى السفارة. الجمعية الجغرافية الملكية، ملفات المراسلات، بعثة كردستان، رسالتنا أينسوورث في ٢٣ آذار و ٢١ أيلول ١٨٤٠ إلى الكابتن واسنطن أمين عام الجمعية الجغرافية الملكية. بيري، ص ١٨٧-١٨٨ و ١٩٢-١٩٦.

قد استقروا في الموصل، وقد أخبره رحالة زارهم في حزيران عام ١٨٤١ بما يلي :

عندما رفع العلم البريطاني لأول مرة على مبنى القنصلية في الموصل، خرج الناس جميعاً إلى سطوح منازلهم لمشاهدة الحدث، وقضوا معظم اليوم هناك ينظرون مشدوهين لهذا المشهد الجديد، كان المسيحيون ممتلئين بالإعجاب والدهشة على ظهور الصليب يرفرف في الهواء، بينما كان المسلمون ساخطين وغاضبين للمرأى، فذهبوا إلى الباشا وقدموا شكوى مفادها أن الصليب يعلو على هلال مسجد قريب.^(١)

(١) ساوثكيت " قصة زيارة إلى الكنيسة السورية (اليعقوبية) في ميسوبوتاميا " ص ١٣٦ .

الفصل السابع

رسام و لا يارد

قبل سنوات قليلة من قدوم رسام إلى الموصل، كان الدبلوماسي الفرنسي العتيد الأمير دي تاليران قد حدد الصفات الشخصية المثالية للقنصل الذي يتم تعيينه في إحدى مدن الامبراطورية العثمانية :
واجبات القنصل:

تتطلب معرفة عملية جامعة من النوع الذي يقضي به عادة التوجيه والتدريب المتخصص، وفي مجال صلاحياتهم، ينبغي عليهم التصرف كقضاة، ووسطاء وموفقين بين المواطنين، وفي الغالب يتصرفون كموظفين مدنيين أو ككتاب عدل، وأحياناً موظفين يقومون بأداء مهام الاشراف على التجارة البحرية، ويتولون واجبات فحص ومعاينة الحالة الصحية للعامة، وخلال اتصالاتهم العادية، يتمكنون من اعطاء صورة دقيقة وكاملة عن حالة التجارة والملاحة والصناعة في الدولة التي يقيمون فيها.

عشرت الحكومة البريطانية على كل هذه المواصفات لدى رسام، بعضها عائدة إلى كونه في الأصل من أبناء طائفة تجار الموصل، في حين اكتسب المواصفات الأخرى خلال عمله في المدرسة الشاقة المتمثلة بحملة فرات الاكتشافية^(١)، وكشاب عُين حديثاً ممثلاً لحكومة قوية ولكن بعيدة في مدينة يحكمها طاغية جشع، بدأ نائب القنصل الجديد عمله بحذر ويقظة، أرسل القنصل الفرنسي في بغداد تقريراً إلى باريس في نيسان ١٨٤١ يفيد بأن "محمد باشا يعامله معاملة اللامبالاة".^(٢)

ولكن بمرور الزمن انتبه الوالي إلى النشاط المتزايد الذي يقوم به رعايا القناصل أو باسم القنصل نفسه والتي تمنحهم حق الاستثناء من الموصل على الرخص والرسوم التي تؤلف إيراد ضرائب الولاية، بدأ انجيه بيرقدار يحس ويجد في المترجم السابق للإنجيل موهبة تجارية طبيعية تكاد تضاهي موهبته ورغبته نفسه.

أفسدت السنة الأولى لشروع رسام في الخدمة، البداية المأساوية للبعثة الأمريكية إلى النسطوريين الجبلين (في تلك الفترة كانت للولايات المتحدة علاقات دبلوماسية محدودة مع بلاد المشرق، تصرفت البعثات الأمريكية في الامبراطورية العثمانية تحت الحماية البريطانية، أما في بلاد فارس فأحياناً تحت الحماية البريطانية وأخرى تحت الحماية الروسية) تولد لدى اللجنة الادارية للهيئة الأمريكية انطباع حسن عن منجزات گرانت والآمال المستقبلية، فعينت مبشرين للشروع في العمل بالانطلاق مع

(١) ج. لاکور کایت Les dernieres annees de Talleyrand ص ١٨. راجع أيضاً د. سي. م. بلات "خدمة سندريللا" ص ١٢٥-١٧٩.

(٢) وزارة الشؤون الخارجية، الأرشيفات الدبلوماسية، المراسلات السياسية للقنصليات، بغداد والموصل، المجلد (١): رسالة فيدال في ٦ نيسان ١٨٤١ إلى الوزارة.

زوجتيهما من الولايات المتحدة إلى الموصل، التي سوف تكون قاعدة ثابتة طوال العام لنشاط البعثة في الجبال.

في صيف عام ١٨٤١ عاد غرانت إلى هكاري في زيارته الثالثة لها، ممهداً الطريق لزملائه الجدد، ولكن أوقفت عمله أنباء سيئة أفادت بأن أحد المبشرين قد فقد حياته في الطريق، كما أن زوجته فارقت الحياة عند وصولها إلى الموصل وأن الزوجين الآخرين: أبيل هنسديل وزوجته كانا مصابين بمرض خطير مهلك، فأسرع غرانت عائداً للانضمام إلى من بقوا على قيد الحياة لمساعدتهم على استعادة صحتهم.^(١)

وفي شهر تشرين الثاني من ذلك العام قام غرانت وهنسديل بجولة في القرى النسطورية عند قدامات الجبال شمال شرقي الموصل، أرضية لا تبشر بالنجاح، فقد سبق هدايتهم من قبل القساوسة الكاثوليك، بينما هم يمرون بالقرى الأيزدية، أثير اهتمامه عندما علم غرانت بديانتهم، وكذلك حول إمكانية أن يكون الأيزديين والنسطوريين متحدرين من القبائل الاسرائيلية المفقودة.^(٢)

وفي طريق عودتهما إلى الموصل زار المبشران لالش وقضيا ليلتهما في قرية باعدري، محل الإقامة التقليدي لأمير الشيخان، وفي الصباح تلقيا

(١) توماس لوري "الدكتور غرانت ونساطرة الجبل" ص ١٩٥-٢٠٢. روفوس أندرسن "تاريخ إرساليات الهيئة الأمريكية للإرساليات للبعثات الأجنبية إلى كنائس الشرق" ج ١، ص ٢٠٠-٢٠٤.

(٢) أساهيل غرانت "النساطرة أو القبائل المفقودة" ص ٣٦٣-٣٧٢. أرشيفات الهيئة الأمريكية للإرساليات للبعثات الأجنبية ٧، ٨، ١٦، ج ٤، نساطرة الجبل ١٨٣٨-١٨٤٤، المادة (٨٠) مجلة الدكتور غرانت والسيد هنسديل في ٢٠ و ٢١ تشرين الثاني ١٨٤١.

دعوة من الأمير لمشاركته في تناول الفطور (وفيما كتباه لا يفصحان عن اسم الأمير، لكن يظهر على الأرجح بأنه كان الأمير المبهم جاسم بك).
ما نشر حول اللقاء الأول بين أمير الشيخان والزوار الغربيين عبارة عن نبذة مختصرة، حيث وجدوه :

جالساً على بساط في ركن من الغرفة، مؤنثة بالحرير
البنفسجي والأحمر، تحتوي الدار على وحدة سكنية واحدة
فقط مبنية من أحجار صغيرة صفت على بعضها بالاستعانة
بالطين، والجدران الداخلية مكسوة بالصلصال، ارتفاع
الحيطان يصل إلى ستة أقدام، السقف مغطى بالقش، فيما
الأرضية يغطيها الطين المصقول الذي يبدو متكسراً في
أماكن.

استمرت المناقشة التي شملت مواضيع عامة فيما كنا نتناول وجبة
دجاج مع الرز والزبيب واللوز والبصل والبازلاء، مع أطباق إضافية من
العسل والبطيخ الأحمر.

كامل يوميات المبشرين المدونة من قبل هنسديل والمحفظة في
أرشيفات الهيئة الأمريكية، تصور مشهداً يكاد يكون معروفاً لدى
الرهبان الكبوشيين لعهد لويس الرابع عشر، في مساء وصول المبشرين
إلى باعدري، تسجل اليوميات :

زارنا الامير الذي أجرينا معه مناقشة مثيرة وممتعة، إنه
رجل ذكي، وحسن المظهر، تلوح عليه سيماء النبلاء
والأشراف، وكل نظرة أو حركة منه تومئ بأصوله الأميرية.
كان جلياً بأنه ممتن لزيارتنا للمكان المقدس، وكذلك لدى
اطلاعه بالمانا الواسع بتاريخهم وعاداتهم، وجه أسئلة
عديدة إلى الطبيب گرانت تتعلق بزيارته لمار شمعون

والنسطوريين الجبليين، حيث اعترف بأنه يكنّ احتراماً
جلّاً لهم، قائلاً بأنهم من أصول واحدة، وحالياً هم
كالإخوة، كما أفصح بأن مار شمعون قد وجه إليه دعوة
للذهاب إلى الجبال، وسرحب به لقضاء خمس سنوات معه
بمناخ ضيفه.

وتستمر اليوميات لتصف الصباح التالي قبل الفطور عندما :

طلب منهم الأمير الجلوس على البساط إلى جانبه، وبخلق
دمث وطريقة أنيسة دخل في المناقشة التي دارت حول قومه
والقضايا الأخرى، كان يتمتع بسمعة جيدة في الشجاعة
والجرأة، ويقال بأنه ذات مرة ترأس ثلاثة آلاف من
النساطرة التياريين، الذين وصفهم بالجنس الشجاع ذي
الروح العالية، وقال بأن قومه كان في السابق يشترك مع
النسطوريين في نفس المعتقد، ولا يزال يعتقد في المسيح،
ويُعتقد بصورة عامة أن ديانتهم تحظر التعليم، لكنه أنكر
ذلك مضيفاً: لقد اتسمنا كثيراً بالادمان على النهب
والتنازع إلى درجة أننا لم نبد اهتماماً بأي شيء آخر،
وحالياً لا نحتاج إلى التعليم إلا قليلاً، وأكثر من ذلك،
فقد استخدمت ملاً لتعليم أولادي، ولكنه كان يضربهم
وهذا ما لم أسمح به^(*).

(*) قبل ذلك بأشهر قليلة، وعندما كان غرانت في الولايات المتحدة، ذكر أحد المبشرين من
أورمية في تقريره: " لقد طلب الأيزيديون من مار شمعون فتح مدرسة لهم ". اللجنة الادارية
للهيئة الأمريكية لم تتخذ أي إجراء بشأن طلبهم ذاك.

وعند هذا الحد أحضر الفطور "الذي شاركنا فيه الأمير وابنه البالغ من العمر ست أو ثماني سنوات، واثنان أو ثلاثة من رجاله الكبار".^(١) إلى آخر أيام حياته بقي أساهيل غرانت مفتوناً باللغز الأيزيدي، لكن مهمته الأولى كانت التقدم بعمل البعثة في صفوف النسطوريين الجليين. بدأت السنة ١٨٤٢ المشؤومة بفرار إسماعيل باشا - أمير العمادية السابق - من أسره في الموصل، توجه أولاً إلى جزيرة ابن عمر حيث أجاره بدرخان بك، ومكنه من تنظيم جيش صغير، وفي شهر نيسان هاجم كنيسة ربان هرمز الكلدانية، وبحث دون جدوى عن الكنوز المختبئة ثم واصل سيره للسيطرة على العمادية، أخذاً معه رئيس الكنيسة واثنى عشر راهباً مقيداً جميعاً بسلسلة من الاغلال.^(٢) هذا التحدي السافر لأنجيه بيرقدار الذي تم توسيع سلطته مؤخراً لتشمل جزيرة ابن عمر استدعى رداً شديداً، كان الوالي على درجة كافية من الحيلة والذكاء لأن لا يهاجم بدرخان بك، لكنه رسخ قبضته على حامية زاخو التي سبق له أن وضع فيها قوة عسكرية بعد أن رتب اغتيال حاكمها الكردي وصادر ممتلكاته، وفي الشرق تولى السيطرة المباشرة على عقرة مزيجاً عن السلطة الأمير الألعبوبة، ومستولياً على

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية للإرساليات للبعثات الأجنبية ٧، ٨، ١٦، ج ٤، المادة (٨٠) مجلة الدكتور غرانت / هندسديل ٢ و ٣ كانون الأول ١٨٤١. راجع المصدر نفسه المجلد ٣، نساطرة بلاد فارس ١٨٣٨-١٨٤٤، المادة ٨٠، رسالة دبليو. ر. ستوكينك في ٢٢ كانون الأول ١٨٤٠ إلى غرانت.

(٢) يوجين يور (De la vie religieuse chez les chaldeens)، Annales de la philosophie chretienne العدد ٣، المجلد ٨ (١٨٤٣) ص ١١٩-١٢٢. برنارد ماري گوماختيغ " قصة البعثة الدومنيكية إلى ميسوبوتاميا وكردستان " ASOFP المجلد ٣ (١٨٩٧-١٨٩٨) ص ٨٧.

مخازن القمح، والرز، والقطن، وضربت القوة العثمانية الرئيسية الحصار على العمادية، وهذه العمليات العسكرية سببت لكرانت وهنسدل فرصة نادرة لمشاهدة سنجاق في جولة إلى المنطقة.

رجع هنسدل إلى زوجته المريضة في الموصل، فيما تابع كرات سيره لوحده^(١) كانت جبال هكاري تهيج بشائعات حول مؤامرات ومخاتلات وخداع، وفي المقر الصيفي للأمير صادف كرات إسماعيل باشا العمادي، يدبر مع رجاله لتنظيم قوة عسكرية لمساندة عاصمته المحاصرة، أستدعي النسطوريون للطوارئ، لكن مار شمعون بدأ مفاوضات سرية مع إنجه بيرقدار، فيما حث رعاياه على التحلي بالصبر وعدم المشاركة، فشلت حملة التعزيزات، واستسلمت العمادية للعثمانيين في أيلول، وأطلق سراح الرهبان الذين كانوا قد بقوا على قيد الحياة بعد الأسر والتعذيب، لكن الأمير السابق بقي طليقاً، بينما أمّن نائب القنصل البريطاني الحماية والدعم لعائلته التي تركها في الموصل.

إن إنهاء الحكم الذاتي الذي تمتعت به إمارة العمادية، جعل أيزديي شيخان رعايا وتحت السيطرة المباشرة لوالي الموصل.

كان إنجه بيرقدار معتاداً على أن يتم دفع ضرائبه بكاملها وفي أوقاتها المحددة، وبحلول نهاية عام ١٨٤٢ أصبح أيزديو سنجار متخلفين عن الدفع، فجاءتهم حملة تأديبية، والوفد الأيزدي الذي جاء يحمل عروض السلام وأعدار التخلف عن دفع الضرائب أيبداً بكامله، وعلق رأس

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٣٥: كرات، الحياة في كردستان (مخطوطة غير منشورة) ٧ حزيران ١٨٤٢.

رئيس الوفد مع ستين زوجاً من الآذان فوق بوابة النهر في الموصل.^(١)

* * *

شهد شتاء ١٨٤٢-١٨٤٣ انعطافاً عندما نفذ حظ غرانت الذي طالما ساعده ولفترة طويلة في مواجهة تناقضات عديدة.

عندما ترك الجبال في شهر كانون الأول من العام ١٨٤٢ كان العمل قد بدأ على بناء دار لبعثة جديدة، ولكن نور الله بك تأمر مع بدرخان بك وإسماعيل باشا بُغية معاقبة مار شمعون لخروجه عن الطاعة، شك غرانت أن المبنى يصمم ليكون حامية لأن الشبابيك (شيء جديد في هكاري) كانت عبارة عن كوات لا أكثر، وزعم أنجة بيرقدار بأنه اعتقد بأن المبنى ذا الغرف الأربع المخصص لإيواء ثلاث عوائل للمبشرين كان في الحقيقة مبنى يحتوي على ٢٥٠ غرفة، ويشغل مساحة قدرها ٩٠٠ X ٩٠٠ قدم مربع، يتم تمويلها بالذهب البريطاني، حتى أن الباشا أعطى الأوامر ذات مرة بنصب كمين لغرانت في الخلاء، ولكن المبشر سلك طريقاً آخر ليحضر إلى حيث هنسديل مريضاً وفي حالة سيئة توفي بعد وصوله بأسبوع، زوجان مبشران آخران وصلا من بوسطن، ولكن بحلول نهاية العام، لم يكن أمام المجموعة الأميركية الصغيرة سوى الرجاء والدعاء والصلاة.^(٢)

(١) مكتب الخارجية ١٩٣ / ٢٠٤، برقية رسام المرقمة ١٣ في ١٩ كانون الأول ١٨٤٢ إلى الكولونيل روبرت تايلر. جورج بيرسي بادجر "النساطرة وطقوسهم" ج ١، ص ٧٤-٧٧.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٣ / ٢٠٤، برقية رسام المرقمة ١٣ في ١٩ كانون الأول ١٨٤٢ إلى تايلر. لوري "غرانت" ص ٢٨٤-٢٨١.

لم تتواجد مثل هذه الشكوك لدى أعضاء البعثة الأنجليكانية إلى النسطوريين والمدعومة من قبل جمعيات المعارف المسيحية ونشر تعاليمها، التي وصلت إلى الموصل في شهر تشرين الثاني من العام ١٨٤٢ بعد أن استغرقت رحلتها سبعة أشهر، حاملين التحيات من رئيس أساقفة كانتربي وأسقف لندن.

هذا الوفد الجديد الذي يأتي تكملة لجهود بعثة أبنسوورث - رسام كان على رأسها كاهن تم تسميته حديثاً، هو جورج بيرسي بادجر البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، والذي يجيد اللغة العربية وهو كرستيان رسام ترافقه زوجته وهي مبشرة سابقة تعمل لحساب مجمع البعثات الكنسية ومساعد غير أكليركي اسمه جيمس فليتشر كانت تعليماتهم تقضي بتقديم المساعدة إلى مار شمعون وتحذيره من المبادئ والتعاليم الضارة والمؤذية للامريكان الخارجين على الكنيسة.^(١)

تأخر وصول هذه الانباء المثيرة نتيجة إصابة بادجر بالحمى مما اضطره إلى ملازمة الفراش لمدة ثلاثة أشهر، وكانت زوجته أكثر مرضاً ولمدة أطول (وفي كتابه الذي نشر بعد عشر سنوات، سجل بادجر الملاحظة التالية: "مع الشكر والامتنان للخدمات اللطيفة والمحترمة التي قدمها لنا وبصورة عفوية الدكتور غرانت خلال مرضنا"^(٢)) فرضت مبادئه الدينية عليه تفادي أية اتصالات اجتماعية) وأخيراً وفي شباط العام ١٨٤٣ غادر بادجر باتجاه الجبال حاملاً معه للبطريك هذه الهدايا:

(١) بادجر، ج ١، ص XXI - XIII و ١١-٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٢، لوري "غرانت" ص ٢٨٤.

زوج من الأحذية الحمراء، حاوية لتبغ السعوط ٢٠
باونداً، ومن الصابون ٢٠ باونداً، ومن القهوة ٢٠ باونداً.
البخور، عباءتان كبيرتان باللون الأحمر القاني، عدد من
مناديل المسلمين، كمية من الزنجبيل، ٥٠ تجويفاً للغليون،
٥٠ جمر قداحة، الورق، الأقلام، ناظور، ومقتنيات صغيرة
أخرى.

كما جلب لنساء عائلة البطريك الإبر، الدبابيس، القطن والشرايط.
استقبل مار شمعون بادجر بود وحرارة، ودعاه لحضور اجتماع لرجال
القبيلة الكبار، ولسوء الحظ قطع مناقشاتهم بطريقة على الباب رسولان
يحملان إنذاراً من نور الله بك موجهاً إلى مار شمعون، يدعوه فيه للحضور
شخصياً وفي الحال إلى الأمير.

هناك روايات مختلفة عما قاله بادجر أو بالاحرى ما اعتقده البطريك
بهذا الخصوص وعلى أية حال كان رد مار شمعون سلبياً.^(١)
عاد بادجر إلى الموصل متوقفاً في لالش لاستراحة قصيرة هرباً من حر
شمس منتصف النهار^(٢) راضياً ومعتقداً بأن كل شيء يسير على ما يرام.
وفي نيسان عام ١٨٤٣ غادر گرانت الموصل في رحلته الخامسة
والأخيرة إلى الجبال، يصاحبه زميله الجديد توماس لوري الذي ألقى نظرة
سريعة على حرم لالش في الطريق^(٣) كان بناء دار البعثة على وشك
الانتهاء، لكن الجو كان مشحوناً بالتوتر.

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٧. لوري "غرانت" ص ٢٨٥-٢٨٦. جون
جوزيف "النساطرة وجيرانهم المسلمون" ص ٦١-٦٢.

(٢) بادجر، ج ١، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) لوري "غرانت" ص ٢٩١-٢٩٢.

باشا أرضروم (الذي خلف حافظ) كان قد أعطى بدرخان بك ونور الله صلاحية تأديب النسطوريين، وعساكر إنجه بيرقدار توجهت شمالاً إلى العمادية لإبقاء المشاكل بعيداً عن ولايته، وفي حزيران ذهب غرانت في رحلة طويلة نحو الغرب استجابة لطلب غريب.^(١)

أرسل بدرخان بك الذي كان جنوده يحومون حول النسطوريين الحكوميين بالهلاك يقول: إنه يرغب قيام الطبيب بزيارته في مهمة مهنية، وإخلاقاً منه لكتاب العهد الجديد ويمين ابقراط^(*) شق غرانت طريقه عبر الجبال إلى قصر الأمير في درگل، شمال شرق جزيرة ابن عمر، استقبله بدرخان بك بصورة رسمية، وكان الأمير يلبس عمامة مطرزة بما ينم عن الثراء ومعطفاً من الحرير الدمشقي، مع خنجر ذي قبضة عاجية يتدلى من وسطه، كان يقف إلى جانبه نور الله بك الهكاري، وإسماعيل باشا، وحتى محمود خان من ولاية وان.

كان الجميع يناقشون بصراحة الضربة الآتية على النسطوريين، وبعد أيام معدودة غادر غرانت تاركاً بعض الاقتراحات لبدرخان بك فيما يتعلق بغايته الصحيحة، كما حصل على وعد بعدم التعرض لدار البعثة، وبعد توجيه تحذير إلى النسطوريين بصدد الهجوم المرتقب عليهم والإشارة إليهم باتخاذ الاستعدادات اللازمة لتوقع الأسوء، عاد غرانت أدراجه متأسفاً إلى الموصل.

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧، ٨، ١٦ المجلد ٤، المادة ٥٤ رسالة غرانت في ٥ تموز ١٨٤٣ إلى أندرسن. لوري "طرائف" ص ٣١٤-٣١٥ و ٣٢٢-٣٤١. سي. ساندركي Reise nach Mosul und durch Kurdistan nach Urumia ج ٤، ص ٨٤ حيث يصف طبيعة شكوى بدرخان بك.

(*) اليمين الذي يقسم به الأطباء في حفل تخرجهم.

كان المهجوم الكردي قاسياً وسريعاً . النسطوريون - غير المنظمين
والشديدي الاضطراب - أبدوا مقاومة قليلة، بعض القبائل تعاونت مع
الكرد، القرويون المخلصون لما رثعون أبيضوا أو أسروا، الجثث المشوهة
بما فيها جثة والده البطيرك طافت على مياه نهر الزاب، لم تتحرك
القوات العثمانية المربطة في العمادية للتدخل، مشردون فقدوا أهلهم
بحشوا عن الأمان في الموصل، بعد أن قدم لهم الأيزيديون العون
والمواساة في الطريق، والشخص الأول الذي لاذ بالفرار كان مار رثعون
الذي وصل الموصل بعد أسبوعين من وصول كرانت.

يتذكر فليتشر قدوم الشخص القوي البنية والطويل القامة ذي
السروال الطويل الأحمر وراكيت قصير، ولاحظ بأن شعره كان قد
أصابه الشيب قبل أوانه^(١)، وبموافقة إنجه بيرقدار منحه نائب القنصل
البريطاني الحماية البريطانية.

وخلال الشتاء تفشى وباء التيفوئيد في المدينة، وفي ٢٤ نيسان من
العام ١٨٤٤ ورد اسم الطبيب أساهيل كرانت من مارشال، نيويورك
ضمن الأمريكيين الاثني عشر وآلاف النسطوريين الذين ماتوا بين
١٨٣٥ و ١٨٤٤، والذين كرسوا حياتهم للقضية المسيحية في
كردستان.

* * *

(١) جي. ب. فليتشر "ملاحظات من نينوى" ج ١، ص ٣٠٠-٣٠١ (ط. لندن) و ص
١٧٩ (ط. فيلادلفيا).

من زيارات گرانٹ الأخيرة للمرضى في بيوتهم كانت لبيت إنجه بيرقدار وهو على فراش الموت، الذي أصيب بنوبة قلبية إثر مسابقة بشرب الخمر، حيث مات بعد خمسة أيام وذلك في ١٨ كانون الثاني من العام ١٨٤٤.

شملت عائلته التي خلفها طبقاً لفليتشر زوجته اليونانية التي تزوج منها في شبابه والتي كان يكن لها احتراماً كبيراً لرعاية عقلها ووفائها، ومحظيتان جورجيتان تمتعتا بقليل من الاعتبار من رجل ابتعد عن فتنة وجاذبية الرغبات الجنسية^(١) في الحال وضعت الاختتام الرسمية على صناديق كنوز بيرقدار، ونتج عن ذلك مرور بعض الوقت قبل قيام مفتشي الحكومة بفتحها حيث تم العثور على وثيقة تفيد بأن إنجه بيرقدار سَلِمَ في شهر تموز عام ١٨٤٣ إلى رسام سنداً مالياً سحب على حساب مصرفي في استنبول ببلغ قدره مليون قرش ويقدر قيمته بعشرة آلاف جنيه سترليني وهو ما يعادل ربع الدخل السنوي لولاية الموصل، واحتاج الأمر إلى انقضاء سنوات عديدة قبل أن يتم الكشف ولو جزئياً عن طبيعة المعاملة.^(٢)

* * *

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨ برقية رسام المرقمة ٣ في ١٨ كانون الثاني ١٨٤٤ إلى السفارة. فلنشر، ج ١، ص ٣٤٣-٣٤٤ (ط. لندن) و ١٨٦-١٨٧ (ط. فيلادلفيا).

(٢) مكتب الخارجية ١٩٥ / ١٧٥، رسام (قائمة بالأموال التي اغتصبها باشا الموصل) مرفقة ببرقية برانت المرقمة ٣٥ في ٢١ أيلول ١٨٤٠ إلى السفارة نقلها فرانيس جـسني "بعثة مسح نهري الفرات ودجلة" ج ٢، ص ٦٧٣. مكتب الخارجية ١٩٥ / ٧٩٦ يضم الوثائق ذات العلاقة بمسألة إنجه بيرقدار / رسام.

في ١٨٤١ عيّنت الحكومة الفرنسية أول قنصل لها في الموصل، وهو موظف إيطالي المولد يدعى بول إميل بوتّا الذي كان قد عمل طبيباً مع إبراهيم باشا في سوريا في ١٨٣٢ بالإضافة إلى الواجبات التي عددها تاليراند كان قد أعطي المبعوث الجديد معلومات تنص على حماية الكنيسة الكلدانية المحلية، واستغلال وقت فراغه بالعمل على كشف آثار نينوى التي يعتقد بأنها مدفونة تحت ركّام الهضاب التي هي من صنع الانسان على الضفة الشرقية من نهر دجلة الواقعة مقابل مدينة الموصل. وصل بوتّا إلى محل عمله في مايس من العام ١٨٤٢. أصبح قويونجك هدفه الأول في بحثه عن الآثار وهو الهضبة البارزة مقابل الموصل المكان الذي أقام عليه بك راوندوز مذبحاً للأيزيديين الفارين.

وبحلول منتصف شهر حزيران كان قد بدأ حفرياته التجريبية هناك، عندما زاره هنري لايارد الشاب الانكليزي الذي كان قد رافق أينسوورث ورسام في رحلتها إلى الحضر.

ولد أوسنن هنري لايارد محرر الأيزيديين، ببّاريس في الخامس من مايس من العام ١٨١٧ لموظف سابق في إدارة سيلان^(١)، وربّي في إنكلترة، وفي الثانية والعشرين من عمره وبرفقة معاصره الجريء أدورد متفورد غادر في رحلة إلى سيلان حيث أمل أن يعمل محامياً، وبعد

(١) المصدر الأساس للمعلومات عن حياة لايارد هو مؤلف كوردن ووترفيلد "لايارد نينوى" الذي يذكر جميع أعمال لايارد المنشورة وغير المنشورة. راجع كذلك مؤلف ف. م. فيلنز و ب. جي. هيكي عن لايارد وهو عبارة عن مجموعة أوراق تليت في كونفرانس عقد برعاية جامعة فينيسيا في تشرين الأول ١٩٨٣.

مغامرات عديدة وصلا إلى حلب في آذار عام ١٨٤٠، وخططا للسفر بدون مرافقة أو حراسة إلى الموصل.

وفي اليوم الأول لمسيرهم ضلوا طريقهم في عاصفة مطرية، ف لجأوا إلى كهف كان يستخدم من قبل الأيزيديين كزريبة لثيرانهم^(١) تخلل تقدمهم إلى الامام أحداث أكثر اعتيادية إلى أورفة، وماردين، وجزيرة ابن عمر، ووصلوا الموصل في بداية شهر نيسان في الوقت المناسب للانضمام إلى رحلة الحضر مع كل من أينسوورث ورسّام، وعند وصولهم إلى بغداد قرروا التوجه إلى الهند عن طريق بلاد فارس، حيث افترقا هناك، استمر متفورد باتجاه الشرق، بينما لم يذهب لايارد أبداً إلى سيلان.

بعد إقامة مؤقتة بلغت السنة بين رجال قبائل البختيارين بجنوب بلاد فارس، رجع لايارد إلى بغداد حيث تعلم شيئاً عن علم الآثار من الكتب التي قرأها في مكتبة الكولونيل تايلر ورحلات إلى المواقع بجنوب العراق. زيارته إلى الموصل في ١٨٤٢ كانت فرصة للقيام بواجب إيصال البريد من شركة الهند الشرقية إلى السفير البريطاني في استنبول ستافورد كننغ المهيّب، أحد عمالقة الدبلوماسية الفكتورية، الذي وازى سلوكه المتغطرس تجاه خصومه بتعاطفه الشديد مع الأقليات في الامبراطورية العثمانية.

وفي آذار من العام ١٨٤٣ وبعد مضي تسعة أشهر من وصول لايارد، تحول بوتا في تنقييه وبحثه من قوينجك إلى قرية خرساباد على بعد عشرة أميال في شمالي الموصل، حيث قيل إن صاحب

(١) إدورد ليفيك متفورد "مسيرة من انكلترا إلى سيلان قبل أربعين سنة" ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٦.

مصنغ محلي كان يستخدم الطابوق المكتوب عليه في بناء فرنه. وفي اليوم الثالث من التنقيب عثر العمال على ألواح كبيرة من حجر الجير أو الكلس منقوشة عليها نقوش للإنسان والحيوانات في حالة قتال، وسارع فلتشر الذي حدث وأنه كان في زيارة إلى القرية الأيزيدية بعشيق إلى الموقع في الوقت المناسب ليشهد اللحظة التاريخية حين علم بوتا بأنه اكتشف قصراً يعود إلى الملوك الآشوريين.

أرسلت الحكومة الفرنسية أموالاً إضافية إلى بوتا لتمويل برنامج حفريات مناسب، مثيراً بذلك جشع وشكوك إنجه بيرقدار، وفي الحقيقة أوقف العمل في تشرين الأول من عام ١٨٤٣ وإلى بعد رحيل الباشا^(١)، وفي أيلول عام ١٨٤٣ ألقى پيرسي بادجر مع زوجته ومجموعة من الأصدقاء نظرات سريعة على تقنيات بوتا كانوا يمرون بخرساباد في بعثة استغرقت يومين إلى لالش.

(والملاحظات المسجلة في هذه الزيارة تعتبر التفاصيل الأولى لوصف الحرم الأيزيدي).^(٢)

قضوا ليلتهم الأولى في عين سفي، حيث أن جهلهم باللغة الكردية أعاق إمكانية تفاهمهم مع مضيفيهم، بينما في لالش تمكنوا من استنساخ الكتابات باللغة العربية المتعلقة بإقامة القُداس، وتقديم النذر، الموجودة

(١) ب. إي. بوتا Monnment de Ninive ج ٥، ص ٥-٧. فلتشر، ج ١، ص ٢١٨-٢١٣ (طبعة لندن) و ص ١١٨-١٢١ (طبعة فيلادلفيا). لوري "كرانت" ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) بادجر، ج ١، ص ١٠٥-١١٠. برزين "اليزيديون" مجلة ZP العدد ٣ (١٨٥٤) ص ٤٢٨-٤٥٤. الترجمة الإنكليزية لبوجين بروسستوف بعنوان "زيارة إلى الأيزيديين في ١٨٤٣" ضمن كتاب هنري فيلد "انثروبولوجيا العراق" ج ١، رقم (١) الجزيرة الشمالية، ص ٦٧-٧٩.

على الحيطان، وتعلموا شيئاً عن الديانة الأيزيدية، ولوهلة حصلت مجادلة بين بادجر والدليل حول المسائل الدينية، فعندما سئل لتوضيح مغزى وجود الأمشاط منقوشة في باحة المعبد، أجاب الدليل بأنها تمثل رمز الاحترام والتقدير للحية مير حسن بك الطويلة.

فرح بادجر لأنهم عرفوه من زيارته الأولى إلى هذا المكان عندما كان في طريقه عائداً من الجبال.

ويدعي بادجر في كتابه بأن أوريباً واحداً فقط قد سبقه في زيارة المعبد، تنازلَ عبر عنه ببراعة لصالح أينسوورث والذي يتجاهل بموجبه العضو الآسيوي لبعثة كردستان (صهره كريستيان رسام) وثلاثة مبشرين أمريكيين لوري وكرانت وهنسدل.

سمح حراس المعبد لمجموعة بادجر بقضاء الليل في باحة المعبد، وهي خدمة لم ينلها أجنبي آخر.

وفي طريق عودتهم أمضوا ليلة ضيوفاً على شيخ الأيزديين بباعدري، يصفه أحد الزوار قائلاً:

« يدل مظهره على كثير من الجاذبية ووجه بهيج ودي، عينان صغيرتان، وأنف مستقيم، ولحية سوداء مهيبة تنم عن الوقار. كان مرتدياً على الطريقة العربية: رداء أبيض، مع خيوط حمراء، فوق روب عربي أحمر تتخلله خطوط صفراء، وسطه حزام باللونين الأحمر والأخضر، سروال أبيض، وكان ينتعل خفاً عربياً أصفر، على رأسه عمامة حمراء وخضراء. وفي وسطه تدلى خنجر، وفي يده مسبحة))^(١).

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٣ (الترجمة الإنكليزية ص ٧٩).

ومما هو مدهش أن بادجر في ذكره لزيارة مجموعته الممتعة إلى موطن الأيزدين يسقط اسم المساهم الغريب الذي شاركهم في الزيارة وهو إيليا نيولايفيتش البالغ من العمر ٢٤ سنة، والمحاضر في جامعة كازان. كان قد قضى اثني عشر يوماً في منطقة الموصل في خضم رحلته لثلاث سنوات والتي كرسها للدراسات اللغوية والبحوث العامة في الشرق الأدنى مدعوماً من قبل وزارة التعليم الروسية.^(١)

تقرير برزين حول زيارته إلى لالش والذي نشر في دورية موسكوفية في ١٨٥٤ بعد سنتين من صدور كتاب بادجر يعطينا صورة أكثر تكاملاً، وحقائق أكثر حول الرحلة تتخللها انطباعات حيوية ذات ألوان متعددة، وخاصة فيما يتعلق بالزعيم الشيخ (المذكور أعلاه)، وعن بادجر نفسه^(*) الذي كان قد وصف بـ "مالطي لطيف، رجل صرع ومستقيم، ذو خلق وطباع حسنة"^(٢)، كان برزين كاتباً غزير الانتاج - ويقول في مقال آخر له متعلق بهذه القصة بأن بوتّا كان قد حاول هداية ماتيلدا رسام أخت بادجر إلى الكاثوليكية^(٣) - لكن ما قاله عن

(١) تفاصيل حياة برزين وأعماله في مؤلف أ. سامويلوفيتش وآخرين ZKVPAM العدد ١ (١٩٢٥) ص ١٦١-١٩٤ والعدد ٢ (١٩٢٦) ص ٥١-٧٢. راجع أيضاً ن. أ. كوزنتسوف و ب. م. دانتسيك "برزين: في KSIV العدد ٢٢ (١٩٥٦) ص ٩٢-١٠٠.

(*) صورة لبادجر ألتقطت في ١٨٧٣ عندما كان في الثامنة والخمسين، تظهر بشكل لافت للنظر رجلاً وسيماً أشيب الشعر. عندما كان في الموصل، ووفق أحد المصادر فإنه "كان يرتدي عادة ثوباً حريراً ذا لون أحمر داكن، مع شال أحمر ملتف حول وسطه ويعتمر بطربوش أحمر". ر. كوبلاند "استكشاف شرق أفريقيا ١٨٥٦-١٨٩٠: تجارة الرقيق والمخفوق" في مواجهة الصحيفة ١٨٦. هنري جيمس روس "رسائل من الشرق ١٨٣٧-١٨٥٧" ط. جانيت روس، ص ٤٧.

(٢) برزين، مجلة ZP العدد ٣ (١٨٥٤) ص ٤٢٩ (الترجمة الإنكليزية، ص ٦٧).

(٣) برزين "الموصل" Bdch العدد ١٣٣ (١٨٥٥) ص ١٨٤.

زيارته إلى الأيزديين أكسبته شهرة لا تزول، ففي مراجعة هي عبارة عن ثناء وتمجيد له على جهوده المبذولة من قبل الناقد الشوري ن. ج. جرنشفسكي الذي كان رأيه يعبر عن رأي ف. إ. لين.^(١)

الزعيم الأيزدي الشيخ الذي ذكر اسمه في المصدر، كان مهتماً كثيراً ببرزين الذي لاحظ أن رحالة روسي كان منظرًا غير عادي في كردستان، وخاصة بالنسبة للمرأة الأيزدية، وجذب انتباهه إلى حالة الأيزديين على الحدود الروسية، حيث كانت القبائل الأربعة التي تسكن في ما وراء القوقاز محظور عليها القيام بأداء فريضة الحج إلى لالش، بينما بعض الأيزديين البدو الذين كانوا لا زالوا يعيشون تحت النير العثماني، كانوا ممنوعين من عبور الحدود إلى ما وراء القوقاز.

* * *

وفي السنوات الأولى من تسلمه لمنصبه كنائب القنصل كانت مهام رسام تنصب بصورة أساسية على الأمور التجارية، ولم يفصح عن أية معلومات حول تعامله مع إنجه بيرقدار ولا عن أية شؤون أخرى، التي كانت بالتأكيد ذات أهمية له ولكنها لا تهم حكومته.

إن تغيير الزعامة في الطائفة الأيزدية، ذكر لأول مرة في تقرير لأحد الرحالة في ١٨٧٥ وتم تأكيده تاريخياً في ١٩٤٩.^(٢)

(١) ن. ج. جرنشفسكي Sovremennik العدد ٤٩ (١٨٥٥) ص ٢٨.

(٢) كوستاف باولي Von Hosn Kefa am Tigris bis Bagdad مجلة MGGL العدد ١٢ (١٨٨٩) ص ١٠٦. صديق الديمولوجي "اليزدية" ص ٢٣-٢٤ و ٤٦٩. سي. جي. ادموندز "حجة إلى لالش" ص ٣٠.

وفي وقت ما في بداية العام ١٨٤٠ على الأرجح بين غرانت المؤرخة في شهر كانون الأول من العام ١٨٤١، وزيارة بادجر وبرزين في خريف عام ١٨٤٣، انتهى عهد الأمير جاسم بك إلى نهاية عنيفة إذ تقدم حسين بك، الابن الصغير لعلي بك الكبير، من جبل سنجار إلى قرية عيسىان على مقربة من باعدري، المكان الذي قتل فيه ابن عمه، وانتخب هو أميراً تحت وصاية الشيخ ناصر، الذي كان آنذاك بابا شيخ وقيم بعيسىان.

* * *

وفي ربيع عام ١٨٤٤ قام كل من بادجر وفلتشر بدور الدليل لعضو آخر من هيئة جامعة كازان هو فيليام فرانزيفيتش دتل كان هذا الرحالة يبلغ من العمر ستاً وعشرين سنة، وكان حسب رأي فلتشر "رفيق سفر مقبول"، وكان في مهمة مماثلة لتلك التي أتى برزين من أجلها جاء مزوداً بالتجهيزات اللازمة "مسدسا جيب يتدليان من سلسلة فضية تشدهما إلى حزامه الذي كان يحمل مسدسين آخرين من الحجم الكبير بينما كان يتدلى إلى جانبه سيف الخيالة الثقيل".^(١) قدمت المجموعة أولاً إلى تل غرود عند ملتقى نهري دجلة والزاب، حيث بدأوا حفرياتهم مستخدمين سيف دتل وسيوفاً أخرى بالاضافة إلى رماح أستعاروها من القرى المجاورة، وبعد ثلاث ساعات اكتشفوا لوحة حجرية عليها كتابات مسمارية، استدل منها بادجر - وكان مصيباً - بأن

(١) فلتشر، ج ٢، ص ٥٥-٥٧ (طبعة لندن) و ٢٢٦-٢٧ (طبعة فيلادلفيا).

نمرود مثل خورساباد هي جزء من نينوى الكبرى، وكتب إلى
ستراتفورد كينغ ما يفيد بأن على بريطانيا أن تفعل شيئاً بشأنه.^(١)
عاد بادجر إلى الموصل، في حين ذهب صاحبا إلى لالش ودير ربّان
هرمز.

توفي دتل بعد سنوات قليلة قبل أن يتمكن من نشر هذا الجزء من
ملاحظاته، ولا يذكر فلتشر في كتابه كيف كان رد فعل
الأنيزيديين تجاه دتل^(*).^(٢)

كان استقبال الزوار اللاحقين لالش فاتراً، قبل نهاية شهر تموز من
العام ١٨٤٤ بأيام قليلة وقبل حلول عيد الشيخ آدي، وصلت مجموعة
مؤلفة من أربعة أمريكيين - وهم البقية الباقية من أعضاء البعثة المهجورة
إلى النسطوريين الجليين - إلى الحرم، فأعطوا أسباب الراحة ولكن بتدمير
وبعد تردد في الساحة الخارجية للحرم، وأرسلوا خيولهم إلى الموصل،
وأعلنوا رغبتهم في التهرب من الجو الحار المتقد لوادي دجلة وذلك
بقضاء أسبوع في لالش. ورجعت الخيول بعد ذلك لإعادتهم مباشرة
عند وصول الزوار الحجاج الأوائل، لكن طوال أقامتهم أفهم الضيوف -
الدكتور أزاريا سميث وزوجته وتوماس لوري والسيدة هنسديل) وقد

(١) المصدر نفسه، ص ٧٤-٧٥ (طبعة لندن) و ٢٣٧ (طبعة فيلادلفيا) ف. دتل Bdch العدد
٩٥ (١٨٤٩) ص ٢٤. بادجر، ج ١، ص ٨٦-٩٣.

(*) في كتابه (ملاحظات من نينوى) المنشور في ١٨٥٠ وصف لزيارته إلى لالش يفيد ضمناً بأنه
أول من زارها ربيع ١٨٤٣ مما يضعف هذا الادعاء هو التأكيد الشديد قبل بادجر بأنه كان
الأول، وكذلك التناقضات الواردة في سرده لترتيب الأحداث، وهذا ما يفسر نقص
التفاصيل فيما يتعلق بزيارته مع دتل في ١٨٤٤.

(٢) دتل، المصدر السابق، ص ٢٤-٢٥. فلتشر، ج ١، ص ٢١٩-٢٢٧ و ٢٤٢-٢٤٣،
و ج ٢، ص ٨١-٨٢ (طبعة لندن) و ١٢١ و ١٣٢-١٣٣ و ٢٤١ (طبعة فيلادلفيا).

ترمل الأخيران حديثاً) - بأن وجودهم هناك في غير محله - وخاصة من قبل الشيخ ناصر الموصوف "بأنه كان شاباً غير مثير للإعجاب أو ما يدل على أنه رجل دين يتسم بالاجلال والوقار لا من مظهره ولا من سلوكه وتصرفاته"، والذي أثار استياء المبشرين بإسرافه في التأنق وتلميحاته غير المجدية بأنهم قد يرغبون في إعطائه إبريق الشاي البريتانيا العتيق الذي بحوزته.^(١)

لم يمر على عودتهم إلى الموصل وقت طويل حتى كان قد أسند إليهم العمل في مكان آخر، إذ قررت لجنة التقرير في بوسطن إدارة نشاطها المستقبلي بين النسطوريين الجبليين من أورمية، في حين أن التقارير الواردة إلى أوروبا وأمريكا حول مزاج وترحيل النسطوريين سببت قلقاً واسع الانتشار هناك. انتقد دور بادجر في هذا الأمر (رغم أن غرانت وقبل وفاته كتب رسالة إلى جريدة في نيويورك يحل بادجر من جريدة اللوم)^(٢) وقامت SPCK باستدعائه وفتشر في شهر مايس عام ١٨٤٤ ووجهت تعليمات إلى رسّام من قبل كننغ بالعمل على تأمين اطلاق سراح النساء والأطفال الأسرى، الذي تم تصنيف البعض منهم احتيالياً بالأيزديين في سوق النخاسة.^(٣)

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الخارجية ١، ٨، ١٦، المجلد ٣، البعثات السورية والنسطورية ١٨٤٤-١٨٤٦، المادة ٧٥، رسالة لوري في ٨ آب ١٨٤٤ إلى أندرسن.

(٢) رسالة غرانت في ١٦ تشرين الأول ١٨٤٣ إلى (نيويورك أوبزيرفر) المنشورة في ٢٧ كانون الثاني ١٨٤٤، ص ١٤ وأعيد نشرها مع تعديلات طفيفة في: لوري "غرانت" ص ٣٧٢-٣٧٦.

(٣) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨ برقية رسّام ذات الرقم (١) في ١٣ كانون الثاني إلى السفارة.

كان بدرخان بك في ذروة مجده، ووصف من قبل رجال الحاشية والمتوددين بأنه السيف المسلط على الكفار والملحدين وأعظم كوردي منذ صلاح الدين. . وقع مطران يعقوبي في كمين نصبه رجاله فأرسلوا للأمير قلبه تذكراً.

وكان الأيزديون المحرومون من حقوقهم المدنية في ظل الشريعة الإسلامية، هدفاً خاصاً لنقمته، يقول رسّام: إنه في عيد الأضحى عندما يحتفل المسلمون بطقوس قيام إبراهيم بتقديم ابنه اسحق قرباناً لله وذلك بذبح الخروف، فإن بدرخان بك كان يقوم بجمع الأيزديين في مراسيم رهيبة مروعة حيث يقوم بنفسه بتقديم الذين كانوا يركنون إلى السكوت متوجسين خيفة على حياتهم فيفسر سكونهم كما لو أنهم أشهروا إسلامهم وذلك إحساناً عليهم وصَدَقَةً ويضعون بصفة خدم في دار الأمير^(*). مبشر ملم بالأمر الطيبة من أورمية زار دركله في ١٨٤٦ وشاهد أربعين من الأيزديين الخمسين الذين اهتمدوا للإسلام في قصر بدرخان بك، يتمتعون باهتمام خاص من الأمير لدرجة أنهم أصبحوا موضع حسد الخدم الآخرين.^(١)

(*) يقال بأن إحدى هؤلاء كانت أميرة من عائلة جول وأصبحت فيما بعد إحدى زوجات الأمير، وجدة عليّة لكل من جلادت وكاميران بدرخان بك، هذا ما كشف عنه أحد المهتمين بالدراسات الكردية. كارل هادانك Untersuchung zum West Kurdischen: Boti und Ezadi ص ٤١-٤٢. أكدت الأميرة ونسة الأموي للمؤلف زواج بدرخان بك بأميرة أيزيدية.

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ برقية رسام المرقمة (٢٦) في ٢٩ مايس ١٨٤٧ إلى السفارة. أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الخارجية ١، ٨، ١٦، المجلد (٣) المادة ٢٨٥، رسالة د. أوستن هـ. رايت في ١١ تموز ١٨٤٦ إلى أندرسن.

إنحدرت ولاية الموصل بسرعة إلى حالة الفوضى والاضطراب من الحالة التي كان إنجه بيرقدار يستخدم القسوة والاضطهاد في إدارتها، وبقي خلفه في الحكم لمدة سنة واحدة فقط، وحل محله في العام ١٨٤٥ أحد رفاق إنجه بيرقدار في السلاح، وهو محمد باشا كريتلي أوغلو لم تبلغ قامته أكثر من أربعة أقدام مع صوت خشن وإيماءات غريبة غير مألوفة، كان الوالي الجديد مزيناً من قبل السلطان بالنياشين لشجاعته وبسالته العسكرية، يدل على ذلك آثار الجروح والندوب الباقية في جسده، بما في ذلك فقدانه لعين واذن، لكن الشجاع الراسخ القوي والموفر الصحة في حمص كان قد أصبح الآن بديناً ومنحني الظهر وأعرج، ويشتهر بالجنش وحب المال.^(١)

تشريع جديد صدر مؤخراً ألغى نظام الضريبة على المزارع حدّاً إلى درجة ما من قدرة الولاية على الشراء وتراكم الاموال، لكن كريتلي أوغلو أظهر إبداعاً وبراعة في إعادة الرسوم والضرائب الموغلة في القدم إلى الحياة كضريبة السن التي كانت تفرض على القرى التي استضافت مسؤولي الدولة، كتعويض للبلد الملحقه بأسنانهم.

(١) لايارد "ينوى وخرائبها" ج ١، ص ١٩. مكتب الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨، برقية رسام المرقمة (٤) في ٩ آذار ١٨٤٥ إلى السفارة. رسالة بوتنا في ٢٣ آذار ١٨٤٥ نقلها لوري في "كرانت" ص ٢١٠-٢١١. راجع كذلك محمد ثريا "التاريخ العثماني" ج ٤، ص ٢٩٣-٢٩٤.

و ذات مرة أوعز بنشر خبر خاطئ عن موته في الموصل، فقام بعد ذلك بفرض ضريبة على كل مواطن بسبب الاحتفالات غير اللائقة التي بدأت.^(١)

وفي حملة تأديبية إلى سنجار في بداية مباشرته للحكم دبر إغواء عدد من رجال قبيلة مهركان للمجيء إلى المعسكر العثماني ومن ثم الايقاع بهم، حيث قطع رؤوس الرجال واستعبد النساء والأطفال، بالإضافة إلى ذلك - وحسب ما أورده رسّام - فإن قوات الباشا عادت بحوالي " ٤٠٠ حمار، ١٠٠٠٠ غنم، وبعض الماشية، وعدد كبير من الخيام والنحاس القديم ". وحسب تقديرات نائب القنصل كان هناك حوالي إحدى عشرة قرية فقط بقيت في الجبال، عدد سكانها الرجال ١٥٠٠ من القادرين على حمل السلاح.^(٢)

وفي منتصف عام ١٨٤٥ قرر كريلي أوغلو أن أيزديي شيخان يدينون له بضرائب أكثر، وضمانة لادعاء الباشا قام جنوده بحجز الشيخ ناصر - أو أعتقدوا ذلك، لأن نائبه بير يدعى سينو سمح لنفسه بأن يسجن ويعذب بدله دون أن يكشف عن حقيقة هويته -.

(١) لايارد "نينوى وبقاياها" ج ١، ص ١٩-٢٠ و ٣١. مكتب الخارجية ٧٨ / ٢٦٩٩ رسالة ستيفنس في ٣٠ نيسان ١٨٤٥ إلى السفارة تشير إلى أن بدرخان بك خفض (ضريبة السن) المفروضة عليه إلى ٣٥ ٪ من القيمة المطلوبة.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨ برقيتا رسام (١٨) و (٤٣) في ١٤ حزيران ١٨٤٥ و ٢٨ تشرين الأول ١٨٤٦ إلى السفارة.

دفع رسام الفدية عن الرهينة عن طريق دفعه للبasha مبلغاً مجزياً، ورتب لأن يتم تعويضه عن ذلك من قبل الأيزديين على فترة من الزمن بما يدر عليهم محصولهم الزراعي.^(١)

وفي نهاية شهر تشرين الأول من العام ١٨٤٥ رجع هنري إلى الموصل ومعه مبلغ من المال وصل اليه من كنگ وعهد منه يخوله بإجراء الحفريات والتنقيبات في أي مكان يرتأيه بولاية الموصل، واستقل بالميدان لنفسه عندما رجع بوتا منتصراً إلى فرنسا.

ورغم العوائق التي وضعها في طريقه كريتلي أوغلو (الذي استبدل بحلول نهاية العام بوال أكثر اعتدالاً مع فريق من المفتشين) بدأ لا يارد تنقيباته في نمرود يساعده في ذلك الشقيق الأصغر لنائب القنصل هرمز رسام وفريق عمل من النسطورين اللاجئيين، في اليوم الأول كشفوا عن قاعدة قصر، وفي وقت مبكر من العام ١٨٤٦ كوفئ عمل الحفارين باكتشاف أسد مجنح له رأس أنسان يرتفع إلى ١٢ قدماً - وهو الأول في سلسلة من التماثيل الآشورية التي أعطته الشهرة وهو في الثلاثين من عمره -.

وفي نهاية شهر آب ١٨٤٦ شرع لا يارد وهرمز رسام في رحلة إلى جبال هكاري ومعهما رسائل توصية من مار شمعون - الذي كان لا يزال مقيماً في القنصلية وتحت حمايتها -، قضياً ليلتهما في لالش واستطاعا التجوال في المعبد، بعدها واصلا سيرهما متجاوزين العمادية إلى القرى المبعثرة والمخجمة حيث كانت ذكرى أساهيل گرانت لا زالت حية، كان الهدوء سائداً رغم الشائعات التي تفيد بقرب حدوث هجوم جديد من

(١) لا يارد "نينوى وبقاياها" ج ١، ص ٢٧١-٢٧٢ و ٣٠٣-٣٠٤.

قبل بدرخان بك وأمير هكاري على النسطوريين الساكنين شرقي الزاب. وفي أبعد نقطة وصلها في رحلتها مرا بجنود خيالة كورد يقودهم نائب نور الله الذي كان عبوساً يقطب جبينه تحت عمامته الكبيرة، وأرسل لهم إنذاراً يحذرهم فيه بأن على الجواسيس أن يتذكروا مصير شولتز.

كان لا يارد تواقاً لأن يغذ السير إلى قصر نور الله، لكن هرمز رسام ألقعه بالتوقف والعودة إلى حيث أتيا، وبعد أسبوع من مغادرتهم للجبال هجم بدرخان بك مرة ثانية وأضاف فصلاً آخر إلى ابتهالات وويلات النسطوريين.^(١)

في ذلك الوقت وصل وال جديد إلى الموصل، وهو الخامس في غضون ثلاث سنوات، طيار باشا الذي وصفه لا يارد بـ "شيخ جليل مهيب، لطيف المعشر، مهذب السلوك، ذو كياسة في تعامله مع الأوروبيين، واسع الاطلاع في المواضيع المتعلقة بأدب وتاريخ بلاده"^(٢)، إن إمكانية فرص أفضل في ظل طيار باشا، والنيات الحسنة لنائب القنصل البريطاني، شجع أيزدي شيخان على إعادة الاحتفال بعيدهم السنوي عيد الحشد الذي لم يحتفل به منذ سنوات عدة، وجه الشيخ ناصر وحسين بك دعوة إلى هرمز رسام ولا يارد ليكونا ضيفي شرف ولم يكن بمقدور نائب القنصل الحضور فيما كان لا يارد سعيداً بالموافقة على الدعوة.^(٣)

وفي أواخر أيلول ١٨٤٦ ترك لا يارد الموصل برفقة ترجمان القنصلية ودليل أيزدي، وعلى أثر وصوله إلى باعدرى في الصباح التالي، استقبلوا

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٧-٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢١-١٢٢.

(٣) تفاصيل زيارة لا يارد في ١٨٤٦ إلى الحفل الأيزدي موجودة في "نينوى وبقاياها" ج ١، ص ٢٧٠-٣٠٨.

من قبل وفد يترأسه حسين بك مرتدياً "عباءة بيضاء فضفاضة مصنوعة من الأنسجة الفاخرة فوق سترة غنية وثوب أنيق"، حاول تقبيل يد لايارد والأخذ بلجام جواده، لكن لايارد اعترض بكياسة، محتضناً الأمير "على الطريقة السائدة في البلد" وسارا معاً إلى داره، وكان حسين بك حسبما يصفه لايارد:

في حوالي الثامنة عشرة من عمره، ومن بين أكثر الشباب وسامة الذين التقيتهم طوال حياتي، ملامحه كانت عادية ورقيقة، تلمع عينه ببريق، وخصلات شعره الطويلة من تحت عمامته الملونة بالأسود القاتم.

وأضاف لايارد بأنه بعد فرار حسين بك إلى سنجار "نال تربية وتنشئة حسنة وبعناية فائقة من قبل الأيزديين، وقد أعتبر من طفولته كزعيم لهم"، وليس هناك أي ذكر عن كيفية وصوله إلى الزعامة. أخذنا قسطاً من الراحة بعد تناول الفطور في دار الأمير، أيقظت لايارد صيحة حادة لكن ظهر أنه صوت فرح صادر عن النساء، وبعد دقائق أعلن حسين بك وباعتزاز ولادة ابنه الأول، ودعا ضيفه الميمون لإطلاق اسم على المولود الجديد، لأن له إمام جيد بالتاريخ الأيزدي، اقترح لايارد اسم علي إحياءاً لذكرى والد الأمير الذي أستشهد في راوندوز. ووصلت أخبار جيدة مبشرة أكثر لاحقاً في ذلك اليوم، وصل قوالان راكبان أنهكتهما رحلة إلى الأيزديين في ما وراء القوقاز البعيدة، هؤلاء كانوا أكثر حظاً من البعثة السابقة التي اعترض سبيلهما أمير بدليس وقتل أفرادها، وبعد أن وضعوا بنادقهم جانباً، تقدم السعاة لتقبيل يد حسين بك وأفادوا بأن الأيزديين في ما وراء القوقاز كانوا في ثراء وغنى، وأنهم قدموا لهم قرابين وعروضاً كبيرة إلى خزينة الأمير.

وفي صباح اليوم التالي تقدم الأمير ولايارد موكباً من باعدرى إلى لالش، وعندما لاح الجزء الأول من القبة المخروطية أطلق الجميع الرصاص في الهواء تحية فتردد صدى ذلك في طول الوادي وعرضه، فجاء الرد بطلقات من المعبد ترحيباً بالقادمين، وعندما وقع نظر المجموعات الأخرى على المشهد قاموا بدورهم بإطلاق الرصاص صائحين بما يدل على انتمائهم القبلي، كل زائر غسل ملابسه بنفسه بعناية في جدول للماء قبل الدخول إلى الوادي. الشيخ ناصر والشيخ الرئيسيون ارتدوا ثياباً بيضاء، ورحبوا بالأمير ولايارد عند اقترابهم من المعبد. يصف لا يارد الشيخ ناصر بأنه رجل (يتمتع بسلوك معتدل وودي)، وهو لا يكاد يتجاوز الأربعين عاماً.

في كتاباته يجمع لا يارد بمهارة تفاصيل التنقيبات والاكتشافات الأثرية مع مشاهد من الحياة المشرقية المعاصرة آنذاك، كتابه الأول المنشور في ١٨٤٩ والذي أعيد نشره في طبعات عديدة، يعطي تسجيلاً مبكراً وملوناً ليوم افتتاح عيد الحشر الذي يستغرق أسبوعاً كاملاً.

تقدم الشيخ ناصر الأمير ولايارد وفق المراسيم عبر الباحة الخارجية التي كانت مكتظة بالزوار الحجاج وملاجئ وسقائف مصطفة باتجاه الباحة الداخلية، تاركين أحذيتهم عند المدخل، وجلسوا على سجاجيد منشورة في ظل كُرمة بمواجهة الشيوخ والقوالين في الجانب المقابل من الباحة، وفي الوسط كان هناك ما يشبه الصندوق مملوءاً بكرات الصلصال المزوجة بالغبار والتراب من المعبد تستخدم كطلاسم وتعاويد من قبل الزوار الحجاج، وعلى طرف الباحة كان هناك مدخل يؤدي إلى الحرم منقوش عليه صورة أفعى، وأسد، وفأس، ورجل،

ومشط. أخبر الشيخ ناصر لايارد بأن هذه النقوش قد حفرت مؤخراً من قبل بناء مسيحي كان قد قام بإصلاح الضريح، وهي زخارف ارتآها ذوقه.

بعد قليل خرج كل من الشيخ ناصر والأمير ولايارد عائدين عبر الساحة الخارجية، وجلسوا عند ينبوع ماء في نهاية جادة مشجرة، وهم يتفرجون على الراقصين الذين اختلط بهم عازفو المزامير وضاربو الدفوف، ويستقبلون في نفس الوقت الزوار القادمين الجدد وهم جليون من سنجار، داكنو البشرة، وذوو شعور طويلة، ويرتدون ثياباً بيضاء، وفلاحون بسطاء من سهل الموصل، ورجال قبائل رحالة مرتدين ألبسة ذات ألوان متنوعة، مثل الذين صادفهم بير جان ماري دي جيسس على الطريق، وكان يرافق هؤلاء نساؤهم اللاتي:

يرتدين بأناقة صدارات حريرية، وشعورهن مجدولة في
خصلات عديدة تتدلى على ظهورهن مزينة بالزهور،
وجباهن تكاد تغطيها القطع الذهبية والفضية، وسلاسل
عقود كبيرة مصنوعة من خرزات الزجاج والقطع النقدية
المعدنية والأحجار المحفورة معلقة في أعناقهن.

في آخر المساء رجع لايارد إلى المكان المخصص له للاستراحة على سقف مبنى قرب ضريح الشيخ شمس الدين، وذلك بعد أن عرج على زوجة الشيخ ناصر في زيارة قصيرة والتي قامت "بتسليته بسرد قصتها الطويلة مع الخدم" عاد بعدها إلى المعبد حيث راقب عند غروب الشمس أحدهم يقتاد مجموعة ثيران بيضاء إلى الحظيرة المجاورة، متسائلاً لمن تعود الثيران، جاءه الرد بأنه مكرس للشيخ شمس وهو يذبح فقط في الأعياد الكبيرة حيث يتم توزيع لحومها على الفقراء، وحسب ما عبر عنه لايارد

بكلماته "فإن هذا الجواب غير المتوقع يرتفع إلى مصاف تفكير وتأمل مقبول، وجلست هناك غير آبه بالمشاهد الجميلة المحيطة بي، إلى أن ساد الظلام الوادي".

بينما كان الشفق يتضاءل وبيعت استطاع لا يارد أن يميز الفقراء في ثيابهم البنية وعماماتهم السوداء يتسارعون خارجين من المعبد، وهم يحملون القناديل وفتائل مغمسة في الزيت، والتي بها أضوا القناديل الأصغر حجماً الموضوعة على الحيطان، وشقوق الصخور وجذوع الأشجار، وبينما الفقير يمضي، يقوم زائر حاج بتمرير يده اليمنى من خلال الشعلة ويمس بيده حاجبه الأيمن ويسقطه ليمس شفاهه، ثم توزيع أطباق كبيرة، تحتوي على اللحم المشوي والرز والفواكه، وأصبح الوادي الغارق في الظلام يعج بالحياة من جديد بطنين وهمهمة ٥٠٠٠ صوت، بينما نقاط من الضوء لا تعد ولا تحصى صادرة من المشاعل والقناديل المقدسة تتألاً عبر الأشجار، وفجأة داهم السكون كل شيء، ارتفعت من الوادي أغنية رزنية ذات لحن حزين وكئيب كانت شبيهة بترنيمة دينية مهيبة كنت أسمعها منذ سنوات خلت في كاتدرائية ببلاد بعيدة، كانت الموسيقى شجية وعذبة إلى درجة أنني لم أسمع بمثلها في الشرق، وكانت الأصوات الغنائية للرجال والنساء تختلط في اتساق وانسجام ممزوجة بأنغام ناعمة لمزامير عديدة، وفي فواصل ثابتة تقطع الأغنية بصوت مدو من اصطدام الصنج والدفوف، وهؤلاء الذين كانوا خارج دائرة الضريح انضموا بأصواتهم لإنشاد النغمة الحزينة. وفي طريقه للانضمام إلى الشيخ ناصر في الباحة الداخلية تفرج لا يارد على الشيوخ والقوالين والراهبات وهم ينشدون ترنيمة دينية - ترتيلة

عربية غير مفهومة للزوار الناطقين بالكردية، وضمت أغنية للمسيح -
كان قد قيل بأنها تدشن اختتام مراسيم لحوالي ساعة واحدة بنفس بُطء
الترنيمة الدينية، ثم تسارع الغناء،

ثم أعطت الترنيمة مجالاً للحن منعش مفعم بالحوية،
الذي خبا أخيراً في الأصوات الممزوجة التي علت تدريجياً،
دقت الطبول بطاقة استثنائية، وسكبت المزامير فيضاً من
الأنغام السريعة، وارتفعت الأصوات إلى أعلى مداها،
وانضم الرجال في الخارج بأصواتهم إلى الصيحات، بينما
ارتجت الصخور من تأثير زغاريد النساء المدوية، استسلم
الموسيقيون للاهتياج والاثارة فرموا بآلاتهم الموسيقية في
الهواء ومدوا أطرافهم (أذرعهم وسيقانهم) منطلقين في
شكل حركة بهلوانية من لي وثني إلى أن تساقطوا منهكين،
ولم أسمع أبداً بصيحة مخيفة كتلك التي ارتفعت في الوادي
كان ذلك في منتصف الليل.

لاحظ لايارد بأن الطقوس لم تبلغ حد العريضة التي نسبت إلى
الأيديين من قبل الذين كانوا يحاولون التقليل من شأنهم، ويكتب بأن
"المجموعات المختلفة واصلت مرحها وابتهاجها وتجولوا ثانية في الوادي
أو جلسوا تحت الأشجار".

عاد الشيخ ناصر والأمير ولايارد إلى حيث كانوا يجلسون قرب النبع
واستمعوا إلى أصوات المزامير والدفوف إلى ان انقضى الليل تقريباً، وتبع
اليوم الثاني وكان كالأول، وبعد ثلاثة أيام غادر لايارد، حاملاً معه
رسالة توصية من الشيخ ناصر باسم الشيخ آدي "أعظم الشيوخ جميعاً"

وكل الخاصة" موجهة إلى زعماء جبل سنجار التي نوى لا يارد أن يذهب
في الشهر الذي يليه.^(١)

* * *

كانت رحلة لا يارد لجبل سنجار كضيف لطيار باشا اتفاقاً مؤسفاً
لزيارته الخفيفة والمتعة إلى لالش، غادر الوالي وبطانته الموصل في
الساعة الثالثة بعد ظهر ٨ تشرين الأول من عام ١٨٤٦ - التوقيت
المناسب الذي ارتآه الملالي - رافقهم فوج من المشاة، وعدد من سرايا
الخيالة غير النظاميين وبطارية حاملي البنادق، الهدف المعلن للحملة هو
الاطلاع على حالة البلد، والنظر في طلبات الإعفاء من الضرائب.^(٢)

بعد ستة أيام من مغادرة الموصل عسكرت الحملة تحت القمة الشرقية
لجبل سنجار، رحب وفد يمثل كافة القبائل الأيزيدية باستثناء مهركان
بقدم الباشا الذي أعلمهم بأن تقديرات الضريبة لديهم قد قطعت إلى
النصف، وحتى ذلك النصف يمكن تأجيل دفعه، سعدت مجموعة
استكشافية من ضمنهم لا يارد إلى سفح الجبل لطمأننة رجال قبيلة

(١) المكتبة البريطانية " أوراق لا يارد " المخطوطة ٣٩٠٥٥ تضم أصل رسالة الشيخ ناصر في
١٨ تشرين الأول ١٨٤٦ إلى زعماء سنجار مع ترجمة لها، راجع أيضاً لا يارد " نينوى
وبقايها " ج ١، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨ برقيتنا رسام ٤٣ و ٢٠ تشرين الأول و ٣ كانون الأول
١٨٤٦ إلى السفارة وإلى راولنسن على التوالي. لا يارد " نينوى وبقايها " ج ١، ص
٣٠٩-٣٢٤ و ج ٢، ص ١-٣. إسماعيل بك كول " اليزيديون: في الماضي والحاضر " ط.
زريق، ص ١١٥-١١٦. الدمولوجي " اليزيديون " ص ٥٠٠-٥٠١.

مهر كان بزعامة عيسى آغا^(١) الذي كان لا يزال يتذكر الشرك الذي أوقعوا فيه العام الماضي فاستقبلوا بوابل من الرصاص مما أدى إلى قتل جنديين الأمر الذي ألغى آمال قيام لا يارد بتسليم رسالة الشيخ ناصر إلى قروي مهر كان.

أمر الباشا جنوده باكتساح القرية التي كانت قد هجرت قبل ذلك من سكانها الأصحاء الذين كانوا قد انسحبوا إلى كهف كبير على حافة حادة يصعب الوصول إليها.

قام الجنود بقتل رجل مسن وامرأة عجوز كانا غير قادرين على الفرار ثم أضرموا النيران في البيوت، لاحظ لا يارد أنه "حتى الباشا الطاعن في السن، بشعره الأشيب وخطواته المترنحة يسارع هنا وهناك بين بقايا الخرائب التي تنبعث منها ألسنة النيران والدخان، وهو يساعد في إشعال النيران بالبيوت أينما وجد إن الأمر يحتاج إلى مساعدته" لثلاثة أيام متتالية ثبتت القوات العثمانية في مواضعها غير قادرة على الحراك بسبب نار البنادق من الطرف الآخر، رغم القدوة الشجاعة التي مثلها طيار باشا الذي أدار هجماتهم من صخرة مكشوفة، حيث نشر ببرودة أعصاب بساطاً وأخذ يدخن غليونيه متبادلاً أطراف الحديث، بينما كان يحتسي القهوة مع لا يارد الذي كان متوتر الأعصاب حينما تمر بهم الرصاصات بأزيزها ممرغة وجوههم بالغبار، وفي اليوم الرابع استولى العثمانيون على الموقع الأيزدي دون أية مقاومة، لأن المدافعين عنه كانوا قد انسحبوا إلى موقع آخر في الجبل، الإكليل الوحيد الذي غنموه نتيجة

(١) إدموندز، ص ٦٢.

المعركة الباهظة الثمن كانت " عبارة عن أشكال بغیضة لرجال ولما عز مصنوعة من التین المجفوف منصوبة على أعواد " وقد أرسلها الباشا المختار في تقدير كنهها إلى استنبول.

وبعد زيارة قصيرة إلى بلد سنجار عاد لایارد إلى الموصل، فیما واصل الباشا تقدمه إلى الأمام في حملته التي لم تبدأ بداية حسنة، وهو ینهب ویدمر القرى الأیزدية والعربية في طريقه إلى ماردين، وهنا ارتكب الباشا خطأ بیروقراطياً خطيراً عندما سمح لجنوده بالاستيلاء على ١٤٠٠٠ رأس غنم، و ٤٠٠ جمل صغير من الكرد الملیین المجاورین، الذین كانوا في تلك الأيام أفراد قبيلة مسالمة تعيش تحت سلطة والي حلب الباشا الطاعن في السن وهو یدمدم قائلاً لضباطه المذنبین: ((لقد جلبتم الدمار عليّ)) ووقع مريضاً، حيث قام طبيب بتنزيفه، وعثر عليه لاحقاً ميتاً في فراشه بعد أن انحلت ضماداته خلال الليل.

وفي العام ١٨٤٧ بينما كان لایارد ینهي عمله في غرود قبل مغادرته إلى الموصل في موعده المحدد في شهر تموز من ذلك العام، وجهت حكومة السلطان ضربة حاسمة ضد بدرخان بك، تقدم جيش تحت قيادة الكرواتي الجنرال عثمان باشا من الأناضول إلى جزيرة ابن عمر التي كانت قد أستسلمت دون قتال وذلك من قبل یزدانشیر ابن أخ بدرخان بك الذي كان قد أزيح من مركز القوة.

انسحب الأمير إلى دَرَكَلَه رافضاً عرض رسّام بالتوسط، وتركه حلفاؤه واحداً بعد الآخر، والقوات العثمانية كانت تساعدھا قوة طواری أیزدية ألحقت الهزيمة وأسرت خان محمود في (تلوه) على نهر

دجلة جنوب سعرت وهرب نور الله بك الهكاري إلى بلاد فارس، وإسماعيل باشا - آخر العباسيين - قبل مكانة ثلاثمه للتقاعد في بغداد. وأخيراً وفي تموز عام ١٨٤٧ قبل بدرخان بك شروط الاستسلام، ومن ضمنها العفو العام عما قام به من أعمال ضد الدولة، ونفي مشرف إلى كريت.^(١)

صُنعت ميدالية إحياءً لذكرى هزيمة زعيم الشوار^(٢) خلال حفل بالألعاب النارية أقيم بدياربكر في تشرين الأول من العام ١٨٤٧ احتفاءً بختان ولي العهد خرجت من الناس المجتمعين هتافات التهليل وتأوهات الحزن والسخرية والاستنكار تجاه شبح ملتهب تلتهمه ألسنة النيران وأعمدته، شكل هائل عملاق يتذكره الناس على نحو جيد مرتدياً الزي العسكري ومعتماً عمامة ضخمة.^(٣)

إن هزيمة الزعماء الكرد (وآخرهم شريف بك البدليس الذي أطيح به في ١٨٤٩) دشنت عهداً ساد فيه نظام الحكومة بدل الاستثناء في شرق الأناضول وشمال العراق، اعتمدت سلطة السلطان الإدارية تاريخياً على خدمات السعاة.

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨ برقيات رسام خلال الفترة من آذار إلى تشرين الأول ١٨٤٧ تغطي وقائع هزيمة واستسلام بدرخان وحلفائه وكذلك جهود رسام لحشه على الاستسلام. راجع أيضاً هـ. جـي. روس، ص ٤٥-٥٣. بدجر، ج ١، ص ٣٧١-٣٧٣. لا يارد: نينوى وبقيائها " ج ١، ص ٢٣٩. أدولف دي أفريل La chaldee chretienne ص ٦٢-٦٣. وكذلك وادي جويده " الحركة القومية الكردية: أصولها وتطورها " رسالة دكتوراه، جامعة سيراكوز ١٩٦٠، ص ٢٠٦-٢١١.

(٢) ساندريزكي، ج ١، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٣) خافيير هومير دي هيل " رحلة إلى تركيا وبلاد فارس " ج ١، ص ٤٦٨-٤٦٩.

لكن كل ذلك سيتغير قريباً ويتوسع بفضل اختراع جديد وهو التلغراف الكهربائي الذي ربط استنبول مع غرب أوروبا في ١٨٥٨ وامتدت بعد ذلك عن طريق ديار بكر إلى الموصل ثم إلى بغداد في ١٨٦١، فقلّصت تدريجياً صلاحيات ولاية الولايات وحصرت على الشؤون المدنية، بينما أفلح الجيش في إقامة هرمه القيادي وكذلك نظاماً للتجنيد.

إن فرض القانون والنظام وضع الأيزديين في وضع شاذ، الأحكام الجديدة المطبقة الآن في العراق أخضعتهم للضرائب والخدمة العسكرية، ومع ذلك فإنهم لا يتمتعون بأية صفة مدنية أو وضع قانوني تحت أحكام الشريعة الإسلامية، ولا حتى الحقوق المحدودة المقررة من قبل محمد إلى المسيحيين واليهود كأهل كتاب.

التجنيد العسكري الإجباري سبب لهم مشاكل خاصة فيما يتعلق بقواعد الحماية لديهم واعتراض ديانتهم على ارتداء الملابس ذات اللون الأزرق والاشتراك مع المسلمين في الاستحمام.

في ذلك الوقت شجعت السياسة البريطانية وفق ما كان يطبقه ستراتفورد كننغ التجديد واللاحق بركب الأمم المتحضرة والعصرية، وتقوية الامبراطورية العثمانية، وكان التدخل محصوراً في الأمور التجارية وحالات الغبن التي تلحق بالأقليات المسيحية غير الكاثوليكية، وعلى كل حال تمكن رسام من تسخير اهتمام كننغ بالحنة الأيزدية بالإشارة إلى أنهم كالنسطوريين واليعقوبيين قد تعرضوا للاضطهاد والملاحقة والاستعباد من قبل بدرخان بك، ويضعون ثقتهم في أن الإنكليز سوف يؤمنون إطلاق سراح جميع عبيده السابقين.

وفي وقت مبكر من العام ١٨٤٩ نظم رسام لزعيم القوالين الأيزديين يوسف السفر إلى استنبول برفقة أربعة زعماء من ولاية ديار بكر حاملين طلباً إلى الصدر الأعظم ييغون إحقاق الحق والعدل والتسامح، والإقرار لهم بالحق في استبدال التزاماتهم العسكرية الإجبارية أسوة بالنصرانيين، وعند الوصول إلى السفارة البريطانية، اكتشف الوفد صديقاً قديماً وحليفاً (هنري لايارد) الذي كان قد عاد من انكلترة في نهاية العام ١٨٤٨ وكان يستعد لمواصلة حفرياتة في العراق لصالح المتحف البريطاني.

كان القوال يوسف صورة رائعة لأن يكون مبعوثاً. ببشرته السمراء الداكنة، وعيونه السوداء البراقة التي تنم عن الذكاء ولحيته السوداء الفاحمة، كلها تظلمها عمامة سوداء كبيرة، جبة مخططة من أنسجة خشنة كانت ملقاة بصورة عابرة فوق ثوب حريري أحمر، لاحظ مراقب بريطاني "أنه في السيماء والشكل آسيوي وسيم، يعبر وجهه عن الذكاء والود والسلوك الأكثر لطافة".

وكاتب يوميات آخر، أكثر رومانسية أشار إلى أن "الملامح الكبيرة في وجه يوسف نُحتت على النموذج العادي للملوك الآشوريين القدماء". وتصور في وقت آخر بأنه رأى مسحات من شهامة ونبل الكردي صلاح الدين، واختصر كل صفاته في قوله (بأنه شخص جيد وطيب).^(١)

(١) المصدر نفسه، ص ٤. (أداير كروفورد) يوميات موفد إلى الشرق من لجنة كلية مالطا البروتستانتية في ١٨٤٩ (ج ٢) ص ٥١٧-٥١٨. توماس همفري وورد "همفري ساوندويذ: مذكرات" ص ٤٤-٤٥.

بعد شهور من الانتظار، وتدخلات عدة من قبل كننگ ولايارد صدر
أخيراً مرسوم في منتصف العام ١٨٤٩، ونصه مدفون في الأرشيفات
العثمانية والبريطانية، لكن طبقاً لـلايارد فإنه

منح الأيزديين الحرية التي طالما نشدوها، إذ أعفوا من
كل الأعباء الثقيلة غير القانونية، ومنع بيع أطفالهم كعبيد،
وهو يؤمن لهم كامل الحق في ممارسة طقوس وشعائر
ديانتهم، ويوضعون على قدم المساواة مع الطوائف الأخرى
في الامبراطورية، كما وُعدوا بما هو مطلوب لتحريرهم من
أحكام الخدمة العسكرية التي تتعارض مع الالتزام الشديد
بواجباتهم الدينية.^(١)

بينما أثار نشر كتاب لايارد اهتماماً واسعاً بنيوى، حول المتحف
البريطاني قيام بعثة تنقييات كاملة مؤلفة من: لايارد، ومساعد له (هرمز
رسام)، وطبيب همفري ساندوود وفنان فريدريك كوبر.^(*)

غادرت المجموعة استنبول في ٢٨ آب من العام ١٨٤٩ بزورق
بخاري على البحر الأسود إلى طرابزون، مصطحبين معهم القوال يوسف،
وتخلف الأيزيديون الآخرون في العاصمة للحصول على وثائق رسمية
أخرى.^(٢)

ومن طرابزون توجه الفريق جنوباً عبر أرضروم إلى بدليس، والتي
كانت حينها تحت السيطرة العثمانية المباشرة، وهناك أفلح لايارد -

(١) لايارد "نينوى وبابل" ص ٤.

(*) انظر الصور ٤، ١٠، ١٢، ٤٢، ٤٣.

(٢) رحلة لايارد في ١٨٤٩ من طرابزون إلى الموصل مذكورة في كتابه "نينوى وبابل" ص ٤-
٥٩ وكذلك يومياته (المكتبة البريطانية، أوراق لايارد، المخطوطة ٣٩٠٩٦). راجع
أيضاً وورد "ساندوود" ص ٤٥-٥٤.

متسلحاً بأمر من الباب العالي - في استعادة الأموال والثروات المحجوزة
العائدة إلى شريف بك، والتي كانت في الأصل سلبت ونهبت قبل
سنوات من القوالين الأيزيديين - أقارب يوسف - الذين كانوا قتلوا
بأوامر صادرة من الأمير الكردي.

كانت رحلة لا يارد عبر موطن الأيزيديين جنوب بدليس تقدماً عظيماً
رافقه واحتفل بمقدمه القرويون الداهلون الذين كان قد تنهى إلى سمعهم
مقتل يوسف، ورفض طلباتهم، وأن بانتظارهم ملاحقات قادمة، بينما
كانوا يدنون من رضوان، انضم إلى الفريق ثلاثة قوالين في زيارتهم
السنوية للمنطقة وأستقبلوا بحشد كبير من الأيزيديين والكلدان، يتذكر
لا يارد ذلك قائلاً :

« النساء والأطفال مصطفون على المدخل إلى المكان
ومحتشدون على سطوح البيوت، ترجلت وسط ضجيج
الموسيقى وزغاريد النساء عند بيت نازي - ابن أخ ميرزا
آغا، وحالياً زعيم في المنطقة -، وذبحت نعجتان عند
قدمي حينما بادرت بنزعهما من الركاب ».

أخذ المسافرون قسطاً من الراحة في باحة الكنيسة الأرمنية، وهم
يحتمون عند الغروب من عاصفة استغرقت ربع ساعة "انجرفت معها من
على سطوح المنازل الأفرشة والبسط التي كانت قد نشرت استعداداً
لنوم وألقته على الأرض"، وبعد مرور العاصفة سكنت الرياح وساد
هدوء فانضم لا يارد إلى نازي - وصفه بأنه "دمث وذو طباع حسنة - من
الواضح أنه لم يكن ميالاً أو مولعاً بالخروب". وكانا يُمتعان نظرهما
بالأيزيديين ذوي الثياب البيضاء وهم يرقصون تحت ضوء القمر إلى وقت
متأخر من الليل.

وفي صباح اليوم التالي أخذ القوال يوسف لايارد وهرمز رسام إلى غرفة داخلية مظلمة في بيت نازي وأزاح غطاءً ليكشف عن طائر نحاسي يقف على مسند - سنجاق مقدس يحمله القوالون في أسفارهم شعاراً للعقيدة الأيزدية - إناء نحاسي وكيس يحملون فيه السنجاق عند تفكيكه، المادتان المقدستان موضوعان على جانب، وعندما حان وقت المغادرة قام يوسف والقوالون الآخرون بتغطية السنجاق مرة أخرى مقبلين زاوية الغطاء. (يظهر الرسم الذي خطه لايارد للسنجاق في الصورة ٢٦)*

استمرت رحلة لايارد باتجاه الجنوب في وادي دجلة على نفس المنوال إلى أن مروا بفندق وهي قرية لا زالت تحت سيطرة رسول - أحد المؤيدين المتطرفين لبدردخان بك - وعلى مسافة أميال بعد المرور بالقرية، أجبروا على العودة إليها من أكراد همجيين مسفوعين من تأثير التعرض لأشعة الشمس والرياح. وبعد قليل من الارتباك علم لايارد أنه في معركة ١٨٤٧ عندما هزم العثمانيون خان محمود أسر رسول من قبل الأيزديين، وأن أحد زعمائهم أنقذه عندما كان على وشك أن يقذف به في دجلة، ونتيجة لذلك رغم اختلاف الدين أصبحوا إخوة في الدم وقام الزعيم الكردي - الذي كان مرتدياً لعمامة عرضها ثلاثة أقدام مزينة باللونين الأحمر والأصفر، وسروال ذي لون أحمر أرجواني - بالتسرية عنهم وتسليتهم بتجاذب أطراف الحديث، مرضياً "فضول لايارد حول نقاط تتعلق بالدخل والإدارة الداخلية وتاريخ القبيلة والأمور الخلية الأخرى".

(*) بنيت نافورة مياه في العام ١٩٨٢ في قرية قوروكاذاك المجاورة إحياءً لذكرى زيارة لايارد لرضوان (صورة ٧٥).

وعلى بعد ثلاثين ميلاً شمال الموصل، رحبت بهم مجموعة خيالة يقودهم الشيخ ناصر (الذي وصفه الدكتور ساندوز بـ " الرجل البالغ من العمر أربعين عاماً، له سيماء ذكية ومطبوع على الاعتدال ") وحسين بك، وكان الأمير طبقاً لما أفاد به الطبيب " شاحب الوجه، شاب مريض في التاسعة عشرة، صبي لا حية له "، ولم يكن الشاب الجميل الذي التقاه لايارد في العام ١٨٤٦ بعد، لكن ساندوز يستحضر بعض جاذبية الشخصية السابقة لدى الشاب في وصف:

عمامته ذات اللون الفاتح وسترته الحمراء المطرزة بأناقة بالذهب، والتي كانت تلمع كما تلمع السحلية تحت أشعة الشمس، وفوقه كان يرتدي جبة بيضاء تشبه إلى حد كبير الشاش في رفته وشفافيته، والتي لم تكن تخفي روائح النقوش الذهبية، وغمد فضي ثقيل يحوي على سيف معقوف يعود لوالده الراحل.

لم يمض وقت طويل على وصولهم الموصل، حتى حضر لايارد برفقة مجموعته، مصطحبين كريستيان رسام معهم، عيد الخريف بلالش للعام ١٨٤٩^(١) كان الحضور أقل من ثلاث سنوات خلت، وذلك بسبب قيام العرب بشن غارات على عدة قرى أيزدية، حيث أتى فقط عدد قليل من الزوار المدججين بالسلاح من سنجار، لكن المراسيم التي قام بها بهذه المناسبة الشيخ جندي - راهب ذو حية سوداء يملك ملامح قاسية وبشرة بنية غامقة، ولم يعرف عنه أبداً أنه ابتسم - كانت المراسيم مبهجة ومؤثرة

(١) لايارد "نينوى وبابل" ص ٧٨-٩٦. دايري (المكتبة البريطانية، المخطوطة ٣٩٠٩٦).
وورد "ساندوز" ص ٦٥-٦٧. مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ برقيتنا رسام ٢١ و ٢٣ في
١٥ و ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٩ إلى السفارة.

كما في المرات السابقة، وبعد انتهاء الرقصات، انضم لايارد والاخوان رسام إلى شيوخ القبائل في مناقشة المرسوم الجديد ومدى امكانية تطبيقه، وحث الأيزديين على الثقة بالحكومة المركزية وإرسال كتابات الشكر والتقدير للباب العالي والسفير البريطاني^(*)، وكان لايارد بصورة عامة راضياً من النتائج التي أسفرت عنها هذه المحاولات، لكنه لاحظ بأن:

**حسين بك صغير أكثر مما ينبغي للتفكير كثيراً في
الشؤون العامة، وهو مشغول بالزعامة بحيث ليس له وقت
للاهتمام بأجل فتاة من رعاياه - اللاتي يفضلن أن يكن
موضع إعجاب زعيمهن الشاب -.**

وخلال بقائه في لالش تساءل لايارد عن الكتاب المقدس للعقيدة الأيزدية، لقد تحدث السير بول رايكوت عن كتاب واحد، كما كان فوربس قد سمع في جبل سنجار بوجود كتاب موسوم بالأسود، يحتوي على قوانينهم وتعاليمهم، لقد أخبر الأيزيديون في الشيخان أساهيل غرانت بأنهم يملكون كتاباً مقدساً يدعى فوركال، فيما أخبر زميله هورمز من قبل مسلم متعلم في ماردين بأنهم (يملكون كتاباً يدعى جلوه، الذي يزعمون بانه دُون من قبل الشيخ آدي، الذي لا ضلع له فيه).^(١)

(*) انظر في الملحق الثاني للاطلاع على نصوص هذه الرسائل وهي أقدم وثائق رسمية معروفة للأيزديين على الإطلاق.

(١) السير بول رايكوت "تاريخ الامبراطورية التركية من العام ١٦٢٣ إلى العام ١٦٧٧، ص ٩٣. فريدرك فوربس "زيارة إلى تلال سنجار في ١٨٣٨" مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٩ (١٨٣٩) ص ٤٢٤. أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الخارجية، ٧، ٨، ١٦ المجلد ٤، المادة ٨٠، يوميات غرانت / هنسديل ٢٠ و ٢١ تشرين الثاني ١٨٤١. المصدر نفسه "حياة غرانت في كردستان" ٧ حزيران ١٨٤٢. راجع أيضاً لوري "غرانت" ص ٢١٨. هنري أ. هومز "الطائفة اليزيدية في ميسوبوتاميا" مجلة بايبيكيل ريبوزيتوري أند كلاسيك ريفيو، العدد ٢، المجلد ٧، ١٨٤٢، ص ٣٤٢.

أخبر لايارد بأنه قبل المذبحة الكبيرة التي قام بها بك راوندوز كان الأيزديون يملكون كتباً عديدة، لكنها فقدت خلال الهلع العام أو أُلقت من قبل السوران.

أحضر القوال يوسف مساعد الشيخ ناصر إلى لايارد " أوراقاً قليلة ممزقة ليست ذات تاريخ عتيق " احتوت على ترانيم الشيخ آدي، اعترفوا بأن ذلك لا يمثل (كتاب التبشير الخيرة) أو (الكتاب الذي يواسي المضطهدين) الذي جاء ذكره في الترنيمة الدينية، وألح بأن الكتاب لا زال موجوداً، وأقنعوا لايارد بالاعتقاد بأنه من الممكن أن نسخة من الكتاب لا زالت محفوظة في بعشقة أو باهزان (بعد سنوات كثيرة نشرت مقالة في جريدة روسية نقلت قصة رواها شخص يقيم بالموصل يدعى أبو جزيراوي الذي كان يعمل في القنصلية الفرنسية يزعم فيه أن لايارد قد استأجره ذات مرة لسرقة كتاب أيزدي مقدس، لكن المحاولة باءت بالفشل، وليس هناك برهان لنفي أو إثبات هذه الرواية).^(١)

(١) للحصول على وصف عن (أبو جزيراوي) راجع: يو. س. كارتسوف Zаметki o turetskikh Yezidakh أعيد طبعه في ZKORGGO العدد ١٣ (١٨٩١ ص ٢٣٧-٢٣٨. راجع أيضاً جون ب. نيومان " العروش والقصور في بابل ونيوى " ص ٢٤٤-٢٤٥.

الفصل الثامن

محنة الأمير حسين بك

مثلت سنوات منتصف القرن التاسع عشر ذروة النفوذ البريطاني في الامبراطورية العثمانية، فلسنوات عديدة (من ١٨٤١ إلى ١٨٥٨) في بستراتفورد كننغ دعمت بريطانيا ممثلة وبشدة وزراء السلطان في وجه التوسع الروسي وحشتهم مع بعض النجاح لتحسين إدارة الدولة، وانتهاج سياسة التسامح مع الأقليات غير الإسلامية. ومن بين الذين جنوا فائدة من هذه الاصلاحات الجماعات البروتستانتية الصغيرة في الامبراطورية التي كانت لا زالت ملتزمة قانونياً بدفع الضرائب من خلال الكنائس التي كانوا قد طردوا منها، وبسبب جهود السفير البريطاني صدرت بين الأعوام ١٨٤٦ و ١٨٥٤ مراسيم اعترفت بوجود طوائف بروتستانية منفصلة، وترشدهم بدفع الضرائب عن طريق وكلاء المالية المنتخبين.

استقر الوضع القانوني للأيزديين في العام ١٨٤٩، لكنهم واجهوا عقبة تمثلت في تحميلهم مسؤولية القيام بالخدمة العسكرية الاجبارية التي كان المسيحيون مستثنيين منها (وفي الحقيقة لم يكونوا أهلاً لها) منذ أيام الخلفاء. وفي رسالة شكر في شهر تشرين الأول لسنة ١٨٤٩، موجهة إلى الباب العالي من قبل حسين بك، أكد فيها الشيخ ناصر وثمانية وعشرون زعيماً أيزدياً ولاءهم وإخلاصهم للسلطان واستعدادهم لخدمته، مثلما خدم أجدادهم في جيش مراد الرابع^(*)، في حين التمسوا أنه نظراً للاستنزاف الذي لحق بقواهم من الرجال نتيجة المذابح السابقة - إذا كان ممكناً - السماح لهم بدفع بدل الضرائب للخمس السنوات المقبلة إلى أن يتمكنوا من تزويد الجيش بالجنود، وعليه فإنهم سيقبلون مسؤولية القيام بالخدمة العسكرية، لكنهم طلبوا أن يشكل الأيزديون وحدات خاصة بهم أو يخدمون مع الجنود النصرانيين بدلاً من مزجهم بالجنود المسلمين.^(١)

وفي وقت مبكر من العام ١٨٥٠ أحاط ستراتفورد كينج رسام علماً بأن الامور قد رُتبت، إلا أن الرسائل الرسمية المحتوية على الشروط لا توجد في الارشيفات، لكن الزعماء الأيزديين أعلنوا ارتياحهم ورضاءهم، وحذروا من قبل رسام بعدم البوح بسر تدخل كينج في الأمر نيابة عنهم.

(*) راجع الفصل الرابع.

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ بقرقيات رسام المرقمة (٢٣) في ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٩ و (٦) و (٧) في ١٥ و ٢٩ نيسان ١٨٥٠ إلى السفارة.

الفصل الذي جرى مؤخراً بين السلطة المدنية والعسكرية في الدولة العثمانية آخر وضع الترتيبات الجديدة موضع التنفيذ، كانت شعارات تجنيد الأيزديين لا زالت تصدر، وفي وقت ما احتجز حسين بك رهينة إلى أن تصل قوة أيزدية.^(١)

بعد فترة بدأت الأمور تسير على ما يرام، حيث ارتاح رسام لأن نقص الأيدي العاملة في الحقول كان سيسبب نقصاً شديداً في حصاد الأيزديين، وبالتالي يؤخر دفع ديونه، وفي هذا الوقت كان كريستيان رسام يتحول إلى " نائب قنصل مهيب وذي نفوذ"^(٢) وأصبح واحداً من التجار البارزين في مدينة الموصل، متعاملاً بالجلود، والصوف، والجوز، واللوز، والحبوب، ولم يكن له أطفال ولكن زوجته كانت متعلقة كثيراً ببيغائها. وأصبحت دارهم محطاً للزائرين يلقون فيها الراحة والضيافة، تذكر أحدهم السقف البيضاوي لغرفة التصوير بدارهم "مطلي بصورة رائعة باللون الأزرق، مزخرف بالكروم المذهبة، والزهور والنجوم"، بينما لاحظ آخر مستحسناً بأن مجلة "Punch" التي كانت حينذاك في عامها التاسع، قد وجدت طريقها إلى الموصل.^(٣)

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٠١ برقيات رسام من الرقم (١٤) إلى (١٧) في الفترة آب - تشرين الأول ١٨٥٠ إلى السفارة. ساندركي Reise Mosul und durch Kurdistan nach Urumia ج ٣، ص ٢٨٣. وكذلك مكتب الخارجية ١٩٥ / ٤٥٩ برقية دبليو. ر. هولز قنصل ديار بكر المرقمة (١٠) في ٥ آذار ١٨٥٧ و ١٩٥ / ٦٠٣ برقيتا مالتاس المرقمة في ٢٠ شباط ١٨٥٨ و (٣٠) في ١٧ تشرين الثاني ١٨٥٧ إلى السفارة.

(٢) السير أ. هنري لايارد "سيرة ذاتية ورسائل" طبعة دبليو. بروس، ج ٢، ص ١٩٢.

(٣) ساندركي، ج ٢، ص ١٨٧ و ٢٠٢. ف. والبول "الآشوريون مع رحلات إلى الشرق الأقصى في ١٨٥٠-١٨٥١" ج ١، ص ٣٨٧. جون ب. نيومان "عروش وقصور بابل ونيوى" ص ٢٤٦.

واصل لايارد تنقيباته في غمرود وقويونجك حيث أكتشف المكتبة الملكية الذائعة الصيت للملوك الآشوريين والتي احتوت على آلاف المسلات والألوح، وفي خضم رحلة بحث عن الآثار إلى وادي خابور في ربيع العام ١٨٥٠ زار لايارد مرة أخرى جبل سنجار، يرافقه القوال يوسف وثلاث أشخاص أيزديين آخرين. وجد القائد العثماني في بلد سنجار "تقريباً محاصراً داخل حيطان حاميته البائسة المنكوبة، وذلك برفقة ثكنة عسكرية تحوي على أعداد قليلة من ألبان يكادون يموتون جوعاً" حيث أن زعماء القبائل استأنفوا أعمالهم غير القانونية وأشاعوا الفوضى مرة أخرى. أقنع لايارد عيسى زعيم المهركان عيسى بعقد الصلح مع القبيلة المجاورة التي أقامت احتفالاً مسرفاً بمناسبة عيد الحب وعرضت على زوارها هدايا من التين المجفف المصفف في خيوط بأشكال غريبة " وهي نفس البضائع اللافتة للنظر التي حيرت طيار باشا في السنة ١٨٤٦".^(١)

في تموز من العام ١٨٥٠ زار لايارد مارشمعون، الذي أعيد حديثاً إلى موقعه بعد نفي في الارسالية الأرمنية بأورمية، وجه البطريق كل اللوم إلى الأمريكيين الذين سببوا له المشاكل، وأثنى على كنيسة انكلترة. وبعد قضائه شهور الشتاء وهو يقوم بإجراء المسوحات على البقايا والآثار البابلية، ترك لايارد الموصل متوجهاً إلى انكلترة في نيسان من العام ١٨٥١.

وخلال بقائه ثمانية عشر شهراً في أورمية أقتنع المارشمعون بأن المبشرين الأمريكيين إنما يقوضون ولاء النسطوريين المحليين تجاه بطريركهم.

(١) أوستن هـ. لايارد "اكتشافات في آثار نينوى وبابل" ص ٢٣٨-٢٥٩ و ٣٣٢-٣٣٤.

والمبشرون الذين كانت كنائسهم لا مطارنة أو أساقفة لها كانوا غير سعداء مع أسلوبه الأوتوقراطي. وعند مغادرة البطريك قام مؤسس ورئيس البعثة جوستين بيركنس بجولة عبر الجبال إلى الموصل وذلك في ربيع عام ١٨٤٩، ورغم أن العديد من القرى النسطورية كانت قد اهتدت إلى الكاثوليكية فإنه شعر بأنه لا زال هناك مجال بين البقية الباقية واليعقوبيين يتطلب إنشاء "بعثة آشورية" لتغطية الولايات: الموصل وماردين ودياربكر. وافقت "لجنة الحكمة" في آذار عام ١٨٥٠ وصل إلى الموصل للقيام بمهامه أول مبعوث هو بيرسي دوايت مارش.^(١)

قبل ذلك بشهور قليلة جاء بيرسي بادجر إلى الموصل برفقة زوجته في زيارة طويلة وهو شخص كان موضع جدل أكثر وكان صهر نائب القنصل الذي كان قد ألحق منذ ١٨٤٦ بالحكم البريطاني في عدن بجنوب غرب الجزيرة العربية التي استولت عليها بريطانيا مؤخراً، بصفة رجل دين، وكان قد منح لتوه إجازة لأسباب صحية، وقد عقد النية خلالها بإتمام عمل مؤلف من جزئين موسوم بـ (النسطوريون وطقوسهم)، وهو كتاب يدمج فيه بين مرسوم الطقوس والشعائر الدينية، وتبرير لمواقفه وتصرفاته وذلك في ١٨٤٢-١٨٤٤.

كانت العلاقة جدية بين لايارد وبادجر، وكان ادعاء بادجر بأنه اكتشف نمرود في نزهته القصيرة في آذار من العام ١٨٤٤ وبرفقته فلتشر ودتل قد حجب النتائج التي توصل إليها لايارد والتي حظيت

(١) روفوس أندرسن "تاريخ بعثات هيئة الإرساليات الأمريكية للبعثات الخارجية إلى كنائس الشرق"، ص ١، ص ٣٣٦-٣٤٦. أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الخارجية ٧، ٨، ١٦، ج ٥، البعثات النسطورية ١٨٤٧-١٨٥٩، المجلد (١) المادة (١٨٨) يوميات بيركنس ١٣-٢٣ أيار ١٨٤٩.

باهتمام كبير من قبل الصحافة ^(١) كما أن لا يارد بدوره كان قد أساء إلى بادجر عندما كتب إلى صحيفة لندن قائلاً بأن بادجر كان المسؤول عن المذابح النسطورية. ^(٢)

وفي ربيع عام ١٨٥٠ انتقلت عائلة بادجر من الموصل إلى دار استأجرها لهم رسام في القرية الأيزدية (بعشيقة)، ولكن قبل مباشرة العمل ذهب بادجر إلى جبل هكاري لزيارة مارشمعون مرة أخرى وللإطلاع على المخطوطات القديمة للكنيسة التي كانت بحوزته، وكان اللقاء مثيراً للعواطف بين بادجر المفعم بالحياة والنشاط في منتصف الثلاثينيات من عمره والبطريك النسطوري المكسور الفؤاد والذي أصابه الضنك والإنهاك. ^(٣)

لم يزر بادجر لالش هذه المرة، كان الزعماء الايزديون غائبين لحضور عيد رأس السنة في سهل شيخان، وفي ١٨ نيسان جاء الشيخ ناصر والأخ الأصغر للأمير إلى بعشيقة حيث زينت مداخل العديد من البيوت "بشقاق النعمان الحمراء البرية"، وبعد رقص ومأدبة مراسيمية، زار الزعماء الايزديون نائب القنصل.

يوميات السيدة بادجر تشير إلى أن الشيخ ناصر "ظهر رجلاً هادئاً ومتواضعاً وملاحة تنم عن حب الخير لكنها تخفي حزناً عميقاً". زخر اليوم التالي بالاحتفالات، وفي المساء زار حسين بك عائلة رسام، وتلاحظ السيدة بادجر في يومياتها بأنه كان هناك الكثير من

(١) جورج بيرسي بادجر "النساطرة وطقوسهم" ج ١، ص ٨٦-٩٢.

(٢) بروقية (مراسل اسطنبول) في ١٧ آب ١٨٤٣ إلى (مورنينغ كرونكل) ونشرت في ٥ أيلول ١٨٤٣ كوردن ووترفيلد "لا يارد نينوى" ص ٢١٣.

(٣) بادجر، ج ١، ص ٣٨٨-٣٨٩.

الغيرة والحسد بين الشيخ ناصر والأمير حسين بك، وأن الأمير "غلام يافع لا أكثر، ولديه ثلاث زوجات في غير أوانه".

في اليوم التالي سار موكب مهيب تصحبه المزامير والدفوف برفقة سنجاق شيخان من باحزاني إلى بعشيقه، مرّ السنجاق المقدس يرافقه اثنان من البير يلوحان بالمنجزات أمامها، وفي اليوم الأخير ببعشيقه، سمح للسيدة رسام والسيدة بادجر بإلقاء نظرة على السنجاق ورسم تخطيط له.^(١)

لحق بادجر بعائلته في بعشيقه عند نهاية شهر نيسان، وفي إحدى الأمسيات وبينما كان يتفرج على احتفالات الأيزديين دنا منه "رجل كان يبدو عادياً، ومن الواضح أنه تناول الكثير من الخمر مما جعله كثير الثثرة"، أخبره الرجل بأنه كاتب الشيخ ناصر وعندما تم المزاح معه حول تفشي الأمية بين مواطنيه، صرح "بأنه يملك شعراً مكتوباً، الأثر المقدس الوحيد الباقي من العديد من المجلدات المحفوظة شفاهاً، والذي بقي بحوزة الأيزديين".

وبعد إلحاح شديد وافق الرجل على إعارة المخطوط لبادجر الذي أخذه بدوره إلى دير مار متى، حيث انتقلت العائلة في شهر تموز هرباً من حر السهل، ولم يكن النص غير ترانيم الشيخ آدي التي سبق وأن رآها ليارد في تشرين الأول من العام ١٨٤٩ وكان همفري ساندوذك طبيب ليارد في مار متى، ورغب في استنساخ المخطوط، وبالنتيجة أرسل له بادجر نسخة منه، قبل قيامه بإعادة المخطوط إلى الأيزديين ترجم بادجر النص "بمساعدة أهالي الموصل الأكثر تعليماً" وقد ضم إلى كتابه

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٩-١٢٤.

(الذي أنهاه في آب من العام ١٨٥٠ ونشر في ١٨٥٢)، وبالنتيجة وبعد نشر كتاب لا يارد (نينوى وبابل) في العام ١٨٥٣، بما في ذلك ترجمة القصيدة نسبت إلى هرمز رسام، كتب بادجر إلى الأثنيم اللندنية رسالة أظهر فيها غضبه واستياءه، معيداً ذكر أحداث بعشيقه، وضمنها نسخة من النص إلى ساندوذ مشيراً إلى أن هرمز رسام ليس عالماً عربياً كلاسيكياً، لكنه كان شديد الحذر ودقيقاً إذ ذكر أنه لا يهتم لا يارد بالانتحال، فيما صرح رغم ذلك " انه باستثناء بعض الأبيات في القصيدة هناك تشابه وتطابق كبير وغير عادي بين الروايتين" لا يوجد أي أثر لأي رد من قبل لا يارد.^(١)

* * *

في مايس من العام ١٨٥٠ كريستيان رسام لما كان درع كريستيان رسام القنصلي، المتمثل بخصائنه الدبلوماسية ومكانته الاجتماعية، يمتد لحماية بادجر والإرسالية التبشيرية الأمريكية الجديدة وأحياناً ممثلي جمعية لندن لدعم المسيحية بين اليهود، جاء لزيارته موفدان من مستخدمه السابق المجتمع الكنسي للبعثات التبشيرية، جون باون رجل دين متلهف كان قد ترك عمله كمزارع في أونتاريو بكندا للالتحاق بالكنيسة، ومساعدته البافاري كاتب اليوميات صاحب المجلدات كارل ساندركي

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٣-١١٥. لا يارد "نينوى وبابل" ص ٨٩-٩٢. رسالة بادجر في ٦ حزيران ١٨٥٣ إلى (أثنيموم) المنشورة في ١٦ تموز ١٨٥٣، العدد ٢٦ (١٨٥٣) ص ٨٦٠. النص العربي للقصيدة، والذي يعتمد على مخطوطة بادجر، نشر من قبل هاينرخ إيغالدي Die erste schriftliche urkunde der Jezidaer.

شكلت رحلتهم جزءاً من مسح مؤله باون للاطلاع على مدى صلاحية الشرق الأوسط لنشاطات المجتمع الكنسي للبعثات التبشيرية، الذي أرسل له المارشمعون العديد من المناشدات في طلب المساعدة. وبعد وصولهما بقليل توجه باون شمالاً إلى أراضروم وأورمية، بينما قضى ساندركزي صيفه في الموصل، مسجلاً قضايا تافهة وغير ذات جدوى حول رسام وزوجته، لا يارد وعائلته وباجر ومارش وأمور متنوعة، وفي تموز غادر الموصل للالتحاق بباون في أورمية.^(١)

وفي أيلول زار المبشران مارشمعون - الطاعن في السن والمنغص العيش لشدة محنته وحظه العاثر - عاش البطيريك في فقر مدقع، وكان ممتناً لباون للهدية التي قدمها له وكانت عبارة عن حصان، لأنه لم يكن يملك واحداً، رافقهم مارشمعون في جولة للاطلاع على الكنيسة البطيركية المتواضعة حيث اندهش ساندركزي لرؤية شمعدان يشبه في الشكل سنجاق الأيزديين، لكنه أمسك عن سؤال دليلهم بشأن ذلك.^(٢)

وفي طريق عودتهم إلى الموصل زار باون وساندركزي لالش، وقضيا ليلتهما مع الشيخ ناصر في عيسىان، تصرف زميل لا يارد في السفر القوال يوسف كمتزجم، وفي الإجابة على إحدى الأسئلة توهموا أن الشيخ ناصر يقول بأن تاريخ ضريح الشيخ آدي يعود إلى ما قبل ١٨٠٣ سنوات، وقد خلف مستوى النظافة والكد والعمل في القرية الأيزدية بعشيقه انطباعاً جيداً لدى ساندركزي مما حدا به إلى أن يسجل

(١) (جون باون) "مذكرات" جمعتها أخته، ص ٣٤٨-٣٥٦. ساندركزي، ج ٢، ص ٣-٢٨٥،

يوجين ستوك "تاريخ مجمع البعثات الكنسية" ج ٢، ص ١٤٢-١٤٣.

(٢) ساندركزي، ج ٣، ص ٢٤٩-٢٥١.

في يومياته بأنه سوف يستمتع بتبشير هؤلاء بتعاليم المسيحية^(١)، لكن رغبته لم تحقق، إذ قضى البقية الباقية من حياته العملية بفلسطين حيث أقنع باون مجمع البعثات الكنسية بفتح بعثة تبشيرية، تاركين الميدان النسطوري للأمريكيين^(٢)، ومارشمعون الذي خاب أمله في رجال الكنائس الناطقين بالإنكليزية بدأ بإنشاء اتصالات مع الروس.^(٣)

* * *

شرعت البعثة الأمريكية الجديدة بالعمل في الموصل بين اليعاقبة، وهذه الطائفة كان النشاط في صفوفها قد خصص، لقد تشاور ساوثغيت وبادجر طويلاً مع مافريانهم لكن لم يحقق ذلك الكثير. وفي العام ١٨٤٣ حينما كان غرانت وزملاؤه يقضون فصل الشتاء في الموصل بعد فشل بعثتهم الجبلية بدأوا يعملون في صفوف اليعقوبيين، ولكن بعد شهور قليلة تم سحب بقية المبشرين، وبعد مرور ست سنوات علم بيركنس بأن الذين اهتموا للمذهب الجديد بتأثير منهم وهم حوالي ستين رجلاً، أغلبيتهم يعقوبيون مع بعض الكاثوليك السابقين لا زالوا يجتمعون بصورة اعتيادية لقراءة الكتاب المقدس، أحدهم شخص مشير

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٩، و ج ٣، ص ٢٨٣-٢٩٧.

(٢) ستوك، ج ٢، ص ١٤٣.

(٣) Akty، المجلد ١١، المادة ٣٠، ص ٣٠-٣١. محظر إعادة الطلب كنيسة النساطرة السوريين في ٤ تموز ١٨٥٦، جليلي جليل Kurdy Osmanskoy Imperiyi v pervoy polovine XIX veka ص ١٤٤ يذكر أن مار شمعون السادس عشر يونان أرسل في ١٨١٠ مبعوثاً إلى الجنرال تورماسوف قائد القوات الروسية في القوقاز.

للاهتمام شاب وذكي"، خلف أثراً عميقاً في نفس بيركنس في غضون الأيام العشرة التي قضاها في الموصل، إلى حد أنه أخذ الشاب معه إلى أورمية للتدريب على النشاط التبشيري.^(١)

ولد جرميا شامير الذي خلف أثراً بليغاً على جوانب عديدة من التاريخ الأيزدي في ١٣ تموز من العام ١٨٢١ بقرية كرمليس على بعد خمسة عشر ميلاً شرقي الموصل، حيث هربت والدته بأطفالها من وباء الطاعون الذي تفشى في قريتهم الأصلية عينكاوه (قرب أربيل)، وعندما علم والده إسحق، الذي كان يدرس في دير ربان هرمز ليصبح قساً كاثوليكياً بمولد الطفل، سأل غابرييل دامبو مؤسس ورئيس الدير إطلاق تسمية غابرييل على الصبي، وأن يهبه للكنيسة، وفي طفولته تعلم القراءة والكتابة في مدرسة الكنيسة بعينكاوه.

وفي الرابعة عشرة من عمره قبل راهباً مبتدئاً في ربان هرمز، وكان الرهبان لا زالوا في حداد على غابرييل دامبو الذي قتل في السنة السابقة من قبل الكرد السوران^(*)، وتقرر حينئذ تغيير اسم الصبي من غابرييل إلى جرميا كان طلقاً في اللغة التركية والكردية وتعلم السريانية والعربية وبعض الإيطالية، وبعد ثماني سنوات عين شماساً يتعهد بالحفاظ على النفائس المقدسة، وما تأتي به النذور والقرايين.

وفي العام ١٩٤٦ حطمت أزمة روحية حياة جرميا الشاب الهادئة وللمتعة بعطلة أرسله الدير إلى الموصل لإلقاء الدرس في المدرسة

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الخارجية ٧، ٨، ١٦ المجلد ٥، المادة ٣٤، رسالة بيركنس وستوكنك في ٢١ أيار ١٨٤٩ إلى أندرسن والمادة ١٨٨ يوميات بيركنس في ١٤ و ١٥ و ١٩ أيار ١٨٤٩.

(*) راجع الفصل الخامس.

الكاثوليكية التي كان قد أنشأها يوجين^(*)، وحينما كان في المدينة التقى بعدد من الناس الذين حضروا اجتماعات نضمت من قبل أساهيل گرانت وزملائه، وعندما عاد إلى دير ربان هرمز قارن سرّاً بين نصوص الكتاب المقدس الموزع من قبل المبشرين وتلك المستخدمة من قبل الرهبان، وحل الإيمان محل الشك فأخبر رئيس الدير بأنه قرر أن لا يصبح قسيساً غير متأثر بثلاثة أشهر قضاها في التكفير عن ذنوبه، فرّ من الدير وشق طريقه إلى الموصل، حيث طلب المساعدة من نائب القنصل البريطاني.

وكان رسام نفسه يسير ذات مرة باتجاه اتخاذ وظيفة في الكنيسة، فتصادق مع جرميا ورتب له مهمة التدريس في المدرسة اليعقوبية بالموصل^(١)، مُذكراً رسام بقصة حياته بشكل ملفت للنظر، وكان قد مضى على زواج جرميا شامير ثلاثة شهور فقط عندما أتنه الفرصة متمثلة بجوستين بيركس.

رحلتهم إلى أورمية بدأت بحادث محرج، إذ كان بيركنس قد رتب زيارة إلى دير ربان هرمز، لكن عند دنوهم من الجبل، أخبرهم رسول من رئيس الكنيسة كان قد تعرف على جرميا بأنه ينبغي على جرميا أن

(*) راجع الفصل الخامس.

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الخارجية ٧، ٨، ١٦ المجلد الأول، البعثة الآشورية ١٨٥٠-١٨٥٩، المادة ١٤٧، " قصة حياة الشماس إرميا اجنت البروتستانتي الموصلية " وردت في رسالة د. و. مارش في ٢١ آذار ١٨٥٧ إلى الهيئة.

يبقى في الخارج لكن جرميا أثبت لاحقاً أنه دبلوماسي جيد في تعامله مع أهل جبال هكاري.^(١)

بقي جرميا سنة في أورمية، حيث تعلم اللغة الإنجليزية والعبرية، وبعث روحياً من جديد في إحدى اجتماعات إحياء الروح للبعثة.

وفي العام ١٨٥٠ رجع إلى الموصل، حيث قيل بأن (التغيرات الكبيرة على شخصيته ككل تركت انطباعاً جيداً على كل الذين عرفوه سابقاً)، وعهد إليه التبشير تحت إشراف الشخصية التي وصلت مؤخراً دوايت مارش الذي انضم إليه زميل آخر وهو فريدريك ويليامز في العام ١٨٥١.^(٢)

وصلت إرسالية تبشيرية ثالثة إلى الموصل في شهر مايس من العام ١٨٥٢. هنري لوبدل خريج كلية أمهرست ومعهد أوبورن اللاهوت ومدرسة يال الطبية كان في الخامسة والعشرين من عمره حينما وصل مع زوجته وابنته في سنتها الأولى، كان طويل القامة، منحنيّاً قليلاً، وعندما كان طالباً كان نحيفاً وباهتاً، لكن حيويته وطاقته لا تعرف الكلل، لاحظ مارش بأنه كلما كان يركب كان يجعل الفرس يعدو، ولد فقيراً، كان والده يصنع الأمشاط في دانبري - كنتاكي بالولايات المتحدة، وأفلح في شق طريقه في المدرسة والكلية حيث قرأ غيغون وگوته وشكسبير، وساهم بمقال عن شوسر في مجلة نيويورك، وجاء قراره الالتحاق بالكنيسة بعد شهر من صراع نفسي داخلي، لكنه

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الخارجية ٧، ٨، ١٦ المجلد ٥، المادة ١٨٨،

يوميات بيركنس في ٢٤-٣٠ أيار ١٨٤٩.

(٢) و. س. تايلر "مذكرات هنري لوبدل" ص ١٧٩.

كطبيب ومبشر كان يشع بالحماس والثقة والود^(١) لوبدل النشاط تعرف في جرميا الروح العطوفة والذي معه زار القرى في سهل الموصل. وفي العام ١٨٥٤ عندما حصل البروتستانتيون في الموصل على اعتراف رسمي كطائفة مستقلة عُين الشماس السابق ليكون وكيلهم المالي.^(٢)

وفي تشرين الأول من العام ١٨٥٢ دعا رسام عوائل المبشرين إلى احتفال الخريف الأيزدي، وضمت المجموعة التي كان يقودها نائب القنصل وماتيلدا رسام لوبدل وزوجته وطفلتها ووليامز وطفلتها، وعند اقترابهم من باعدري سبقهم كريستيان رسام لترتيب مستلزمات إقامة المجموعة في مخزنه الجديد، وعند وصولهم استقبلهم حسين بك، وقدمهم إلى القوال سيفوك الذي كان قد رافق زميله يوسف في وفد العام ١٨٤٩ إلى استنبول، وللتسرية عن الجماعة قام برواية الفترة التي قضاها في السفارة البريطانية، المكان الذي بقي فيه حوالي السنة حضر خلالها عدة حفلات راقصة واستقبالات حافلة، وتذكر القوال أنه في إحدى هذه المناسبات كانت زوجته قد ارتدت ثوباً حريراً مهدى إليها من قبل الليدي كننگ أعيد تصميم عنقه ليتناسب والأسلوب التقليدي المستدير الذي يلبسه الأيزديون.

وفي الصباح التالي انضم حسين بك والقوال إلى رسام ولوبدل في رحلة إلى دير ربان هرمز، ورافق الأمير عشرة من الخدم والحرس يحملون

(١) المصدر نفسه، ص ١٥-٨٩ و ٤٠١-٤٠٤.

(٢) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية (ABC) ٤، ٨، ١٦ المجلد الأول المادة ٢١٩، رسالة و. ف. ويليامز في ١٠ شباط ١٨٥٤ إلى أندرسن.

(رماحاً طويلة، وأحزمة تتدلى منها الخناجر، ومناديل زاهية، وشالات بيضاء. . وكانت رؤوس وصدور الخيول مزينة ومبهرجة)، وعلى الطريق التقوا "بجماعات من الزوار الحجاج وهم في طريقهم إلى لالش، مكسوون بالثياب البيضاء - بعضهم كانوا ممتطين الحمير، ويحملون طناجر وأواني الطبخ على أكتافهم أو فوق رؤوسهم، وآخرون يسارعون الخطى راجلين حاملين أسلحتهم في أيديهم، وكذلك المسدسات والأطفال".

رئيس الدير، الذي كان قد أسر في العمادية وبقي على الحياد، أراهم حجرات الرهبان، وقبور البطاريكة، ومصلى الكنيسة، حيث حفر هنري لوبدل اسمه على الحائط إلى جانب أسماء جوستين بيركنس وهنري لايارد وكلوديوس ريج، همس رئيس الدير خلسة بالموافقة عند استجابة راهب لطلب حسين بك ببعض الشراب من فوق ضريح ربان هرمز الذي عرف بأنه يساعد في إزالة الحمى. ثم قاد زواره - لاحظ لوبدل أن فريقهم كان يؤلف من كلداني وأيزديين، وكاثوليكى انجليكاني سابق، وأحد التابعين للكنائس المستقلة - إلى حجرة حيث قدم لهم العشاء المؤلف من الدجاج، والرز، والعنب، والخيار، والتين، ثم غسلها جيداً بالنبيذ أو الشراب. ولوبدل الذي كان ينتمي إلى جمعية أمهرست المضادة للمسكرات جماعة تمسك عن تناول "المشروبات الحارة، الشراب، الأوبيوم والتبغ"^(١) لم يتناول أي شراب، لكنه لاحظ أن "حسين بك قد

(١) تايلر "لوبدل" ص ٤٣.

جرع عدة أقداح منه، وقال سيفوك بأن لونه الأحمر يذكره بالبراندي،
الذي كان السفير البريطاني يزوده بقنيتين منه يومياً في استنبول!^(١)
التنوع التراثي الذي تمتع به لوبدل في دير ربان هرمز استمر
إلى اليوم التالي (الأحد) في باعدري، والذي استهلته إحدى الكنائس
الأسقفية بإقامة القداس الذي بدأ بخطبة دينية،

وعند غروب الشمس وصل القنصل الفرنسي - عالم
الآثار فيكتور بلاسي - من الموصل مع فريقه، ولم يتردد في
مشاركتنا في احتساء العرق - خمر مضيفنا -، وسبقت
دفوف ورقص أهل المنطقة الترانيم الأنجلوأمريكية،
وانسحبنا أخيراً إلى أرضية الطين لقضاء الليل.

كتب لوبدل بأن موكب الصباح التالي القادم من باعدري إلى معبد
الشيخ آدي كان مجللاً بـ "بوجود القنصلين في كامل دروعهم، مع
خناجرهم وسيوفهم ذات المقابض الفضية، وسراويلهم الحمراء الضيقة،
وطرابيشهم ذات الشرابات، وصداراتهم المذهبة الخواشي وشواربهم
السوداء".

تفرج الزوار على المراسيم في لالش من البداية إلى النهاية، يشهدون
صدق ما قاله لايارد، بينما رسام - الذي يعامله الجميع بقدسية لا تقل
عن الشيوخ - تشاور مع الزعيم الأيزدي، وقام لوبدل بزيارة الشيخ
ناصر، وقدم إلى زوجاته الثلاث ذوات الوجوه الفسيحة الواضحة

(١) زيارة لوبدل إلى دير الربان هرمز والأيزديين مفصلة في أرشيفات (ABC) ٤ و ٨ و ١٦،
المجلد الأول، المادة ٨٣، رسالة لوبدل في ٢٠ كانون الأول ١٨٥٢ إلى أندرسن. وقد
وردت أيضاً في مقالتيه في ١ كانون الأول ١٨٥٢ و ١٤ كانون الثاني ١٨٥٣ والمنشورتين
في (نيويورك ديلي تريبيون) في ٢٦ آذار ١٨٥٣، ص ٥، و ٢١ أيار ١٨٥٣، ص
٥-٦. راجع أيضاً تايلر "لوبدل" ص ٢١٣-٢٢٥.

"الشيخ نفسه الذي كان" ذا وجه هادئ وودي "أخبرهم بأن الكتب الوحيدة التي تملكها القبيلة هي بحوزته".

وأشير للوبدل إلى شخص آخر "الرجل في السواد" (يفترض أن يكون كوجكاً) الذي قيل عنه بأنه وسيلة الاتصالات المباشرة بين الشيخ ناصر والمَلَك طاووس، وقاموا لاحقاً بزيارة إلى المعشر النسوي لعائلة حسين بك، ولاحظوا صفات زوجاته الأربع:

المتردات الوجنتين ذوات المزاج الخاص، الفاترات الهمة، العصبيات والصفير المتشائمات وكلهن كن حاضرات، كلهن يلبسن أساور فضية ضخمة، لونت عيونهن بمسحة من الكحل الأسود، رؤوسهن مكسوة بقطع الذهب والفضة، وتغطي وجوههن براقع جذابة رفعت احتراماً لحضورنا، وثم زوجة خامسة كان يتوقع قدومها من ديار بكر.

وفي نهاية الأسبوع عادت المجموعة إلى الموصل، واعترف لوبدل بأنه "كان أسبوعاً ممتعاً، ولم نضع وقتنا هدرًا، وكان جيداً لنا أن نستنشق الهواء العليل في الجبال ونرى جزءاً من مملكة الكفر" لأجل متابعة عملنا التبشيري برغبة أكثر.

وبعد أربعة أشهر وفي شباط من العام ١٨٥٣، خلع - وبصورة فجائية - الأمير حسين بك الذي كان يتمتع بشعبية واسعة في أوساط قومه، وذلك من قبل حلمي باشا، والي الموصل.^(١)

وما مهد لذلك هو الخلاف حول شروط وأحكام البدل عن المجندين الأيزديين، الشيء الذي كان الأيزديون يدينون به، ولكن قيل بأن

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٩٤، برقية رسام المرقمة (٤) في ٢٦ شباط ١٨٥٣ إلى السفارة.

السبب الحقيقي وراء ذلك كان غضب واستياء الوالي الناجم عن رفض الشيخ ناصر لعرض الباشا بدفع ٢٠٠ قرش (٠ ر ١٦ ر ١) جنيه استرليني لجواد استولى عليه، وقدر الشيخ قيمته بـ ٢٠٠٠ قرش الأمير الأيزدي الجديد الذي عينه الوالي حلمي باشا كان نسيب الأمير حسين بك، والذي يدعى جاسم بك، شاب وصفه رسام " بأنه كان ممقوتاً (كذا) قوطع من الطائفة الأيزدية من قبل القوالين والشيوخ^(١)، كان عهده وجيزاً، المسؤول العثماني ترافقه قوة خيالة نصبت جاسم بك أميراً، توقفهم الأول كان في دار الشيخ ناصر في عيسىان حيث استدعي حسين بك للحضور شخصياً "الشئ الذي فعله ممتن كثيراً لسيادة الوالي لتفضله بتعيين أمير آخر وعلق بصورة تبعث الأسى بأن موقفه قد أغرقه في ديون". (قدر رسام ديونه بأنها بلغت ١٢٢٠٠٠ قرش أو ١١٠٠ جنيه سترليني).

وحول الخلاف الذي نشب بشأن تسليم قصر باعدري إلى الأمير الجديد، تحدث جاسم بك "بطريقة تنم عن الازدراء وعدم الاحترام تجاه حسين بك، الأمر الذي أدى إلى سخط واستياء الأيزديين الذين وقفوا واطلقوا النار على جاسم بك في الحال (كذا)"، سحب أحد تابعي جاسم بك سيفه، لكن حسين بك وجه اليه ضربة سيف شديدة بالمقابل. ركب حسين بك جواده عائداً إلى باعدري، جمع عائلته وفرّ إلى جبل سنجار في حين وافق الشيخ ناصر على الذهاب إلى الموصل برفقة

(١) جاسم بك هذا مجهول النسب. وقد أشار صديق الدمولوجي إلى صلاته السابقة في كتابه (اليزيدية) ص ٢٥، وكذلك إدموندز في كتبه (حجة إلى لالش) ص ٣٠ حين ذكر زيجة مير حسين بك "غير القانونية" من امرأة من عائلة عبد اليسك "المنبوذة" من قبيلة شيوخ شمساني، وليس ثم تفاصيل أخرى عن هذا الخلاف كما لم يشر أي كاتب إلى جاسم.

المسؤول، ولكن في الطريق أنقذته جماعة كبيرة من الخيالة الأيزديين، وخوفاً من الانتقام هجر القرويون في الشيخان بيوتهم تاركين حقولهم غير محروثة.

برقية رسام ذات الصفحات السبعة التي بعثها إلى السفارة البريطانية أختتمت بخبر (أن الشيخ ناصر قد وصل لتوه إلى المدينة، ويتناهى إلى مسمعي بأن الباشا قد طلب منه عمل ما هو ممكن لإعادة الاستقرار بين صفوف الطائفة)، لام نائب القنصل الباشا بسبب النتائج المترتبة على صفاقته واتهمه بالتواطؤ مع أشرف الموصل، "الذين لهم ضلع طويل في الحادثة التي يؤسف لها" وأنهم يخططون لإرسال تقرير إلى العاصمة لتبرئة تصرفاته.

مصالح كثيرة كانت معرضة للخطر.

رسام كان قد وقع مؤخراً اتفاقاً مع حسين بك بخصوص اقتسام محصول الزراعي وقام ببناء مخزن جديد في باعدري^(١)، وإن فرار الأمير وهجرة العمال الزراعيين في الحقول من القرى عرض هذا الاستثمار للخطر، وذلك مباشرة في الوقت الذي كانت ترتفع فيه أسعار الحبوب إثر توقعات نشوب الحرب مع روسيا، وفي شهر نيسان من العام ١٨٥٣ زال قلق نائب القنصل، عندما منحه الوالي حق الحجز على محصول الأيزديين.^(٢)

(١) مقال لوبدل في نيويورك ديلي تريبيون، ص ٥، عدد ٢٦ آذار ١٨٥٣.

(٢) دوروثي سيلاي فرانك (اليانكي من نيويورك إلى جنات عدن) مخطوط غير منشور، ص ٢٠٦.

إن إعفاء حسين بك أخذ وقتاً أطول، وفي حزيران لم يعر الباشا اهتماماً لمناشدة الحكومة له بضرورة قيام الجنود بحراسة أمن الحدود، ونظم بدلاً من ذلك حملة تتألف من ٦٠٠ من حاملي البنادق، و ٣٠٠ من خيالة غير نظاميين، و ١٥٠ رجلاً من رجال المدفعية مع ثلاثة مدافع ميدانية، كان وجهتها سنجار، مع تعليمات بضرورة جباية الضرائب المستحقة غير المدفوعة وأسر حسين بك.^(١)

النتائج الاقتصادية والمالية المترتبة على هذا الجهد غير معروفة، ولكن في ١٥ حزيران كان لوبدل معسكراً على الضفة اليمنى من نهر الزاب في طريقه من الموصل إلى أورمية برفقة جرميا شامير عندما لاحظ مضيفه السابق يفر عبر النهر متوجهاً نحو الجنوب في بحث عن ملجأ في صفوف عرب طيء عند أديابين.^(٢)

وفي الأخير أعيد حسين بك إلى موقعه لكن تفاصيل إعفائه غير مذكورة.

* * *

الظهور المشترك لكريستيان رسام وفيكتور بلاس في العيد الأيزدي - أحدهم يمثل الملكة فكتوريا، ابنة أخ الضامن المالي لچسنى والآخر معتمداً ومفوضاً من قبل نابليون الثالث، ابن أخ الامبراطور العظيم - هذا الظهور لم يكن تصادفاً سعيداً، كانت حكومتا القوتين

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٩٤ برقية رسام المرقمة ٨ في ٢٠ حزيران ١٨٥٣ إلى السفارة.

(٢) تايلر: لوبدل، ص ٢٦٥.

المتنازعتين منذ أمد بعيد قد أقتربتا مؤخراً تحت تأثير التهديد الروسي على مصالحهما التجارية والاستراتيجية في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط.

قام حلفاء الضرورة - بريطانيا وفرنسا - بتشجيع السلطان على رفض المطالب الروسية للحماية والوصاية على الأهالي اليونانيين في إمبراطوريته. وفي نهاية ١٨٥٣ أيدوا الاعلان العثماني للحرب ضد روسيا وذلك بتحريك أساطيلهم الحربية إلى البحر الأسود، وفي أيلول من العام ١٨٥٤ نزلت قوة حليفة في جزيرة القرم، وهي شبه جزيرة كانت ذات يوم جزءاً من الامبراطورية العثمانية، لكنها كانت مدافعة عنها وبشدة من قبل الروس، الذين كانت قاعدتهم البحرية الرئيسية متمركزة في سيفاستوپول في ما وراء القفقاز، هزم الروس العثمانيين في شرق قارس لكن بحلول الشتاء انسحبوا إلى ما وراء الحدود.

توترت ووهنت مصادر الجيش العثماني وذلك بازدياد الحاجة إلى الرجال لجبهات ثلاث: البلقان والقوقاس ثم القرم. حيث عانت المهمات الأخرى للجيش من الإهمال كالحفاظ على الأمن الداخلي.

وفي نيسان ومايس من العام ١٨٥٤ جندت قوة مؤلفة من ألفي كوردي من منطقة عقرة وراوندوز من قبل رسول - شقيق الأمير محمد كور - وتوجهت القوة إلى قارس زارعة الرعب والهلع في قلوب مواطني الموصل لأيام عديدة.

سجل كاتب سيرة لوبدل بأنهم هددوا المبشرين صائحين "هُو"، فرنجي، دعنا نقتله"، وأخيراً أفلح رسام في إقناع حلمي باشا لإصدار

الأوامر إلى قائدهم بإنزال عقوبة الضرب بالفَلَقَة على المسؤولين
الرئيسيين عن النهب والسلب وضرورة إرسال القوة في طريقها.^(١)
حرارة الصيف المخيفة في الموصل أقنعت المبشرين الأمريكيين بضرورة
العثور على منتجع جبلي لعوائلهم لقضاء الصيف فيه. وفي تشرين
الأول من العام ١٨٥٤ اتجه لوبدل وجرميا إلى الموقع الذي وقع عليه
الاختيار قرب العمادية، رافقهم في قسم من الطريق دوايت مارش
وزوجته.

سجلت يوميات لوبدل أنه في الخامس من تشرين الأول زار جميعهم
لالش، حيث أخذنا صور دَغْرِيَة - التصوير الدَغْرِي: طريقة قديمة في
التصوير الفوتوغرافي على ألواح خشبية - للشيخ ناصر وحسين بك،
وهما يترأسان كالعادة مراسيم احتفال الخريف الأيزدي. وتذكر مارش
أنه في طريق العودة:

امتطى الطبيب وسار، بينما سرنا في أثره زاحفين على
طول جُرف يشرف على سيل جارف عنيف تحتنا، لحناه
تحت جدار أبدي من الصخر، جالساً على صخرة ضخمة
وهو يكسر الأحجار المعدنية، كان جواده المفضل يقف
هناك قانعاً في منتصف السيل.^(٢)

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٩٤ برقيات رسام المرقمة ٥ و ٦ و ٨ في ٢٤ نيسان و ٨ أيار و
٥ حزيران ١٨٥٤ إلى السفارة. تايلر: لوبدل، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٨-٣٤٩ و ٤١٢-٤١٣.

بعد مرور شهر برزت مشاكل أكثر جدية بين صفوف الكرد^(١) تسلم حلمي باشا الأوامر بمنح المساعدات المالية إلى يزدانشير بك ابن أخ بدرخان بك الذي خانه وكان يزدانشير بك قد أقترح تنظيم جيش قوامه ٨٠٠ فارس و ٧٠٠ راجل لخدمة السلطان على الجهة القوقاسية، ويزدانشير الذي كان رجلاً وسيماً ذا سلوك عسكري وشارب صغير أسود^(٢) كان قد استبدل في جزيرة ابن عمر بمسؤول عثماني، ويعيش الآن في الموصل، حيث كان يتردد على نائب القنصل البريطاني، وكان معروفاً بآرائه الشديدة التطرف، سمعه لوبدل ذات مرة وهو يذكر أنه يرغب في شرب دم كل أيزدي، ويهودي، ونصراني، مستثياً فقط خاصة أصدقائه كشخص مثلي أنا^(٣)

(١) المراجع الأساسية حول يزدانشير هي: مكتب الخارجية ١٩٥ / ٣٩٤ برقيات رسام ١٩ - ٢٣ لعام ١٨٥٤ و ١١-١ لعام ١٨٥٥ إلى السفارة. مكتب الخارجية ١٩٥ / ٤٥٩ برقية هولمز المرقمة ٢٢ في ١ حزيران ١٨٥٥ إلى السفارة. همفري ساندوود: قصة حصار قارص، ص ٢٠٨-٢١٥. راجع أيضاً مكتب الخارجية ٧٨ / ٢٦٩٩ مذكرة لايارد حول كردستان (غير مؤرخة) في برقية كسولي المرقمة ٣٦٠ في ١٧ تشرين الأول ١٨٤٧ إلى وزارة الخارجية. و د. ألكسندر شلاخي: *Reisen in den Orient* ص ٥٢-٥٦ والنسخة الروسية منشورة في *Akty*، العدد ١١، ص ٣٢٦-٣٢٧ و ٣٣٥ و ٣٤٩-٣٥٠، المواد ٣٢٦ و ٣٣٣ برقيتا الجنرال مورافيف ٥٤ في ٤ آذار ١٨٥٥ و ١٣٤ في ١ أيار ١٨٥٥ إلى الأمير دولكوروكي. والمادة ٣٥١ رسالتا مار شمعون في ٣٠ آذار ١٨٥٥ إلى الكولونيل كريكشكاتشكي وفي ١٥ أيار ١٨٥٥ إلى الأمير ببوتوف في رسالة مورافيف المرقمة ١٤ في ١٠ حزيران ١٨٥٥ إلى دولكوروكي. كذلك انظر: ب. ي. أفريانوف: *Kurdy v voinaky Rossiya s persiyei i Turtsiyei v f ech eniye XIX stoletiya* ١٤٤-١٥٧. ن. أ. خالفين *Borba za Kurdistan* ص ٧١-٧٧. جليل: *Kurdy* ص ١٦٦-١٧١.

(٢) هـ. بيترمان: *Reisen im Orient* العدد ٢، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٣) تايلر: لوبدل، ص ٣٥٢.

وفي تشرين الثاني ١٨٥٤ وصل يزدانشير وقوته إلى جزيرة ابن عمر، وسيطر عليها، وقتل المسؤول الإداري المحلي العثماني، حاول والي ماردين استعادتها، لكنه هزم بعد أن خسر عدداً من البنادق^(١) واستسلمت زاخو الواقعة على بعد ٣٥ ميلاً إلى الشرق إلى يزدانشير بينما شن أخوه منصور غارات على مديات وطور عابدين. وجهة يزدانشير التالية كانت شمال وادي دجلة، فاستولى على سيرت، بعد أن تسبب في هزيمة القوة العثمانية الصغيرة التي أرسلت ضده، وبعث برسل إلى الروس مقترحاً اللقاء عند بدليس أو وان. وتوجه عندئذ إلى رضوان، حيث استعرض قدراته أمام لوبدل، وأخبر راوي نائب القنصل البريطاني في ديار بكر بأنه:

كان شاهد عيان على قتل نفذها البك نفسه، في
أوقات مختلفة لحوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين أيزدياً، الذين
أعتبرهم تعصبه الشديد يستحقون الذبح، كما عرض ٥٠٠
قرش ٠ ر ١٠ ر ٤ جنيه سترليني على أي شخص يأتي
له بأيزدي حي، فقط للاستمتاع بقطع رقبة البائس
التعيس^(٢).

وبعدما قطعت عنه سبيل الحركة بسبب غزارة الثلوج المتساقطة، لم يكن بمقدور الجيش الميداني العثماني ومستشاره البريطاني الجنرال فنويك ويليامز فعل الكثير في مواجهة هذا التهديد على خلفية الجناح الأيمن الضعيف (والروس الذين لم يتم إطلاعهم بصورة جيدة على الأحداث في كردستان، بقوا في معسكراتهم الشتوية) لكن في لحظة انتصاره، كان

(١) ج. كارليل ماككون: محميتنا الجديدة، ج ١، ص ٧٣-٨٥.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٤٥٩ برقية هولمز المرقمة ٢٢ في ١ حزيران ١٨٥٥ إلى السفارة.

على يزدانشير الاسراع إلى الجنوب لمواجهة هجوم جديد من ولاية بغداد والموصل.

وصل إلى جزيرة ابن عمر في شباط عام ١٨٥٥ طابور من الجنود تحت قيادة رشيد باشا - والي بغداد المذهل والمثير - الذي زعم بأنه شخصياً قبل أستسلام بدرخان بك، وقوة أخرى جهزها حلمي باشا تتألف من ٢٠٠٠ خيالة أيزديين تحت إمرة الأمير حسين بك، الذي عرف في يزدانشير عدوه اللدود أكثر من الوالي نفسه.

كتب رسام مرتاحاً بأن الأيزديين هزموا الثوار خارج زاخو، ودخلوا المدينة دون مقاومة، وأن حسين بك قد "استولى على المدينة باسم فخامته السلطان" أما على الضفة الغربية لنهر دجلة فقد استولى جنود بغداد على جزيرة ابن عمر بعد معارك طاحنة، وفرّ يزدانشير وأخوه إلى حامية جبلية.

واستعدت قوة رشيد باشا للهجوم الحاسم، لكن الثورة انتهت بطريقة غير متوقعة، وفي وقت مبكر من آذار عام ١٨٥٥ أرسلت ماتيلدا رسام ترجمان القنصلية للنزول إلى واجهة النهر عند الموصل، المكان الذي عبر منه توماً جماعة من الرجال فوق دجلة الفائض وتألفت المجموعة من يزدانشير بك وأخيه وخمسة عشر تابعاً، يرافقهم ضابط عثماني يحمل عدم تعرض صادر عن الجنرال ويليامز باسم الحكومتين البريطانية والفرنسية، حاول جنود حلمي باشا أسرهم، ولكن بعد أربع ساعات من المشادات الكلامية سمح للترجمان بمرافقة الكرد إلى حيث نائب القنصل البريطاني وبقي يزدانشير هناك خمسة أشهر، إلى أن أرسلت السفارة

تعليماتها إلى الوالي العثماني الذي كانت لديه أوامر بإرساله إلى استنبول.

إن مسؤولية استسلام يزدانشير وما تبع ذلك بصورة عامة تعود إلى نائب القنصل الذي صادف تواجده في جزيرة ابن عمر حوالي تلك الفترة، أخبر مارشمعون المراسل الروسي الكولونيل كرشكا تتسكي بأن الزعيم الكردي كان قد خدع من قبل رسّام.^(١)

مرّ بروفيسور برليني بالموصل وسمع أن يزدانشير ورسّام كانا مشتركين في مشاريع تجارية في الماضي، وزعم مصدر آخر بأنه أمن استسلامه مقابل رشوة تبلغ قيمتها ٢٠٠٠٠٠ قرش ٨٠٠ ر ١ جنيه سترلين^(٢)، وكان رسام في الحقيقة قد تدخل في المفاوضات الجارية مع يزدانشير، لكن الفضل الحقيقي يعود إلى تأثير ضابط بولندي في الجنرال ويليامز حصل على عدم التعرض، وقبّل استسلام يزدانشير ورافقه إلى الموصل.

وكان الكرد قد سبق لهم وأن وجدوا الملجأ في المبنى الذي يقيم فيه نائب القنصل، عندما عاد رسام إلى المدينة^(*).

في جزيرة القرم - المسرح الرئيسي للحرب - تحملت جيوش السلطان وحلفائه الاوربيين شتاءً قاسياً وأخيراً كانت لهم اليد العليا، حدثت نقطة

(١) Akty العدد ١١، المادة ٣٥١، ص ٣٥٠ رسالة مورافييف المرقمة ١٤ في ١٠ حزيران ١٨٥٥ إلى دولكوروكي.

(٢) بيترمان، ج ٢، ص ٣١٨. أفريانوف، ص ١٥٠-١٥١.

(*) أسطورة يزدانشير في الفلكلور الكردي مزينة بقصة حب بينه وبين ماتيلدا رسام (بريم) / سوسين: Der reu-armaeisch Dialekt des TurAbdin الجزء الأول، ص ٣٥-٣٨ و ٨٩-٩٣، الجزء الثاني، ص ٥١-٥٥ و ١٢٩-١٣٩. بريم / سوسين Kurdisch sammlungen القسم أ ص ٤٦، والقسم ب، ص ٦٧.

الانعطاف في شباط ١٨٥٥ عندما رُدَّ على أعقابهِ هجُوم روسي على القاعدة المحتلة في يوبتوريا من بين الذين قتلوا في تلك المعركة كان محمد باشا كريتلي أوغلو، الذي كان يوماً ما والياً على الموصل^(١) وسقطت سيفاستوپول في شهر ايلول، ووضعت الحرب أوزارها في آذار عام ١٨٥٦، وإن اتفاقية السلام لم تجر أي تغيير على الحدود في الأناضول الشرقية.

* * *

السنوات العشرون التي تلت حرب القرم، كانت فترة خاليه نسبياً من الاحداث المهمة في التاريخ الأيزدي، فختتم بذلك عهد البطولات. وواحداً تلو الآخر غادرت شخصيات النصف الأول من القرن مسرح الأحداث.

أحيل ستراتفورد كننغ على التقاعد من السلك الدبلوماسي في ١٨٥٨، وكان أحد آخر أعماله هو توجيه توبيخ إلى رسام لتلكُنه في تنفيذ قرار محكمة تجارية تقضي بدفع الفوائد المترتبة على سند بمبلغ مليون قرش إلى وارثي كريتلي أوغلو، حيث كان الباشا قد أعطى نائب القنصل السند المالي في العام ١٨٤٣.^(٢)

(١) سوريا: سجلي عوسماني، ج ٤، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٦ / ٥٥ رسالة ستراتفورد في ٢٦ أيار ١٨٥٧ إلى رسام.

ترمّل كريستيان رسام في ١٨٦٧^(١) ودخل زواجاً جديداً غير سعيد، احتفظ بمنصبه في الموصل إلى أن وافته المنية في ٣٠ مايس من العام ١٨٧٢، وكان قد أصابه الحزن والأسى حول دعوى إنجه بيرقدار، لأن المحكمة رفضت الأخذ بنظر الاعتبار دعواه المضادة والتي ادعى فيها بالخسائر والأضرار التي لحقت به نتيجة الطلبات العسكرية في عقرة وزاخو^(*)، لكن عن طريق المفاوضات السرية تمكن من حل القضية بدفع مبلغ ٧٥٠٠٠٠ قرش ٦,٧٥٠ جنيه سترليني إلى الورثة ثلث المبلغ نقداً والبقية على أقساط^(٢)، دعوى أقامها رسام ضد الحكومة العثمانية مطالباً فيها مبلغ ٤١٧,٥٠٨ قروش حول المبالغ التي أخذت منه عنوة من قبل كرتيلي أوغلو، مثله فيها پيرسي بادجر بنجاح - وهو الآن متقاعد في الواجبات الكنيسة - حسمت في ١٨٦٦ بحصوله على مليون قرش.^(٣)

وبمرور السنين ازدهرت من جديد حماسة شباب رسّام واهتمامه بشؤون الكنيسة والفيلولوجيا، وفي زيارة إلى إنكلترة في العام ١٨٦٨

(١) صحيفة التايمز (٢٤ تشرين الأول ١٨٦٧) نعي ماتيلدا رسام التي توفيت بحلب في ٢١ أيلول ١٨٦٧.

(*) راجع الفصل السابع.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٧٩٦ تحتوي الوثائق المتعلقة بمطالبهم بما فيها ما كتبه بادجر "حول دعوى رسام" في ٢٩ آذار ١٨٦٥ ورسائلته المؤرخة في ١٠ شباط ١٨٦٦ إلى السفير.

(٣) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٩٤٩ برقية رسام المرقمة ١٠ في ١٩ أيلول ١٨٧٠ إلى السفارة. إي. ل. كتس: المسيحيون في ظل الهلال بآسيا، ص ٣-٨. ج. سي. ك. سافايل، فسكونت بولنكتن "جولة حول نصف العالم القديم" ص ٣٥٥. راجع أيضاً فرايهر ماكس فون ثيلمان Streifzuge im Kaukasus in persien und in der asiatischen Turkei ص ٣٣٨ و ٣٤٣.

قدم مناشدة نيابة عن رجال الدين النسطوريين إلى رئيس أساقفة
كانتربري. وكان زائر بريطاني قد ألغى قبل عامين نائب القنصل،
منشغلاً وبنشاط في ترجمة أقسام من كتاب العهد القديم،
وخصوصاً النبي أشعيا من الأصل إلى اللغة الإنجليزية،
معطياً كل كلمة سريانية، مستشهداً بتفسيراته بالتعابير
العربية العامية.^(١)

لايارد كان قد بلغ الرابعة والثلاثين عند عودته إلى إنكلترا في
١٨٥١، ووجد هواية جديدة في السياسة والدبلوماسية، فرجع إلى
استنبول في ١٨٧٧ ليخدم سفيراً لبريطانيا لمدة ثلاث سنوات، لكن لم
يزر الموصل مرة أخرى. أما صديقه وسلفه بول بوت فقد توفي مغموراً في
١٨٧٠. وتورط فيكتور بلاسي ذو الحماس الشديد في نيويورك في
فضيحة مالية، وتوفي في رومانيا عام ١٨٧٥^(٢)، وقضى بدرخان بك
أيامه الأخيرة في أمن وهدوء بدمشق حيث توفي العام ١٨٦٨، ليندبه
خمسة وستون ابناً والعديد من البنات.

من مبنى المبشرين أنهى جوستين بيركنس ستة وثلاثين سنة في الخدمة
بأورمية في ١٨٦٩، وتقاعد لتوافيه المنية لاحقاً في تلك السنة
بماساشوستس.

وعاد دوايت مارش إلى الولايات المتحدة في عام ١٨٦٠، ونقل
زميله فريدريك ويليامز الذي ماتت زوجته الأولى والثانية في العراق

(١) م. بيليه: Sur la mort d'orientalistes Français ريفيو آركيولوجيك، العدد ٦
المجلد (٩) ١٩٣٧، ص ٢٢٦-٢٣٢.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٦ / ٦٠٣ برقية رسام المرقمة ١٧ في ٤ أيلول ١٨٥٨ إلى السفارة.

مقرات الإرسالية التبشيرية إلى جو أقل حرارة وذلك بمباردين في ١٨٥٨، وعاش هناك إلى أن توفي في ١٨٧١. والحياة القصيرة التواقه لهنري لوبديل قضت عليها الحمى في آذار عام ١٨٥٥ وذلك بفترة وجيزة بعد عودته إلى الموصل من زيارة إلى بغداد بصحبة جرميا شامير.

عمل جرميا في البعثة طيلة فترة بقاءه في الموصل، في ١٨٥٨ بخمس سنوات قبل وفاة مارشمعون عين وكيلا للشؤون التجارية للنسطوريين كما كان للطائفة البروتستانتية^(١) ولكن بحلول عام ١٨٦٤ كان قد انتقل للعيش في ديار بكر واستخدم ترجماناً لدى القنصلية البريطانية^(٢) وفي العامين ١٨٦٨ و ١٨٧٠ أصبح وكيلاً للنسطوريين في وان حيث جعل في أمر المؤكد معرفة البريطانيين بسعي البطريك الجديد شمعون الثامن عشر روبن في طلب المساعدة من الفرانديك ميخائيل نيكولا يوفيتش مبعوث القوقاس وأخ القيصر الروسي.

تم الاعتراف بوضع الطائفة الأيزدية في إطار الامبراطورية العثمانية من قبل السلطان، الذي استقبل الامير حسين بك وقلده لقب (قابي جوهاداري) حاجب البوابة الرسمية.^(٣)

(١) مكتب الخارجية ١٩٦ / ٧٩٩ برقية قنصل ديار بكر ج. ك. تايلر المرقمة ٦ في ٦ نيسان ١٨٦٤ إلى السفارة.

(٢) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٨٨٩ برقية تايلر (الذي أصبح قنصلاً في أرضروم) المرقمة في ٢٢ تشرين الأول ١٨٦٨ إلى السفارة مرفقاً بها رسالة مار شمعون في ٢٦ نيسان ١٨٦٨ إلى الفرانديك ميخائيل. مكتب الخارجية ١٩٥ / ٩٣٩ برقية تايلر المرقمة ١١ في ٢٨ تموز ١٨٧٠ إلى السفارة.

(٣) الدمولوجي: اليزيدية، ص ٢٤، يذكر أن السلطان عبد المجيد الذي توفي في حزيران ١٨٦١ هو الذي استقبله.

لكن عقدين من الحياة السياسية النشطة والحياة الزوجية - حيث كان حسين قد تزوج سبع مرات^(١) - استنزفت قوة الأمير.

في ١٨٦٠ قضى رحالة بريطاني^(٢) ليلة في عين سفني متسلحاً برسالة رسام، كان قد اخبر بأمر حسين بك ونزعتة المتمثلة بـ "ميله الذي يؤسف له للخصوص في التيارات العنيفة"، يصف هذا الرحالة الأمير الذي زاره في صباح اليوم التالي تصحبه جماعة من القوالين ذوي الثياب البيض، بأنه شاب هادئ وملاحة تنم عن الذكاء الحاد، ولكن نظراته غافية وثقيلة ومكفهرة، ثم علم لاحقاً بأن عبوس وجهه كان نتيجة استلامه في ذلك وصلاً لدين يطلب دفعة بإلحاح من قبل رسام.

صداقة رسام الطويلة الأمد مع الأيزديين بدأت في الحقيقة تفسد، إذ في العام ١٨٦٠ كتب بأن حسين بك كان يفرض ضريبة على قومه بمعدل أعلى مما يرسله إلى السلطات في الموصل^(٣)، وفي العام ١٨٦٦ اطلع رحالة فرنسي^(٤) على أن إيرادات السنجاق كانت قد أقطعت لوكيل القنصلية الإيطالية مقابل ٤٠٠٠٠ قرش ٣٦٠ £ في العام. (يفيد نفس الكاتب بأنه خلال صيام رمضان فإن حسين بك قد أحدث صدمة

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٢) جون أوشر: رحلة من لندن إلى بيرسولس، ص ٤٠٥-٤٢٠.

(٣) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٦٠٣، برقية رسام المرقمة ٢١ في ٢١ كانون الأول ١٨٦٠ إلى السفارة.

(٤) كلوم لوجين: Voyage dans la Babylonie لاتور دوموند، العدد ١٦ (١٨٦٧) ص ٩٤. أدولفو ريفادينيرا: رحلة إلى سيلان ودمشق والخليج الفارسي وميسوبوتاميا وخرائب بابل، ص ١٢٧-١٢٩.

لدى المسلمين الأتقياء بركوبه عبر الشوارع وهو في حالة سكر شديدة، وفي الأخير سقط من بغله ملحقاً الأذى بنفسه).

أيزديو سنجار لم يتمتعوا أبداً بتعاطف نائب القنصل، وخاصةً بعد فشله في استعادة الجمال التي بلغت قيمتها ١٦٥٠٠٠ قرش ١,٤٨٥ £ سرقوا من رسام من قبل المهاجرين العرب الذين أودعهم لدى الأيزديين خلال حرب قبائلية، وفي العام ١٨٥٩ أغار الأيزديون على معسكر للعرب، ومن بين الذين قتلوا وكيل عراقي يعمل لصالح شركة بريطانية مختصة بشراء الصوف، وأخذت كل الموارد المالية التي كانت بعهدته وبعد ثماني سنوات أفلح العرب في سرقة ٣٠٠٠٠ رأس غنم، متوقعاً الانتقام، أجبر الدليل الجبان عالم النبات الألماني كارل هاوسكنخت من قبل دليله العربي الجبان على المضي وحده ليجد طريقه نحو جبل سنجار (حيث أستقبل بحرارة وجمع عينات كثيرة).^(١)

وفي العام ١٨٦٩ مر مدحت باشا - وهو إداري تقدمي شديد البأس - بالموصل في طريقه للمباشرة بعمله والياً على بغداد، التي شملت في ذلك الوقت كل العراق تقريباً، وكتب رسام راضياً بأن الخطوة الأولى التي اتخذها كانت إرسال حملة تأديبية إلى سنجار وأن " هذه المجموعة من الناس الخارجين على القانون والمتصلين لحكمه الذين لايهابون شيئاً قد

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٦٠٣ برقيتا رسام ٧ و ٢١ في ١٨ نيسان و ١٢ كانون الأول ١٨٥٩ إلى السفارة. رسالة سي. هاوسكنخت في ٢٨ آب ١٨٦٧ إلى كيرت التي نشرها هاينريخ كيرت.

دفعوا ضرائبهم المستحقة ووافقوا على تزويد الجيش بإثني عشر مُجَنَّدًا كل عام.^(١)

جاء الأمير حسين بك إلى الموصل لتقديم الطاعة والولاء للوالي الجديد، وهناك تم الإلحاح عليه بضرورة تهيئة أبنائه للمسؤوليات المستقبلية التي سوف تقع على عواتقهم وذلك بإدخالهم المدارس وتعليمهم، ولكن عندما أحضر حسين بك أستاذاً لتعليمهم القراءة والكتابة اعتبر الأمر فضيحة من قبل الطائفة، وأقنع الشيوخ الصبيان بعدم حضور الدرس.^(٢)

وفي العام ١٨٧٢ قرر مدحت باشا أنه آن الأوان لوضع حد للحالة الشاذة التي بموجبها يستثنى أيزديو سنجار من الخدمة العسكرية، رُقي الكولونيل محمد طاهر بك، رئيس هيئة أركان جيش بغداد بصفة مؤقتة إلى رتبة الفيلد مارشال، وأرسل إلى الموصل لإجراء إحصاء بعدد الذكور المشمولين بالخدمة.

كان رسام مريضاً إلى درجة لم يستطع معها مساعدة الأيزديين حتى لو رغب في ذلك، ولكن تم تفادي المجابهة مع السلطات بعد استدعاء مدحت باشا إلى العاصمة، فخلفه رؤوف باشا الذي اقترح على الأيزديين إدراج اعتراضاتهم الدينية الحائلة دون قيامهم بالخدمة في الجيش العثماني في بيان.

(١) مكتب الخارجية ١٩٥ / ٩٤٩ برقيتنا رسام ٥ و ٦ في ٣١ أيار و ١٢ تموز ١٨٦٩ إلى السفارة.

(٢) أرشيفات وزارة الخارجية (باريس): موصل، المجلد الثاني، الملف ١٦٧ ر، برقية سيوفي المرقمة ٣٨ في ٣ تشرين الثاني ١٨٧٩ إلى الوزارة ونشرت في العدد ٧، المجلد ١٨ (١٨٨٠) من المجلة الآسيوية (باريس).

أملى الشيخ ناصر بياناً كتب باللغات العربية والتركية والفرنسية وأفصح فيه ولأول مرة عن مبادئ وقواعد السلوك التي يتطلبها الدين الأيزدي.^(١)

تعرف هذه الوثيقة بصورة عامة بـ "إلتماس ١٨٧٢"، ووقع عليها الأمير حسين بك والشيخ ناصر وخمسة عشرة من الشيوخ الرؤساء، وأرسلوه إلى رؤوف باشا في آذار عام ١٨٧٣.

أعلن حكماء الموصل المسلمون بأن ما ورد في الوثيقة الأيزدية مضلل ولا يمت إلى الحقيقة بصلة، لكن البيان حقق غرضه.

وفي حوالي العام ١٨٧٥ صادقت الحكومة العثمانية مؤكدة بأن الأيزديين مستثنون من الخدمة العسكرية (رغم أنه وبعد مرور أربع سنوات من هذا لم يكن قد صدر أي مرسوم بتنفيذ القانون، ومسألة دفع ضريبة بدل الخدمة لم تكن قد حُسمت بعد).^(٢)

جبل سنجار، المنطقة التي كانت قد فصلت إدارياً ومنذ سنوات عن ولاية الموصل وألحقت بدير الزور، عانت كثيراً تحت نير الحكم الجائر والقاسي لأحمد بك - المسؤول المحلي الذي قام بتعيين صفوك آغا من قبيلة مسكوره اللين العريكة ليكون "رئيساً للجبال" أدى ذلك إلى نشوب صراعات ونزاعات بين القبائل، وفي ١٨٧٥ قتل أحمد بك وهو

(١) المصدر نفسه الملفان ١٦٤ ف و ١٦٥ ف. الديمولوجي: ص ١٣٥-١٣٦. مصطفى نوري باشا: عبدة إبليس، وكذلك مخطوطة عربية استنسخها جرميا شامير في ١٨٨٣ وهي محفوظة بمكتبة برلين.

(٢) جورج يونط: Corps de Droit Ottoman المجلد ٢، ص ١٦٤. كومتته ف. فان دن ستيسن دي يهاي - De la situation legale des sujets ottomans non-musulmans ص ٤٠٢.

يحاول إخماد نار الفتنة، وانتقاماً له قام والي دير الزور بإعدام عدد من الزعماء من ضمنهم صديق لا يارد عيسى آغا زعيم مهربان الذي كان قد حارب ضد طيار باشا.^(١)

وفي حوالي هذا الوقت اعتقل الأمير حسين بك، ووضع تحت الإقامة الجبرية في الموصل بتهمة إثارة القلاقل والمشاكل في شيخان.

وخلال فترة احتجازه قام مقامه في إدارة شؤون إمارة الطائفة شقيقه الأصغر عبيد بك، ووجد اثنان من حسين بك وهما هادي وحسن في ذلك فرصة للحصول على حيازة السناجق، والاستيلاء على الإيرادات الأميرية، وابنان آخرون ميرزا وعلي وقفوا في صف عمهما عبيد بك.

بعد مرور عام هزم المتمردان وقتلا، وجاءت والدتهم متكررة إلى حيث كان يحجز فيه حسين بك لتطلعه على ما حدث، فأجاب "إنني كنت أفضل سيطرتهم على الإمارة بدلاً من فقدان حياتهم".^(٢)

يأتي ذكر آخر لحة من حياة حسين بك في يوميات رحالة ألماني كان قد أتيت له فرصة مقابلته في الموصل في شهر كانون الأول من العام ١٨٧٥، بولوجهم داراً قديمة مظلمة، وجد الزائرون الأمير مريضاً وهو مضطجع في فراشه بغرفة كبيرة لا تدفئة فيها، وليس هناك أي أثر عن أي محادثة قد تكون جرت بينهما، ولكن التعابير التي تلاحقك في نظرات عيونه، أقنعت كاتب اليوميات بأن هناك أساس لما يشاع بأن حسين بك المأسوف على خيانة عائلته وطائفته له كان يكرس حياته

(١) إسماعيل بك كول: الأيزيدية في الماضي والحاضر، زريق، ص ١١٦-١١٨. الديمولوجي، ص ٥٠٥. هرمر رسام: آشور وأرض نمرود، ص ٣٠٧-٣٠٨. إدموندز، ص ٦٠-٦٦.

(٢) الديمولوجي، ص ٢٥-٢٧ و ٤٧٠. إدموندز، ص ٣٠.

الكثيبة في شرب الخمر وإشباع رغباته وشهواته الحسية في محاولة فاشلة
لابعاد شبح الخوف عن نفسه، من أن يقتل من قبل أعدائه.^(١)
وبعد ثلاث سنوات من الإقامة الجبرية أطلق سراحه، لكن
سلطته كانت قد تقلصت.

كانت الصلاحيات المطلقة التي تمتع بها سابقاً قد أخذت من الأمير،
وفي مكانه نصب إداري عثماني بباعدرى، وكانت القضايا الإجرامية
تأخذ مجراها عبر إجراءات قضائية في نظام المحاكم العادية، وتوفي حسين
بك كسير الفؤاد نتيجة الإسراف في شرب الخمر في العام ١٨٧٩ وهو
في الخمسين من عمره.^(٢)

وتنازل علي بك - الابن الأكبر لحسين بك - عن الإمارة لأخيه الابن
الثالث ميرزا بك ولم يستجب الابن الثاني للأمر كأخيه الأكبر، وبعد
مجادلات ومشادات حادة، ركب الأخوان مسلحين بكامل أسلحتهما
متوجهين نحو الجبل المطل على عين سفنى إلى أن غابا عن الأنظار خلف
القمة، وبعد برهة رجع ميرزا بك وحيداً ونودي به أميراً ثم وبعد تعويض
مناسب، صودق عليه أميراً.^(٣)

طوال فترة قيامه مقام الأمير، كان عبدى بك يحكم الأيزديين
ويساعده في ذلك المخلص الشيخ ناصر.^(٤)

(١) كوستاف باولي: Von Hosn kefa am Tigris bis Bagdad.

(٢) الدمولوجي، ص ٢٤-٢٥. فيتال كونييه: المجلد الثاني، ص ٧٧٤. وثائق الخارجية
الفرنسية: الموصل، المجلد الثاني، الملفات ٣٠٧ ر - ٣١١ ف، برقية سيوفي المرقمة ٨١ في ٣
نيسان ١٨٨٢ إلى الوزارة.

(٣) يو. س. كارتسوف: Zametke o turetskikh yezidakh د. ل. إي. بروفسكي:
الأيزيدية ودينهم. لقاء مع الأميرة ونسة الأموي في تشرين الأول ١٩٨٣.

(٤) الدمولوجي، ص ٢٥ و ٤٧٠. إسماعيل، ص ٢.

الفصل التاسع

عبد الحميد والأيزديون

في شهر آب من العام ١٨٧٦ اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني العرش وهو في الثالثة والثلاثين من العمر، وقد عرف بشكل خاص بورعه وسلوكه المتسم بالاعتدال الذي يلائم لقبه الثاني - خليفة وخادم الحرمين الشريفين بمكة والمدينة وكذلك القدس - الموروث من جده سليم المرعب.

ورثت المملكة المتحفظة خزينة خاوية، وثورة في الأقاليم البلقانية، والأمر الأكثر خطورة هو التهديد المتزايد للقوى العظمى الأوروبية. سادت الربع الأخير من القرن التاسع عشر خمس قوى عظيمة تمثل أكبر تركيز للثروة والقوة شهده العالم أبداً، وفي هذا المضمار احتلت بريطانيا المقام الأول لتفوقها في المال والتجارة، بسفنها ومستعمراتها المحيطة بالكرة الأرضية.

وكانت فرنسا - التي أصبحت جمهورية منذ ١٨٧٠ - تتمتع تقريباً بنفس الشراء، فقد فتح مهندسوها ومستثمروها قناة السويس.

وروسيا ذات الاراضي الشاسعة كانت تتوحد تحت تأثير شبكة السكة الحديدية التي كانت تنتشر في كل مكان.

أما أمبراطورية هابسبورك المهيبة، التي عرفت الآن بالامبراطورية النمساوية - الهنكارية فقد كانت لا تزال تتحدى التوسع الروسي في البلقان.

أما الأكثر حداثة والساعية للوصول إلى صفوف القوى العظمى فكانت الامبراطورية الالمانية التي أوجدت بعد ثلاثة حروب خاطفة أنتصرت فيها وشنت تحت قيادة هلموت فون مولتكه رئيس هيئة الأركان البروسية.

راقب حكام هذه الدول الخمس بعضهم البعض بصورة دائمة كالحوانات المهيبة في الغابة والمستعدة دوماً للوثوب على الطرف الضعيف أو التنافس والتنازع على الغنائم.

وفي العام ١٨٧٧ وجدت الحكومة الروسية فرصتها في البلقان، إذ بعد أداء الطقوس الرسمية المتعلقة بإعلان الحرب تقدمت جيوش القيصر عبر رومانيا وبلغاريا قاهرة المقاومة الشديدة التي أبدتها العثمانيون والتي أوقفتها على سواحل بحر مرمرة على بعد عشرة أميال من جدران استنبول. وفي الشرق استولى الروس على فارس وضربوا الحصار على أرضروم فأسرع وزراء السلطان إلى عقد اتفاق سلام مع روسيا موافقين على شروطها، ولكن القوى الأخرى المتحركة ببطء لفرض مصالحها عقدت مؤتمراً في برلين (المسألة الشرقية).

كلف الحل السلطان ثمناً باهظاً إذ بموجبه تم فصل عدة أقاليم في البلقان من الامبراطورية العثمانية لتشكيل بذلك دولاً مستقلة، ووضع

أقليمان آخران تحت حكم هابسبورك، وأعطيت قبرص لبريطانيا، وفي
الاناضول سلمت ولايات قارس، واردهان وباتوم إلى روسيا، وفي
غضون سنوات قليلة احتلت بريطانيا مصر واحتلت فرنسا تونس.
كما أعلن أن معاملة الأرمن والمسيحيين الآخرين القاطنين في
الامبراطورية العثمانية تعتبر شأناً من شؤون المجتمع الدولي، وانتشرت
بكثرة القنصليات في الولايات الآسيوية لمراقبة حالة وظروف الطوائف
المسيحية، ولحماية المبشرين، ومراقبة بعضهم البعض.

* * *

بعد وفاة رسّام، شُغل منصب نائب القنصل البريطاني في الموصل من
قبل موظفين ذوي رواتب من الخدمات القنصلية الشرقية، تابعين للقنصل
ببغداد، لكن الحياة كانت هادئة ولم تتقدم الموصل في مضمار التطور.
فتحت قناة السويس في ١٨٦٩ مما أوجد طريقاً سريعاً وأكثر ملاءمة
للاتصال بين أوروبا والهند، وبسنوات قليلة قبل ذلك كان قد مُد خط
التلغراف العثماني من بغداد إلى الخليج الفارسي موصلاً هناك بنظام
الخطوط الهندية، الأمر الذي أدى إلى إيجاد خدمة سريعة يعتمد عليها
أكثر من البريد بواسطة الجمال.
في الحقيقة، وفي العام ١٨٨٥ أخبر نائب القنصل رحالة فرنسياً بأنه
ولفترة ست سنوات لم يمر رجل إنكليزي واحد بمدينة الموصل.^(١)
وفي ١٨٨٦ ألغي منصب نائب القنصل.

(١) هنري بنديه: إلى كردستان في ميسوبوتاميا وفارس، ص ٢٤٠.

وفي كانون الثاني من العام ١٨٨٠ وصل من سوريا مستشرق ألماني يدعى ادوارد زاخاو بعد أن سلك طريق سنجار (الخاضعة لحكم الموصل من جديد) حيث لاحظ موقف الأيزديين العدواني تجاه السلطات العثمانية، وفي الموصل كوّن لدى البروفيسور مطبخ الحساء الذي أقامته ممثليه النيابة القنصلية البريطانية لضحايا المجاعة انطباعاً حسناً، كما تعرف أيضاً على جرميا شامير العائد الآن إلى الموصل والمنشغل بالكتب والمخطوطات، والذي كان يقضي أوقات فراغه بتعليم عدد من الأطفال القراءة والكتابة.^(١)

قامت إرسالية الهيئة الأمريكية في ماردين - والتي يرأسها منذ ١٨٧١ ألفس أندروز أحياناً بزيارات إلى الطوائف البروتستانتية الصغيرة في الموصل، وتعاقت إقامة المبعوثين فيها خلال أشهر الشتاء، أولهم كالب كيتس من شيكاغو، نظم إحصاء ميدانياً دقيقاً، وزار ميرزا بك في باعدري في شباط عام ١٨٨٣، وفي تقريره - الذي يذكرنا بالبعثات الكبوشية واليسوعية لدى الأيزديين قبل قرن - توصل إلى استنتاج مفاده "أن الوقت لم يحن بعد للعمل في صفوفهم".^(٢)

كان نائب القنصل الفرنسي نيكولاس سيوفي رجلاً يتمتع ببراعة ومقدرة غير اعتيادية، ولد في ١٨٢٩ بدمشق من والدين من المسيحيين العرب، عمل ترجماناً في قنصليات فرنسية مختلفة بسوريا وأصبح فيما بعد مترجماً شفويّاً ومستشاراً للأمير عبد القادر - الزعيم الجزائري الذي حارب الفرنسيين لسنوات عديدة ونفي إلى دمشق بعد

(١) ادوارد زاخاو: Reise in syrien und Mesopotamien، ص ٣٢٧-٣٣٣ و ٣٤٣-٣٥٧.

(٢) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧، ٩، ١٦، المجلد ٨، بعثة شرق تركيا.

استسلامه -. وفي العام ١٨٦٥ قام عبد القادر ورافقه سيّوفي بزيارة باريس للحصول على شكر من الحكومة لانقاذه حياة فرنسيين خلال عصيان مسلح، منح سيّوفي الجنسية الفرنسية وانضم إلى الطاقم القنصلي، وفي تشرين الأول من العام ١٨٧٨ أصبح نائب القنصل في الموصل.

في خضم وظيفته حصل سيّوفي على مجموعة نقود معدنية وميداليات وأصبح معروفاً بخبرته في هذا المجال، وإضافة إلى خبرته في النقوش العربية كان مهتماً بالديانات الشرقية الأقل شهرة، وألف كتاباً حول الطائفة المندائية في جنوب العراق، وزوجته التي كانت هي الأخرى من دمشق حصلت على الكثير من المديح والثناء من الرحالة والمسافرين لجمالها الفاتن وضيافتها الكريمة (en veritable francaise).^(١)

وبدافع اللهفة إلى استحصال معلومات عن الأيزديين، كان نائب القنصل سعيداً عندما قام الشيخ ناصر بزيارته في العام ١٨٧٩ وكان قد جاء إلى الموصل لمقابلة الوالي حول الخلاف الناشب بشأن دفع ضريبة بدل الخدمة، ويصفه سيّوفي بـ "رجل يقرب عمره من الستين سنة، له ملامح ودية تنم عن الذكاء، ويتميز سلوكه بالتواضع والتأدب الجم والصدق والوقار"، وكان يرتدي ثوباً طويلاً وعليه سترة فرو تغطيها جبة صوفية سوداء.

(١) هناك وصف مقتضب لسيّوفي في مؤلف أوزوالد هـ. باري: ستة أشهر في دير سوري، ص ٢٦٣-٢٦٤. بندييه، ص ٢٥٨-٢٦٣. ب. مولر سيمونس و هـ. هيفرنت: Du caucase au Golfe persique a travers Larmenie, le Kurdistan et la Mesopotamie، ص ٣٩١. كومت أرنود دي كولن: رحلة إلى تركيا الآسيوية وأرمينيا وكردستان وميسوبوتاميا، ص ٢٧٨-٢٧٩. وقد تفضلت دائرة الوثائق والأرشيفات في وزارة العلاقات الخارجية مشكورة بتزويدنا بتفاصيل عن خدمات سيّوفي أثناء أداء وظيفته الحكومية.

وكان يلبس على رأسه عمامة بيضاء ملفوفة حول غطاء رأس أسود اللون، شبيه بتاج البابا المثلث الشكل.

بعد اطلاع نائب القنصل بأن ميرزا بك كان لا يزال بانتظار اعتراف الحكومة به أميراً كشف الشيخ ناصر - ولأول مرة - عن مصادر الواردات الأميرية، لسنوات عديدة زار القوالون المجتمعات الأيزدية المنتشرة والمتبعثرة بُغية جمع التبرعات، حاملين معهم السناجق المقدسة لإثبات سلطتهم وصلاحياتهم، وكانت هناك سبعة أو ثمانية سناجق لكن الآن توجد خمسة فقط، يحتفظ المسيحيون في الموصل بواحد منها امتناناً لدين لهم على حسين بك^(*) وآخر كان في الحقيقة بحوزة سيوفي حيث ابتاعه بعد فترة وجيزة من وصوله إلى الموصل.

إن تقرير نائب القنصل لا يورد التفاصيل المتعلقة بمصدره - حسب إحدى هذه المصادر فإنه سُرق من قوال وبيع إلى سيوفي مقابل خمسة باوندات تركية ٤,١٠ جنيه استرليني^(١) - ولا فيما إذا كانت لديه نية بالتخلي عنه.

وفقاً للشيخ ناصر فإن البقية الباقية من السناجق خصصت للمناطق كالاتي :

أخذ الأول إلى جبل سنجار في الصيف والشتاء، وإلى منطقة جزيرة ابن عمر في فصلي الربيع والخريف، الثاني يقوم بجولة سنوية للمناطق الأيزدية في الغرب، بما فيها منطقة حلب، وغطى الثالث منطقة سيرت مرة في السنة، والسناجق الرابع يقوم بزيارة سنوية إلى مناطق موش

(*) انظر الفصل الثامن.

(١) يو. س. كارتسوف: Zametki o turetskikh Yezidakh نشر في ZKORG العدد ١٣ (١٨٩١) ص ٢٥٥.

ووان وبايزيد والمناطق عبر الحدود تحت الحكم الروسي، الخامس يغطي منطقة شيخان ثلاث مرات في العام، وفي بعض الأحيان يعرض الأمير حق التجول بالسناجق في مزاد خاص ويعطي ذلك الحق إلى القوال الذي يعرض مبلغاً أكبر من الذي يطلب به الأمير، وفي مناسبات أخرى فإن القوال يقوم مقام الوكيل نيابة عن الأمير على أساس العمولة.

أكد الشيخ ناصر ما أشيع منذ فترة طويلة دون أن يتم التثبت منه بأن هناك كتابين مقدسين يحتويان على حقائق الدين الأيزدي، وهما مكتوبان باللغة العربية، ولايسمح لأي أجنبي بالاطلاع عليهما، متذكراً تعليق مسلم على التماس الأيزيديين للعام ١٨٧٢، كان قد ذكر كتاباً يدعى "جيلون" تنهى إلى مسمع سيوفي بأنه هو (الكتاب القديم) الذي يدعى "جلوة"، ويدعى الكتاب الثاني "مصحف رش" (الكتاب الأسود)، وهو عبارة عن تعليق على كتاب جلوة الذي أعطاه الشيخ آدي إلى تابعيه عندما جاء من سوريا، ورافق ذلك بالقول "انا الذي كنت موجوداً في الماضي والآن أتيت إليكم" (*). تساءل سيوفي عن مغزى ذلك لكن الشيخ فضل السكوت.

وبمرور الزمن صادق سيوفي ملا حيدر، وهو أيزدي يقيم في بعشقة وقدم معلومات قيمة إلى نائب القنصل في وصف الطائفة الأيزدية بمقالات نشرت في ١٨٨٢ و ١٨٨٥ مع ملاحظة تحذيرية من المحرر، وذلك في مجلة الجمعية الآسيوية بباريس.^(١)

(*) هناك خلط في المعلومات، فثائب القنصل ينسب الكلمة التمهيدية في جلوة (انظر الملحق الأول في نهاية الكتاب) إلى مصحف رش ويعزو تأليف الكتاب إلى الشيخ آدي.

(١) AE / CPC، الموصل، المجلد ٢، برقية سيوفي المرقمة ٣٨ في ٣ تشرين الثاني ١٨٧٩ إلى الوزارة، البرقية المرقمة ٨١ في ٣ نيسان ١٨٨٢.

وعلى الرغم من عدة دعوات وجهت إلى سيوفي فإنه لم يزر لالش ابداً، وفي العام ١٨٨٣ طلب سيوفي من وزارة الشؤون الخارجية منحة خاصة تقدر بـ ٤٠٠ فرنك (١٦ جنيهًا سترلينيًا) لهدايا تؤخذ إلى زعماء الأيزديين ورهبان دير ربان هرمز، لكنه لم يستجب لطلبه وبعد سنتين منحت الوزارة سيوفي إجازة لمدة أسبوع ليقوم بزيارة إلى سنجار وينزل ضيفاً على المسؤول الإداري العثماني، ذكر نائب القنصل ٨٣٦٠ أيزدياً و ٥٤٠ مسلماً قائلاً بأن لا مسيحيين يعيشون في الثماني عشرة قرية في الجبال، المنطقة الإدارية التي ضمت في حينها تلعفر أنتجت سنوياً خمسمائة ألف بوشل من القمح والشعير، ودفعت خمسمائة ألف قرش (٤٥٠٠ جنيه سترليني) للضرائب.^(١)

* * *

وفي العام ١٨٨٣ فتحت روسيا نيابة القنصلية في الموصل برئاسة يوري سير كيفيتش كارتسوفا^(٢) البالغ خمسة وثلاثين سنة، طموح ووطني متشدد وله اتصالات جيدة داخل الحكومة وفي الحلقات السياسية القومية المتطرفة، وكان قد خدم في السنوات الأربع الماضية في السفارة

(١) AE / CPC، الموصل، المجلد ٢، برقية سيوفي ذات الرقم ٩٧ في ١٤ حزيران ١٨٨٣، و ١٣١ في ١١ كانون الأول ١٨٨٥ إلى الوزارة.

(٢) تحدث نائب القنصل الروسي يو. س. كارتسوفا عن بعثته إلى الموصل في مقال بعنوان: " Marshrut iz Erzeruma v Mosul " نشر في SMA العدد ١٩ (١٨٨٥) وفي كتابه Sem let na Blizhnem vostokey (١٨٧٩-١٨٨٦) ص ١٦٧-٢٠١. راجع أيضاً AE / CPC الموصل، المجلد ٢، برقية سيوفي المرقمة ١٠٦ في ١٥ كانون الأول ١٨٨٣ إلى الوزارة.

الروسية باستنبول، حيث أعتبر رجلاً مخادعاً متوقداً الذكاء لكن تعوزه البراعة. أعطيت له تعليمات وجيزة وأساسية بشأن مهمته الجديدة في سانت بطرسبرغ وكذلك في تفليس حيث حثت هيئة الأركان المبعوث بأن يدخل في مخططة اختيار هجوم بحري مفاجئ على أستنبول متخذاً طريق أرضروم وبدليس وسيرت، وصل كارتسوفاً إلى الموصل في بداية كانون الأول من العام ١٨٨٣.

وبعد مشادة أولية مع والي الموصل حول طبيعة الملابس الواجب ارتداؤها في المناسبات الرسمية حيث أصر كارتسوفاً على البزة الرسمية بينما فضل الوالي الزي المدني استقر نائب القنصل في حياة رتيبة مملية بالمدينة مركز الولاية، لا تلائم أعزباً مليئاً بالحيوية والطاقة والنشاط، وتكونت بطانته من مساعدين روسيين وترجمان محلي يدعى ناصر وهو ابن جرميا شامير، ولم يكن كارتسوفاً بحاجة إلى نظرائه في السلك الدبلوماسي بالمدينة. وقد قيم نائب القنصل البريطاني و. س. ريتشاردز على أنه تافه أو غير موجود، وسيوفي وزوجته كانا "طاعنين في السن ومشرقين عميقي الجذور وأقل إثارة"، وأكثر تعقيداً منهم طبيبان من أوروبا الوسطى يعملان مع الجيش العثماني الدكتور برونسلاف هامبل منفي بولندي لا مبالي أشقر، والنمساوي الدكتور ل. إ. بروفسكي شخصية غامضة، وله شعر أسود يتمتع بأسلوب أدبي في النطق، وسلوك مؤدب، ونظرات معادية فولاذية. المهمة الرئيسية للمنصب الروسي الجديد في الموصل كان تعزيز العلاقات مع اليعاقبة المحليين، الذين كان الوصول إليهم سهلاً وكذلك النساطرة الجبليين الذين أصبحوا يدعون عادة بالآثوريين، الذين قضى الترجمان في صفوفهم سنوات عديدة. غير مقيد بمسألة الوقت مثل بادجر، قرر كارتسوفاً

الانتظار إلى حلول فصل الربيع حيث تذوب الثلوج قبل أن يقوم بزيارة إلى البطريك، كفاصل مؤقت لحياة الملل التي كان يعيشها، قبل كارتسوفا دعوة موجهة إليه من ميرزا بك الذي كان قد تعرف إليه بمجرد وصوله إلى الموصل. مهتماً ومنذ فترة طويلة بالاعتقادات الأيزيدية والعادات استحصل نائب القنصل من والد الترجمان جرميا على نسخة من مخطوط عربي حول المبادئ والتعاليم الأيزيدية كتب من قبل راهب في دير ربان هرمنز^(*).

تألفت المجموعة من روسيين ثلاثة والدكتور بروفسكي والترجمان واثني من الخدم وعدد من البغالين، وغادرت الموصل حوالي نهاية العام، وفي باعدري انضم إليهم ميرزا بك الذي رافقهم إلى المعبد، وبينما كانوا يدخلون وادي لالش حينما صاح جرميا: " Wild romantisch " (معبراً عن المنظر الرومانسي المثير للطبيعة الخلابة. م)، وهو يحني رأسه ليمر تحت مدخل حجري للمعبد. استضافهم الشيخ ناصر خلال زيارة الروس إلى لالش والتي دامت يومين.

وفي الملاحظات التي سجلها خلال رحلته، تذكر كارتسوفا الشيخ ناصر بأنه "رجل طويل القامة نحيل، مفرط في الغطرسة" الذي أتعبه الزوار بوابل من أسئلتهم، ووجده بروفسكي المتهم الساهر "لا

(*) تحسنت علاقات جرميا شامير مع الكنيسة الكلدانية بمرور الزمن، وفي شتاء ١٨٨١- ١٨٨٢ استعار مخطوطاً سريانياً من البطريك إلياس الرابع عشر لاستنساخه لمصلحة زافاو، لكنه بقي بروتستانياً شديد التمسك.

مبالياً فظاً يفلح في ترك انطباع جيد على الناس بلحيته الطويلة البيضاء
ولسانه الزلق".^(١)

أدخلوا إلى مبنى الحرم حيث ضريح الشيخ آدي، ورأوا في غرفة
مجاورة الأيقونات البرونزية المقدسة - الطاووس العظيم، الذي قدر
بروفسكي وزنه بـ ٦٧٨ رطلاً، وخمس بقايا أثرية مقدسة أكثر صغراً
في الحجم. وأخبروا بالوارد السنوي الذي تدره الجولات كل عام -
٦٠٠٠ باوند تركي ٥٤٠٠ جنيه سترليني وفقاً لرواية كارتسوفا و
٨٠٠٠ باوند تركي طبقاً لبروفسكي.^(٢)

استفسروا عن الكتاب الديني المقدس فأخبروا بأنه في حوزة ملا
حيدر، سليل شيخ حسن الشخص الوحيد المخول له القراءة والكتابة.
وعلم بروفسكي بأن الكتاب في تلك اللحظة كان موجوداً في لالش
ويزعم بأنه "وبصدفة استثنائية" تمكن من الحصول عليه والاحتفاظ به إلى
أن استطاع استنساخه. ولا يذكر كارتسوفا هذا الحادث.

وبعد استكشاف المناطق المجاورة وقضاء ليلة في كهف برفقة كوردي
خارج على القانون، تحرك الروسي إلى دير الربان هرمز، حيث أراهم
الرهبان مخطوطاتهم الأصلية التي حصلوا عليها من تعاملهم من الأيزديين،
وسمحوا لنائب القنصل والدكتور بروفسكي بتسجيل الملاحظات.

تم قضاء الليلة الأخيرة للرحلة في باعدري، ويصف كارتسوفا
دار إقامة الأمير بـ "بيت ريفي عادي مع باحة، محاط بجدار طيني"،

(١) د. ل. إي. بروفسكي: الأيزيديون ودينهم، داس أوسلاند، العدد ٥٩ (١٨٨٦) ص

٧٦٧-٧٦١ و ٧٨٥-٧٩٠. راجع أيضاً ف. أ. رومانوف: Poklonniki Diavola

في Prioda I Lyundi العدد ٩ (١٨٩٨) ص ٧٣٩-٧٤١ و ٧٥١-٧٥٣.

(٢) زاخاو و (المخطوطة رقم ١٣٩). هربرت بيركس: حياة ومراسلات توماس فالبي فرينج.

وانزعج بروثسكي من أكوام الفضلات الحيوانية في الساحة، واستنشاق تيار الهواء الذي يهب عبر النوافذ التي لا تغطيها زجاج في الصالة، ولاحظ دون أن يعلق منضدة من الأماليد المجدولة مغطاة بقماش أخضر تحت ثريا بوهيمية زجاجية ملونة ضخمة.

لفت نظر الزائرين وجود عدد من الطواويس وهي تختال في مشيتها حول المبنى، وعندما حل الظلام أتى الخدم بالقناديل، وظهر الأمير لاستقبال ضيوفه. . يصف كارتسوفا ميرزا بك بأنه "شاب متواضع في المظهر، يُستغل من قبل الجميع" ولا يتذكر كم بلغ من العمر، لكن المسافرين المنهكين كانوا سعداء بقبول ضيافته والتخفيف من آلامهم بتدخين النارجيلة، والتخلي عن الرسميات، والتمتع بالأغاني المغوية للصبيان الراقصين، وبعد عشرين سنة كان كارتسوفا لا يزال يتذكر جو تلك الليلة بـ "الجو الذي لا يمكن وصفه، المهدئ للأعصاب، المبهج الذي يسلب لب الإنسان". لاحظ بروثسكي ببساطة أن ميرزا بك كان "مرتشف الخمر استثنائياً في نظر الله" وعادة يتطلب الأمر أن يؤخذ إلى الفراش من قبل خادميه.

عادت المجموعة إلى الموصل في اليوم التالي بعد غياب دام أسبوعين. وفي آذار من العام ١٨٨٤ توجه كارتسوفا والترحمان برفقته إلى الصحراء غرب الموصل لرؤية بعض الجياد التي يملكها شيخ عربي، وفي اليوم الثاني من الرحلة رأوا خنزيراً برياً فقاموا بملاحقته، وعندما اقترب كارتسوفا من الخنزير سحب مسدسه وجرح نفسه في الساق، قدم له العرب الاصدقاء الاسعافات الأولية، حيث قاموا بربط ساقه المنجروحة بجلد خروف ذبح لتوه. حُمل نائب القنصل إلى الموصل، حيث لم

يتمكن بروفسكي وزملاؤه من تحديد مكان الاطلاق، وأخيراً نقل كارتسوف إلى حلب حيث أُجريت له عملية جراحية، ومع أنه لم يمِت لكنه أصبح معوقاً عاجزاً طوال حياته.

يورد مقال الدكتور بروفسكي الذي نشرته مجلة ألمانية في ١٨٨٦ بصورة مباشرة رحلة الروس إلى الأيزديين، لكن رواية كارتسوف الكاملة المكتوبة في ١٨٨٤ والتي طبعت للأغراض الرسمية فقط في ١٨٨٦ لم تنشر حتى العام ١٨٩١ ولم تظهر مذكراته حتى العام ١٩٠٦، وكان كارتسوف أول وآخر ممثل عن روسيا الامبريالية في الموصل، ونهايته غير معروفة.

* * *

الزوار اللاحقون للالش كانوا ممثلي رئيس أساقفة كانتربيري، الالتماس الذي قدمه الآثوريون عن طريق رسام في ١٨٦٨ أثر بعد ثماني سنوات عن رحلة تقييم وكشف من قبل رجال دين أنجليكان، وإرسال رجل دين آخر لاحقاً بقي في جبال هكاري لسنوات عديدة، وأخيراً وبعد استطلاع أكثر من قبل أثلستان رايلي وهو رجل غير أكليري وذو علاقات قوية بكبير الأساقفة، أنطلقت بعثة رئيس الأساقفة إلى الآثوريين المسيحيين في ١٨٨٦.

المبشران الأولان، كلاهما خريجا كمبريج، يرافقهما رايلي وصلا إلى أورمية وسارعا في زيارة إلى البطريرك.

في أيلول من العام ١٨٨٦ بعد أن أنهى رايلي الترتيبات اللازمة مع الآثوريين توجه باتجاه الجنوب إلى الموصل، وفي الطريق قضى يومين (١١-١٢ أيلول من العام ١٨٨٦) في لالش، ورافقه الحراس في جولة بالمعبد، روايته المنشورة بهذا الخصوص ويومياته التي تم العثور عليها مؤخراً لا تضيف إلا القليل إلى تقارير كارتسووث وبروفسكي باستثناء أن رايلي كان يحمل معه آلة تصوير سمح له بالتقاط بعض الصور للباحة الداخلية من المعبد.

هدد الحراس بتدمير رقائقه عندما رأوه يقوم بإظهار الصور السالبة وذلك بغسلها في ينبوع ماء ونشرها على صخرة مقدسة لتجف، لكن رجل الكنيسة الذكي أفلح في تهدئتهم، وبذلك فإن ألبوم رحلته يحتوي على أولى الصور للضرائح بلالش^(*) وللأسف وجد رايلي أن ميرزا بك كان غائبا عن محل إقامته في باعدرى، ولم يتمتع بضيافة الأمير.^(١) وفي السنة التالية زار لالش أيضاً أحد المبشرين ويدعى أ. جي. ماكلين ولاحظ بأن "القمة المستدقة لمبنى معبد الشيخ آدي ترتفع في واد ذي منظر رائع خلاب مثل قبه كنيسة في قرية انكليزية"، وفي عين سفنى صادف هذا المبشر الشيخ ناصر: "شيخ كريم وعزيز، نفس الشخص الذي كان شيخاً أيام لايارد وباجر وكان يعرفهم جيداً".

(*) انظر الصورة ١٣.

(١) أثلستان ريلاي: يوميات ١٨٨٦، الملفات ١٥٧-١٦٣. وكذلك مقاله: زيارة إلى مرقد الشيطان. بايلت (١٩٠١) ص ٦٨٤-٦٨٥. ومذكرات رحلته للعاصين ١٨٨٦ و ١٨٨٨ موجودة ضمن موجودات عائلته. راجع أيضاً جي. ف. كوكلي: كنيسة الشرق وكنيسة انكليرا.

وعندما كان في الموصل دون المبشر في يومياته "أن الشماس إرميا هو رئيس الجماعة البروتستانتية وأميل إليه كثيراً".^(١)
توفي الشيخ ناصر في خريف عام ١٨٨٩^(٢)، لقد مضى نصف قرن من السلام والاستقرار النسبي منذ العهد الخالك لآنجه بيرقدار وكريتلي أوغلو، ولكن كان الخطر الذي يشكل الآن أكبر تهديد لوجود الأيزديين منذ عهد أتاك بدر الدين لؤلؤ محققاً وبالانتظار.

* * *

الطلاب المعاصرون، والعهد الحديث في مجال التاريخ، وعلم النفس، يحاولون ولفترة طويلة فهم شخصية وسياسات السلطان عبد الحميد الذي شرع في وقت مبكر من عهده بطرد السياسيين الذين كان السلطان يدين لهم بعرشه، وحكم بعد ذلك الامبراطورية العثمانية بمفرده، آخذاً بزمام كل الأمور في يده، وهو يصدر الأوامر من قصر يلدز المحمي جيداً والواقع خارج استنبول.
يتصف بالذكاء والعمل الدؤوب - جاء وصف لا يارد له "كونه أحد أكثر الأشخاص وداً ولطفاً من بين الذين عرفهم، ذو حوافز ودوافع حسنة"^(٣) - استدرك السلطان في الحال أن قوة وعظمة امبراطوريته

(١) آرثر جون ماكلين: البعثة الكنسية الآشورية، مذكرات كانون ماكلين، جريج ريفيو (لندن) ١٨٨٨، ص ٢٠ (١٣ كانون الثاني) ص ٧٠ (٣ شباط). ماكلين وويليام هنري براون: كاثوليكوس الشرق وأتباعه، ص ٤٦.

(٢) أفس ن. أندروز: المزيسد عن الأيزديين، مشنري هيرالد، العدد ٨٨ (١٨٩٢) ص ١٧٥.

(٣) كوردن ووترفيلد: لا يارد نينوى، ص ٣٧٥-٣٧٦.

تكمّن في المصادر التي لم تمس بعد والقوة البشرية في الأناضول. الأمثلة الروسية والشمال أمريكية وضعت نصب عينيه حقيقة أن السكك الحديدية تشكل عاملاً مساعداً للتوحيد السياسي، والتطور الاقتصادي، وحركة الجنود. فأعطى الامتيازات لشركة سكة حديد الأناضول العائدة لألمانيا، والتي أنهت خطأً حديدياً بين البوسفور وأنقرة في العام ١٨٩٢، وبدأ العمل على خط آخر يمتد باتجاه الجنوب الشرقي إلى قونية في العام ١٨٩٦، وشرع بوضع الخطط لمشروع أكبر: مد السكة الحديدية إلى ما بعد قونية حيث حلب، الموصل، وبغداد، والخليج الفارسي، وخطاً آخر على طول الطريق القديم للحجاج من دمشق إلى المدينة فمكة.

والجانب الآخر للسلطان عبد الحميد كان في طبيعته المولعة بالمؤامرات والمكائد، رغم أن قلب الأناضول كان يسكنها بشكل عام الأتراك، فإن الأقاليم الواقعة على أطرافها كانت مسكونة بالمسيحيين (أغلبهم أرمن) ذوي الولاء المشكوك فيه، والكرد الذين يصعب إخضاعهم، والقبائل العربية المعتادة على السلب والنهب.

إحدى أولويات عبد الحميد كانت إعادة تنظيم وتجهيز الجيش العثماني، ساعدته في ذلك بعثة عسكرية ألمانية أرسلت العام ١٨٨٢ من قبل الفيلد مارشال فون مولتكه لكن لم يكن المستشارون الأجانب قادرين على معالجة المشكلة الأساسية المتمثلة في نقص القوة أو الطاقة البشرية الناتجة عن فقدان الأراضي والأقاليم، واستثناء غير المسلمين من الخدمة العسكرية والتفاوت في تطبيق قوانين التجنيد الإلزامي للخدمة.

باستثناء الفسحة القصيرة والمفعمة بالمصائب عندما تمكن كل من رشيد باشا وحافظ باشا في إخضاع الكرد واقتيادهم قسراً كأغما كانوا مجرمين إلى صفوف الجيش العثماني، لم يبذل إلا الجهد القليل للاستفادة من قدرتهم وحماسهم العسكري في أوقات السلم. ومع ذلك وفي العام ١٨٩١ أعلن السلطان عن تشكيل القوات الحميدية، وهي قوة كردية جديدة مؤلفة من الفرسان غير النظاميين على غرار قوات القوزاق الروسية، وأسند إليهم مهام الدفاع عن الحدود والحفاظ وحماية سلطة الدولة في الداخل، ومن بين الشخصيات الكردية البارزة التي عينت في قيادة القوات الحميدية كان البركادير جنرال إبراهيم باشا - زعيم قبيلة الملي - الذي كان قد بنى عائلة حاكمة في مقاطعة ويرانشهر وزرع الرعب في قلوب المغيرين العرب والأهالي على السواء.^(١)

والأيزديون - وهم كورد ليسوا مسلمين وكان يسمح لهم بدفع خمسين باونداً تركيا ٤٥ جنيه سترليني لكل مجند عوضاً عن أداء الخدمة العسكرية - مثلوا شذوذاً في نظر المخططين العسكريين وبدعة وهرطقة في نظر السلطان التقي، وفي العام ١٨٨٥ قررت الحكومة تطبيق نفس قواعد التجنيد الإجباري المطبق بحق الرعايا المسلمين عليهم، مع ضرورة أداء الخدمة الفعلية لمدة معينة لحد أدنى، هذا بالإضافة إلى

(١) ديفيد فريسر: المختصرة إلى الهند، ص ١٦٩-١٧١. إي. و. ماكديويل: الكنيسة النسطورية ونفوذها الحالي في كردستان، مجلة ريس ديفليومنت، العدد ٢ (١٩١١) - ١٩١٢ ص ٧٤-٧٦. مارك سايكس: جولات في شمال ميسوبوتاميا، جيوكرافيك جورنال، العدد ٣٠ (١٩٠٧) ص ٣٨٥-٣٨٦، وكذلك: آخر تركة الخليفة، ص ٣١٩-٣٢٧.

دفع مبلغ خمسين باونداً تركياً^(١) طبقت القواعد الجديدة دون أية مشاكل على الطوائف الأيزدية في أقاليم حلب، ودياربكر، ووان، لكن تنفيذها في العراق كان أكثر صعوبة، وفي أيلول العام ١٨٩٠ رأى وسمع عالم الآثار البريطاني والس بدج الأدلة البينة على ارتكاب المذابح في سنجار من قبل قوة خاصة تحت قيادة أيوب بك، مسؤول في الحكومة المركزية الذي كان يحاول في نفس الوقت إجبار الأيزديين على اعتناق الإسلام.^(٢)

يصعب تعقب جذور المحاولات الجارية لإجبار الأيزديين على ترك دينهم واعتناق الإسلام، فسيوفي يعيدها إلى بعض ضباط الجيش في الموصل، فيما كتب أندروس بأن "مصدر هذه الحركة كان الموصل، ومن هناك انتبه إليها السلطان الذي أعجب بها" أما نائب القنصل البريطاني في دياربكر فيضع في كتاباته التي دونها بعد سنوات اللوم في ذلك على سري باشا الحاكم المحلي^(٣)، ومهما كان مصدر الحركة فإن

(١) المصادر الأساسية عن الفترة ١٨٨٥-١٨٩١ هي: مصطفى نوري باشا "عبدة إبليس". أرشيفات الخارجية الفرنسية، الموصل، المجلد ٤، برقية سيوفي ذات الرقم ٦ في ١٠ تموز ١٨٩١ إلى الوزارة. وأرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧ و ٩ و ١٦ المجلد ١٢ إرسالية شرق تركيا ١٨٩٠-١٨٩٩ و المجلد (٣) المادتان ١٣٩ و ١٤١ رسالتا أندروز في ٣ تشرين الأول ١٨٩٠ و ١٧ حزيران ١٨٩١ إلى د. سميث، ووثائق الخارجية البريطانية ١٩٥ / ١٧٦٦ برقية نائب القنصل في وان فيتز موريس المرقمة ١١ في ٢٥ أيار ١٨٩٢ إلى نائب القنصل بأرضروم. وتقرير أندروز: "المزيد عن الأيزديين - لاحقة" مرفق برسلته في ٧ حزيران ١٨٩٢ إلى د. سميث (المادة ١٤٢) وهو مفقود من أرشيفات الهيئة الأمريكية. إلا أن نسخة مرفقة برسالة أندروز في ٣ أيلول ١٨٩٢ إلى هرمزد رسام. ولم يتمكن المؤلف من الاطلاع على الأرشيفات العثمانية الخاصة بهذه السنوات.

(٢) سير إي. أ. والس بدج: عبر النيل ودجلة، المجلد ٢، ص ٢١٤-٢٢٣.

(٣) و. ب. هيرد: ملاحظات عن الأيزديين، مجلة المعهد الملكي الانثروبولوجي لبريطانيا العظمى وإيرلندا، العدد ٤١ (١٩١١) ص ٢١٧-٢١٨.

المشجعين والمؤيدين للفكرة وأوها خطوة إدارية ذكية تنال رضا السلطان.

وفي ربيع عام ١٨٩١ وصلت بعثة جديدة من استنبول، وكانت البعثة مؤلفة من ضابط الجيش واثنين من الماللي كانوا يحملون رسالة من السلطان موجهة إلى الأيزديين فحواها أن الأيزديين كانوا في الأصل مسلمين، وحشتم الرسالة العودة إلى ديارنتهم الأصلية الإسلام. ووفقاً لمصدر معاصر فإن ميرزا بك والشيوخ أجابوا بأن الأمر ليس كذلك قائلين:

كيف يمكن أن نكون في الأصل مسلمين بينما ديننا
يسبق دينكم بآلاف السنين ؟ ألم يكن نبوخذنصر أيزدياً ؟
والأصح أنتم الذين ضللتهم وانفصلتم عنا ولسنا نحن الذين
ثنها وانفصلنا عنكم !

عند هذه النقطة جذب انتباه الأيزديين إلى أن ضرائب عامين متتاليين قد أصبحت مستحقة وهي التي يدفعونها عوضاً عن أداء الخدمة العسكرية، وإذا كانوا راغبين في الاحتفاظ بدينهم فعليهم دفع هذه الضرائب في الحال، كما يتوجب الايفاء بالنسبة المتطلبة من المجندين، لكنهم إذا احتضنوا الإسلام فربما يميل السلطان إلى إعفائهم من الخدمة العسكرية في الوقت الحاضر. ولأجل التعجيل في الأمور تم إيداع زعماء الأيزديين السجن، لكن أطلق سراحهم بعد ذلك بكفالة، ووسط هذا الارتباك توجه الأيزديون نحو الإرساليات التبشيرية الأمريكية في طلب المساعدة.

الإرسالية التبشيرية الأمريكية في أورمية كانت ومنذ العام ١٨٧١ تدار من قبل الهيئة المشيخية للإرساليات الأجنبية تنشطت بوصول المبشرين الانجليكان لبعث نشاطاتهم في جبال هكاري.

القس آدموند و. ماكديويل من أهالي هايلاند بارك من ولاية إلينوى الأمريكية انضم إلى بعثة أورمية في العام ١٨٨٧، غادر في أيلول العام ١٨٨٨ متوقفاً أولاً في الموصل بغرض حث وتعبئة البروتستانت المحليين قبل مواصلة مسيره نحو الجبال.

مثله كمثّل گرانت ولوبدل كان ماكديويل يحلم بأن يستطيع إهداء الأيزديين إلى الديانة المسيحية، وبغرض تحقيق هذا الهدف قام بإرسال قس بروتستانت محلي يدعى كينا إلى ألقوش للتعرف على الأيزديين في تلك المنطقة، لكن هذا المبعوث تورط في خلافات مع الفرق الكلدانية وطُرد من القرية بحلول بداية العام ١٨٨٩ وقد لُف حبل حول عنقه، ولاحقاً في تلك السنة أرسل ماكديويل اثنين من مساعديه العاديين للعيش مع الأيزديين في شيخان كحرفيين مهرة، فكتبوا إليه ما مفاده أن الطبقات الدنيا منفتحة لتغيير ديانتهم، لكن الطبقات الحاكمة مرتابة وسوف تحارب نشاط البعثة إلى حد الموت، وأوصيا بان العمل الذي يقوم به البنائون المسيحيون سيكون مثمراً أكثر.^(١)

(١) هيئة الإرساليات الأجنبية التابعة للكنيسة المشيخية بالولايات المتحدة، مراسلات الإرسالية، إيران الرسائل الواردة، المجلد ٦ (١٨٨٩-١٨٩٠) المادة ٢١٧، رسالة ماكديويل في ٢ آذار ١٨٨٩ إلى الهيئة. أرشيفات الهيئة الأمريكية للإرساليات البعثات الأجنبية ٧ و ٩ و ١٦ المجلد ٦، إرسالية شرق تركيا ١٨٨٠-١٨٩٠، المجلد ١، المادة ٢١٢، رسالة جون أ. اينسلي في ١٩ شباط ١٨٨٩ إلى سميث.

أصبح أفس أندروس ممثل الهيئة الأمريكية للتبشير في ماردين، هو الآخر مولعاً بالأيزديين بعد أن أرسلت سيدة إنكليزية مجهولة مبلغاً من المال بغرض إنفاقه على أي جهد يبذل في صفوف الأيزديين بهذا الخصوص، وبعد إرسال مبشر علماني غير أكليركي للاتصال برجال القبائل المحليين قرر أندرسون فتح مدارس لهم في منطقة ويرانشهر.^(١)

بينما كتب ادموند ماكديويل إلى هيئة الإرساليات الأجنبية بأن فرص نجاح البعثة في صفوف الأيزديين قليلة. هو وأندروس الذي كان منشغلاً بنقل أبرشية الموصل إلى مشيخية تفاجئا في مايس عام ١٨٩١ عندما أتى جرجيس أحد البروتستانت في الموصل برسالة من زعماء الأيزدية بأنهم مهتمون في معرفة كيفية استقبال الأيزديين في الكنيسة البروتستانتية.

بعد قضاء مائتي عام على استماع بير جين بايستيان إلى الالتماسات المغرية من جبل سمعان، تسنى للكنيسة المسيحية فرصة ثانية لإهداء الكفار، لكن أفس أندروس داهية من نيويورك، كان قد عاش ثلاثين سنة في ماردين وتذكر قصة الشمسية المضطهدين الذين احتفظوا سراً بديانتهم بعد قبولهم في الكنيسة اليعقوبية^(*).

وبعد مداولات مع الأعضاء الآخرين في البعثة، أرسل أندروس إلى الموصل ما يشبه استطلاعاً للآراء يتألف من عشر نقاط ليتم الإجابة عليها كتابةً، ومن بين الأسئلة التي أثارت سؤال يتعلق بأنه في حالة

(١) مقال أندروز "الأيزديون" في انسيكلوبيديا الإرساليات (طبعة ١٨٩١) المجلد ٢، ص ٥٢٨. أندروز: بشأن الأيزديين، مجلة مشنري هيرالد، العدد ٨٥ (١٨٨٩) ص ٣٨٥-٣٨٨. أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧ و ٩ و ١٦ المجلد ١٢، المادة ١٣٩، رسالة أندروز في ٣ تشرين الأول ١٨٩٠ إلى سميث.

(*) راجع الفصل الرابع.

انضمام الأيزديين إلى الكنيسة البروتستانتية هل أن الكنيسة سوف تكون مسؤولة وتحمل دفع ضرائبهم المتأخرة.

بعد تأخير سببه مخافة جرجيس من أن يكشف أمر اتصالاته مع الطائفة الخطرة، كتب أندروس بأن الأيزديين تعهدوا بالكتابة إلينا رسمياً بصدد طلبهم وحينذاك سيكونون قد تشاوروا وتوصلوا إلى قناعة بتوحيد كلمتهم بخصوص اتخاذ هذه الخطوة.

وفي تموز من العام ١٨٩١ تم استدعاء ميرزا بك وشقيقه علي بك والزعيم الشيخ إلى الموصل، برفقة الزعماء الرئيسيين في قرى الشيخان للتعرف على قرار الحكومة حول الأيزديين، وأمرهم الوالي ورافقه الضباط والجنود من الحامية بقبول المسؤولية التي تقع على عواتقهم في أداء الخدمة العسكرية نيابة عن طائفتهم، وبعد احتجاج غير ذي جدوى بأنهم غير قادرين على فرض الخدمة الإلزامية على المواطنين غير الراغبين، أجبر الزعماء أنفسهم على سحب القرعة من مجموع الثمانية والثلاثين أيزدياً الحاضرين، ووقع الاختيار على اثنين وعشرين شخصاً من ضمنهم ميرزا بك وشقيقه علي بك وعدد آخر من الأشخاص البالغين من العمر ما فوق الخمسين، فاقتيدوا جميعاً إلى الحامية وأجبروا على ارتداء الزي العسكري البغيض، بعث الأمير رسولاً إلى صديقه القديم سيوفي - حالياً الممثل الأجنبي الوحيد في الموصل - ونصح بالحفاظ على هدوئه بينما يقوم نائب القنصل بمساعدته.

في الحقيقة غيرت الحكومة إجراءاتها ووصل مسعود أفندي مسؤول عثماني من ديار بكر، في مهمة جديدة يحمل تعليمات بهداية الأيزديين عن طريق النصيحة والمرونة، وبعد فترة نفذ صبره بسبب عدم نجاح

ذلك فأوصى بإرسال أحد ضباط الجيش المخولين بصلاحيات غير عادية إليهم لتلقي هؤلاء المتطهرسين واللصوص الآثمين درساً في اتخاذ السلوك المستقيم.^(١)

* * *

وفي بداية شهر تموز من العام ١٨٩٢ وخلال فترة خلو منصب الوالي بعد مغادرة آخر والي وقبل وصول الوالي الجديد، أتى كلك دجلة بموظف من استنبول الفريق عمر وهبي باشا، ضابط مفعم بالحيوية والنشاط أشتهر بتقربه إلى الباب العالي - كلاهما من دمشق - وكذلك تقربه إلى وزير الحرب حيث كانا طلبة معاً في الكلية العسكرية، والذي رتب له تقلده السريع في المناصب، كما هو الحال في الدول الاستبدادية، فقد كانت صلاحيات الوافد الجديد واسعة وغير محدودة.^(٢)

(١) داود الجليبي: مخطوطات الموصل، ص ٢٥٢.

(٢) المصادر الأساسية عن أحداث العام ١٨٩٢ هي: نوري / منزل / طروث، المجلد (١) ص ١٦٥-١٦٦ و ١٨٦-١٨٧. أرشيفات الخارجية الفرنسية، الموصل، المجلد ٤، برقيات سيوفي المرقمة ٧ في ٢٦ آب ١٨٩٢ و ١٢-٢٣ في أيلول - كانون الأول ١٨٩٢ إلى الوزارة. الخارجية البريطانية ٧٨ / ٤٤٣٥، رسالة أندروز في ٣ أيلول ١٨٩٢ إلى هرمزد رسام، أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧ و ٩ و ١٦، المجلد ١٢، المادة ١٤٣، رسالة أندروز في ١٧ تشرين الثاني ١٨٩٢ إلى سميث. باري، ص ٢٥٢-٢٦٢. و هيئة الإرساليات الأجنبية التابعة للكنيسة المشيخية بالولايات المتحدة، مراسلات الإرساليات إيران / الرسائل الواردة، المجلد ١٠ (١٨٩٣-١٨٩٤) المادة ٢٠٧، رسالة ماكديويل في ٢٠ تشرين الأول ١٨٩٢ إلى القنصل العام ببغداد. جليبي، ص ٢٥٢. س. "Au pays Diable" أرشيفات آسيوية، العدد ١ (١٩١٢) ص ١٩ و ١٥٧. ولم يتمكن المؤلف من الاطلاع على الأرشيفات العثمانية للعام ١٨٩٢.

وأول ما قام به الفريق في الموصل تركيز حول تحسين معيشة جنود الحامية العسكرية، بهدف فرض النظام والقانون ومعاينة المفسدين، الضرب بالقلعة الذي كان قد أهمل استخدامه، أعيد مرة أخرى رافق ذلك إعادة العمل بعادة استعراض المجرمين المثبت إدانتهم في الشوارع مع منادٍ يعلن جرمته على الملأ.

وبحلول نهاية الخميس يوماً كتب سيوفي إلى باريس: "إنه من بين مئات الموظفين العثمانيين الذين عرفتهم في الاثنين والأربعين عاماً التي قضيتها في العمل، لم أرَ أحداً يضاهي عمر باشا في الأمانة وسداد الرأي". وتنبأ لو أن الفريق استطاع كبح جماح الميل نحو تصرف طائش فيكون بمقدوره إسداء خدمة عظيمة للحكومة في هذه البقعة النائية المتخلفة من الامبراطورية العثمانية.

لم يدخر أي وقت من توجيه الاهتمام إلى المشكلة الأيزدية، وأرسلت حملة عسكرية إلى سنجار قاندها كولونيل شرطة، كتب إلى مراجعه عن اشتباك ناجح، قتل فيه عشرة أيزديين وجرح خمسة وثلاثون مقابل مقتل اثنين من الجنود وجرح أربعة، كما أقتيد إلى الموصل مائة وعشرون أسيراً.

لم يكن الفريق أقل شدة في التعامل مع زعيم أيزدي بارز في منطقة الشيخان، والذي كان ولمرات عديدة قد تجنب الاستجابة لدعوة موجهة إليه بالقدوم إلى الموصل، فأرسلت فرقة من الجنود لإبادة كل من في قريته والاتيان برؤوسهم إلى المدينة.

متوسجاً الخيفة من هذه الأحداث ترأس ميرزا بك وفداً مؤلفاً من أربعين زعيماً أيزدياً من شيخان إلى الموصل، فاستقبلوا عند جسر دجلة

من قبل عمر وهبي باشا برفقة عدد من الوجهاء المسلمين، وأحاط بهم حشد من المتفرجين الذين تبعوهم إلى الحامية العسكرية حيث كان من المقرر أن يقضوا ليلهم.

في اليوم التالي (١٩ آب ١٨٩٢) اجتمع الفريق بمجلس الولاية (هيئة تتألف من المسيحيين والمسلمين على السواء) ودعا المجلس رسمياً الأيزديين إلى احتضان الإسلام، حوالي ربع عدد الزعماء رفضوا الدعوة، وتعرضوا إلى الضرب المبرح، أحدهم توفي جراء جروحه، والبقية برئاسة الأمير نطقوا بكلمة الشهادة والتي لا يمكن استرجاعها، والفريق الذي امتلأ بالحيوية والمرح جراء نجاحه أرسل برقية إلى العاصمة مفادها أن بضعة آلاف من العوائل الأيزدية قد اعتنقت الإسلام - إعلان سابق لأوانه كان يأمل أن يسانده بإرسال رجال دين وإداريين وجنود إلى كل قرية في الشيوخان -.

ميرزا بك وشقيقه بادي بك وأمير آخر كوفتوا على اهتدائهم بلقب الباشا، كما منح كل منهم راتب قدره ألفا قرش (١٨ جنيتهاً سترلينياً) شهرياً، وبناءً على طلب من الفريق بعثوا برسالة منطوية على الرياء من عبارات الشكر إلى السلطان، الذي تحت رعايته تركت طائفتهم كلها المؤلفة من ١١٠٠٠٠٠ أيزدي طريق الخطأ والجهل باتخاذ الصراط المستقيم (حاشية مكتوبة بخط يد عمر وهبي باشا تقترح بان ترسل نسخة منها إلى جريدة استنبولية) لكن شقيقاً آخر للأمير وهو علي بك (الذي يحصل على اسمه من لا يارد) رفض تغيير ديانته فأودع السجن.

في حين حمل مبعوث طلب التماس يحوي على أكثر من مائة اسم بما فيهم اسم أحد الأمراء الأيزديين إلى سيوفي، وصرح المبعوث بأن الطائفة

الأيزدية على استعداد تام لاعتناق المسيحية، فأجاب نائب القنصل بأنه غير قادر على قبول اقتراح كهذا في هذا الوقت غير الملائم، لكنه وعد بأن يفعل كل ما في وسعه لمساعدتهم.

وحت سيوفي الفريق الذي كان قد أصبح على صداقة وطيدة معه باستخدام أسلوب الاقناع بدلاً من القوة والعنف، وحذره من مغبة استخدام هذا الأسلوب الذي سوف يجلب عليه انتباه الحكومة الفرنسية (وسرعان ما علم بأن هذا التهديد كان فارغاً ولا محل له، خلال أسبوعين أمر سيوفي من قبل سفيره في استنبول بعدم التدخل في الشؤون الأيزدية) في مثل هذا الوقت وصل الوالي الجديد عثمان باشا إلى الموصل، وجهاء المدينة المسلمون والمسيحيون على السواء كانت خشيتهم من أساليب عمر وهبي باشا الاعتباطية تزداد وأربعهم حقيقة أن القلاقل في الشيخان قد تلحق الضرر بالمؤن والمواد الغذائية، لكن الوالي الذي كان عاطلاً عن العمل ست سنوات وأراد فترة من الوقت لدفع ديونه، خشي تحدي الفريق المتنفذ، وفي منتصف أيلول دون أن يتحمل مشقة إعلام الوالي أرسل عمر وهبي باشا بعثة عسكرية عقابية إلى الشيخان، قائدها الذي وصفه سيوفي بالاندفاع وقلة الخبرة كان عاصم بك ابن الفريق نفسه البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، ورشيد أفندي عمر، الذي يكبره ببضع سنوات، شخص تافه من عائلة موصلية عريقة. تألفت القوة من مئات من الجنود العاديين في الجيش خلافاً لأهالي جبل سنجار، فأيزديو شيخان عبارة عن فلاحين ولا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم في مواجهة هجمة عسكرية، اختلفت المصادر عن عدد القرى التي ذكرت وما رافقه من قتل ونهب

واغتصاب، إحدى الحوادث الأكثر إثارة للمشاعر سجلتها عدة مصادر بخصوص مجموعة من شابات قرويات اختفين من الجنود في إحدى حقول القمح لكنهن هلكن بعد أن أضرم الجنود النار في الحقل.

بعد أسابيع قليلة وضع عمر وهبي باشا اللوم على سيوفي والآخريين متهماً إياهم بإثارة الأيزديين والتسبب بمقتل ٣٠٠-٤٠٠ شخص، والذين أفلتوا من الموت فروا من بيوتهم، بعضهم بحث عن ملجأ في الجبال إلى الشمال، بينما مجموعة أخرى يقودها كوجك يدعى ميرزا شقت طريقها نحو سنجار.^(١)

لكن هدف الحملة كان معبد لالش، كاتب عثماني تمكن من الحصول على الوثائق الرسمية للدولة درج المواد التي أخذت من المعبد كالتالي:

- عدد خمسة طاووس برونزي (حضرة داوود، شيخ شمس الدين، يزيد بن معاوية، شيخ آدي، وحسن البصري).
- خليل الرحمن كوجي، تمثال برونزي في صورة كبش.
- العصا البرونزي لموسى.
- أفعى برونزي.
- الشحرور، عندليب برونزي.
- كمر بند السيد احمد الرفاعي^(*).
- مسبحة السيد احمد البدوي (المسمى بالشيخ أحمد الكبير من قبل الأيزديين).

(١) ص. اصطيفان ريس: الأيزديون، قالا دصريرا (أورميه)، العدد ٢ (١٨٩٨-١٨٩٩)، الملفات ١١٣ أ - ١١٦ ب.

(*) راجع الفصل الثاني.

• مشط الجنيد البغدادي (زعيم صوفي من القرن التاسع، وهو معلم الحلاج).

• قضايا مصنوعة من الخشب تخص الشيخ عبد القادر الكيلاني.

• كأس برونزي له علاقة بمجد سليمان.

ما لم تضمه المنهوبات كان الطاووس العظيم وكتابان مقدسان أخفق جنود عاصم بك في العثور عليها، القضايا الأخرى المقدسة أخذت إلى الحامية العسكرية في الموصل، وبعد ذلك نقلت إلى مقر قيادة الجيش في بغداد (وحسب أحد المصادر، كان مكان اختباء الطاووس العظيم قد أفشي إلى العثمانيين فصدر هو الآخر).

في فترة لاحقة من ذلك الشهر زحفت الحملة العسكرية على بعشقة وباهزان مدمرة عدداً من المعابد الخاوية حتى أن قمصان القرويين مزقت عن أجسادهم ليتشابهوا مع العرب، وحظر التفوه بكلمة (أيزدي)، لكن أحد المراقبين لاحظ بانه عندما أمر الأيزديون بلعن الشيطان فإن عدداً كبيراً منهم كان يتمتم بما يشبه كلمة (السلطان)، ومراقب آخر كتب بأن الأيزديين كانوا يتجمعون وفق الأوامر لأداء صلاة الجمعة، لكن ما أن ينتهي الملا من ١٥ دقيقة من الخطبة حتى كان الجمع قد تفرق ولم يعد هناك أحد.

ذو علاقات سيئة مع سيوفي مكروهاً من قبل تجار الموصل، وخشية أن تكتشف الحكومة المركزية أمره وتحاسبه استخدم الفريق الموسيقى العسكرية وبصورة مستمرة للتخفيف من ثقل عبئه، فيما أبقى علي بك ورفاقه المتمردون في السجن، وأخضعوا للتعذيب، وبعد شهرين من

الحجز وصلت الأوامر من استنبول تفيد بأنه يتوجب نفيه إلى كاستاموني في شمال الأناضول.

في مثل هذا الوقت كانت المعلومات قد وصلت إلى استنبول حول تجاوزات وإفراط عمر وهبي عبر قنوات عديدة، كانت وزارة الخارجية البريطانية قد أخطرت بهذا الأمر في أيلول عام ١٨٩٢ من قبل هرمز رسام، الذي كان متقاعدًا والذي حصل على تقريره من أندروس لكن المرسل كان قد حذر من (أن التدخل بين السلطان ورعاياه قد تكون له عواقب وخيمة على هؤلاء المواطنين، باستثناء الحالات التي تسمح حكومة جلالته بالتدخل).

وبطريقة لبقة تلافى الجواب الإشارة إلى ملاحظة نائب الوزير إلى وزيره:

**في الحقيقة لا أرى ما يدعونا للتدخل نيابة عن عبدة
الشیطان، وإذا كان صحيحاً ما يوصفون به فإن اتخاذ
موقف تجاههم هو انتحار بعينه.**

افتتح الفصل الأخير من الدراما في بداية تشرين الأول من العام ١٨٩٢ عندما توجه ابن الفريق عاصم بك إلى سنجار على رأس خمس كتائب من الجيش النظامي.

بعد أيام قليلة وصل إلى الموصل رجل دين انجليكاني وهو القس أوزوالد هـ. باري برفقة أحد مساعدي أندروز، كان في رحلة تفتيشية إلى المجمع التعليمي الباترياركي السوري، وكان قد قضى ستة أشهر برفقة المطران اليعقوبي أكناتيوس الرابع والثلاثين بيتر الرابع في دير الزعفران خارج ماردين، وكانت علاقته جيدة مع أفسس أندروز

الذي أعطاه رسالة تعريف موجهة إلى جرميا شامير وكنتيجه تم تعريفه جيداً بالشؤون الأيزدية.

في مساء يوم الرابع من شهر تشرين الثاني من العام ١٨٩٢ توقف صوت الموسيقى المتأتي من مبنى الحكومة، أخبر جرميا السيد باري بوصول أخبار سيئة من سنجار، وحسب كلمات باري فإن:

جنود الفريق كانوا قد أرسلوا إلى القرى الأيزدية على المنحدرات الجنوبية لجبل سنجار، وكانوا يستعدون لنهب البيوت التي كان أهلها قد أخلوها فارين دون أن يكون لديهم متسع من الوقت لحمل ممتلكاتهم معهم إلى مكان أمين بين الصخور، عندها عاد عدد من الزعماء مجاهرين بإسلامهم مع تعهد بأنه إذا ما سلمت قراهم من النهب فإنهم على استعداد لإيواء الجنود، وفي الليل القيام بمفاجأة القرى الواقعة على السفوح الشمالية للجبل، حيث قوبلوا بوابل سريع من الرصاص، بينما أسرع أدلاؤهم للالتحاق بأصدقائهم الذين كانوا يقفون في مجموعتين على طرفي الوادي الضيق، وما هو أسوأ أن الجنود اكتشفوا أن القليل من إطلاقاتهم كانت فاعلة لأن البارود كان قد استبدل سراً بالغبار أو الرماد، قد لا يصدق الأمر إلا أنه قيل بأنه طالما قام المسؤولون باللجوء إلى هذه الوسائل لإغناء أنفسهم. على كل حال تراجع الجنود غير المخطوظين قدر ما أمكنهم، ليجدوا أن القرى قد أصبحت الآن خالية من أهاليها، وليس هناك الكثير من المؤن والمواد الغذائية ليعتاشوا عليها، الاعتقاد بأن عدد القتلى قد وصل إلى مائة تحقق منه عن شهادة جندي جريح جيء به إلى الموصل بعد أيام.

في تلك الليلة حصل خسوف كامل للقمر وهال باري وأصحابه أصوات أبواق المواطنين الغاضبين والطّرق على الأواني، صعدوا إلى سطوح بيوتهم، حيث (الهواء الصافي العليل، وأفق الفضاء الواسع، والجمال الرائع لليل شرقي شكلت معاً أحد أروع الليالي التي يمكن تصورها).

بعد أربعة أيام تلقى الوالي برقية من أستنبول يعيد طلباً سابقاً لتقرير حول نشاطات الفريق أخفق عثمان باشا في إرساله.

باقياً على عناده وإلى آخر لحظة، غادر عمر وهبي باشا الموصل في ١٨ تشرين الثاني للانضمام إلى جنوده يرافقه الأمير السيء الحظ ميرزا بك، وفي الطريق قام الفريق بتجنيد آلاف القرويين سكان الخيم العرب كقوة مساعدة (برقية من أستنبول أمرته بإخلاء سبيل هؤلاء المجندين وإرسالهم إلى بيوتهم) بعد أيام قليلة أرسل الفريق إلى الموصل ما يفيد بأنه قد حقق نصراً كبيراً على الأيزديين، ملحقاً بهم إصابات تتجاوز المائة مقابل جرح ضابط وأربعة جنود. لكن الإشاعات أفادت بأن الجيش في الحقيقة أصيب بهزيمة أخرى، ودعمت هذه الإشاعات طلب الفريق بالتعزيزات، العتاد والمعدات الطبية بالإضافة إلى عرضه غير المتشدد على أيزديي سنجار، حيث يسمح بموجبه الاحتفاظ بحرية ممارسة معتقداتهم الديني على شرط أن يدفعوا ضرائبهم المستحقة والمتأخرة وإعادة البنادق التي أخذوها من الجنود (الاستحواذ على البنادق كان من عمل حمو شرو، من قبيلة الفقيران، القادمين الجدد إلى جبل سنجار).^(١)

(١) سي. جي. إدموندز: حجة إلى لالش، ص ٦٠.

في التاسع من كانون الأول من العام ١٨٩٢ وصلت برقية من السلطان عبد الحميد نفسه تقضي بفصل عمر وهبي باشا من منصبه، وتأمّره بالبقاء في الموصل إلى حين وصول اللجنة التحقيقية، وعليه أن يكون على استعداد للإجابة على التهم الخاصة باستخدامه للقوات العثمانية في القتال دون إذن من وزارة الحرب، وبعد مرور أربعة أشهر رجع الفريق إلى العاصمة مهاناً (ولسخرية القدر كانت إحدى التهم الموجهة إليه هي التفوه بأقوال مهينة عن الإمام الحسين حفيد محمد، وذلك عندما علّم بان ضريح أحد المنحدرين من الحسين كان قد دمر من قبل عاصم بك بطريق الخطأ متوهماً أنه معبد أيزدي).

استمر الوضع في جبل سنجار بالتوتر عبر العام ١٨٩٣، العرب الشمر رفضوا إعادة الماشية التي أودعت بعهدتهم في قتال العام المنصرم، والذي أدى إلى عدم تمكن الأيزديين من دفع ضرائبهم المتأخرة، قام كوجك ميرزا بإثارة رجال القبائل وذلك بالتنبؤ بقرب انهيار الإسلام، حيث سيتبع بعهد تسود فيه العدالة عندما يحكم الأيزديون الأرض. وفي تموز كتب سيوفي وهو على وشك التقاعد إلى مراجعه بان قائد اللواء بكر باشا، قائد حامية الموصل، قد قام بتحريك عدد من الكتائب إلى سنجار.

وفي تشرين الأول من العام ١٨٩٣ تجدد القتال الذي لحق فيه بكل من الجانبين حوالي ١٠٠ إصابة. وأخيراً وافق سوفوك آغا الزعيم الأيزدي على إجراء المفاوضات، أرسل الكوجك إلى الشيخان ومعه مليون قرش (٩٠٠٠٠ جنيه سترليني) المبلغ الذي يفرض أنه جمعه من أتباعه (بنى قصراً لنفسه وحث الأيزديين على إرسال صدقاتهم له بدلاً

من لالش، وبعد فترة قُتل، يقال كان ذلك بناءً على أمر من الأمير ميرزا بك) ساد الامن والسلام في الجبل، لكن العثمانيين أبقوا على قوة كبيرة في بلد سنجار.^(١)

* * *

تم تأجيل إبادة الأيزديين لكن الطائفة كانت قد عانت من اهتزاز عنيف نتيجة هذه الاضطرابات.

على أقدام جبل طور عابدين غرب سنجار، أعتنق، زعيم أيزدي يدعى حسن كنجو الإسلام وانضم مع رجال قبيلته إلى فرسان الحميدية، وسرعان ما أصبح اليد اليمنى لإبراهيم باشا، الزعيم الملي القوي، والذي كان يتمتع بمكانة خاصة لدى السلطان عبد الحميد، وحسب أحد المصادر فإنه هو الذي نصح السلطان باستدعاء عمر وهبي باشا إلى العاصمة.

يوصف حسن كنجو من قبل زائر بـ (شيخ طويل القامة، ووجه توطره حية طويلة مناسبة، يتقدم بخطى ثابتة) بنى قلعة على سفح خال من الأشجار في هاللي شرق ويرانشهر ليكون موقعاً يتم منه مقاتلة

(١) أرشيفات الخارجية الفرنسية، الموصل، المجلد ٤، برقية سيوفي المرقمة ٥ في ١١ تموز ١٨٩٣ وبرقية الريك المرقمة ٣ في ٢٣ تشرين الثاني ١٨٩٣ إلى الوزارة. ماكس فريهر فون أوبنهايم Vom Mittelmeer Persischen Golf المجلد ٢، ص ١٥٣-١٥٤. بير أنستاس ماري دي سانت - إيلي: اليزيدية، المشرق، العدد ٢ (١٨٩٩) ص ٨٣٤-٨٣٥. روجر لسكوت: Enquete sur Yezidis de Surie et du Djebel sindjar ص ١٨٣. صديق الدمولوجي: اليزيدية، ص ٥١٠.

الشمر وقبائل الصحراء العربية الأخرى^(١) رجاله وعائلاتهم، الذين يبدو أنه سمح لهم بالاحتفاظ بديانتهم الأيزدية، عسكروا حول الحامية.

الطائفة الأيزدية الصغيرة في جبل سمعان - غرب حلب - حافظت على هويتها وكانت أحياناً تزار من قبل الرحالة، لكن القرى كانت ملزمة بتزويد الجيش بالجندين الذين أرسل أغلبهم إلى حامية اليمن ولم يعودوا إلى ديارهم أبداً.^(٢)

في شمال وادي دجلة والفرات كانت الطوائف الأيزدية تضمحل نتيجة الاضطهاد، والغارات الكردية، والهجرة إلى سنجار، وبدرجة أقل الهجرة إلى ما وراء القفقاز.

في الموصل كان عثمان باشا المكسور الفؤاد قد استبدل بوال جديد هو عزيز باشا الذي أشاع السلام في ربوع جبل سنجار، وسمح للأيزديين في الشيخان بممارسة طقوس ديانتهم مرة أخرى.

ميرزا بك والزعماء البارزون الآخرون الذين اعتنقوا الإسلام عنوة عادوا إلى ممارسة عقيدتهم القديمة (رغم أن علي بك بقي في المنفى)، ثمن هذه التنازلات من قبل السلطة هو فرض نظام التجنيد العسكري عليهم، واستمرار المدارس الإسلامية في القرى على أن يكون الانخراط فيها

(١) أوبنهايم: Die Beduinen، المجلد ١، ص ١٣٩. د. م. ويدمان: الكرد في شمال ميسوبوتاميا، Asien، العدد ٤ (١٩٠٤)، ص ٧-٨، و Ibrahim und Ende Paschas Glück، آسيان، العدد ٨ (١٩٠٨-١٩٠٩)، ص ٣٧ و ٥٢-٥٣. هيرد، مجلة المعهد الملكي الانثروبولوجي لبريطانيا العظمى وإيرلندا، العدد ٤١ (١٩١١)، ص ٢١٨.

(٢) بير دي فونكلاير، مخطوطة غير منشورة كتبت في حوالي العام ١٨٧٥. لامينس: Une visite dux Yezidis ou adoreurs du diable علاقات الشرق (بيروت) ١٩٢٩، ص ١٥٧-١٧٣. كرتروود لوثيان بيل: الصحراء والمزروع، ص ٢٧٩-٢٩٦.

اختيارياً، وتسليم معبد لالش إلى دراويش مسلمين جعلوا منه معتزلاً وأداروا فيه مدرسة دينية وباتت السناجق والمواد الدينية الأخرى بحوزة الدولة.^(١)

وفي ربيع العام ١٨٩٤ أذن عزيز باشا لصحفي اسباني يدعى ساتورنينو أكسمنس آتٍ من استنبول بزيارة إلى الشيخان. بدأت الرحلة من نينوى بحفلة في الهواء الطلق عند آثار القصر الآشوري حضرها المسؤولون وموظفو الحكومة، وضباط الجيش، وزعماء العرب، ووجهاء الكلدان، والرهبان الدومينيكان، وميرزا بك نفسه برفقة أخيه بادي بك، وفي اليوم التالي غادر الصحفي باتجاه باعدرى يرافقه ميرزا بك وأخوه وأبنائهم وخمسون خيالة أيزديين متسلحين برماح طويلة من خشب الخيزران. وفي هذه الأثناء أراد الابن الأصغر للأمير وهو في الخامسة عشرة من عمره أن يستعرض فروسيته بالعدو بفروسه بأقصى سرعة، وفجأة توارى عن الأنظار ليعود لاحقاً وقد أصفر وجهه صامتاً لا ينبس ببنت شفة مع ساق مكسورة نتيجة السقوط عن الحصان.^(٢)

بمنزل الأمير أخذ الصحفي إلى غرفة كبيرة مفروشة بالبسط والسجاد الفارسي حيث قدم العشاء، وفي الصباح التالي تحدث بإسهاب مع الأمير في غرفة بالطابق الأرضي مفروشة ببساطين، بينما كانت المياه تتدفق من النافورة إلى الحديقة خلال فتحة، بعد ذلك قام يصاحبه كوجك بالتجوال في بستان وجلس على حافة بركة صغيرة، حيث تبادلوا أطراف الحديث

(١) نوري / منزل / كروث، المجلد ١، ص ١٦٦. الدمولوجي: اليزيدية، ص ٤١٧. جلبي، ص

٢٥٢. عباس العزاوي، تاريخ اليزيدية، ص ١٤٧-١٤٨، هنري فيلد: انثروبولوجيا العراق، الجزء الثاني، أولاً، الجزيرة الشمالية، ص ٩٠.

(٢) زيميز، أرشيفات آسيوية، العدد ١ (١٩١٢) ص ١٨-٢١.

في ظل شجرة رمان يراقبون سقوط أوراق الزهور الحمراء من الشجرة إلى الماء ليكتسي سطحه بلون أحمر قان كالدّم.

كانت مفاجأة للأمير ميرزا بك عندما سأله الصحفي فيما إذا كان يرغب بمرافقته لزيارة معبد شيخ آدي، وبعد يومين من التداولات مع الوجهاء الذين تم استدعاؤهم على عجلة وافق على الرحلة التي كانت قد رتبت مقدماً من قبل الصحفي بالاتفاق مع الباشا، وعندما غادر الأمير منزله في الصباح التالي مع أخيه وابنائه، كانت باعدرى تغص بالأيزديين المئات ممطين خيولهم والآخرين يمشون على الأقدام حاملين بنادق من نوع مارتيني - هنري ورجال الشرطة المعدودين القائمين على خدمة الصحفي رافقوهم بتوتر.

أشرقت الشمس بينما كان الموكب يصعد الممر الضيق في هدوء تام، وأخيراً لاحت القبة المخروطية من خلال الأشجار، الأيزدي المتقدم رفع رمحاً فوق رأسه في صرخة حادة مرتلاً الأبيات الأولى من ترنيمة دينية، التقطها الذين كانوا في عقبه إلى أن امتلأ الوادي كله بالغناء.

الدراوشة لم يحاولوا منع فيض الحجاج الذين انتشروا بين الضرائح والمعابد غير المنسية والجيدة الذكر محتضنين البوابات وهم يقبلون بقدسية مياه الينبوع.

وبعد مناقشات طويلة وافق شيخ الدراويش على فتح المعبد الذي كان قد حُول إلى مسجد الآن، لم يرَ الصحفي سوى حجرة مظلمة اسودت جدرانها نتيجة الدخان، لكن كان بمقدور الأيزديين أن يروا كل شيء، البقعة الفارغة حيث كان من المعتاد أن يحتفظ فيه بالطاووس

العظيم، المسامير التي كانت عليها التعاويذ الدينية ذات مرة، وتابوت الشيخ آدي المكشوف وقضايا أخرى كثيرة إلى جانبه.

أحضر خدم الصحفي غداءً خفيفاً له، حيث دعا الأمير إلى مشاركته لكن الدعوة ردت بلباقة واحترام، غادروا الشيخ آدي حوالي الساعة الرابعة مساءً، ووصلوا باعدرى عند سقوط الليل عند مدخل منزل الأمير وعندما ترجلوا من خيولهم قبل الأمير يد الاسباني.

في العام ١٨٩٧ أخذ اللورد ووركوورث مغامر شاب وعضو في البرلمان البريطاني، على عاتقه معاينة الولايات الشرقية في الامبراطورية العثمانية.

في طريقه من العمادية إلى الموصل مر بمعبد لالوش المهجور، الباحات والمباني المحيطة بها كانت خراباً، وما بقي في المبنى الرئيسي كان مقتصرأً على الجدار الخارجي والسطح فقط والملا الذي كان يحتفظ بالمفتاح إلى ضريح الشيخ آدي كان غائباً، والمسافر واصل طريقه إلى الموصل.^(١)

* * *

توفي ميرزا بك في العام ١٨٩٩، والسنوات الأخيرة من عهده تخللتها إذلالات جديدة بما فيها الطلب منه بتجديد ولائه للإسلام أو فقدان راتبه، وفي شهر مارس من العام ١٨٩٩ أخبر رحالة ألمان بأن والي

(١) هـ. أ. ك. بيرسي: لورد ووركوورث، ملاحظات من زيارة إلى تركية الآسيوية، ص ١٨٤-١٨٦. الصور التي التقطها ووركوورث لضريح الشيخ آدي المهدم محفوظة في مكتبة قلعة ألنويك.

الموصل كان قد أَمَرَ الأمير وإخوانه بالذهاب شخصياً إلى سنجار لجمع الضرائب.^(١)

الأخ المنفي علي بك الذي كان قد رفض بعناد أن يصبح مسلماً، كان قد سمح له بالعودة إلى بيته في العام ١٨٩٨ وذلك بعد توسط دائرة السفارة البريطانية وبعد موت ميرزا بك انتخب أميراً وكان يبلغ فيها الثالثة والخمسين من العمر لكن العثمانيين حصروا صلاحياته في الأمور الدينية، تساعده زوجته ميان إينة عبيد بك الذي كان قد شاركه منفاه، شرع الأمير الجديد بمداواة جروح السنوات العشر الماضية مادياً وروحياً.^(٢)

في سنجار كان الاستياء يزداد نتيجة الدمار الذي أتى به عليهم عمر وهبي باشا.

وفي نيسان من العام ١٩٠٦ سافر الرحالة البريطاني الشاب مارك سايكس - الملحق الفخري بالسفارة في استنبول، مغامر مثل لايارد لكنه أقل تسامحاً - على طريق القوافل القديم حلب الموصل، حيث كان المهندسون الألمان قد بدأوا العمل على خط سكك الحديد إلى بغداد، وبعد توقف في ويرانشهر لزيارة إبراهيم باشا ومساعدته الذي كان أيزدياً في السابق، عبر سايكس الصحراء ووصل معسكراً للأيزديين على السفوح الغربية لجبل سنجار.

(١) ف. فان دن ستين دي يهاي: الوضع القانوني لغير المسلمين في الامبراطورية العثمانية، ص ٤٠٢-٤٠٣. سي. ف. ليهمان - هاوبت: Armenien Einst und Jetzt المجلد ٢، القسم الأول، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٢) هيرد، مجلة المعهد الملكي الانثروبولوجي لبريطانيا العظمى وإيرلندا، العدد ٤١ (١٩١١) ص ٢١٨. سعيد الديوجي: اليزيدية، ص ١٩٢.

كاتباً بأسلوبه الطريف الذي كان أسلوباً سائداً يومذاك بين المكتشفين، يصف كيف أن الزعيم (رجل له سيماء غريبة وشريرة، استقبلنا بتحفظ مخيف) بينما (أعداد من رجاله ذوي الأردية البيضاء دخلوا وهم يحرقوننا بنظرات شذرة في سكون مريع) ولاحظ أن:

ملابسهم غريبة بشكل متطرف، على الرأس قبعة بنية طويلة مخروطية الشكل، ملفوفة حولها عمامة سوداء أو حمراء، والجسم يغطيه ثوب منسدل طويل أبيض، له فتحة مربعة في منطقة العنق، وعباءة قصيرة من الخلع البني، وأحذية ذات رؤوس مستدقة معقصة تكمل هذه الصورة. عندما لاحظ هذه الاشكال اللافتة للنظر حولي، بدا لي كأنما تراجع الزمن لأكثر من أربعة آلاف سنة إلى الوراء، وكنت جالساً وسط أناس بدائيين ومنسيين، كالذين نحتوا آثاراً تذكارية همجية لهم على الصخور في أفريز [كتابة حثية غرب قونية].

وعندما عاد سايكس إلى معسكره، وجد (أن حشداً من الرجال الصامتين يبطن وعن عمد يقومون بتفحص أغراضه) لكنه اطمأن لاحقاً نتيجة وصول (شيخ خو)، الذي وجده سايكس:

يتمتع بصفات مبهجة أكثر من الآخرين. . دخل إلى خيمتي، واستضافته على أحسن وجه، قال: لو نشبت الحرب بين فارس وتركيا (وكانت تعتبر آنذاك محتملة) فإن رجال سنجار سوف يقتلون كل مسلم يتمكنون الوصول إليه، شعور أيده البقية بقوة، وفي الحقيقة فإن الصيحات الفردية التي كانت تشير إلى استحسانهم لخطاب رجل

الدين كانت العلامة الوحيدة التي تدل على الحيوية
والنشاط التي لاحظتها فيهم طوال ذلك اليوم.

وفي صباح اليوم التالي توجه الصحفي إلى بلدة سنجار، حيث وجد
روحاً طيبة في شخص الإداري العثماني:

بالولادة عربي من الموصل، من عائلة عريقة، ذات غنى
و ثراء ويعمل لدى الحكومة لإلهاء نفسه وليس لكسب
المعيشة. . الناس تكيل له المديح بصوت عال ولأسباب
موضوعية جيدة، لا يأخذ الرشاوى، ويحافظ على
الأمن، ويعاقب المجرمين.^(١)

كان الدراويش لا زالوا في لالش في العام ١٩٠٤، وفي شهر مايس
من تلك السنة قرر القس و. أ. ويكرام من البعثة الأسقفية القيام برحلة
جانبية إلى نينوى والموصل ماراً عبر جبال هكاري، وفي طريق عودته
توقف عند معبد الشيخ آدي، ووجده مهجوراً باستثناء الكردي المنوط
به اتخاذ العناية، المباني الحجرية لم يمسه شيء، وهي محاطة بالأحراش
والنباتات الشوكية، وقد انهار السطح في أماكن معينة، القبة فوق ضريح
الشيخ آدي كانت قد دمرت بحيث تسمح لضوء الشمس بالدخول إليه.
ذهب ويكرام إلى السرداب (منطقة لم يرها الزوار من قبل) لكنه لم يرَ
سوى القليل وذلك بفضل (الشمع القليل الباقي في الموقد)^(٢) وفي وقت

(١) سايكس: رحلات في شمال ميسوبوتاميا، المجلة الجغرافية (لندن)، العدد ٣٠ (١٩٠٧)، ص

٣٨٨-٣٩١ و ٣٩٨. كذلك مؤلفه: آخر تركة للخليفة، ص ٣٣٣-٣٣٦.

(٢) و. أ. ويكرام: ضريح عبدة الشيطان، QP، رقم ٥٧، ١٩٠٤، ص ٦٥٢-٦٥٧.

لاحق من تلك السنة أعيد المعبد إلى الأيزديين من قبل والي موصل الجديد مصطفى نوري باشا.^(١)

وفي صيف عام ١٩٠٦ وجهت دعوة إلى مبشر بريطاني من الموصل^(*) من قبل الأيزديين لزيارة لالش، لاحظ المبشر أن معبد الشيخ آدي مبني على هيئة الكنائس مع برج تم انشاؤه مؤخراً، والأفعى على المدخل (حفوظ على اسوداده يومياً باستخدام الفحم من قبل اثنين أو ثلاثة من رجال الدين الذين يعيشون في المعبد بينما الضريح احتوى بداخله فقط على بركة من الماء، قالوا بأن مياهها تستخدم من قبلهم للمعمودية، ولم يحتوي الضريح سوى على اليسير إلى جانب الحيطان العارية.^(٢)

كان سقوط عبد الحميد من صنيعة المجتمع السري، لجنة الاتحاد والترقي المعروفة بالترك الشباب، والتي استطاعت النفاذ إلى داخل الفرعين المدني والعسكري للمؤسسة العثمانية.

وفي تموز من العام ١٩٠٨ تحدت مجموعة من ضباط الجيش في مقدونيا السلطان وهددت بالزحف على استنبول، وخلال أيام قلائل استجيب لمطالبهم وظهر إلى الوجود نظام برلماني، وكان عبد الحميد سلطاناً مقيداً بالدستور بعد ثلاثة عقود من الحكم المطلق، الثلاثون ثانية التي أستغرقت عملية تنصيب عبد الحميد كانت قد أعلنت بها بافتتاح خط سكك حديد الحجاز، حمل قطار خاص مجموعة من المسؤولين على

(١) جلبي، ص ٢٥٢. الغزاوي، ص ١٤٨: فيلد: شمال الجزيرة، ص ٩٠.

(*) في العام ١٩٠١ قام مجتمع الكنيسة التبشيري بتولي أمر البعثة التبشيرية في الموصل من المشيخة الأمريكية محققاً بذلك رغبة كريستيان رسام التي طالما أعتز بها.

(٢) م. إي. هوم - كريفت: وراء الستار في فارس والجزيرة العربية، ص ٢٨٩-٢٩١.

طول الطريق الممتد ٨١٤ ميلاً من دمشق إلى المدينة، وقد أستقبلوا في كل الخطوات الرئيسية من قبل فرق عسكرية تعزف نشيد الحميدية، ومن بين وحدات الجيش التي حضرت الاحتفالات في دمشق ٨٠٠ خيالة يقودهم إبراهيم باشا، حيث وافق الزعيم الملي بعد تردد على تزويد القوة الخاصة بحماية السكة الحديدية بحراس، بينما احتفظ بقواته الرئيسية لتعزيز نفوذه في جنوب شرق الأناضول.

شعرت الحكومة في استنبول بوجود فرصة للتخلص من إحدى أعمدة النظام القديم، لذا أصدرت الأوامر إلى دمشق بنزع أسلحة عساكر إبراهيم باشا وإرسالهم إلى بيوتهم وطلب من قائدهم مواصلة المسير إلى العاصمة، ومجيباً بأنه سيتنازل عن أسلحته في حلب توجه إبراهيم باشا إلى الشمال، وفي حركة سريعة قاد قواته عبر الصحراء إلى ويرانشهر متجنباً القوات العثمانية التي كانت تتبعه، وفي شهر تشرين الأول من العام ١٩٠٨ قام الجيش النظامي بضرب الحصار على ويرانشهر، وبعد فترة وافق إبراهيم باشا على الاستسلام، لكن بعد أن وضع رجاله أسلحتهم سمع صوت إطلاق النار وخشية من أن تكون مكيدة فر إبراهيم باشا من ويرانشهر مع عائلته وبقية قوته الخيالة، الزعيم المسن الذي كان يعاني من الديزنطري رُبط على ظهر جمل لكونه ضعيفاً وغير قادر على إسناد نفسه في الركوب، وجد المتمردون الحماية لدى حسن قنجو في هاللي لكن العثمانيين حاصروا القلعة واستسلم حسن قنجو دون مقاومة. فر إبراهيم مرة أخرى برفقة عائلته وعدد قليل من رجاله قاصداً جبل

سنجار، لكن قواه كانت قد خارت وفارق الحياة قبل الوصول إلى الجبل، والباقون على الحياة استسلموا للقوات العثمانية في نصيبين.^(١) وبعد أن أقتيد حسن قنجر إلى الأسر، أضرم الجنود العثمانيون النار في الخيام المضروبة حول القلعة.

قام ألفس أندروز بتوفير الطعام والمأوى لكثير من اللاجئين الأيزديين الذين وصلوا إلى ماردين، وكتب إلى الهيئة الأمريكية بأنه من مجموع ٤٥٠٠ - ٥٠٠٠ من الأيزديين التابعين لإبراهيم باشا قتل منهم ٤٠٠، و ٣٠٠ من النساء والأطفال مفقودون، والمجموع يشمل حوالي ٣٠٠ شخص صنفوا في عداد الذين ماتوا من الخوف.^(٢)

وفي نيسان من العام ١٩٠٩ قامت حامية استنبول بالإطاحة بالحكومة الجديدة، لكن قضي على المحاولة بعد أيام قليلة من قبل جنود من مقدونيا وأجبر عبد الحميد على التنازل وتوفي بعد تسع سنوات في قصر على الساحل الاسيوي من مضيق البوسفور.

مكتبة السلطان السابق في قصر يلدز أعتقد بأنها كانت تحتوي على مخطوطة عربية مجهولة المنشأ، موجودة حالياً في جامعة أستنبول، وهي تصف الديانة والعادات والتقاليد الأيزدية، وتضمنت المخطوطة نصوصاً

(١) سقوط إبراهيم باشا، مقال مؤرخ في تشرين الثاني ١٩٠٨ نشرت في الشايمز في ١١ كانون الثاني ١٩٠٩، ص ٦.

(٢) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧ و ٩ و ١٦، المجلد ١٩، بعثة شرق تركيا (١٩٠٠-١٩٠٩) المجلد ٣، المادتان ١٤٠ و ١٤٢ رسالتا أندروز في ٢٣ تشرين الأول ١٩٠٨ و ٢ كانون الثاني ١٩٠٩ إلى بيت.

من كتبهم المقدسة، وأصل هذه الوثيقة التي تمت كتابتها في العام ١٩٠٧
يتم مناقشتها في الفصل التالي.^(١)

إن أحداث الأعوام ١٩٠٨-١٩٠٩ تعتبر بداية اضمحلال وسقوط
الامبراطورية العثمانية والقوى العظمى في أوروبا كانت تشحذ
سكاكينها، بينما داخل المجتمع المنهار كل طائفة كانت تتهيم
بشؤونها، العمالقة القلائل من الماضي ماتوا في فترة حكم عبد الحميد
مات ستراتفورد كننغ في العام ١٨٨٠ عن عمر ناهز الثالثة
والتسعين، ومولتكه الذي خدم جد السلطان وعاش ليشهد النفوذ
الألماني مرة أخرى يهبط على استنبول توفي في العام ١٨٩١، ولايارد
المتقاعد منذ ١٨٨١ مات في العام ١٨٩٤ ليعمر أكثر من غريمه القديم
بيرسي بادجر بست سنوات، وأخيراً وفي العام ١٨٩٦ مات ويليام
أينسوورث الشخص الأخير الباقي على قيد الحياة من أعضاء البعثة
الاستكشافية إلى كردستان، وكان في التسعين، وقد دفن سره معه في
القبر، وتوفي جرميا شامير في العام ١٩٠٦ عن عمر ناهز ٨٥^(٢)
وهو لاعب ذو دور صغير في دراما عهده، لكنه ترك خلفه وقوداً لمجادلة
أدبية لا زالت تغلي إلى يومنا هذا.

(١) بير أ. خاليفي، SJ، الأيزدية (مخطوطة)، المشرق، العدد ٤٧ (١٩٥٣)، ص ٥٧١-٥٨٨.

(٢) توماس بوا: الأيزدية، المشرق، العدد ٥٥ (١٩٦١) ص ٢٢٤.

الفصل العاشر

نشر الكتب المقدسة

هناك رجل حسن معروف لقلة من الانكليز الذين زاروا الموصل، كان ذات مرة راهباً في دير ربان هرمز شرقي سوريا، والآن شماس في الطائفة المشيخية له تاريخ يستحق الكتابة خاصة اذا كان قد كتبه هو نفسه، لأنه كان رحالة انكليزياً قلباً سورياً قلباً، وكان شاهداً لاضطرابات كثيرة حدثت بين بني قومه، وتغيرات شهدتها المنطقة من أرزنجان إلى الموصل، لكن قبل كل شيء فهو شخص مهتم بكشف الأسرار ونشر الاشاعات، إذا كانت هناك أخبار من استنبول، فشماس سيكون الشخص الأول الذي يعمل كاتباً في القسم الثالث بدائرة البرق، أصبح أن المفتي قد أختطف زوجة الملاً وهرباً معاً ؟ شماس على اطلاع تام بالأمر، من الجائز أن يكون قد أضاف عليها من جعبته الخاصة أو حتى اختلقها. يتعامل أيضاً مع المخطوطات والكتب القديمة، الفارسية والعربية والسريانية، وأحياناً تحمس أكثر من اللازم في محاولاته الحمومة تلك. من بين الكتب التي كنت أدقق فيها، أراني كتاباً آخر جديراً بالثناء والاطراء، وصف شماس حقيقة الكتاب مبالغاً أصل وعمر الكتاب

إلى درجة أنه أضاف إلى قوله رغم حبه الشديد للذهب فإنه سوف يوفر علي هذه النفقة الباهظة. وفي صدق وصراحة، أخرج رسالة يقدرها عالياً باعتبارها دليلاً على استقامته وصراحته كبائع للمخطوطات، ولكن في الحقيقة تحتوي على ما ينم عن النذالة إلى درجة أنه ظهر أن الرسالة تحمل في طياتها معلومات أكثر حول الموضوع من أن يرغب الرجل العجوز الاعتراف بها، ومع ذلك فهو يقرأ ويفهم الانكليزية جيداً، حقيقة إن هؤلاء الناس يملكون حساً غريباً فيما يتعلق بالاستقامة أو مللاً أكثر مما يسند إليهم.^(١)

هذا الوصف الكلاسيكي عن جرميا شامير من قبل أوزوالد باري كُتب بعد أن هب الشماس من وضع مغمور وفقير مدقع ليصبح متعهداً للمكتبة الملكية البروسية في برلين لتزويدها بالمخطوطات والكتب باثني عشرة سنة.

كانت رحلة البروفيسور زاخاو إلى سوريا والعراق في العام ١٨٨٠ قد مولت من الميزانية الشخصية للقيصر الألماني كخطوة أولى في خطة بعيدة المدى لجلب مجموعات الكتب المشرقية إلى برلين لمعادلة تلك الموجودة في بريطانيا وفرنسا، بينما في الموصل قام زاخاو باستخدام جرميا للاستحواذ على الكتب والمخطوطات، رغم أنه سرعان ما اكتشف أن الشماس لا يعرف شيئاً عن الأدب الشرقي ويعتمد على الظن والتخمين لقراءة النصوص السريانية القديمة، لكنه كان يعلم أين يجد الكتب والمخطوطات، واستخدمه زاخاو معه لسنوات عديدة للحصول على مواد مختارة لمكتبة برلين، ومن بين المخطوطات التي

(١) أوزالد هـ. باري: ستة أشهر في دير سوري، ص ٢٥٢-٢٥٣.

حصلوا عليها عن طريق جرميا في العام ١٨٨٣ نص عربي لالتماس عام ١٨٧٢ الأيزدي المقدم إلى الحكومة العثمانية.^(١)

قان والس بدج مسؤول في المتحف البريطاني النافذ البصرة فيما يخص القديم بزيارته الأولى إلى الموصل في كانون الثاني وشباط من العام ١٨٨٩، إلتقى بجرميا شامير الذي وصفه كآلآتي: رجل صغير عجوز مفعم بالحوية، له عينان سوداوان عميقتان في وجه اكتسب الحكمة إلى حد ما، ذكي ومثقف، إن لم نقل بارع وماكر، وبصورة أو أخرى تمكن من معرفة كل الأمور.

وبعد إدراكه أن جرميا "ليس راضياً عن المعاملة التي يتلقاها من الألمان" أقنعه بدج بتغيير ولائه.

ومن بين مشتريات بدج بواسطة جرميا والمتعلقة بالأيزديين، مخطوط سميك من قطع الثمن مكتوب باللغة العربية، يحتوي على أشمل تاريخ لهذا القوم اللافت للانتباه في أي كتاب شهدته من قبل، من الجادلات والمناقشات والاتصالات استنتج بدج بأن الشماس ذو تفكير حر، لكنه لاحظ أن جرميا يعرف الكثير عن الأيزديين واعتقاداتهم وشك في أن أية عواطف دينية يملكها هذا الرجل فإنها موجهة إلى الأيزديين، لأن المخطوط كان الشيء الوحيد الذي رأيته يهتم به شخصياً.^(٢)

(١) د. ادوارد زاخاو: Reise in syrien und Mesopotamien، مقدمة الكتاب والصفحة ٣٥٥. السير إي. أ. والس بدج: عبر النيل ودجلة، المجلد الثاني، ص ٧١. زاخاو: Verzeichniss der syrischen Handschriften der königlichen Bibliothek، ج ١، ص ٤٣٤-٤٣٦ (مخطوطة زاخاو ٢٠٠) الملفات ٣٧ أ- ٣٩ ب).

(٢) بدج: النيل ودجلة، ج ٢، ص ٧٠-٧١، ولكن راجع ص ٢٢٨-٢٢٩ للاطلاع على انتقاد جرميا شامير للأيزديين.

إن (١٦) صفحة من مجموع (٢٣٦) صفحة التي يتألف منها هذا المخطوط الذي كان حصلت عليه جامعة ليدز في العام ١٩٦٠ (Leed Syr. MS NO.7) تخص الأيزديين، أما بقية الأجزاء فهي عبارة عن نسخ من الكتابات النسطورية والاسلامية، بما فيها مقتطفات من تاريخ العالم من قبل أحمد بن عبد الله البغدادي، المتوفى سنة ١٦٩٠، والقصة العربية القديمة (الوزراء العشرة).

القسم الأول المتعلق بالأيزديين من مخطوطة بدج مكتوب باللغة العربية ويحمل العنوان (تاريخ الأيزديين في الموصل) ويشكل تسع أوراق، خمس منها تصف معتقدات الأيزدية، والطقوس والمراسيم وأنظمتهم ويتضمن نصاً لالتماس عام ١٨٧٢، والأربعة الباقية منها تحتوي على نصوص من الكتابين الأيزديين المقدسين: الجلوا، والكتاب الأسود.

قسم ثانٍ من سبع أوراق في ختام المخطوط مكتوب باللغة السريانية تحت عنوان مقتطف من تاريخ الأيزديين، يعطي معلومات أكثر عن عادات وتقاليده الأيزديين، ومعلومات نهاية المخطوطة كتبت باللغة السريانية وتفيد بأنه تم استنساخها في الموصل من قبل غابرييل جرميا - ابن جرميا شامير - لصديقه المعلم الماهر والعقائدي المستقيم الصلد، مترجم اللغات الغنية، وسيد مختلف المهن والمهارات، الرجل الرائع والس بدج الانكليزي من لندن في سنة (*) ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٩ م

(*) كان بدج في الموصل من ١٦ كانون الثاني ١٨٨٩ ومن الجائز أن يكون المخطوط قد استنسخ بين ١٣ آذار ١٨٨٩ (بداية السنة المالية العثمانية) و ١٢ تشرين الأول العام ١٨٨٩ (آخر يوم حسب التقويم السلوقي السنة اليونانية ٢٢٠٠) السنة الهجرية ١٣٠٥ انتهت في أيلول ١٨٨٨ قبل وصول بدج إلى الموصل.

٢٢٠٠ سلوقية، وفي نهاية نص التماس عام ١٨٧٢ يذكر أنه منح الأيزديون الحق في دفع بدل نقدي عن أدائهم الخدمة العسكرية الإلزامية "لازال يدفع لحد اليوم ١٣٠٥ هـ" إشارة في المقتطف إلى "اليوم الحاضر" تعيد ذكر السنة^(١) ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٩ م = ٢٢٠٠ سلوقية.

في آذار من العام ١٨٩١ نشرت الموسوعة الأمريكية مقالاً حول الأيزديين من قبل مساهم من ماردين أفس أندروز مبشر الهيئة الأمريكية تناول المقال تراجم حرفية لنصوص من الجلوا والكتاب الأسود (رغم أن أندروز وعن طريق الخطأ نسبها جميعاً إلى الجلوا) ولم يكشف أندروز عن مصدره، لكنه كان على علاقة جيدة مع جؤميا شامير الذي كتب إليه في تشرين الأول ١٨٩٢ ليقترح التواريخ الممكنة أن تكون الكتب المقدسة قد كتبت فيها.^(٢)

وفي أيلول من العام ١٨٩١ حصلت المكتبة الوطنية في باريس مقابل ١٥٠ فرنكاً (٦ جنيهات سترلينية) على مخطوط مؤلف من ١٢١ صفحة (BN Syr. MS 306) استنسخت من قبل عبد العزيز، وهو

(١) ر. ي. عبيد: مخطوطات سريانية من مجموعة السر والس بدج، عبيد و م. ج. ل. يونك: تاريخ وشعائر أيزديي الموصل، Le Museon، العدد ٨٥ (١٩٧٢) ص ٤٨١-٥٢٢. ج. م. فيسي: sur un Traite arabs sur les patriarches nestoriens، OCP، العدد ٤١ (١٩٧٥) ص ٥٧-٥٩ و ٧٢-٧٥. الكاتب ممتن جداً للدكتور سدني هـ. كريفت من المعهد المسيحي للبحوث الشرقية بالجامعة الكاثوليكية الأمريكية - واشنطن العاصمة لترجمته النص الكامل لمخطوط ليدز رقم ٧.

(٢) مقال أفس ن. أندروز: الأيزديون، موسوعة البعثات (طبعة ١٨٩١) المجلد ٢، ص ٥٢٦-٥٢٨. إيسيا جوزيف: نصوص إيزدية، AJSL، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ٢٤٧-٢٤٨. التاريخ المحتمل للجلوا (٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م) قريب من تاريخ وفاة الشيخ آدي. أما التاريخ المحتمل لمصحف رش (٧٤٣ = ١٣٤٢ / ١٣٤٣ م) فيأتي بعد وفاة الشيخ حسن بن آدي (٦٤٤ هـ = ١٢٤٦ م) بمائة عام.

يعقوبي من طور عابدين الذي عاش في القرية الأيزدية بعشيقية، النصف الأول منه يحتوي على مواد تاريخية متعلقة باليعاقبة، والبقية تتألف من وثائق نسطورية مقتطفة من تاريخ البغدادى ومواد حول الأيزديين، وكله في الحقيقة مطابق للأجزاء المقابلة في مخطوط بدج باستثناء أن النصوص العربية كانت مدونة بالكتابة الكارشونية المستخدمة من قبل السريان عند الكتابة بالعربية.

والقسم الاخير من المخطوط BN 306 السريانية مقتطف من التاريخ الأيزدي يشبه إلى حد كبير مخطوط بدج.

مخطوط BN 306 لا يفصح عن المصدر الذي حصل منه عبد العزيز على نسخته الخاتمة كتبت بالعربية وتفيد أنه أكمل أستنساخه في العام ١٨٨٩ م "الوقت الحاضر" مذكور في خاتمة التماس عام ١٨٧٢ بـ ١٣٠٥ هـ^(١) وفي دراسة المخطوطات السريانية لاحظ أنه كان معروفاً بأن عبد العزيز وجرميا شامير كانا يقومان بمهمة النسخ لبعضه البعض.^(٢)

* * *

عندما غادر أوزوالد باري الموصل في تشرين الثاني من العام ١٨٩٢ ليعود إلى ماردين أخذ معه كتاباً صغيراً بحجم (٤ × ٣ إنج) يحتوي على

(١) ابي ج. - ب شابو: Notice sur les Yezidis، JA، المجلد ٩، العدد ٧ (١٨٩٦) ص ١٣١، ومقال آخر لهما في JA، المجلد ٩، العدد ٨ (١٨٩٦) ص ٢٥٢-٢٥٤. رسالة بابليوثيك ناشيونال في ١٠ حزيران ١٩٨٢ إلى المؤلف لتحديد تاريخ اكتساب وسعر مخطوط BN syr. Ms 306.

(٢) في، المصدر السابق، العدد ٤١ (١٩٧٥) ص ٥٨.

مواد ستة: المادة الأولى والثانية كانتا مكتوبتين بالسريانية، والبقية في الكارشوني، المادة الأولى هي قصة الوزراء العشرة، والمادة الثانية هي مقتطف من تاريخ الأيزديين تفيد بأنها استنسخت من قبل عبد العزيز في العام ١٨٨٩، والمادة الثالثة تتعلق بخرافة القطّة المريضة والتي آواها فار صالح، وعندما استعادت صحتها وقوتها حاولت أكل مُضيفها، لكنها أطلقت سراحه عندما داهمها كلب صيد، والمواد الثلاثة الأخيرة من المخطوط تشكل التاريخ الأيزدي (بضمنها التماس عام ١٨٧٢) ونصوص الجلوا والكتاب الأسود مطابقة إلى درجة كبيرة مع ما يقابلها من أجزاء في مخطوطات بدج و BN ٣٠٦. كتاب باري، " ستة أشهر في دير سوري"، نشر في العام ١٨٩٥، يتضمن كملحق ترجمة إنكليزية لنصوصه الأيزدية من قبل المستشرق الكمبريجي إي. ك. براون ترجمة للجلوا والكتاب الأسود مرفقة كملحق رقم واحد إلى هذا الكتاب. وفي شباط من العام ١٨٩٤ بيع مخطوط باري إلى المكتبة الوطنية الفرنسية بـ ٣٠ فرنكاً ليصبح BN Syr. MS 324^(١) تتبع ترجمة براون نفس الأسلوب والترتيب الذي كان منتهجاً في مخطوط ٣٠٦ BN (وذلك بالاستهلال بالتاريخ والكتب المقدسة محتتماً بالخلاصة). ولا يذكر مخطوط براون ولا مخطوط باري قصة الوزراء العشرة وقصة القط والفأر.

تنص الفقرة الافتتاحية في ملحق باري على أن المخطوط كُتب من قبل شخص من أهل الموصل، كان يتمتع بفرص نادرة للحصول على

(١) شابو، JA، المجلد ٩، العدد ٨ (١٨٩٦) ص ٢١٧. باري، ص ١٤، رسالة بابليوثسك ناشيونال في ١٠ حزيران ١٩٨٢.

المعلومات المتعلقة بالأيزديين وعلى أن مصادره الرئيسية كانت الكتاب الأسود، والجلوا، ومائة عام من تاريخ موصل القديم^(*) وتصريحات قس [يعقوبي] سوري عجوز، لاقامته ثلاثين سنة بين الأيزديين. تأسف باري لأن الكاتب لم يذكر بدقة مصدر كل جزء من معلوماته^(١) كيف حصل جرميا شامير على نسخة من الكتب المقدسة التي تتمتع بحراسة مشددة أمر لم يتم توضيحه بشكل مرضٍ أبداً.

اطلع كارتسوفاً على نسخة من الجلوا في العام ١٨٨٤ وأخبر الروسي بأنه رافق بيرسي بادجر مرة في زيارة إلى الأيزديين حيث أفلحوا في أن يجعلوا الشيخ ناصر يشرب إلى حد الثمالة وأقنعوه بأن يطلعهم على كتاب الجلوا، وعندما غلبه النعاس تمكن جرميا من استنساخ بضعة صفحات، وليس هناك أي تأكيد لهذه القصة في كتابات بادجر رغم أنها تشبه إلى حد كبير الحكاية التي رواها هو نفسه في كيفية حصوله على ترانيم الشيخ آدي^(**).^(٢)

(*) يشير باري إلى منهل الأولياء، وهو نص عربي لتاريخ الموصل كتب في العام ١٧٨٧ من قبل محمد أمين بن خير الله العمري، أرسل جرميا شامير مقتطفاً من هذا المخطوط يتعلق بالشيخ آدي والأيزديين إلى البروفيسور زاخاو لمكتبة برلين في العام ١٨٨٣ (محمد أمين بن خير الله العمري: منهل الأولياء، ج ٢، ص ١٤٩-١٥٠. راجع أيضاً زاخاو VERZEICHNISS ج ١، ص ٤٣٦ (مخطوطة زاخاو ٢٠٠، الملفات ٣٩ ب - ٤٢ أ) نقل سيوفي مقتطفات من هذا العمل في مقال نشره في JA، المجلد ٨، العدد ٥ (١٨٨٥) ص ٨٠-٨١).

(١) باري، ص ٣٥٧.

(**) راجع الفصل الثامن.

(٢) يو. س. كارتسوفاً: Zamatki o turetkikh yezidakh. رسالة جورج بيرسي بادجر في ٦ حزيران ١٨٥٣ إلى Atheneum نشرت في ١٦ تموز ١٨٥٣، العدد ٢٦ (١٨٥٣) ص ٨٦٠.

وفيما يتعلق بالكتاب الأسود فإن ابن جرميا ناصر صاحبَ كارتسوف وبروفسكي في بعثتهم إلى لالش، وفي مقالتين نشرتا في العام ١٨٨٦ يدعي بروفسكي بأنه رأى في المعبد "الكتاب المقدس مع الأختام السبعة" واسم حسن البصري مطبوع على صفحة العنوان وتمكن من الحصول عليه لفترة كافية لأن يقوم بنسخه ولا تحتوي المقالات على أي اقتباسات مباشرة من الكتاب الأسود، لكنها وبدقة تختصر أجزاء منه ولا يفصح بروفسكي في مقالاته فيما إذا كان قد ساعده أحد في عملية الاستنساخ أم لا.^(١)

الكاهن السوري العجوز الذي استشهد به باري كان في الحقيقة كاهناً كاثوليكياً سورياً يدعى اسحاق البرطللي، الذي عاش لسنوات عديدة في القرية القريبة بعشيقية حيث تواجد الأيزديون واليعاقبة والكاثوليك السوريون جنباً إلى جنب، وفي العام ١٨٧٤ أنهى إسحاق مخطوطة طويلة حول الأيزديين.^(٢)

يصف الجزء الأول من هذه الوثيقة أصل الشيخ آدي وانتقاله إلى لالش، كما يحتوي أيضاً على قصة مفادها أن الشيخ عبد القادر الكيلاني أتى من بغداد لإزاحة الشيخ آدي لكنه اقتنع بالعودة نتيجة حلم رآه.

(١) بروفسكي: الأيزديون ودينهم، Das Ausland، العدد ٥٩ (١٨٨٦) ص ٧٦١-٧٦٧ و ٧٨٥-٧٩٠.

(٢) رفعت مخطوطة اسحاق الأصلية من المكتبة في ألقوش ويدور بعض الشك حول اللغة التي كتبت بها، راجع في، الجزء الثاني، ص ٤٦٥-٤٦٦ و ٨١١. ومقال بوا في مجلة المشرق، العدد ٦١ (١٩٦٧) ص ٨٥.

والقسم الثاني يصف اعتناق الطائفة النسطورية على جبل سنجار
للعقيدة الأيزيدية^(*).^(١)

والقسم الثالث والأسهب هو في وصف التقاليد الأيزدية، المراسيم
والاحتفالات، على شكل أسئلة وأجوبة (هذه المادة حولت إلى سرد
واختصرت قليلاً مطابقة مع مقتطف من تاريخ الأيزديين ضمته مخطوطة
بدج والمخطوطات 324 و BN 306).

مخطوط إسحاق احتفظ به لسنوات عدة في مكتبة دير ربان هرمز في
ألقوش، حيث رآه كل من بروفسكي وكارتسوفا في العام ١٨٨٤.^(٢)
قبل أسابيع قليلة من ذلك كان جرميا شامير قد اطلع كارتسوفا على
نسخة عربية وساعده على ترجمتها إلى الروسية.^(٣)

في العام ١٨٩٩ أعيد استنساخ الجزء الثالث من مخطوط
إسحاق في شرق سوريا لصموئيل جميل ممثل مطران الكلدان بروما،
الذي رتب نشر المخطوط هناك مع ترجمة إيطالية تحت العنوان الخاطيء
"جبل سنجار: تاريخ شعب مجهول"^(٤) مصدر مخطوط فيما يتعلق بالدين
الأيزيدي لا يمكن تحديده، يدعي بروفسكي^(٥) بأنه كان هناك جزء

(*) راجع الفصل الرابع.

(١) نشر هـ. بوكنون ترجمة فرنسية لهذا المقطع في المجلد ٢، العدد ١٠ (١٩١٥-١٩١٧)، ص
٣٢٧-٣٢٩.

(٢) كارتسوفا ZKORGO العدد ١٣ (١٨٩١) ص ٢٤٤. أدري شير، مقال في JA، المجلد
١٠، العدد ٨ (١٩٠٦) ص ٧٦.

(٣) كارتسوفا sem na Blizhnem، ص ١٨٨.

(٤) صاموئيل جميل: جبل سنجار.

(٥) بروفسكي: Das Ausland، العدد ٥٩ (١٨٨٦) ص ٧٦٤.

ثانٍ من (الكتاب المقدس) يعلن عن التعاليم ومبادئ السلوك والأخلاق وقواعد المراسيم، وأحياناً في صيغة الخاطرة، واستنتج بأنه كان قد كتب في وقت لاحق من الجزء الأول (الكتاب الأسود) وتطور تدريجياً، خاصة وأنه كان مكتوباً في مخطوطات عديدة، كما لاحظ أيضاً أنه استخدم الكلمات الكلدانية أحياناً في الجزء الثاني واقترح بأن كاهناً مسيحياً أو راهباً - ربما خارجاً عن الدين - من الجائز أن تكون له يد في التنقيح.

مقالات بروفسكي تغطي معظم الطقوس الأيزيدية والعادات المذكورة في عمل إسحاق لكنها أيضاً تذكر التقاليد المتعلقة بملك طاووس وهو يقدم النصيحة لنبوخذ نصر بتدمير القدس منقذاً المسيح من الصلب ملهماً الخليفة يزيد إلى تحدي الإسلام، ولا شيء من هذا القبيل يظهر في مخطوط إسحاق مما يفيد بأن بروفسكي كان يملك مصدراً ثانياً، وإشارته إلى فهرست مؤلف من ثلاثين صفحة عن معجزات الشيخ آدي في طريقه من دمشق إلى لالش يمكن إيعازها إلى قسم مماثل من كتاب الشطونفي أو إلى نصوص بلد سنجار التي أكتشفها هنري فيلد في العام ١٩٣٤.^(١)

تاريخ رحيل إسحاق غير معروف، إلا أنه أول كاتب عراقي ينتمي إلى الكنيسة الكاثوليكية ويكتب عن الأيزديين.

* * *

(١) المصدر نفسه، ص ٧٦٦-٧٦٧. الشطونفي بهجة الأسرار. أنيس فريجة: نصوص أيزيدية جديدة من بلد سنجار، JAOS، العدد ٦٦ (١٩٤٦)، ص ١٨-٤٣.

مخطوط جامعة استنبول المذكور في الفصول السابقة بقي غير منشور إلى العام ١٩٥٣، يستهل المخطوط بترجمة عربية تعود إلى العام ١٩٠٦ للنسخة السريانية "مقتطف من تاريخ الأيزديين" والذي يعيد التاريخ ١٣٠٥ هـ ١٨٨٩ م ٢٢٠٠ سلوقية معبراً عن "الوقت الحاضر" ويتبعه "تاريخ الأيزديين في الموصل ومحيطها" بما فيها التماس عام ١٨٧٢، والنصوص الكاملة لـ (الجلوا والكتاب الأسود) كلها في الحقيقة مطابقة مع مخطوط بدج أسماء المصنف والمترجم والناسخ لم تفصح عنها باستثناء عزوها إلى مكتبة قصر يلدز، مصدر الوثيقة غير معلوم.^(١)

الخبط المشتركة التي تخرج من هذه الروايات المتضاربة وأحياناً غير المعقولة تقترح بأن نصوص الكتب المقدسة كان قد حصل عليها من الأيزديين عن طريق طريق المكيدة والخداع وبصورة ما كان جرمياً شاميراً متورطاً فيها.

أما مخطوط إسحاق البرطلي فيظهر بأنه مستقي من كتيبات ولوحات خاصة بالتعاليم الدينية استخدمها الملا حيدر كتعليمات للقوالين، ومن غير الواضح كيف ومن قام بتنقيح مخطوط إسحاق - الذي أفرغ في أسلوب سؤال وجواب - بهذه الصياغة السردية ليغدو "مقتطف من التاريخ الأيزدي" ومؤلف النص المعنون "تاريخ الأيزديين في الموصل وضواحيها" هو الآخر مجهول.

* * *

(١) مقال أ. خالفي في مجلة المشرق، العدد ٤٧ (١٩٥٣) ص ٥٧١-٥٨٨. تاريخ الترجمة هو ١٠ نيسان ٣٢٢ (ربما يكون حسب التاريخ العثماني أي سنة ١٣٢٢ الرومية التي تبدأ من ١٤ آذار ١٩٠٦ إلى ١٣ آذار ١٩٠٧).

الكنيسة الكاثوليكية السورية والتي ينتمي إليها اسحاق البرطلي (الناسخ عبد العزيز كان يعقوبياً) كانت أصغر من الاثنتين واللتين تعملان في شمال العراق وكانت تتبع روما، وفي نهاية القرن التاسع عشر قام رئيس هذه الكنيسة باستلام مقاليد مطرانية أنطاكية، كان يعيش في ماردين (حيث توجد المطرانية اليعقوبية والبعثة التبشيرية للهيئة الأمريكية).

الكنيسة الأكبر حجماً من الاثنتين - الكنيسة الكلدانية، خليفة الكنيسة النسطورية القديمة - ازدهرت على طول وادي دجلة منفصلة بالتقاليد والجغرافيا من "الآثوريين" في جبال هكاري، وحول بحيرة أورمية الذين اتبعوا مطرانهم بالوراثة مار شمعون كبير أساقفة الكنيسة الكلدانية، مطران منتخب "رهن بمصادقة البابا" كان قد تسلم مطرانية بابل وأقام في الموصل.

كان الإرشاد والتوجيه لهذه الكنائس يقدم من قبل البعثة التبشيرية الدومينيكانية في الموصل ولها ملاكها من فرنسا منذ العام ١٨٥٩ وحتى العام ١٨٩٠ كانت البعثة تتألف من ثمانية عشر راهباً واثنى عشرة راهبة قاموا بإدارة كلية واثنى عشرة مدرسة في الموصل وضواحيها وجزيرة ابن عمر وسيرت، أربعة من المبشرين بصحبة ثلاثة من القساوسة المحليين وثلاثة معلمين عاديين شكلوا هيئة إدارة معهد سانت جونز السريوكلداني في الموصل الذي تأسس في العام ١٨٧٨ لتدريب الرهبان للكنيستين.

في بغداد كانت للكنيسة الكاثوليكية ممثلية على ما يقارب ٣٠٠ عام، البعثة الأولى أسست من قبل كابوجينس في العام ١٦٢٨، وفي العام ١٧٢١ نقلت تبعيتها إلى جماعة "الكرمليون الحفاة" الذين كانوا يديرون بعثة دينية في البصرة منذ العام ١٦٢٣، ولسنوات عديدة أدار رؤساء بعثة بغداد "أسقفية بابل اللاتينية"، وفي العام ١٦٣٨ تم عبر مقر أبرشية منح هدية قيمتها ٦٠٠٠ دبلون أسباني من سيدة فرنسية اشترطت أن يكون الرئيس دائماً فرنسياً.

أحياناً الاب الكرملي عمل كقنصل لفرنسا في بغداد، وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر تم فصل المناصب الثلاثة، تم تعيين القناصل الفرنسيين من الخدمة الدبلوماسية أسقف بابل (الذي أصبح لاحقاً رئيس الأساقفة) أصبح القاصد الرسولي موفد البابا إلى ميسوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) كردستان وأرمينيا الصغرى. ركز الكرمليون على عملهم التبشيري، وفي منعطف القرن أدار ستة رهبان تساعدهم اثنتا عشرة راهبة كلية ومدرستين في بغداد.^(١)

ولد بير بول ماريسني وهو مجتهد عربي انضم مؤخراً إلى البعثة الكرملية كان يتمتع بخلفية غير عادية في العام ١٨٦٦ ببغداد، حيث انتقل إليها والده من موطنه الأصلي لبنان ليعمل كمترجم، حضر الابن المدرسة الكرملية وطور رغبة جدية في الدراسات العربية، وحصل على

(١) يصف فر. ب. ك. دوفال أوضاع البعثات الدومينيكية والكرملية في العراق في أواخر القرن التاسع عشر في مقالات في مجلة في مجلة L Anuee Dominicane العدد ٢٧ (١٨٨٨) ص ١٠٩-١١٩ و ١٧١-١٧٥ و ٣٨٦-٣٩٣ و ٤٣٣-٤٣٦ والعدد ٢٨ (١٨٨٩) ص ٦٠-٧١، وكذلك بير أليسي في Revue d histoire des missions العدد ١٦ (١٩٣٩) ص ٣٧٥-٣٧٦.

عمل في سلك التعليم في الجامعة اليسوعية للقديس جوزيف في بيروت، وعندما بلغ الواحدة والعشرين من العمر قرر الانضمام إلى الجماعة الكرملية وذهب إلى أوروبا حيث درس في رهبانيات بلجيكا وفرنسا لمدة ست سنوات إلى أن حصل على إجازته.

اسمه الجديد بير أنستاسيوس ماري دي سانت ايلي كان على شرف القديس الفارسي سانت أنستاسيوس الذي استشهد في عهد خسرو برويز^(*) في العام ١٨٩٤ تم نقله إلى بعثة بغداد حيث قام بالإشراف على طائفة كاثوليكية صغيرة وكلف بتعليم الفرنسية والعربية في المدرسة.

في مايس من العام ١٨٩٨ جاء إليه "شاب وسيم له عيان سوداوان كبيرتان، وشارب كثيف مشذب جيداً، وأنف معقوف، وبشرة وردية تنم عن الصحة، ووجه بيضوي لطيف، قسماات عادية وجسم ضخم بحالة صحية عالية"، أعلن هذا الشخص بأنه يرغب في اعتناق المسيحية، كان يرتدي زي أهل الجبال، لكن شعر أنستاس بأن هناك خلف هذه الطبقة الخارجية "روحاً قوية كريمة".^(١)

كان الزائر أيزدياً يدعى حبيب ويبلغ من العمر ثلاثين سنة، مولود في بوزان، على بُعد أميال قليلة من الدير الكلداني في ألقوش، صرح بأنه

(*) راجع الفصل الأول. كان هناك شخص آخر معاصر يحمل اسم القديس أ. آي. ملكويان مولود في سناهن (شمال أرمينيا) في العام ١٨٩٥ والذي أصبح فيما بعد رئيساً للجنة التنفيذية للسوفيت الأعلى في الاتحاد السوفيتي.

(١) تفاصيل شباب بير أنستاس مذكورة في *Analecta Ordinis Carmelitarum Discalceatorum* العدد ١٩ (١٩٤٧) ص ٦٠-٧١. وتفاصيل تعامله مع حبيب / عبد المسيح مأخوذة عن مقال بير أنستاس في *Anthrgoos* العدد ٦ (١٩١١) ص ١-٨.

سبق وأنه عمل سبع سنوات خادماً وأمين مكتبة لدى "المسؤولين في الديانة الأيزدية" لكنه وجد حياته مملة وعادية فقرر العمل لدى الرهبان، وبعد ملاحظة طريقة حياتهم قرر اعتناق المسيحية وجاء إلى بغداد خوفاً من أن يُقتل كخارج عن الدين من قبل الأيزديين، أخبر أنستاس حبيباً بأنه لو يأتي إلى البعثة الكرملية يومياً في الساعة الخامسة مساءً فإنه سوف يعلمه مبادئ العقيدة المسيحية، وفي النهاية سوف يقرر فيما إذا كان حاضراً لأن يتم تعميده أم لا، وكدليل على إخلاصه في نبذ الديانة القديمة، طلب أنستاس من حبيب أن يفشي له بكل أسرار وطقوس الديانة الأيزدية، ولتهدئة خاطره من الأيزديين الذين سوف يقتلونه إذا ما اكتشفوا أمره وعده الكرملية بأنه سوف يحافظ على سره طالما بقي حبيب على قيد الحياة، وبعد سبعة أشهر تم تعميد حبيب وأصبح اسمه عبد المسيح، وتم تثبيت عقيدته الجديدة، وأعطى عملاً كبواب لدى ممثلية البابا في بغداد.

وبين شهري كانون الثاني وأيلول من العام ١٨٨٩ نشرت جريدة (المشرق) وهي جريدة جامعة القديس يوسف في بيروت، سلسلة مقالات حول الأيزديين بير أنستاس^(١) وفضلاً عن المواد التي أخذها من مخبره الأيزدي (المصدر المحمي بعناية) فإن الكاتب استفاد من أعمال غير منشورة لقرياقوس مهنوق، الراهب الكلداني في بغداد، وكذلك من المعلومات العامة المتوفرة لدى الناس. المقالات لم تقل الكثير عن الكتب المقدسة لدى الأيزديين، فقط تم التعريف بالكتاب الأسود، وأشار

(١) أنستاس: اليزيدية، المشرق، العدد ٢ (١٨٩٩) ص ٣٢-٣٧ و ١٥١-١٥٦ و ٣٠٩-٣١٤ و ٣٩٩-٣٩٥ و ٥٤٧-٥٥٣ و ٦٥١-٦٥٥ و ٧٣١-٧٣٦ و ٨٣٠-٨٣٦.

الكاتب بأنه كان فقط بمقدور قارئ واحد الوصول إليه وأن الفريق عمر وهبي باشا أخفق في العثور عليه.

توفي حبيب - عبد المسيح - وفاة طبيعية في تشرين الأول من العام ١٨٩٩ قبيل نشر مخطوط اسحاق في روما الذي أكد على صحة العديد من المعلومات التي أعطاها حبيب لأنستاس قبل رحيله، أعطى عبد المسيح للكرملي النصوص العربية لكتاب الجلوا والكتاب الأسود، مع قصة مثيرة عن أصولهما.

أخبر الرجل المختصر الأب أنستاس بأن الكتب المقدسة الأيزدية كانت قد كتبت في الأصل باللغة الكردية، وأنها منزلة من عند الله إلى الأيزديين في أيام آدم، قبل زمن سحيق وتمت ترجمتها إلى العربية للتغطية على الكتب الأصلية من أعين ولمسات الإنسان، وصرح بأن صديقاً أيزدياً كان قد تعلم العربية في المدرسة المسيحية بالموصل استنسخ له من النص العربي الأصلي الذي يملكه مسؤولو الديانة الأيزدية.

كان عبد المسيح قد سبق له وأن أفشى ببعض المعلومات عن الكتب المقدسة إلى أنستاس جزء من عمله كأمين مكتبة كان عرض المخطوطات الأصلية للهواء الطلق كل ستة أشهر، وكانت تحفظ بقية الوقت في صندوق مصنوع من خشب الجوز (أبعاده: ٣ × ٩ × ١٣ إنج) مدفون في كهف في جبل سنجار، وكان قد أضاف بأن الصندوق مغطى بمخمل أبيض (وسخ) مخيط مع قطع مسطحة من الفضة تمثل الطاووس، والشمس، والقمر ورموز أخرى.

كتاب الجلوا - وفقاً لعبد المسيح - كان مكتوباً على قطع رقيقة من جلد الأيل، بينما الكتاب الأسود مدون على لفّة رقيقة من جلد الأيل (*)

جامعاً بين كتمان السر الذي هو من طبيعة الرهبان ومكر الباحث عن الكنوز قرر بير أنستاس عدم إخبار أحد بما عرف، كان يضع خطة. بينما تحول مخطوط آخر عن الأيزديين من يد إلى آخر - هدية من داوود الصائغ، مواطن كاثوليكي سوري بارز من الموصل - إلى شاب يغادر المدينة ليعيش في الولايات المتحدة الأمريكية^(١)، إيسيا موكسي يوسف (الذي اختصر اسمه إلى إيسيا جوزيف في الولايات المتحدة) ولد في ٢٥ كانون الأول من العام ١٨٧٢ في قرية كابي الواقعة على بعد خمسة عشرة ميلاً جنوب شرق ديار بكر، ويقال بأنه ينتمي إلى (عائلة متعلمة مولعة بالعلم) كان عدد من أجداده قد أصبحوا أساقفة في الكنيسة الآثورية^(*).^(٢)

(*) في العام ١٨٩٢ قام جرميا شامير بإبلاغ أفس أندروز بأن الجلوا ملفوف بالكتان والحبر، ومحفوظ في منزل الملا حيدر. الكتاب الأسود كان يحتفظ به في بيت زعيم القرية الأيزدية قصر يزدين (أربعون ميلاً شمال الموصل) حيث يوجد الكتاب على عرش، مغطى بقطعة قماش رقيقة من الكتان وأغلفة أخرى، مزينة حينها الوثاق المربوط الذي هو من الخشب (إيسيا جوزيف، AJSL، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ٢٤٧-٢٤٨).

(١) المصدر نفسه، ص ١١١.

(*) مصطلح الآثوري (Assyrian) يظهر بأنه يطلق ويشير إلى إيسيا جوزيف لمرات عديدة، بكلماته هو (كان... قد ولد من والدين آثوريين ينتمون إلى الكنيسة السريانية والتي تعود جذورها إلى الطائفة المسيحية بانطاكيا) - مما يعني أن عائلته كانت يعقوبية - (مقدمة كتاب الفئة ١٩٠٦ بتوقيع جوزيف).

(٢) نعي إيسيا جوزيف في بورت شستر ديلي ايتم، ٦ شباط ١٩٢٣، ص ٤.

بعد تلقي تعليم يسير متواضع في قريته على أيدي أحد أفسس أندروز انضم إلى المدرسة الثانوية الداخلية الأمريكية في ماردين، وفي سنوات لاحقة كان يشير باعتزاز وشوق إلى المدرسة بـ (معلمي المُشرف) أ. ن. أندروز و (معلمي الأكثر تشرفاً) كالب ف. كيتس الذي أسس المدرسة الثانوية و دشّن صفّاً لدراسة اللاهوت للطلاب المتخرجين بعد ثلاث سنوات، وفي العام ١٨٩٠ كان إيسيا أحد أربعة لاهوتيين أوائل يتخرج من المدرسة اللاهوتية للبعثة التبشيرية، كل الأربعة حصلوا على إجازاتهم في العام ١٨٩١ بعد امتحان عام عن معتقدهم ممّا فُتدّ الاشاعات القائلة بأن واحداً أو اثنين منهم كان متأثراً بإرساليات أخوية بلاسيموث النشطة آنذاك حول ماردين.^(١)

زوجة إيسيا التي هي ساره كانت تنتمي إلى عائلة هانوش، عشيرة كثيرة النسل نشطة في شؤون الكنيسة البروتستانتية عبر شمال وادي دجلة من ديار بكر إلى الموصل.

وبعد أن تخرج إيسيا انتقل إلى الموصل، حيث عمل كاهناً (واعظاً) في الكنيسة المحلية وكان شاهد عيان لحملة اضطهاد الأيزديين عام ١٨٩٢، وخلال فترة بقاءه في الموصل تعرف إلى داوود الصائغ (رجل مهذب ذو ثقافة، متعاطف مع الفكر الغربي وله معرفة جيدة مع م. ن. سيوفي)،

(١) أرشيفات الهيئة الأمريكية لإرساليات البعثات الأجنبية ٧ و ٩ و ١٦، المجلد ٨، بعثة شرق تركيا ١٨٨٠-١٨٩٠، المجلد ٣، المادة ٢٩٥، رسالة كالب كيتس في ٩ آذار ١٨٨٩ إلى د. سميث. والمجلد ١٢، بعثة شرق تركيا ١٨٨٠-١٨٩٩، المجلد ٣، المادة ١٣٦، رسالة أندروز في ٢٧ حزيران ١٨٩٠ إلى سميث. والتقرير السنوي للهيئة، المجلد ٨١، ١٨٩٠ / ١٨٩١، ص ٤٥. إيسيا جوزيف، AJSL، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ١١٣. رسالة إيسيا جوزيف في ١٩ حزيران ١٩١٩ إلى نيويورك تايمز التي نشرته في ٢٢ حزيران ١٩١٩، الفقرة الثالثة، ص ٢. راجع أيضاً كيتس: ليس لي وحدي، ص ٦٤-٧٨.

مضيفاً بأنه كان على علاقة وثيقة مع عدد من الأيزديين، وبالمخصوص مع عائلة ملا حيدر.^(١)

في العام ١٨٩٥ قتل والد زوجة إيسيا من قبل الكرد - وهو واحد من العديد من الرهبان المسيحيين الذين لاقوا حتفهم في المذابح التي حدثت في شرق الاناضول في تلك السنة -، إحدى نتائج ذلك هي هجرة الكثير من اليعاقبة والبروتستانت، بضمنهم أفراد عائلة هانوش، إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

في مايس من العام ١٨٩٨ غادر سارا جوزيف وإيسيا الموصل مع طفليهما: أليسا - سميت فيما بعد بلويس، ولدت عام ١٨٩٥، وفؤاد (غير اسمه لاحقاً إلى ألفريد)، ولد في العام ١٨٩٦، وصلوا نيويورك في ٧ آب من العام ١٨٩٨ وتوجهوا إلى سترلنك، نيوجرسي، ثلاثون ميلاً إلى الغرب، حيث كان يعيش شقيق ساره.^(٢)

تفاصيل المراحل الأولى من حياة إيسيا كمهاجر غير معروفة، وفي العام ١٩٠٢ قبل في اتحاد المعاهد اللاهوتية بمدينة نيويورك، وفي السنة التالية بدأ بأخذ الحصص في جامعة كولومبيا كمؤسسة أخت، وتخرج من المعهد الديني في العام ١٩٠٥، وكوفئ بشهادة البكالوريوس في اللاهوت (magna cum laude)، وفي العام ١٩٠٦ تخرج من جامعة كولومبيا وحصل على درجة الماجستير في الفلسفة في العام ١٩٠٧، بحثه

(١) إيسيا جوزيف، AJSL، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ١١١ و ٢٥٢.

(٢) PCUSA، BFM، مراسلات البعثات، إيران، الرسائل الواردة المجلد ١٢ (١٨٩٥) - ١٨٩٦ المادة ١١٤، رسالة إي. و. ماكديويل في ٢١ تشرين الثاني ١٨٩٥ إلى د. براون. إيسيا جوزيف، AJSL، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ١١١. إيسيا جوزيف: عبادة الشيطان: الكتب المقدسة وتقاليد الإيزديين، ص ١١٥ و ٢٠٧-٢٠٨.

الذي قدمه في آذار من العام ١٩٠٧ إلى هيئة الفلسفة بجامعة كولومبيا كان تحت عنوان: (الأيزديون - عبدة الشيطان: كتابهم المقدس وتقاليدهم).^(١)

المراجع والمصادر المتوفرة حول الأيزديين في نيويورك كانت ضئيلة، وكان كتاب باري قد نشر مع ترجمة براون للمخطوط BN 324. وظهرت مقالات بير أنستاس المنشورة في بيروت، وطبعة جيبيل لمخطوط إسحاق في العام ١٨٩٩ و ١٩٠٠، وكان إيسيا على علم بالمقالات عن طريق سيوفي وبروفسكي وكذلك عن طريق أعمال أينسوورث وبادجر ولايارد.

لطالب شاب يعيش في دولة أجنبية متزوج وله طفلان ويكتب في لغة تعلمها لتوه، كانت مهمة تنظيم كل هذه الأمور طموحاً صعباً، وليس هناك أي دليل أنه خلال السنوات التي قضاها في العراق قد أكتسب أي معرفة شخصية عن الأيزديين مما يعزز تحليلاته والنتائج التي توصل إليها، ومع ذلك ورغم كل هذه الصعاب، تمكن - والفضل يعود لظرف محظوظ - الوصول إلى هدفه ليصبح اسم إيسيا جوزيف معروفاً لدى المستشرقين في مانشستر وآوديسا وطاشقند.^(٢)

(١) كتاب الفئة ١٩٠٦، المدخل بتوقيع جوزيف، نص مقال إيسيا جوزيف محفوظ في جامعة كولومبيا إلا أن الهوامش مفقودة.

(٢) أشاد تيودور منزل بعمل إيسيا جوزيف في Ein Beitrag zur kenntnis der Jeziden وكذلك فعل ألفوس منكنه في: عبدة الشيطان: معتقداتهم وكتبهم المقدسة، JRAS، ١٩١٦، ص ٥٠٥-٥٢٦. وأيضاً أ. سمينوف في: Pokloneniye satane u peredne - aziatskikh Kurdov - yezidov BSAGU نشره العدد ١٦ (١٩٢٧) ص ٨٠-٥٩. (طشقند)

بجلول بداية القرن العشرين، كانت هناك على الأقل ست مخطوطات موجودة حول الكتب المقدسة الأيزدية، اثنان منهما في المكتبة الوطنية بفرنسا. وكان إي. ك. براون قد أعلن نيته في طبع نصوص باري للجلول والكتاب الأسود، لكنه لم يفعل ذلك (رغم أن المقتطف السرياني من مخطوطات BN كان قد نشر في باريس في العام ١٨٩٦ مع ترجمة لها من قبل المستشرق الفرنسي ج. ب. جابور) نصوص ترانيم الشيخ آدي والتماس العام ١٨٧٢ كانت قد نشرت وترجمت بألمانيا في العامين ١٨٥٣ و ١٨٩٧.^(١)

المرحلة الأخيرة من عمل إيسيا جوزيف أنجز في جامعة هارفارد حيث حصل على زمالة في الدراسات السامية، وكوفئ بشهادة الدكتوراه في الفلسفة في العام ١٩٠٨ وفي مقدمة رسالته للدكتوراه كشف إيسيا بأن بحوزته ثلاث مخطوطات عربية عن الأيزديين اثنان منها يحتويان على نصوص من الكتب المقدسة.

المخطوطات المكتوبة بخط اليد في رسالة الدكتوراه طُبعت لأول مرة في كانون الثاني من العام ١٩٠٩ من قبل الصحيفة الأمريكية للآداب واللغات السامية مع ترجمة إنكليزية بقلم إيسيا^(٢) (لم ينشر تحليله للدين

(١) ترنيمه الشيخ آدي: هاينريخ إيفالد: Die erste schriftliche urkunde der NGaukgwg، ١٨٥٣، ص ٢١٢-٢١٨ و ١٨٥٤، ص ١٤٩-١٥٠. عريضة ١٨٧٢: مارك ليدزبارسكي: ZDMG، Ein Expose der Jesiden، العدد ٥١ (١٨٩٧) ص ٥٩٢-٦٠٤. مخطوط BN syr. MS رقم ٣٠٦ و ٣٢٤: شابو، JA، المجلد ٩، العدد ٧ (١٨٩٦) ص ١٠٢-١١٧.

(٢) أطروحة إيسيا جوزيف، الأيزديون أو "عبدة الشيطان": كتابهم المقدس وتقاليدهم، كانون الثاني ١٩٠٨. إيسيا جوزيف AJSL، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ١١٨-١٥٦ و ٢١٨-٢٥٤.

الأيزدي من قبل الصحفية الأمريكية AJSL (المذكورة أعلاه) لكنه ظهر على شكل كتاب في العام ١٩١٩).^(١)

النص الرئيسي كان مخطوط داوود الصائغ، الطلسم الذي أحضره إيسيا معه من الموصل، أدرج محتوياتها (باستثناء واحد، كلها باللغة العربية): مقدمة مختصرة، مشابهة تماماً للفقرة الافتتاحية لمخطوط بدج تتبعها نصوص من الكتابين المقدسين وخاتمة مع (ملحق).

احتوى ملحق إيسيا على خمس مواد: مجموعة مواد حول المعتقدات والعادات الأيزدية، ترنيمة الشيخ آدي، الدعاء الأيزدي الرئيسي (مكتوب باللغة الكردية في المخطوط العربي)، وصف قصير للنظام الهرمي في الديانة الأيزدية، ونص التماس عام ١٨٧٢.

المادتان الأخيرتان تقابلان مثيلتهما في خلاصة التاريخ في مخطوط بدج. وترنيمة الشيخ آدي تماثل تلك الواردة في مخطوط بدج، لكن الكلمات تختلف في عدد من الأماكن. لكن أصل الدعاء الكردي مفتوح للتساؤل، نص مطابق في المخطوط اللاتيني كان قد نشر في تفليس في العام ١٨٩١ من قبل خبير أمريكي ادعى بأنه سمعها من فم شيخ أيزدي محلي، أعيد طبعها في دراسة ألمانية (مذكورة في المراجع التي اعتمد عليها إيسيا) في العام ١٩٠٠.^(٢)

المصدران الآخران لمخطوط إيسيا كانا قد أرسلوا له من قبل ألفس أندروز^(٣) لاحظ بأن الأول المكتوب من قبل شماس أرميا شامير، ظهر

(١) إيسيا جوزيف: عبدة الشيطان.

(٢) س. أ. يكيزاروف، مقال في ZKORGO، العدد ١٣ (١٨٩١) ص ١٨٢-١٨٣ و ٢٢١-٢٢٧. هوكو ماكاس: Kurdisch studiem، ص ٣١-٤٨.

(٣) إيسيا جوزيف، اطروحة هارفارد، ص ١٣. و AJSL، العدد ٢٥ (١٩٠٩) ص ١١٥.

بأنه نسخة طبق الاصل للتي أعطيت لباري. المخطوطة الثانية نسخة عربية لعمل اسحاق مثلها كانت في صيغة السؤال والجواب، على الأرجح نفس النسخة التي أراها جرميا لكارتسوفاً على العكس لِسَمِيَّه رسام، الذي تحول من لاهوتي إلى جمع الجاه والثروة.

بعد حصول إيسيا جوزيف على الدكتوراه أصبح مغموراً وغاب عن النظر، عاش في ماتامورس في شرقي بنسلفينيا وعانى من مصاب أليم وخسارة كبيرة عندما مات ابنه الذي كان موهوباً وعلى وشك الانخراط في هارفارد وذلك في العام ١٩١٦، وفي السنة التالية انتقلت العائلة إلى بورت جستر إحدى ضواحي نيويورك، حيث قامت ابنته بالتدريس في مدرسة.

وحسب صفته الواردة في تقرير لجريدة (خبير في الأدب ورجل اعلانات) قضى إيسيا جزءاً من وقته كبائع جوال موزعاً كراسات طبية لطبيب من نيويورك، وكان في بلاد فيرجينيا في شباط العام ١٩٢٣ في رحلة عمل عندما سقط ومات (بينما كان يتجول على طول الرصيف الأسمتي الشمالي خارج غرفة الانتظار) بمحطة القطار^(١)، وهو يرقد حالياً إلى جانب زوجته واطفاله في مقبرة بروكسايد في انكلوود بولاية نيوجرسي، ومصير مخطوطاته وأوراقه مجهول.

* * *

(١) ذه فري لانس (فردريكسبرك، فرجينيا) ٨ شباط ١٩٢٣، ص ١، لا بد للمؤلف أن يتقدم بالشكر إلى حفيد إيسيا جوزيف السيد جون ماكفي لسماحه لنا باستخدام المعلومة النادرة التي احتفظت بها عائلته.

وبعد مضي حوالي نصف قرن على رحيل إيسيا جوزيف كتب سي. جَي. ادموندز مستشرق بريطاني عاش لسنوات عديدة في العراق، يذكر أن بحوزته مخطوطاً عربياً في عشرين صفحة حول الأيزديين حصل عليه من (مسلم من وجهاء الموصل أمجد العمري، الذي كان قد أرسل المخطوط إلى ادموندز في ١٩٤١). الصفحات الست الأخيرة مخصصة لـ (ملحق) بالكلمات (أنا، الشخص المتواضع داوود ب. إلياس الصائغ كتب من معلومات شفوية عن بعض الأصدقاء، الذين لا يعرف عنهم مبالغة أو افتراء). مخطوط ادموندز لم ينشر أو يحلل من قبل المختصين أبداً، ولكن في ملاحظة كتبها ادموندز بخط يده في العام ١٩٦٥ يعلق ادموندز على تشابه هذا المخطوط - مع بعض الاستثناءات - مع نص المخطوط الذي نشره إيسيا جوزيف والذي كان ذات مرة بحوزة داوود الصائغ، بالإضافة إلى تشابهه بترجمة براون / باري للمخطوط BN 324 (في ذلك الوقت لم يكن مخطوط بدج قد نشر بعد).

في الحقيقة الصفحات العشر الأولى من مخطوط ادموندز تضم رواية من (تاريخ الأيزديين) عزاها ادموندز إلى ملا حيدر، تتبعه ذلك نصوص من الجلولو والكتاب الأسود والصفحات العشر الأخيرة تتضمن (الملحق) الذي تم جمعه من قبل داوود الصائغ، تغطي نفس المسائل المذكورة في (خلاصة تاريخ الأيزديين) بالإضافة إلى ذلك فإن المخطوط يورد تأكيداً على أن كارتسووف وبروقسكي حصلوا فعلاً على مواد تتعلق بالأيزديين عن طريق الخداع والحيلة.

يذكر في المقدمة كيف (أنه ذات مرة رغب القنصل الروسي في الموصل، في مغادرة المدينة ليتمتع بالهواء العليل) وكيف أنه التقى بالملأ حيدر، واستدرجه ليشرّب لحد الثمالة واستخرج منه أسراراً عن الديانة الأيزدية، وأقنعه بأن يطلعه على كتاب يحوي على نصوص من الجلوا والكتاب الأسود، ولعل التفصيل الأكثر إثارة الوارد في مخطوط ادموندز كان التاريخ المذكور في الفقرة الافتتاحية م ١٨٨٧ دون أن يذكر ما يقابله من التاريخ في السنة الهجرية أو التقويم السلوقي. تطلب الأمور بحوثاً كثيرة لتقرير ما إذا كان مخطوط أدموندز مزيناً برسومات غير جيدة (محترفة) لأشجار وطواويس، المصدر الأصلي الذي أخذت منه النصوص الأخرى.^(١)

بينما كان إيسيا جوزيف منكباً على نصوص الأيزدية في نيويورك، كان هناك شخص آخر بحوزته مخطوط بير أنستاس يحضر لتنفيذ خطته الجريئة للعثور على الذخيرة الأم، مقررّاً أن يقوم بزيارة إلى روما، صمم خطة رحلته بأن يبدأ في بغداد عن طريق الموصل، سنجار، دير الزور فحلب.

كان ليون كراجفسكي نائب القنصل الفرنسي في الموصل من العام ١٩٠٣ إلى ١٩٠٦ مهتماً بالأيزديين، وكان قد زار لالش في إحدى المناسبات، كان هو الآخر قد تناهى إلى سمعه قصص عن المكتبة في جبل سنجار، لكن رغم أنه كون صداقة جيدة مع أحد الزعماء المحليين إلا أنه

(١) محتويات هذه المخطوطة ملخصة في مؤلف سي. جي. إدموندز: حجة إلى لالش، ص ٥٠، حيث يبين أن تاريخ زيارة كارتسوف إلى الأيزديين هو في العام ١٨٨٧. والتاريخ الحقيقي هو أوائل ١٨٨٤، والمخطوطة محفوظة حالياً في مكتبة دارا عطار بأديرة، كنت.

لم يفلح في الحصول على أية تفاصيل. ولكن ترجمان القنصل، عزيز قاس يوسف تمكن من استنساخ نص عربي للكتب الأيزدية المقدسة من أوراق قديمة كانت ذات مرة بحوزة زعيم أيزدي في القسم الشمالي من موطن الداسنيين، استولى عليها في ما بعد الجنود العثمانيون، عندما مر بير أنستاس بالموصل في العام ١٩٠٤ أطلعته الترجمان على هذا النص وسمح له باستنساخه.^(١)

في شهر حزيران من ذلك العام وصل أنستاس إلى سنجار وذهب لمقابلة الشيخ الذي وصفه بـ (شيطان طويل القامة، له عيون سوداء كبيرة، وشعر مسدل طويل) كان يرتدي ثوباً أبيض طويلاً مع فتحة كبيرة لدى منطقة العنق تكشف عن صدر مغطى بالشعر، وبعد مناقشات عديدة اتفق بأن (أمين المكتبة) هو الذي كان يستطيع الكتابة والقراءة باللغة العربية سوف يأتي لمقابلة أنستاس لإجراء اتفاق بهذا الخصوص.

الآن وبعد موت حبيب (عبد المسيح) فإن الكرملني لم يعد مرتبطاً بالوعد الذي قطعه على نفسه بكتمان السر، فأفشى إلى هو بكل شيء عرفه فيما يتعلق بالكتب المقدسة وأخيراً تم الاتفاق بأن يقوم أنستاس بدفع ٢٠ فرنكاً عن كل صفحة من الجلوا ٣٠٠ فرنك عن لفّة الكتاب المقدس بالإضافة إلى بقشيش يقدر بـ ٤٠ فرنكاً المبلغ الكلي ٥٠٠ فرنك، المساوي لـ ٢٠ جنيه سترليني أعطاه أنستاس الأوراق الخاصة

(١) أنستاس، أنثروبوس، العدد ٦ (١٩١١) ص ٨. ليون كراجيفسكي: Le culte de Satan، ميركوري دي فرانس، ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٢، ص ٩٢-٩٩. زودني مشكوراً بالتفاصيل الأساسية عن نص عزيز قاس يوسف، السيد بير في الحائز حالياً على جزء من هذا المخطوط.

اللازمة للاستنساخ مع " تعليمات مشددة بمراعاة الدقة والأمانة وعدم الإهمال أو نسيان أي شيء دون إضافة أي شيء أو تحريف أي شيء فيما واصل الكرمليني طريقه إلى روما.

سنتان طويلتان مضتا قبل أن يكتمل العمل، برر هو ذلك بأنه لم يكن بمقدوره الوصول إلى الكتب إلا في أوقات محدودة معينة، وسلمت الصفحات إلى أنستاس الواحدة تلو الأخرى وتم الدفع وفقاً لذلك، مات أمين المكتبة في العام ١٩٠٨.

وصف أنستاس الخصلة النهائية لهذا النتاج بـ "إحدى أعظم كنوز الأدب في قرننا، والأكثر سرّاً وكتماناً في العلم" تتألف من ثماني صفحات تمثل الجلوا (مزخرفة برموز يكتنفها الغموض) وأربع عشرة صفحة تمثل الكتاب الأسود، نصوص الكتابين كانت مدونة بكتابة غير معروفة، لاحقاً حلت الشفرة من قبل أنستاس ووجد بأنها الأبجدية العربية المستخدمة في كتابة اللغة الفارسية.^(١)

ظهر بأن اللغة التي دونت فيها الكتب هي اللغة الكردية، وأنستاس الذي كان له إلمام قليل باللغة الكردية ولا يعرف شيئاً عن الفارسية أو التركية، سعى في طلب مساعدة الدكتور ماكسيميليان بتنر بروفيسور في اللغات الشرقية في جامعة فيينا.

أعلن بير أنستاس عن اكتشافه في مقالة نشرت في مجلة نمساوية في بداية العام ١٩١١ في آذار من ذلك العام قرأ بتنر رسالة على قسم الفلسفة والتاريخ من الأكاديمية الملكية للعلم في فيينا التي شغلت

(١) أنستاس، أنثروبوس، العدد ٦ (١٩١١) ص ٨-١٠.

فيما بعد سبعة وتسعين صفحة مطبوعة^(١) أكد فيها بأن النسخة المشفرة التي سلمت إلى أنستاس كانت قد أخذت من نصوص كردية مكتوبة بالأبجدية العربية المستخدمة في الكتابة الفارسية، والنصوص نفسها كانت مكتوبة في لغة أدبية كردية جيدة، وقرر بأن نص الكتاب الأسود قد تم ترجمته من أصل عربي، كانت ثقته أقل فيما يتعلق بالنص الأصلي لكتاب جلوا.

البحوث اللاحقة من قبل المختصين في اللغة الكردية أثبتت بأن نصوص أنستاس كانت مكتوبة باللهجة السليمانية، التي هي الآن المتبينة للكتابة الكردية في العراق، وأن اثنين منها كانا قد ترجما من أصل عربي.^(٢)

* * *

بينما المعهد السريو - كلداني الدومنيكاني تذييع سمعته كمحررين وناشرين للنصوص السريانية القديمة التي وصلت عبر قرون على شكل مخطوطات. في العام ١٩٠٥ أزاح ألفوس منكنه أحد أعضاء الهيئة التدرسية الستار عن اكتشاف مهم عن المخطوطات القديمة قائلاً بأنها أنقذت من حريق حدث قبل ١٥٠ عاماً في عقرور وهي قرية نسطورية تقع شمال شرق زاخو، أحدها مدون في كتابة لم تعد مستعملة استخدمت

(١) الأستاذ ماكسمليان بتر: Die beiden heiligen Bucher der Jeziden،

أنثروبوس، العدد ٦ (١٩١١) ص ٦٢٨-٦٣٩. وكذلك مقاله في DKAWW، العدد ٥٥ (١٩١٣) ٤، ص ١-٧٩، ص ٣-٥ مع ٢٣ لوحة.

(٢) إدموندز، ص ٨٧-٨٨.

في القرن العاشر تم التعرف عليه عن طريق الملاحظات الهامشية كتاريخ اكليريكي (كنسي) من قبل المؤرخ الإخباري للحوادث مشيحا زخا احتوى تفاصيل غير معروفة عن بداية الكنيسة النسطورية في أربيل، دقق النص وترجم إلى الفرنسية من قبل منكنه ونشر من قبل المعهد في العام ١٩٠٧ وسرعان ما جذب انتباه العلماء والمختصين بما فيهم زبون جرميا شامير القديم زاخاو الذي ترجمه في ما بعد إلى الألمانية وسماه "كرونولوجيا أربيل".^(١)

محرر هذا النص كان يُعرف بهرمزد منكنه إلى ان حصل على درجته الدينية، كان قد ولد حوالي العام ١٨٨١، والده كان القس الكلداني في شرانش - قرية على مقربة من عقرور - دخل الابن المدرسة الدينية بصفة طالب في العام ١٨٩١ بعد أحد عشر عاماً، متألق في الدراسات السريانية العربية لكنه غير مؤهل بسبب علة في التكلم من العمل الرعوي الأبرشي، فعين أستاذاً للغة السريانية، كتب القواعد السريانية ودقق وحرر أعمالاً لأرباب الكنيسة السابقين، ممتلئاً بالثقة بالذات وطموحاً لتحقيق ما يميزه عن غيره، لم يتردد لإحراج رؤسائه عن طريق الخوض في مجادلات مع الأستاذ العظيم شابو.^(٢)

في العام ١٩٠٧، بعد أسابيع من تحرير وترجمة كرونولوجيا أربيل، علم الترجمان في نيابة القنصلية الألمانية بالموصل بأن منكنه كعميل لشخص وجيه لم يذكر اسمه مقيم في عقرور، كان يعرض المخطوط للبيع،

(١) ألفوش منكنه، Sources suriagues، العدد ١، ص I-XI و ١-١٦٨. وألبوم مجموعة مخطوطات منكنه، العدد ٣، ص XIII. زاخاو: تاريخ اربيل، KPAWA، العدد ٦ (١٩١٥) ص ٥-٩.

(٢) جاك م. فوستسي: ألفوش منكنه، OCP، العدد ٧ (١٩٤١) ص ٥١٤-٥١٨.

بعد مساومة ومحكمة تم شراء المخطوط مقابل ٣٥٠٠ فرنك بالإضافة إلى ٨٩٠٢ر٠٥ قروش (١٤٨٦ر٠١ جنيه سترليني) من قبل المكتبة الملكية في برلين حيث تم فهرسته كـ Ms. Or. Fol. ٣١٢٦.^(١)

خلافات منكنه مع مسؤولي الكنيسة تطورت نحو الاسوأ، في العام ١٩١٠ أعفي من واجباته في المعهد السريو - كلداني، وفي ٧ كانون الثاني من العام ١٩١٣ قدم استقالته من الكنيسة الكاثوليكية وغادر الموصل^(٢)، بعد شهرين من التجوال في بلاد فارس والأناضول قرر البقاء لفترة في ماردين مع أفس أندروز قبل منكنه دعوة لزيارة انكلترة، كان صاحب الدعوة رندل هاريس صاحب كراكر المستشرق الذي كان يرأس مستوطنة للدراسات الاجتماعية والدينية أنشئت مؤخراً من قبل منتج الشوكولاتة الثري في وودبروك بيت ريفي خارج برمنكهام، هنا تعلم منكنه اللغة الانكليزية، وعلم العربية والعبرية وساهم بمقالات حول النصوص الإنجيلية في مجالات تعليمية.^(٣)

في العام ١٩١٥ انضم إلى هيئة مكتبة جون رايلاندز في مانشستر وشرع في فهرسة مجموعة المخطوطات العربية، وبعد أن وطدت مكانته في العالم الاكاديمي البريطاني وجد منكنه الوقت للتعرض إلى شخصين من ماضيه في العراق، مقالته تحت عنوان (عبدة الشيطان: معتقداتهم وكتبهم المقدسة) نشرت في تموز العام ١٩١٦^(٤) ناقشت نظريات عديدة حول

(١) يوليوس اسفلاغ، OC، العدد ٥٠ (١٩٦٦) ص ٢٢-٢٤.

(٢) ألبوم منكنه، العدد ٣، ص VI، في: تاريخ أربيل، لا اورينت سريان، العدد ١٢ (١٩٦٧) ص ٢٦٦ و ٢٧٩.

(٣) ألبوم منكنه، العدد ٣، ص VI و XIV - XIII.

(٤) منكنه، JRAS، ١٩١٦، ص ٥٠٥-٥٢٦.

أصل الديانة الأيزدية وانتقدت بحدة جرميا شامير وبير أنستاس. وأعتبر منكنه نفسه خبيراً في الشؤون الأيزدية (لأنه سنحت لي فرص خاصة لدراسة حياتهم) دون الإفصاح عن مزيد من التفاصيل حول تجاربه معهم، أعلن بأنه (أصيب بالصدمة نتيجة الاكتشاف غير العادي للأب أنستاس). كان من الواضح أن ألفس أندروز يشاركه في هذا الشعور، وكان قد أخبر منكنه في العام ١٩١٣ بأنه في نيسان ومايس من العام الذي سبقه سعى للحصول على معلومات من الأمير علي بك في باعدري، وكذلك عندما زار الشيخ البارز خدر الياس في سنجار، عبر الاثنان عن دهشتهم لآلفس أندروز لهذا الطلب وأعطياه جواباً سلبياً، وأضاف منكنه بأنه في طريقه لزيارة أندروز في ماردين "مررت على مقربة من سنجار، سألت العديد من الأصدقاء من أيزيديي سنجار حول هذا الاكتشاف لكنهم كانوا غير قادرين على الإجابة على أسئلي أو حتى على فهمها" محلاً بصورة نقدية مفصلة رواية أكتشاف أنستاس كتب منكنه: (نحن والاوربيون نواجه فكرة وجود المكتبات لدى الأيزديين ونتساءل فيما إذا كانت حقاً هذه الطائفة غير المتعلمة قد أوجدت وظيفة أمين مكتبة. استهزأ بفكرة وجود مركز ديني على جبل سنجار مشيراً بأن الأيزديين الخليين كانوا قرويين غلاظاً غير مهذبين، مشغولين بصورة رئيسية بالنهب والسلب، وإنه حتى القرن الرابع عشر كان الجبل محتلاً من قبل النسطوريين الذين لم يتم تحدي سيادتهم إلا مرة واحدة (وذلك خلال الفترة السريعة الزوال ولكن المميّنة لگابرييل دروسيد)^(*).

(*) أنظر ٧-٩ PP. لمزيد من المعلومات حول هذا اليعقوبي المعاصر لأب أنستاس الفارسي.

بمقارنة نصوص أنستاس مع النسخة المنشورة من قبل إيسيا جوزيف
لاحظ منكنه أن:

نص أنستاس أكثر اعتدالاً في تفاصيله، وأكثر دقة في
أماكن قد تصيب آذان المتعلمين بالصدمة. . هناك حكايات
ذات طبيعة غريبة وغير عادية أقتطعها أو أهمل ذكرها في
طبعة أنستاس.

بعد إدراج النصوص السابقة - ترجمة براون لمخطط باري طبعة
جميل لصيغة السؤال والجواب العائد لإسحاق، نسخة السرد نشرت
من قبل الند القديم لمكنه / شابو وكذلك نصوص إيسيا جوزيف أعلن
الكاتب نتيجته المدمرة:

أعتقد أن هؤلاء العلماء ذوي النوايا الحسنة قد أصبحوا
ضحايا تضليل وخداع. مؤلف كل هذه النصوص على
الأرجح هو الشماس جرميا شامير من أهالي عين كاوا في
أديابين والهارب من دير ألقوش، الذي مات قبل عشر
سنوات في عمر متقدم كثيراً.

في دعم لرأيه استشهد منكنه بشخصية جرميا التي ذكرها باري
(الاقتباس المذكور في مستهل هذا الفصل) وأشار إلى عدد من الأخطاء
القواعدية في النصوص الأيزدية التي أظهرت بأن (كاتبها رغم كونه كان
يكتب في العربية كان يفكر في السريانية).

واختتم منكنه نقده للنصوص الأيزدية بالقول:

(لأنرغب أن يعتقد قراؤنا بأن كل شيء في هذه الكتب
هو خطأ، لأنها تحتوي على حقائق وبيانات عن عادات
وتقاليد الأيزدية التي لا غبار على صحتها، لكننا نصر على

أن جرميا هو الذي وضعها في كتاب مقدس، وصاغ في
كتابة مشفرة ما مارسه الأيزديون بطبيعتهم طبقاً لشرية
شفاهية ورثوها أباً عن جد وألزمها السلطات الدينية بهالة
من القدم تعود لأربعمائة سنة).

في العام ١٩٣٢ قام مستشرق ايطالي بتحليل الاماكن التي ادعى
مكنه بأنه عثر على صيغ سريانية للتعبير في نصوص عربية، وجد بأن
العديد من هذه المناسبات وقعت في التعليقات وليس متن الكتب
المقدسة، وحيث وقعت هذه النصوص اعتبرها الكاتب نتيجة لأخطاء
ارتكبها الناسخ^(١)، عند هذا الوقت كان مكنه قد حقق شهرة ونجاحاً.
ادورد كادبري الذي كان والده المانح لوودبروك كلفه لشراء
مخطوطات في الشرق الأوسط وبنى مكتبته في سيلي أوك الغربية لاحتواء
مجموعة الكتب، عين مكنه القيم على المكتبة وكرس نفسه على
تنظيم المكتبة وفهرسة الكتب من حيث المحتوى إلى أن مات في
العام ١٩٣٧.^(٢)

التعليق الايطالي على المقالة الأيزدية كان قد أهمل وتمتع الشماس
الذي عاش طويلاً بشهرة استمرت حتى بعد وفاته ظناً بأنه مؤلف الكتب
الأيزدية المقدسة.

تأكيد مكنه الفظ بأن مرتداً عن الكنيسة الكاثوليكية قد اختلق نصاً
دينياً مهماً ارتد عليه هو نفسه في العام ١٩٦٥، حوالي ثلاثين سنة بعد
وفاة مكنه وستين سنة بعد رحيل جرميا شامير بعد التدقيق في مخطوطة

(١) جوسبي فرلاني: Sui YEZIDI، RSO، العدد ١٣ (١٩٣٢) ص ١٢٣-١٣٢.

(٢) ألبوم مكنه، العدد ٣، ص VII-VIII و XI.

كرونولوجيا أربيل الذي قام به خبير ألماني، توصل إلى أنه رغم أن الكتابة قديمة، خط السيد هو معاصر أظهر التحليل الدقيق نماذج من حرق سطحي على الحوافي والحواشي، مزيد من الاستعلام والتحقيق كشف عن أن الكاتب كان قساً كلدانياً من ألقوش وعلى أنه ساعد منكنه لحرق المخطوطة، صفحة بصفحة في فرن خارج منزله. يبقى تأليف وأصل الوثيقة التي أستنسخت منها موضع خلاف، لكن في وقت مبكر من العام ١٩٤١ أعترف راهب من ألقوش بأنه بدون تعمد كتب أسم مشيحا زخا على هامش الصفحة.^(١)

بعد مضي قرن وربع على انتقال أبرشية الربان هرمز إلى أبنية أكثر عصرية في ألقوش، مخلقة فقط عدداً محدوداً من الرهبان في معتزلهم الجبلي القديم. لكن في ظل الضوء الباهت للدير، حيث يرقد تسعة مطارنة نسطوريون وأسماء (كلاود، ماري، ريج، لوبدل، بيركنس، لايارد) محفورة على الحيطان، شبح ساكن سابق ربما يحوم هناك وابتسامة باهتة على وجهه الصغير المتسم بالحكمة.

* * *

(١) اسفلاخ، OC، العدد ٥٠ (١٩٦٦) ص ١٩-٣٦. ويذكر في، المصدر السابق، أن بحشه أدى به إلى اعتقاد شبه جازم بأن المخطوط كتبه الراهب. د. سي. ب. بروك: الكتابة السريانية التاريخية: مسح للمصادر الرئيسة، مجلة المجمع العلمي العراقي - الهيئة السريانية، العدد ٥ (١٩٧٩-١٩٨٠) ص ٣٠٣، يستنتج بأن السؤال عما إذا كان منكنه هو الذي كتب (تاريخ أربيل) بالكامل لا يزال بلا جواب أكيد.

عاش بير أنستاس أكثر من منكنه بعشر سنوات كان قد أعتقل من قبل العثمانيين في العام ١٩١٤ باعتباره متعاطفاً مع العرب، وحكم عليه بالموت وأعفي عنه في اللحظة الأخيرة عندما كان واقفاً على منصة المشنقة، عانى الكرمللي حوالي سنتين في النفي والمعاملة السيئة في كبادوشيا، عاد إلى بغداد في العام ١٩١٦ وأستأنف العمل في البعثة، وإمامه بالأدب العربي أكسبه العضوية في أكاديميات بغداد ودمشق والقاهرة.

بعد وفاته في العام ١٩٤٧، مجموعته المؤلفات من ١٥,٠٠٠ كتاب و ٢,٠٠٠ مخطوطة أعتبرت معلماً وكنزاً وطنياً.^(١)

إنه من السهل الاستنتاج بأن بير أنستاس كان ضحية اندفاعه ورغبته وبأنه خلال فترة عامين من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٦ قام أحدهم بترجمة النص العربي من الكتب المقدسة إلى الكردية على حساب أنستاس لكن اكتشاف ١٩٣٤ من قبل هنري فيلد للنصوص الأيزدية غير محروقة من قبل في بلد سنجار (اكتشاف آثار اهتمام أنستاس إلى حد كبير)^(٢) يقترح بأن المخطوطات ربما لا زالت مخبأة في جبال سنجار التي قلما تزار.^(٣)

(١) AOCD، العدد ١٩ (١٩٤٧) ص ١٣٧-١٣٨. راجع أيضاً همفري برومان: نافذة الشرق الأوسط، ص ١٩٦-١٩٧. في كانون الأول ١٩١٩ أصبح بير أنستاس عضواً فخرياً في رهبنة الإمبراطورية البريطانية " للخدمات الكبيرة التي قدمها للأسرى البريطانيين في بغداد بعد هزيمة الكوت ومجالات أخرى ".

(٢) فرايها، JAOS، العدد ٦٦ (١٩٤٦) ص ١٨-٤٣. هنري فيلد، مقدمة كتاب سامي سعيد أحمد: الأيزدية: حياتهم ومعتقداتهم، طبعة فيلد، ص VI-VII .

(٣) ذكرت الأميرة ونسة الأموي في مقابلة مع المؤلف في تشرين الأول ١٩٨٣ أنها شاهدت كتاباً دينياً ببلد سنجار مكتوباً بالإملاء الفارسي لكنها لم تتمكن من قراءته.

الفصل الحادي عشر

الاخ والاخت

الآمال والأخطار التي أتت بها ثورة تركيا الفتاة بين العرب والطوائف الأخرى في العراق لاحظها مراقب متسم بالدقة والتبصر، مرَّ عبر بغداد والموصل في ربيع عام ١٩٠٩ كرتروود بيل البالغة من العمر أربعين عاماً وعميدة جيل جديد من المكتشفين البريطانيين، تملك الشراء والنفوذ مما مكنها من السعي وراء اهتمامها المنصب على البحث في الآثار المشرقية، ورغبتها وذوقها في السفر، وتسلق الجبال، والتلاعب في السياسة، كانت على معرفة سابقة بالأيزديين من رحلة للكنائس المسيحية القديمة حول حلب، قررت القيام بزيارة إلى لالش.^(١)

كانت محطة توقفها الأولى في باعدي، حيث شاهدت طاووسين في حديقة القصر، واستقبلت بحفاوة من قبل الأمير علي بك، وهي تصفه بأنه (رجل في مقتبل العمر له هيئة آمرة، ولحية طويلة من اللون البني

(١) كرتروود لوثيران بيل: من أمورات إلى أمورات، ص ٢٧٣-٢٨٠، ومذكرات سفرها غير منشورة ليومي ٧ و ٨ أيار ١٩٠٩ (مجموعة كرتروود بيل، جامعة نيوكاسل).

الشفاف معقصة تصل إلى خاصرته، كان مرتدياً من الرأس إلى القدم ثوباً أبيض) أطلقت عليه (خلفاً لعلّي آخر الذي أصبح أباً له بالعماد) في الحقيقة كان هذا هو نفس الشخص، وهو يبلغ من العمر الثانية والستين من العمر.

بعد اجراء الترتيبات اللازمة لكرتود بيل لزيارة لالش، قدم لها المشروبات المنعشة الباردة في القسم النسائي من المنزل، حيث قابلت (زوجته الجذابة جداً) التي كانت ترتدي ثوباً بنفسجياً من القطن، وجاكيتة سوداء وقبعة من المخمل موضوعة فوق خمار من المسلمين الذي كان ملتفاً حول رأسها وتحت ذقنها، دون أن يغطي وجهها، كانت تلبس في معصمها طاقماً من السوار الذهبي الثقيل مُطَعَّمًا بالفيروز.

الخاتون (السيدة) تكلمت فقط باللغة الكردية، لكن السكرتيرة الكلدانية لعلّي بك قامت بالترجمة، وشكلت كرتود بيل صداقة صامتة مع سعيد بك الابن الصغير الوسيم للأمير والبالغ من العمر تسع سنوات، الذي جلس على إحدى أكبر كراسيها بينما يراقبها وهي تتناول طعامها.

عائدة إلى باعدي في ذلك المساء، بعد اطلاعها على المعبد في جولة رافقتها فيها أخت علي بك، المكلفة برعاية المعبد، دعيت كرتود بيل من قبل سعيد بك إلى زيارة لوالدته، جلس الصبي في الغرفة وهو يدخل السجائر، بينما تبادلت المرأتان أطراف الحديث عبر الترجمة الكلدانية، عندها قالت المرأة الإنكليزية: في بلدي الأطفال لا يدخلون. أوه ! سعيد بك، الأطفال الصغار من أمثالك، يجدر بهم أن يخلدوا إلى النوم في مثل هذه الساعة. ابتسمت والدته تجاهه بعطف قائلة: لا نستطيع إلا أن

نستجيب لكل مطالبه. وأضافت السكرتيرة: إن العرق الذي يعطونه هو أسوأ من السجائر.

في الصباح التالي شكرت غرتروود بيل السكرتيرة على الضيافة والحفاوة التي استقبلت بها، وفي الحال وافقت على طلب - نيابة عن الأمير - بعض (الأشرطة النارية) - وهي أسلاك تصدر ضوءاً وميضاً - لإشعالها على ضريح الشيخ آدي في الاحتفال المقبل.

* * *

ولدت ميان خاتون في العام ١٨٧٤، وكانت في الخامسة والثلاثين عندما التقت غرتروود بيل، والدها هو عبيد بك الأخ الأصغر للأمير حسين بك (صورة تخطيطية لهما تعود إلى العام ١٨٤٩، تظهر في الصورة رقم ٤٣)، نُصب أميراً خلال السنوات الست بين إزاحة حسين بك عن الإمارة من قبل العثمانيين وقبولهم النهائي لميرزا بك خلفاً له، عندها كان مقيماً في جبل سنجار ومات هناك في العام ١٨٨٨.

والدة ميان كانت خومي بنت جاسم، الذي قتل عندما استولى والد علي بك الأمير حسين بك على العرش.^(١)

جميلة ولها أصول عريقة، تزوجت وهي في الثامنة عشرة من علي بك، وهو أخ الأمير الحاكم، وخلال سنوات زواجها حدثت مأساة عامة

(١) شجرة النسب المحشاة لكول، مع بعض اختلاف في التفاصيل، وردت أيضاً في كتاب صديق الدملوجي اليزيدية، ص ٢٢-٢٣، كما رواها آدموندز في حجة إلى لالش، ص ٢٨-٣٠. ويدين الكاتب إلى الأميرة ونسة الأموي على المعلومات التي قدمها عن الأجيال الجديدة من عائلة كول.

وخاصة: اضطهاد الأيزديين للأعوام ١٨٩٢-١٨٩٣، رفض علي بك وتحت التعذيب التخلي عن عقيدتهم الدينية، ثم نفيها إلى شمال الأناضول، وسلسلة من المصائب المتعلقة بالولادة (كان سعيد بك هو الطفل الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد الولادة). كل هذه الأحداث المؤلمة جعلتها امرأة صلبة ذات شخصية حديثة.

بعد عودة علي بك وزوجته من المنفى، المهمة الصعبة التي واجهت الأمير الجديد كانت إعادة بناء الطائفة الأيزدية مادياً وروحياً، يساعده صديق الدملوجي، الموظف العثماني المتعاطف معه.

إستطاع علي بك استعادة معبد لالاش^(١) لكن الطواويس والمواد الأخرى المقدسة التي أزالها عمر وهبي باشا وابنه بقيت محجوزة في بغداد، واحتفظ الأمير - وزوجته - مشكوراً للوساطة التي حررته من المنفى ساعياً إلى مساعدة أكثر باتصالاته مع موظفي القنصلية البريطانية والمبشرين في الموصل، وكذلك مع الرحالة أمثال غرتروود بيل.

وسرعان ما اكتشف علي بك بأن شقيق ميان الأصغر هو الآخر يرغب في بعث الطائفة الأيزدية وأنه يستقل بأموره.

الأمراء الأيزديون للقرن التاسع عشر والمذكورون بلمحة خاطفة في اليوميات المحلية أو في مصادر الرحالة، يعيدون إلى الذهن الصور الزخرفية ذات البعدين والتي خطها رسامو الصور الصغيرة المشرقيون. في العام ١٨٨٨ أنتجت عائلة چول الحاكمة أميراً كانت شخصيته مزيجاً من المثالية، الطموح والنزوات، تطبعه هذه الخصال كرجل القرن

(١) الدملوجي، ص ٣١٧-٣٢١. داود الجلبسي: مخطوطات الموصل، ص ٢٥٢. سي. أ. كود في هنري فيلد: انثروبولوجيا العراق، الجزء الثاني، أولاً: الجزيرة الشمالية.

العشرين باللحم والدم، إسماعيل بك، مولود لنفس الام كما هو الحال مع ميان، كان أصغر سنّاً من اخته بأربعة عشر عاماً، توفي والده عبيد بك بعد ولادته بستة أشهر، أما والدته فتوفيت عندما كان هو في الثالثة من عمره، فترك لأخواته كي يقمن بتربيته، وعندما بلغ الثامنة اختطف إسماعيل ابنة (فقيرة) وفر معها، ولد لهما ابن لكن زوجته توفيت بعد ذلك بفترة قصيرة.^(١)

ولما لم يكن يهدأ له بال، له أحلام يرغب في تحقيقها، بدأ إسماعيل يتجول بين الطوائف والمجتمعات الأيزدية كإصلاحي ورسول معين من قبل نفسه، وهو يبشر ويبارك ويجمع التبرعات الدينية، وفي جبل سنجار عقد صداقة متينة لمدى العمر مع حمو شرو عن طريق حل خلاف نشب بين رجال قبائليين آخرين.^(٢)

وفي العام ١٩٠٨ قرر اغتنام الفرصة في ظل الحرية التي وفرتها ثورة تركيا الفتاة وذلك للقيام بزيارة الأيزديين في ما وراء القوقاز.

* * *

ألقت قوة وبأس روسيا ظلاً ثقيلاً على الامبراطورية العثمانية في آسيا في الولايات الثلاث التي تنازل عنها السلطان عبد الحميد في العام ١٨٧٧، بنيت قواعد عسكرية جديدة في قارس وسري كامش، وربطتا بنظام السكة الحديدية الروسية، بينما منعت الخطوط العثمانية من أن

(١) إسماعيل بك كول: البيزدية في الماضي والحاضر، طبعة زريق، ص ٢-٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤-٧.

تتوسع خلف أنقرة وباتجاه الشرق أكثر، وأضفى بين روسيا وبريطانيا المشروعية على (منطقة نفوذ) روسية في الولاية الفارسية آذربيجان المتاخمة للأناضول وأنشئ خط سكة حديدية لربط أيريقان مع تبريز.

التفوق العسكري سهّل الضغوط الثقافية والسياسية، المطران الأرمني كاثولييكوس أرمينيا الذي أقام على التراب الروسي وأكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ من أتباعه كانوا من رعايا القيصر الروسي، في الأعوام ١٨٩٧-١٨٩٩ تحول العديد من النسطوريين حول بحيرة أورمية إلى الكنيسة الارثوذكسية الروسية. وكان الكرد قد تعودوا ومنذ فترة طويلة على اللعب مع قوة عظمى جارة ضد أخرى، وبعض زعمائهم بما فيهم أحد أبناء بدرخان بك الكثيرين، بدأ يتحدث مع الروس.

من بين ١٣٠ مليون مواطن روسي حسب تعداد النفوس للعام ١٨٩٧، كان هناك ١٤,٧٢٦ أيزدي في ما وراء القوقاز، هذا المجتمع الرعوي الصغير - الذي يتعلق الفصل المقبل بتاريخه - كان بعيداً عن السياسة، لكن منذ أيام لا يارد كان سنجاق موسكثوي مصدراً جديداً لدخل الأمراء.

أحسّ إسماعيل بك بالفرصة الفريدة للذهاب إلى رعيته البعيدين، ورحلة إسماعيل أخذته عبر تجمعات أيزدية مبعثرة في شمال شرق الأناضول، في قرية على مقربة من (وان) كان مضيفه يستعد لإقامة احتفال منتصف النهار على شرفه عندما وصل خبر بأن غريباً يبحث عن المؤن والزاد والعلف، وان هناك برفقته مسافرين آخرين على طرف القرية، وبعد التحقيق تبين أن هرمرز - شقيق المطران (الآثوري) مار شمعون بنجامين التاسع عشر - كان يطوف في أطراف قومه برفقة القس

ويكرام، الذي قام مؤخراً بتغيير مكان البعثة التابعة لأسقفية كانتربري في (وان) بعد أن انشق معظم رعاياها وانضموا إلى الكنيسة الروسية، وأصر وفد من القرويين على أن يأتي هؤلاء المسافرون المميزون "للتناول الغداء".

في كلمة ترحيبية استشهد الأمير الأيزدي بالاحترام والتقدير الذي يكنه الأمير علي بك لمارشمعون - من المؤسف أنهما لم يلتقيا أبداً - واستذكر بان الزوار الأيزديين لمنزل المطران كانوا جميعاً متأثرين بالانطباع الجيد الذي تركه رؤيتهم للطاووس الأليف، اغتاز ويكرام من التأخير - ساعتان ونصف الساعة - الذي سببه الاحتفاء ولكن نفاد صبره هدأ بحادث غريب وقع في نهاية الوجبة بعد أن شبع الضيوف المسيحيون وبعض الأيزديين من وعاء الحساء، أفرغ الأمير حاوية من الفلفل الأحمر في الوعاء وشرب الحساء إلى آخر قطرة.^(١)

حصل إسماعيل على أوراق سفره في أرضروم واتجه بثقة بمحاذاة الطريق الرئيسي المؤدي إلى الحدود، ولكن على الرغم من أن القوالين عبروا الحدود الجبلية الصعبة دائماً بين الامبراطوريتين العثمانية والروسية دون أن يتم اكتشاف أمرهم، كانت الأمور أكثر صعوبة لإسماعيل الذي سافر في موكب يضم الخدم، وحقائب تحتوي على معاطف مطرزة بالذهب وكرات الصلصال من معبد الشيخ آدي.

على نقطة الحدود الروسية قره أورغان كانت أوراق المسافرين منظمة حسب الأصول، لكن رجال الجمارك طلبوا ٥٠ ليرة ذهبية (عندما

(١) ما سجله ويكرام ونشر في QP العدد ٨٠ - تموز ١٩١٠ لا يذكر تاريخ هذا الحدث سوى أنه "كان في الخريف" ويذكر أن اسم هذا الأمير الأيزدي الذي لم يذكر له اسماً هو أخ مير علي بك.

كانت تساوي ٤٥ جنيهًا سترلينيًا) كضرائب على الثياب والمعاطف، وردوا عرض إسماعيل باستعداده لدفع ١٥ ليرة ذهبية لشخصه، رجع إسماعيل وخدمه إلى نقطة الحدود العثمانية، حيث أخبره صاحب خان أشفق عليهم بوجود طريق عبر الجبال وطمأنهم بأنهم حالما يعبرون الحدود إلى داخل روسيا فإن الفيزا الروسية التي سبق وأن ختمت أوراقهم بها سوف تسمح لهم بالإقامة القانونية، ولكن الطرق مخوفة بالأخطار للأيزديين، لأن القرويين الكرد كانوا مسلمين متطرفين.

بعد يوم طويل من ركوب البغل وصل إسماعيل إلى أول قرية، حيث أعلن بأنه وأصحابه دراويش من الطريقة القادرية المعروفة جداً إلى إسماعيل، لأن مؤسسها الشيخ عبد القادر الكيلاني كان على صداقة متينة مع الشيخ آدي ويعتبر قديساً من قبل الأيزديين(*) تم الترحيب بالمسافرين، وقدم لهم مأدبة غداء باعتبارهم ضيوف مشرفين، ووقف إسماعيل في مقدمتهم لأداء الصلاة مدركاً بأنهم لا يعرفون إلا القليل من اللغة العربية، خلط بالطقوس والمراسيم عدداً من اللعنات والسباب مناشداً المَلِك طاووس والشيخ آدي بمحو القبيلة كلها !

جاء المرضى والمعوقون يطلبون البركة والشفاء على يد الرجل المقدس، والنسوة العاقرات جئن وهن يحملن كوؤس ماء للشيخ ليبصق فيها، وأولياء الأمور أتوا بأطفالهم المختضرين يطلبون كرات الطين من مرقد الشيخ آدي، فيما استفسر وجهاء القرية عن مدى سماح قتل الأرمنيين والأيزديين، فأخرج الذي انتحل صفة الدراويش (إسماعيل)

(*) راجع الفصل الثاني.

يومياته من جيبه وتصفحها مجيباً بأن كتاب الشيخ عبد القادر يبرر القتل فقط في حالة الدفاع عن النفس والاعتداء غير المستفز.^(١)

بعد ذلك بأيام قليلة، وبعد استقبالات مماثلة في سلسلة القرى، وصل المسافرون إلى ألكساندروبول (المسمى سابقاً كومرو) حيث كشفوا عن هويتهم الحقيقية، أقنع إسماعيل المسؤولين هناك بأن لا نوايا عدوانية لديه، فسمح له بالتنجوال بين القرى الأيزدية حيث نشر قواعد وقوانين الشيخ آدي، ووجه التعنيف والتوبيخ لهؤلاء الذين تأثروا وتبنوا عادات جيرانهم المسيحيين.

وفي كانون الأول ترأس إسماعيل تجمعاً للوجهاء الأيزديين في المدينة الصغيرة الحدودية أيغدير وأعطاهم قواعد تخص سلوك المؤمنين من بينها: قرر إسماعيل أن لا يتجاوز مهر العروس كحد أعلى ١٠٠ روبل (كانت عندها تساوي ١٠١ ر ١٠ جنيه سترليني) إذا كانت بنتاً عذراء و ٤٥ - ٥٠ روبلاً إذا كانت أرملة.^(٢)

تجديد واحد أجفل المواطنين من المبادئ التي أدخلت في قواعد السلوك (بايغدير) كانت الوصية التي تفيد بأن على الأيزديين فتح مدارس وتعليم أطفالهم فيها القراءة والكتابة وتعلم شؤون الدنيا، هذا المبدأ نفذ شروط تفاهم فاوض بشأنها إسماعيل مع الكنيسة الأرمنية التي وافقت لمد حمايتها على الأيزديين إذا ما دخل أطفالهم المدرسة ثم الاتفاق على التفاصيل عندما زار إسماعيل الذي كان يبلغ من العمر عشرين عاماً،

(١) إسماعيل، ص ٩-١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢-٢٠. د. أ. در، مقال في Anthropos، العددان ١٢-١٣، ١٩١٧-١٩١٨، ص ٥٥٨ و ٥٧٤.

المطران ماثيون الثاني الأرمني الذي كان في الأربعينيات من عمره في الدير العريق أكميزدين شمال أيغدير عندما ألح إسماعيل بأن القرويين لا يملكون المال لفتح المدارس، أجاب المطران: (أنا على استعداد لفتح سبع مدارس في القرى الأيزدية وسوف أتولى المسؤولية لتلبية كل احتياجاتهم).

يساعده المطران وفريقه الديني، كتب إسماعيل التماساً إلى الكونت الاربيون فورونتسوف راشكوف النائب عن القيصر في القوقاز، وذلك بالنيابة عن اثنتين وسبعين قرية و ٣,٥٠٠ بيت يطلبون الاعتراف الرسمي بالدين الأيزدي والحماية ضد تحرشات المسلمين، الالتماس أجريت عليه التغييرات لست مرات قبل أن ينال رضاهم، وأختتم بدعاء يفيد (أن السيف الروسي في يوم من الأيام سوف يحكم جبل سنجار، وينقذ أهاليه من اضطهاد المسلمين).^(١)

غادر إسماعيل إلى تفليس بالقطار (وهي أول مرة يركب فيها القطار) وأقام في مركز المطرانية الأرمنية، وتم ترتيب موعد له مع نائب القيصر لتقديم التماسه (يشير إسماعيل في مذكراته إليه باعتباره الملك)، وفي ٣ آذار ١٩٠٩ نقل إسماعيل والذين كفלוهم في عربات رسمية إلى القيصر حيث أعجب بالسجاجيد والبسط والأثاث المرصع بالجواهر والتطريز المزدان بالرسوم والصور، استقبل أولاً من قبل (الملكة) ووصيفاتها الخمس، التي قدمت لهم السجائر والبسكويت والشاي، عندها دخل فورونتسوف داسكوف حاسر الرأس، يتمنطق بسيف ذهبي، كان يبدو

(١) إسماعيل، ص ٢١-٢٣.

للعيان كأنه في الخامسة والخمسين من العمر^(*) عَدَّد له إسماعيل أوجه التشابه بين الديانتين الأيزدية والمسيحية، وطلب أن يتم الاعتراف رسمياً بقومه كأقلية تحت الحماية الأرمنية، وافق نائب القيصر وعندما علم بأن عدداً من الأيزديين يعيشون في تفليس، أصدر أوامره للشرطة بإحضارهم إلى القصر، حيث تم أخذ صورة تذكارية لـ ٢٧٠ منهم مع إسماعيل، وفي ختام اللقاء أعلن (الملك) بأنه سوف يقدم النصيحة لأخيه الأكبر نيكولا في بترسبرك بشأن الأيزديين وحث إسماعيل على البقاء في ما وراء القوقاز كزعيم للأيزديين، فأجاب إسماعيل بأن له أموراً مهمة عليه القيام بأدائها في استنبول والعراق، لكنه سوف يفكر في العرض الروسي. وللوقت الحاضر طلب أن يكون رئيس قرية كالانيان في مقاطعة سُرمالو نائباً عن إسماعيل.

اصطف المتفرجون على أطراف شوارع تفليس عندما ركب إسماعيل عائداً إلى مقر المطرانية حيث سمح له بالجلوس على عرش الأسقفية واستقبال المراجعين الأيزديين، أقرشوا منديلاً أبيض أمامه وغطوه بالبرعات التي بلغت ٤٠ ليرة ذهبية (٣٦ جنيهاً سترلينياً)^(١) ومن بين الذين ابتهجوا بنجاح مهمة إسماعيل أعضاء البعثة السويدية للعمل التبشيري المكون من الإناث اللاتي كن يقمن بالنشاط الاجتماعي بين

(*) كان نائب القيصر في الحقيقة في الواحدة والسبعين من عمره.

(١) المصدر نفسه ص ٢٣-٢٥. مقال " Glava Yezidov " Tifissky Listok، ١٩٠٩، العدد ٤٠ (٢٠ شباط) ص ٢. ويشكر المؤلف مدير قسم الأدب الأجنبي بمكتبة كارل ماركس الحكومية بجمهورية جورجيا السوفيتية الاشتراكية لتزويده بنسخة من المقال المذكور.

أيزدي تفليس، مسجلة يومياتهن ماريا أنهولم التي تذكرت بحزن وكآبة فيما بعد زيارة الزعيم الأيزدي، بوصفه "رجل شاب جدير".^(١)

وصل إسماعيل إلى أستنبول مبحراً من باطوم في ربيع العام ١٩٠٩. ومسؤولو الكنيسة الأرمنية الذين ينعمون بحو الحرية الذي صاحب ثورة تركيا الفتاة، سرعان ما حصلوا له على فتوى صادرة من شيخ الإسلام اعترفت بالديانة الأيزدية وبقدسية معبد شيخ آدي، وحرّم التحول القهري للديانة الإسلامية، كما أفادت بأن تتم إعادة المواد المقدسة المحجوزة في بغداد إلى الأيزديين، وأرسل نص الفتوى برقياً إلى الموصل للتصديق عليه من قبل الأمير علي بك، كان جواب الأمير مصحوباً بإعلان موقع من قبل زعماء القبائل مفاده أن إسماعيل لا يملك الصلاحية للتفاوض نيابة عن الطائفة الأيزدية علق إعلان الفتوى، وعاد إسماعيل بخيبة أمل إلى العراق.

كان حدس إسماعيل بأن الباعث وراء تنكر علي بك هو الخشية من أن يستخدم قريبه الشاب هذه الفتوى كنفوذ ليصبح الأمير المقبل للأيزديين (جريدة استنبولية كتبت بأن إسماعيل طلب من الصدر الأعظم إعانة مالية باعتباره وريث الأمير، كما طلب أيضاً بأن يقبل في مدرسة) على أية حال، عند عودته إلى البيت طلب إسماعيل مكافأة على خدماته حصة من المدخولات الأميرية، لكن الأمير وزوجته كانا غير قادرين أو غير راغبين في ارضاء مطالبه لذا نشب بينهم عداء بغيض، وفي مذكراته يعترف إسماعيل في نقطة ما بأنه فكر في طعن أخته ميان.^(٢)

(١) م. أنهولم، مقال في Svnsk Missionstidskrift العدد ٧ (١٩١٩) ص ١٥٧.

(٢) إسماعيل، ص ٢٦-٣١. La Turguie ٢٣ آذار ١٩٠٩، نقل عنه باسيل نيكيستين في Vostochny sbornik العدد ٢ (١٩١٦) ص ١٢٦.

اتخذ إسماعيل زوجة جديدة، وهي ابنة عمه عمشة، وأقام معظم الوقت في بعشيقه، وكان منهما دائماً في المنازعات والمقاضاة، واستمر خلاف العائلة الحاكمة، وفي نهاية العام ١٩١٢ أصبح إسماعيل مرة أخرى جوالاً يعيش على ما يجود به كرم المناصرين، وفي إحدى الرحلات إلى طور عابدين سجن لفترة بتهمة التآمر مع الثوار الأرمن والجواسيس الروس، وعندما أطلق صراحه أخيراً أعطى قائد الشرطة وصفاً للديانة الأيزدية على شكل مخطوط، مكتوب في اللغة السريانية مع ترجمة عربية كان قد حصل عليه من يعقوبي كان مسجوناً معه.^(١)

بينما كانت الدبلوماسية الهادئة التي انتهجها الأمير علي بك تأتي بشمارها وفي خريف عام ١٩٠٩ سافر جورج ريد المسؤول عن مالية بعثة الأسقفية من وان إلى موصل للتحقق من إمكانية نقل مقر البعثة مرة أخرى إلى منطقة العمادية، وفي طريقه للعودة مر ريد بلالش، حيث كانت تقام احتفالات الخريف لاحظ بأنه كان هناك ٣٠٠٠ يزيدي حول المعبد، وأن (زعيمهم علي بك رجل وسيم ذو لحية غير عادية رحب بنا جيداً، وقضينا معظم النهار برفقته نتفرج على الرقص وعدد من طقوسهم).^(٢)

لم يمر فشل السلطات العثمانية في رد المواد المقدسة دون ملاحظة في عالم الفن.

(١) إسماعيل، ص ٣٢-٤١. المخطوطة التي ذكرها ربما تكون نسخة من "خلاصة تاريخ الأيزدية".

(٢) QP العدد ٧٩ (نيسان ١٩١٠) ص ١٠١٧-١٠١٩. يشير أرنست كليبل إلى مهرجان خريف ١٩٠٩ في Als Beduine zu den Teufelsanbeten ص ١٥٧-١٩١.

وفي كتاب مصطفى نوري باشا حول الأيزيديين لوالي الموصل من العام ١٩٠٢-١٩٠٥ الذي طبع على نفقته الخاصة في الموصل في العام ١٩٠٥، واستعرض من قبل المستشرق الألماني في العام ١٩٠٨ - أدرج المؤلف هذه المواد، وذكر نقلها إلى بغداد مضيفاً أن مصيرها الحالي لا يمكن التحقق منه.^(١)

مقالة بير أنستاس للعام ١٩١١ أعلن فيها اكتشافه الكتب المقدسة الأصلية، هو الآخر يضم وصف نصب حديدي يمثل الطاووس يملكه ثري من عائلة مسيحية ببغداد، اشتراه أحد اسلافه من بائع كان قد اشتراه من ضابط جيش خدم مع رشيد باشا في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، صورة تظهر الطاووس واقفاً مع ما يشبه عرف الديك فوق رأسه وريش ذيله مفتوحة (تماماً على عكس الصور التخطيطية للأيارد وبادجر ولم يع أي أبعاد، يضيف أنستاس - ابن المالك - يعتقد بأن هذا السنجاق كان قد استولي عليه من الأيزيديين، ومدح الذهب المرصع والعمل الفني الرقيق ذا الحس المرفه.^(٢)

وفي مساء ١٢ كانون الأول من العام ١٩١١ زار بائع للمواد العتيقة في دلهي خبيرة معروفة، الملكة الامبراطورية ماري نفسها، التي كانت تقوم بجولة في الهند برفقة زوجها الذي تم نصبه مؤخراً على العرش، قضت ساعتين تتفحص هذه المجموعات وكانت مهتمة بصورة خاصة بالطاووس الفولاذي، الذي كان ارتفاعه ثلاثة أقدام وذيله منتشر،

(١) مصطفى نوري باشا، عبدة إبليس، جورج جيكونب Ein neuer Text uber die BKO، Yezidis العدد ٧ (١٩٠٨) ٣٤.

(٢) أنستاس ماري دي سانت إيلي، OCD، مقال في Anthropos العدد ٦ (١٩١١) ص ٣٩ واللوحة في الصحيفة المقابلة.

وصف بأنه معبود الأيزيديين في ميسوبوتاميا، وقيل بأن التمثال قد تم الحصول عليه من الأيزيديين قرب ديار بكر في العام ١٨٨٢، بعد أن ذكر بأن المالك السابق رفض عرضاً بـ ٢٠٠٠ جنيه سترليني، أعلن البائع بشهامة بأنه سيقدمه إلى المتحف البريطاني بمناسبة ذكرى الزيارة الملكية إلى الهند.^(١)

عرض الطاووس في لندن في تموز عام ١٩١٢، وكشف التحقيق والفحص بأنه في منتصف الذيل هناك شبح رجل على وجهه خمار منسدل افترض بأنه الشيخ آدي، وبعد عرضه لأسبوع قام أثلستان ريلاي بشجبه قائلاً: إن هذا الطير الوقح كأداة زينة يمكن العثور عليه بصورة عامة في بلاد فارس، وهو يمثل الملوك الأساطير، من الجائز أن يكون عمره ٢٠٠ سنة ولا يساوي كحد أعلى أكثر من ١٥ جنيهاً سترلينياً. تعرفه على الطير مقبول بصورة عامة حالياً من قبل الخبراء وطاووس دهلي لم يعد معروضاً.^(٢)

أعيدت المواد المقدسة إلى الأيزيديين من قبل سليمان نظيف باشا^(*) رجل بارز في الأدب يقال إن والدته كانت يزيدية، وكان والياً على

(١) اللستريند لندن نيوز، ١٣ كانون الثاني ١٩١٢، ص ٤٥. ر. هـ. و. إمبسن: عبادة الملك طاووس.

(٢) مقال: طاووس مقدس: هدية إلى المتحف البريطاني، ذه تايمز (٨ تموز ١٩١٢) ص ٨. رسالة أثلستان ريلاي في ١١ تموز ١٩١٢ إلى (ذه تايمز) المنشورة بعنوان " طاووس الأيزيدية المقدس " في ١٦ تموز ١٩١٢، ص ١٣.

(*) في عهده تم إعدام الشيخ عبد السلام البارزاني في الموصل [المترجم].

موصل من أيلول عام ١٩١٣ إلى كانون الأول من العام ١٩١٤^(١) لكن عند ذاك كان الأمير علي بك قد توفي.

انتقلت بعثة الكنيسة البريطانية إلى العمادية في ١٩١١.

وفي خريف عام ١٩١٢ عاد ويغرام إلى انكلترا، وتوقف في زيارة ثانية إلى لالش وزيارة علي بك في باعدي، لاحظ أن القصر كان تحت حماية شديدة، لكن الجدران البيضاء لصالة الاستقبال كانت مشقوقة ومتصدعة في أماكن و (مكتوب عليها بقلم رصاص تخطيطات تمثل البواخر والآليات السيارة).

وصف ويغرام الأمير بأنه (رجل ضخم مقارنة بحجم الرجال في المناطق الجبلية طوله على الأرجح حوالي ستة أقدام، وهو في الخامسة والأربعين من العمر تقريباً)^(*) كان يرتدي عباءة بنية غامقة مطرزة بالذهب حول الياقة وعمامة حمراء، ولا يشير ويغرام إلى محتوى محادثتهم باستثناء التقدير العالي الذي يكنه الأمير لانكلترا و صداقته التقليدية مع مطران النسطوريين، لكنه لاحظ بأن علي بك كان يعاني من زكام شديد وأن (سلوكه كان يتميز بالحزن والكآبة).^(٢)

آخر زائر تمتع بضيافة الأمير المسن في باعدي كان سفر آغا، وهو زعيم قبيلة مسلمة للكرد الدوسكيين من منطقة دهوك، الذي قضى

(١) مقال: "عبادة الشيطان في الموصل: الاعتراف الحكومي" مؤرخ في ٥ أيار ١٩١٤ ونشر في ذه تايمز في ١٦ أيار ١٩١٤، ص ٧. جلبي، ص ٢٥٢. العزاوي، ص ١٤٥-١٤٦. فيلد: شمال الجزيرة، ص ٨٩.

(*) في لقائهما كان ويغرام في الأربعين من عمره وعلي بك في السادسة والستين.

(٢) و. أ. ويغرام وادگار ت. أ. ويغرام: مهد البشرية، ص ١٠٦-١٠٧.

الليل في القصر في وقت مبكر من العام ١٩١٣^(١) وفي الصباح التالي عشر على علي بك مقتولاً في فراشه.

قضى إسماعيل تلك الليلة المشؤومة في قرية تدعى خدر الياس، قرية من الدير القديم لمار بهنام، وتقع على بعد عشرين ميلاً جنوب شرقي الموصل، في طريقه إلى الشمال توقف في قرية كرملس حيث أتاه الرسل بأخبار الجريمة، ومتوقفاً في باهزاني لللملة مجموعة من الاصدقاء، سارع إلى باعديري وكان القصر محتشداً بأعيان ووجهاء الأيزديين يتشاورون مع سعيد بك ووالدته على صوت الموسيقى الحزينة للطبول والمزامير، وكانت ميان ترتدي ثوباً أحمر رمز المرأة التي تطلب الانتقام الذي لا يعرف الصفح بصورة عامة، كان متفقاً عليه أن يخلف الأمير الشاب والده كأمر للأيزديين، لكن المكافأة الحقيقية كانت منصب الوصاية.

ترشيح إسماعيل أعيق من قبل أخته ومناصريها، الذين أتهموه بالاشتراك في جريمة القتل، ورتبوا له بأن يقتاد تحت الحراسة إلى الموصل، وفي الوقت الذي تمكن فيه إسماعيل من تبرئة ساحته من التهمة الموجهة إليه، كانت ميان قد نصبت كوصية على الأمير الشاب ومسؤولة عن إدارة المدخولات الأميرية.^(٢)

إن لغز مقتل الأمير لم يحل تماماً أبداً. اتهم ويگرام - معيداً القصص من بعثة العمادية - "ابن أخ" للأمير كان قد فر ذات مرة إلى روسيا لتجنب النتائج المترتبة على فشل محاولاته السابقة.^(٣)

(١) للمزيد عن سفر آغا راجع الدمولوجي، الزيدية، ص ٢٨-٢٩.

(٢) إسماعيل، ص ٤٢-٤٣.

(٣) و. أ. ويگرام، QP، العدد ٩٠ (كانون الثاني ١٩١٣) ص ١١٩٠. ومهد البشرية، ص ١٠٨-١٠٩.

نظرية أخرى طالما راجت بين الكتاب البريطانيين، تلمح إلى علاقة عاطفية آتمة بين ميان خاتون والزعيم الدوسكي الذي كان في القصر عند حدوث الجريمة، ومذكرات إسماعيل الناقدة لأخته لا تشير إلى هذه الإمكانية.^(١)

بعد مرور أربعين يوماً على مقتل علي بك، شهدت امرأة عجوزة كانت تعيش قرب باعدي بأن رجلين من قريتها - فتاح وعلي، أبناء چولو بن چولو قد ارتكبا الجريمة، وينتمي الاثنان إلى قبيلة (بسميرا) التي كانت تمت بصلة رحم بعيدة إلى عائلة چول الحاكمة، وكانت قد عينت في القرن السابع عشر من قبل الشيخ محمد الباطني المسؤولين بالوراثة عن إدارة شؤون الطائفة الأيزدية، وحرمت من القوة والنفوذ السياسي منذ وقت طويل، كانوا لا زالوا يأتون في المرتبة الثانية بعد عائلة چول الحاكمة وكانت العائلة الأخرى الوحيدة التي يسمح لأمرأ چول بالزواج من بناتها^(*).

كان باعشهم في قتل علي بك القضاء على عائلة چول، وهناك عدد من الروايات عن كيفية إيقاع العقاب بالمتهمين، يقول إسماعيل: إن أخاه الأكبر الذي يدعى هو الآخر چولو، ركب إلى القرية يرافقه ثلاثة من

(١) هاري جارلس لوك: الموصل وأقليتها، ص ١٣١. آدموندز، ص ٣٠. ألفوس منكنه: عبدة الشيطان: معتقداتهم وكتبهم المقدسة، JRAS، (١٩١٦) ص ٥١٩، والدملوجي: اليزيدية، ص ٢٨، يشير إلى القاتل سفر آغا دون أن يذكر أي منهما أي ضلع لميان خاتون. إي. س. ستيفنس، ليدي دروور: عبر دجلة والفرات، ص ١٩٠، يتهم ميان خاتون دون الإشارة إلى سفر آغا. راجع أيضاً الوثيقة IO L/MIL/17/15/46 التقرير العسكري لوزارة القوة الجوية عن العراق (المنطقة ٩): وسط كردستان في آب ١٩٢٩، ص ٣٣٥.

(*) راجع الفصلين الثالث والرابع.

أصدقائه وقتلوا فتاح وعلي وكل أقاربهم باستثناء صبي توفي هو الآخر بعد فترة.^(١)

عين صديق الدمولوجي - الموظف العثماني الذي كان على معرفة جيدة بالعائلة الأميرية - هوية حسين بك بن الأمير ميرزا بك وأمير آخر كمنفذين للانتقام، ويذكر بأن أخاً ثالثاً من عائلة بسميرا كان قد فر إلى سنجار واختبأ هناك خمس عشرة سنة، حيث أصيب على اثرها بالعمى ومات، وكذلك ألقوا القبض على الوالد عندما عرض عليهم الكشف لهم عن القاتل الحقيقي لعلي بك فقتلوه في الحال.^(٢)

والمصدر الثالث هو ميان خاتون نفسها^(٣) التي أعطت الأوامر بشأن ثمانية من أفراد عائلة بسميرا: چولو بن چولو، زوجته، أبناءه الأربعة، وابنتاه - لأن يؤتى بهم إلى باعدري، وبعد إصدار الحكم عليهم، تفرجت الأميرة ذات الرداء الأحمر على حارسها الخاص حاجي وهو يطلق الرصاص عليهم جميعاً باستثناء الفتاتين، اللتين تم تبنيهما من قبل ميان، وعندما انتهى كل شيء قامت ميان خاتون من مقعدها وتوجهت إلى حيث سقطت الأجساد، وانحنت تمس الدم الذي كان لا يزال دافئاً، من كل ضحية ثم تعلق أصابعها، وفي الصباح التالي لوحظ بأن الأميرة كانت ترتدي ثوباً أسود، تلبسها الأرامل عادة لمدة سنة واحدة، بعد تصفية الحسابات على هذه الشاكلة، طلب إسماعيل مرة أخرى حصته

(١) إسماعيل، ص ٤٣.

(٢) الدمولوجي: اليزيدية، ص ٢٨.

(٣) مقابلة مع الأميرة ونسة في ٤ شباط ١٩٨٤. راجع أيضاً سايرس هـ. كوردن: عبدة الشيطان في كردستان، Asia (تشرين الأول ١٩٣٥) ص ٦٣٠.

من الدخل فقاومت أخته ذلك ولكن عند مجيء الربيع تغير حظه نحو
الأحسن.

وصل خبر إلى إسماعيل مفاده أنه يوجد بين مجموعة القوالين الذين
أرسلوا إلى لالش حمل سنجاق والتطواف به في القرى الأيزدية، رجلاً
متهمان وقد صدرت الأحكام بحققهما من قبل المحاكم العثمانية لكنهما لم
يعتقلا أبداً، فحصل على جنود يرافقونه من والي الموصل وقطع الطريق
على القوالين حينما كانوا يعبرون نهر دجلة، وفي اليوم التالي توقف
الجميع في قرية أيزدية قريبة، حيث أمتنع إسماعيل رئيسهم تبرك السنجاق
لديه للاحتفاظ به في بيته بينما يعود يقتاد السجناء إلى الموصل. وحالما
غادروا، قام إسماعيل وأسرج فرسه وتمنطق ببندقيته وامتطى خيله وانطلق
أخذاً معه السنجاق.

في بعشيقة تجنب مكائد أخته وجواسيسها وتوجه بشجاعة نحو
الموصل، حيث تمكن من اقناع اثنين من المبشرين البريطانيين من مجمع
البعثات الكنسية هما د. جورج ستانلي والآنسة ألن مارتين بإخفاء
السنجاق في صندوق خشبي بمقر البعثة، وسرعان ما اعتقل إسماعيل،
لكنه رفض الإفشاء عن مكان السنجاق، وأخيراً توصلوا إلى اتفاق تكفل
إسماعيل بموجبه بسنجاق سنجار، مما يؤهله حصة من التبرعات التي يتم
جمعها في جبل سنجار وشرق الأناضول، فيما احتفظ الأمير سعيد بك
بسنجاق شيخان، حلب وموسكو.^(١)

وجه زعيما أيزديي سنجار - صديقه القديم حمو شرو وداوود
الداوود، زعيم قبيلة مهركان وحفيد عيسى آغا الذي حارب طيار باشا

(١) إسماعيل، ص ٤٣-٤٦. ليدي دوروثي ميلز: ما وراء البوسفور، ص ٢١٠.

في العام ١٨٤٦، دعوة إلى إسماعيل بالنجي والعيش في بلد سنجار، ولكن عليه أولاً أن يطوف بسنجاقه في القرى الأيزدية في طور عابدين ومنطقة شرق ديار بكر برفقة أخيه چولو وأربعة قوالين، ولعدم تأكده من مدى ولاء القوالين، استحصل على مرافقة عسكرية حتى ماردين، حيث استأجر حارساً مسيحياً أوصى به أفس أندروز لكن رغم كل الحيلة والحذر، فقد إسماعيل سنجاقه الذي حصل عليه بمشقة، وذلك في قرية صغيرة تدعى حمدونه (تم تسميتها حالياً قوروقافاق) على السفح المطل على رضوان حيث رأى لا يارد لأول مرة السنجاك في العام ١٨٤٩^(*).

قائلين لرئيس القوالين ميرزا كلاش بأن إسماعيل يخطط أن يأخذ معه السنجاك إلى روسيا أفلح القوالون بالاستعاضة عن السنجاك الحقيقي وذلك بإزالته ووضع آخر عادي مكانه حينما كان إسماعيل يغط في النوم، في نفس الوقت، شريكهم في ذلك الكافر الغادر چولو بك سرق حصان أخيه وبندقيته، تجنب اللصوص الملاحقة وعاد بالطاووس إلى سعيد بك ووالدته، وتم تغريم القرية ٤٠ ليرة (٣٦ جنيهًا سترلينياً) ومنها أعطى الوالي إسماعيل ١٠ ليرات. وفي الأخير سجن چولو لجريمته، وأعيد حصان إسماعيل، لكنه لم يستعد السنجاك، فكر إسماعيل ذات مرة مغتماً وحزيناً بالعودة إلى ما وراء القوقاز، لكن بالأخير توسط سليمان نظيف باشا بالموصل في التفاوض في حل الخلاف العائلي مما مكن إسماعيل العيش في بلد سنجار.^(١)

(*) راجع الفصل السابع.

(١) إسماعيل، ص ٤٦-٥٢. لقاء مع سكان قرية قوروكافاك (حمدونة السابقة) في تشرين الأول ١٩٨٣.

في حلم تراءى له راهبان مسيحيان يقدمان مناديل سوداء لجموعة من النساء، استنتج منه إسماعيل تحذيراً له بأن الحرب والاضطهاد على وشك الوقوع، فحذر الأرمن في ماردين ووعدهم بتوفير الحماية لهم في جبل سنجار إذا ما احتاجوا إليها، كما قدم تأكيدات مماثلة إلى المطران اليعقوبي أكناتيوس السادس والثلاثون عبد الله الثاني.^(١)

في العام ١٩١٤ علم إسماعيل من الياس شُكر مطران اليعقوبيين في الموصل بأن مكتبة المطرانية في دير (دير الزعفران) تملك كتاباً يعني بالشؤون الأيزدية، قدم له سليمان نظيف مرافقة عسكرية إلى ماردين، حيث أراه الرهبان المخطوط، الذي احتوى على نصوص عربية للكتب المقدسة مع بعض الأدعية القصيرة باللغة الكردية، قام كاتب باستنساخه له مضيفاً لها أسم الناسخ وزمان ومكان النسخ، مع اسم إسماعيل وقصة سماعه بالمخطوط، وذكر أيضاً أنه يعتقد بأن هذا النص كان قد فقد في العام ١٨٤٩ ولكن أعيد اكتشافه في الهند في العام ١٨٨٩ من قبل المطران اليعقوبي أكناتيوس الرابع والثلاثون بطرس الرابع الذي عاد إلى ماردين، ولم تكن لدى إسماعيل أية دواعٍ لأن يشك في صحة القصة، لكن المصدر الأراجح للمخطوط تقترحه إشاعة تعود بتاريخه المذكور ضمن المعلومات المختصة بالنسخة إلى ١٨٨٩ م ٢٢٠٠ سلوقية ١٣٠٥ هـ.^(٢)

في مايس من العام ١٩١٤ أعلن سليمان نظيف باشا بأنه من الآن فصاعداً سيتم الاعتراف بـ ٦٨,٠٠٠ أيزدي يعيشون في ولاية

(١) إسماعيل، ص ٥٢-٥٣.

(٢) منكنه، المصدر السابق، ص ١١٧. لا يذكر إسماعيل في سيرته الذاتية شيئاً عن هذا.

الموصل، كطائفة دينية مميزة وسوف لن تتم ملاحقتهم أو اضطهادهم بسبب ممارستهم لعقيدتهم، وكجزء من التسوية فإن الطواويس سوف تعاد لهم^(*) وأن الأمير سوف يصرف له راتب شهري قدره ٧,٤ جنيه سترليني.

تكشف وثائق دوائر الحكومة المحفوظة في الأرشيفات العثمانية بأن الأيزديين كانوا يطلبون ألف قرش في الشهر، وأنهم في التسوية النهائية وافقوا (على أن ينضموا إلى العقيدة الفرنسية أو الانكليزية) يحمل المرسوم الرسمي توقيع كل أعضاء الحكومة بما فيهم أنور باشا، وزير الدفاع^(١) وبعد سنوات من المفاوضات، توصلت ميان خاتون إلى اتفاق مع الحكومة في الوقت المناسب، وبعد مضي ستة أشهر تم إخلاء المبشرين الفرنسيين والبريطانيين من العراق، ودخلت الامبراطورية العثمانية الحرب.

(*) من المفترض أن القوالين كانوا في تجواهرهم يحملون معهم نسخاً من السنجق وليس السنجق الأصلي.

(١) الأرشيفات العثمانية، الوثائق ٣١٨٩٢٢، ٣١٨٩٢٢ / ١-٥. ذه تايمز، العدد ١٦ أيار ١٩١٤، ص ٧.

الفصل الثاني عشر

عهد ميان خاتون

إن اتفاقية تشرين الأول للعام ١٩١٤ التي انضمت بموجبها حكومة تركيا الفتاة إلى ألمانيا والامبراطورية النمساوية - الهنكارية في الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا كانت بمثابة الموت المحقق (لرجل أوروبا المريض).

قررت روسيا - وهي متأكدة من النصر المحتم - وحلفاؤها الغربيون تسوية (المسألة الشرقية) للمرة الأخيرة وتم التفاوض على معاهدات سرية من قبل مارك سايكس عن بريطانيا، وعدت بموجبها بمنح استنبول إلى القيصر الروسي، بينما الولايات العربية للامبراطورية يتم وضعها تحت السيطرة البريطانية أو الفرنسية. وتكون الاناضول وسط فرات والجزء الشمالي من وادي دجلة لفرنسا، فيما ستخضع المنطقة إلى الشرق إلى الحكم الروسي.

وفي شمال بلاد فارس كان قد سبق للروس أن احتلوا تبريز وأورمية منذ العام ١٩١٠.

مضت ثماني سنوات وملايين من رعايا السلطان المسلمين والمسيحيين ماتوا قبل أن يتوقف القتال، وتظهر دول جديدة على أشلاء الامبراطورية التي تمزقت، هذه الدول هي بالحدود التي نعرفها اليوم.

وفي نهاية كل هذا رفرف العلم الفرنسي ذو الألوان الثلاثة فوق دمشق وحلب، وسيطرت بريطانيا على فلسطين والعراق، لكن روسيا انهارت، ودولة تركية الجديدة حكمت استنبول والاناضول بما فيها معظم المناطق التي تنازل عنها عبد الحميد للقيصر.

وعبر فترة الاضطرابات هذه، أنقذت الطوائف الأيزدية في العراق من الهلاك بسبب موقعها الجغرافي وحكمة واتزان ميان خاتون.

بقي إسماعيل بك في بلدة سنجار ينتظر السيف الروسي.

وفي السنتين الأوليين من الحرب عانى الجيش العثماني من هزائم منكرة ومدمرة على الجبهة القوقازية، مما مكن روسيا من الاستيلاء على وان وأرضروم وترايزون، وكذلك كسب وتعبئة الأرمن والآشوريين إلى جانبهم، ولكن التقدم الروسي تعرقل بسبب صعوبة المنطقة والسحب المستمر للقوات باتجاه مسرح الحرب في أوروبا، وأقرب نقطة وصلوا إليها بالنسبة إلى موطن الأيزديين كانت بتليس إلى الشمال، حيث تم الاستيلاء عليها في آذار من العام ١٩١٦، واستعادها الجنرال العثماني كمال باشا بعد خمسة أشهر، وراوندوز إلى الشرق (احتلت لفترة وجيزة من مايس إلى تموز العام ١٩١٦)، بينما قامت السلطات العثمانية في الأعوام ١٩١٥ و ١٩١٦ بإبعاد الأرمن من المناطق الخلفية لخطوط الجبهة وهو إجراء قاسٍ كانت له عواقب وخيمة على المدنيين.

وخلال فترة الحرب كلها كانت السيادة للاسطول البريطاني في البحر المتوسط وقناة السويس والبحر الأحمر والخليج الفارسي، مما منع السفن من الدخول أو الخروج من وإلى الموانئ العثمانية، وهي ترافق الجنود البريطانيين والمستعمرات أينما شاءوا مجبرين العثمانيين على الاعتماد على خط مواصلات وحيد مع حلفائهم في أوروبا الوسطى عبر بلغاريا التي دخلت الحرب إلى جانبهم في العام ١٩١٥، وبعد فشل الانزال البحري على سواحل جاليبولي المفتاح المؤدي إلى استنبول، وجه البريطانيون اهتمامهم إلى (المنطقة الناعمة تحت البطن) للامبراطورية، هذا الموقع كان يتمثل في مصر، حيث أنشأوا جيشاً متمرساً في حرب الصحراء، وكنتمهيد لاحتلال فلسطين، شكل فريق من الساسة الاستراتيجيين بما فيهم غرتروود بيل وذلك في القاهرة لاثارة العرب ودفعهم للانضمام إلى المعارضين منهم للعثمانيين وأكبر مكسب حققه الفريق (بعد مغادرة غرتروود بيل) كان استدراج الحاكم الوارث لمكة لنصب نفسه ملكاً لدولة عربية مستقلة.

في العراق قامت قوة استكشافية مؤلفة من الجنود البريطانيين والهنود بالاستيلاء على البصرة في الأسابيع الأولى من الحرب، وبعد انتكاسات باهظة الثمن بضمنها خسارة ما يقارب ١٠,٠٠٠ جندي حوصروا في الكوت تمكنوا في آذار عام ١٩١٧ من الاستيلاء على بغداد وتقدموا شمالاً باتجاه سامراء وتكريت.

خطط ضباط هيئة الأركان العثمانيون والالمان لهجوم معاكس جنوب وادي الفرات، ولكن ما كان ينبغي أن يكون هناك اختبار في القرن العشرين للطريق غير المخطوط، الذي أفسد مجرى حياة چسني وأغررت

سايروس وجوليان والخليفة الأسود وأودت بهم إلى حتفهم، والجنود الذين أسندت العملية إليهم كانوا بأمر الحاجة إليهم للدفاع عن فلسطين في وجه الهجوم البريطاني المنطلق من مصر، وبقي بذلك العثمانيون في موقع دفاعي في العراق.

وبينما هم يقتربون من ساحات الوغى القديمة أدركت هيئة الضباط البريطانيون مدى أهمية واستراتيجية جبل سنجار، خطوط المواصلات العثمانية مع جيشهم في العراق كانت تتبع طريق القوافل القديم من حلب إلى الموصل، وكان يوازي حالياً طريق سكة حديد بغداد الذي كان يتقدم ببطء، وكانت مقدمة السكة قد وصلت إلى نصيبين في أيلول عام ١٩١٧، وخلف هذه كانت الوسائل التقليدية للنقل - الخيل والبغال والجمال - هي الأكثر جدوى، باستثناء السيارات التي كانت قادرة على عبور الصحراء المدومة الطرق^(*).

كان رجال القبائل الأيزديين من موقعهم المتميز على جبل سنجار مسيطرين تماماً على الطرق، وبمقدورهم اغتنام الفرص للاستيلاء على الماشية والملابس والعتاد.^(١)

تذكرت كرتود بيل - المسؤولة الأعلى في الإدارة ببغداد - العداوة القديمة بين أيزديي سنجار والعثمانيين، لذلك وفي آب من العام ١٩١٧ أرسلت شخصاً عربياً حاملاً رسالة منها موجهة إلى هو شرو، وكنيتجة لذلك كتب إسماعيل نفسه رسالة إلى البريطانيين الذين ردوا عليها بحرارة

(*) في العام ١٩١٦ تمكن أنور باشا وهيئة الأركان من الوصول إلى فاصل موصل - سامراء في رحلة تفتيشية مستخدمين الأطواف (الكلك).

(١) إسماعيل، ص ٥٤-٥٥.

شاكرين على إيواء وحماية الأرمن المطرودين الذين تمكنوا الهرب خلسة من القافلة بين دير الزور والموصل.^(١)

(في العام ١٩١٥ تسبب تعاطف أفس أندروز مع الأرمن في طرده من ماردين ووضع تحت الإقامة الجبرية، وبعد سنتين عندما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على ألمانيا والامبراطورية العثمانية، سمح للمبشر بالعودة إلى أمريكا، حيث توفي في العام ١٩١٩، أوراقه التي كانت تضم ترجمة عربية - كردية للعهد الجديد ومراسلاته الكاملة مع جرميا شامير لم يعثر عليها أبداً).^(٢)

في كانون الأول من العام ١٩١٧ صارت القدس في قبضة البريطانيين الآتين من مصر ومن بين المدن الثلاثة المقدسة للسلطان بقيت (المدينة) فقط تحت سيطرته، وهي معزولة في نهاية خط حجاز المستولى عليه، ولكن الأمور - على غير توقع - تغيرت نحو الأحسن في الشرق، فروسيا التي كانت محكومة من قبل الشيوعيين سعت إلى السلام، وبعد أربعة أشهر أعيد كل الأناضول مع الولايات الثلاث التي فقدت في العام ١٨٧٧ إلى الحكم العثماني بأعجوبة.

وفي شباط العام ١٩١٨ قرر أنور باشا بأنه حان الوقت لإنهاء التهديد الأيزدي لخطوط مواصلاته مع العراق، فألفت حملة من المحاربين المخضرمين للجبهة القوقازية والعرب الذين كانوا لا زاوا موالين للعثمانيين وتقدمت إلى تلعفر مع مدافع تسحبها الثيران، وأرسل

(١) تقرير كرتروديل في ٨ تشرين الثاني ١٩١٧ إلى المكتب العربي. النشرة العربية (١٩١٧) ص ٥١٤-٥١٥. إسماعيل، ص ٥٥-٥٦.

(٢) فرنسيس لايمان: إرسالية ماردين، آراءات، المجلد الثاني (١٩٨١) العدد ٣، ص ٩-١٥. يشكر المؤلف الشيدة لايمان عن المعلومات القيمة التي قدمتها عن قريتها.

المبعوثون إلى جبل سنجار بطلب ضرورة أن يتقدم الأيزديون بتسليم اللاجئين الأرمن لديهم والبنادق المسروقة، أو أن يتحملوا النتائج المترتبة على الرفض، قام الرجال القبليون بتمزيق الإنذار، وأعادوا الرسل على أعقابهم مجردين من ملابسهم، ولكنهم أهملوا نصيحة إسماعيل بضرورة إرسال نسائهم وأطفالهم ومواشيهم إلى الجبال، ونتيجة ذلك تكبدوا خسائر فادحة عندما جاء الهجوم العثماني، عندها قرر مجلس حرب أيزدي بأن على إسماعيل محاولة الوصول إلى البريطانيين، وفي الصباح التالي غادر إسماعيل برفقة حارس شخصي ولاجئين أرمنين (يعرف أحدهم بالبروفيسور، كان قد قام بمحاولة اغتيال السلطان عبد الحميد) مسافرين بمحاذاة أطراف الصحراء ومارين بخرائب وآثار الحضرة، وكان العرب الجوهولي الولاء يتعرضون لهم بين الفينة والأخرى حتى وصلوا الخطوط البريطانية عند سامراء.^(١)

يذكر إسماعيل في مذكراته الاهتمام الذي أولاه له الجيش البريطاني لدى استقبالهم له، استمع الضباط باهتمام كبير بينما كان إسماعيل يشرح لهم خطته ذات الحدين للهجوم على الموصل، التي كان من المفترض أن يعطي البريطانيون إسماعيل ٣,٠٠٠ بندقية، وخمسة وعشرين مدفعاً رشاشاً، وطائرتين، وقوة من الجنود الهنود.

في بغداد التقى إسماعيل قائد القوات البريطانية الجنرال مارشال ورئيس هيئة أركانه، وأخبر غرتروود بيل عن عدد من الأخطاء الطبوغرافية على خارطتها^(٢) وحالت حرارة الصيف دون القيام

(١) إسماعيل، ص ٥٦-٦٣. روزيتا فوربس: صراع من أنكورا إلى أفغانستان، ص ٣٢٢.

(٢) إسماعيل، ص ٦٣-٦٤. رسالة كرتروود بيل في ٢٨ حزيران ١٩١٨ إلى السير هوك بيل. تقرير كروتروود بيل في ٩ تموز ١٩١٨ إلى المكتب العربي.

بعمليات كبيرة، ولكن في تموز من العام ١٩١٨ عاد إسماعيل إلى سنجار برفقة قوة استطلاعية خيالة يقودها ضابط الهندسة البريطاني الكابتن هاري هيوستن الذي كان عندئذٍ في الخامسة والعشرين من العمر، يساعده الكابتن كامبل مونرو وهو طبيب عسكري هندي.

وفرت قبيلة شمر جربه العربية - الساكنة غرب بغداد - قوة مرافقة للمجموعة، مستمرين في الحركة ليلاً ونهاراً، حملتهم جهلهم السريعة الحركة على طول الطريق غرب حوض نهر ثرثار الجاف إلى نقطة جنوب جبل سنجار، حيث ركب كل من إسماعيل وهيوستن ومونرو الخيول متوجهين إلى حيث ملتحق ليلى مع حمو شرو في بلد سنجار.

أوضح الزعيم الأيزدي كيف أن القرى مكشوفة للمدفعية العثمانية وصرح بأن رجال القبيلة لا يستطيعون القيام بأي عمل هجومي دون دعم واسناد، فعاد المبعوثون إلى حيث كانت المرافقة توقفت دون أن يتم اكتشاف أمرهم، وانضمت إليهم زوجة إسماعيل وابنه عبد الكريم وابنته ونسا البالغة من العمر ثمانية عشر شهراً، وعادوا جميعاً بسلام إلى الموقع البريطاني بتكريت^(١)، وقبل أن يفترقوا سلم إسماعيل إلى هيوستن وثيقة مكتوبة بخط اليد غير موظبة على الاطلاق، لكنها تشبه إلى حد كبير كتاب تمارين عادي، وأخبره بأنها تفصح عن الديانة الأيزدية، وكانت الكتابة بالعربية، وهي غير مفهومة لهيوستن لكنه احتفظ بها بعد أن وصلت الأوامر بإرسالها إلى المقر لأن الأيزديين يطلبونها^(٢)، ولو كان في

(١) تقرير تانقيب أ. كامبل مونرو عن زيارة إلى جبل سنجار في تموز ١٩١٨ مؤرخ في ١٥ آب ١٩١٨ ضمن تقرير كرتروويل إلى المكتب العربي في ٢٣ أيلول ١٩١٨، "مراجعة للإدارة المدنية في ميسوبوتاميا" ص ٥٠. إسماعيل، ص ٦٥-٦٧. رسالة الميجر جنرال هيوستن في ٢٦ آذار ١٩٨٠ والمقابلات التالية مع المؤلف.

(٢) رسالة هيوستن في ٢٦ آذار ١٩٨٠ إلى المؤلف.

إمكانه قراءة المعلومات الموجودة فيها المتعلقة بالناسخ والتواريخ لعلم بأن في حوزته نسخة من مخطوط دير الزعفران للكتب الأيزدية المقدسة. وفي وقت ما أُطلع ألفونس منكنه في مانشستر على المخطوط.

في (المراسلات المتنوعة) المنشور في صحيفة المجمع الملكي الاسيوي في كانون الثاني من العام ١٩٢١ توجه بالمديح إلى الكابتن هيوستن لسجله العسكري المميز، والفرصة الفريدة التي تسنت له لدراسة العادات الأيزدية وتقاليدهم، وقال إنه علم بأمر المخطوط عن طريق مستشرق اتصل هيوستن به في محاولة منه للحصول على رأي خبير في اللغة الكردية (قال هيوستن بأنه لم يقم بمثل تلك المحاولة)، صرف منكنه النظر عن النص العربي باعتباره شبيهاً بالمخطوطات التي سبق له وأن أعلنها من عمل جرميا شامير رغم ادعائه السابق بأنه يملك أصدقاء أيزديين عديدين في سنجار قبل مغادرته العراق في العام ١٩١٣ ظهر بأن منكنه لم يعرف هوية إسماعيل، وفي تعليقه على المعلومات الخاصة بهوية الناسخ وتاريخ الاستنساخ عبر عن دهشته (بأن شيخاً أيزدياً بارزاً لا يعرف شيئاً عن حقيقة امتلاك طائفته لأية كتب مقدسة).^(١)

* * *

في صيف عام ١٩١٨ بينما كانت الجيوش المتحاربة في العراق قد شكّلت بسبب شمس ميزوبوتاميا تحركت الجيوش العثمانية لتشغل الفراغ الذي تركه تراجع القوات الروسية، وفي ما وراء القوقاز استولوا على

(١) ألفونس منكنه، المصدر السابق.

باكو على بحر قزوين، وفي شمال غرب بلاد فارس احتلوا تبريز، ساعدتهم في ذلك رجال القبائل الكرد.

ساق العثمانيون الاثوريين من أورمية، ودمروا الإرسالية التبشيرية التي كان قد مضى على تأسيسها فترة طويلة من قبل الأمريكيين والفرنسيين.

وفي ١٠ أيلول من العام ١٩١٨ توجهت قوة عثمانية مجهزة بالمدافع الرشاشة تساندها الطائرات ومدفعا هاوتزر ١٥٠ ملم إلى جبل سنجار لانتهاء التهديد الأيزدي مرة أخرى للطريق من نصيبين إلى الموصل، وتم احتلال بلدة سنجار مرة أخرى وهوجمت القرى الكبرى، وفي هذه المرة انسحب رجال القبائل الذين يقودهم حمو شرو وداوود الداوود مع عوائلهم وقطعان مواشيهم، ولجأوا إلى الجبال محتمين بالكهوف إلى أن أدركوا بأن المحتلين قد غادروا فعلاً.^(١)

وفي الحقيقة كانت هذه آخر حملة تأديبية ترسلها حكومة السلطان إلى سنجار، وبعد أسبوع فقط من وصولها إلى الجبل، وبينما كان الجنود العثمانيون يتقدمون شمالاً من باكو على طول الساحل القزويني ومن أورمية إلى الجنوب، استسلم الجيش البلغاري إلى القوات الفرنسية والبريطانية في شمال اليونان، تاركين الطريق مفتوحاً لهم للتقدم نحو استنبول، وبعد أيام قليلة اخترق البريطانيون خطوط الدفاع العثمانية في فلسطين وزحفوا باتجاه سوريا.

(١) IO L/MIL/17/15/42 تقرير هيئة أركان القوات البريطانية في العراق حول ميسوبوتاميا (العراق): المنطقة رقم ١ (شمال الجزيرة) ١٩٢٢، ص ١٤١-١٤٢. صديق الدمولوجي: اليزيدية، ص ٥١٢-٥١٤.

استقال أنور باشا في منتصف تشرين الأول، وبحلول نهاية الشهر خسر العثمانيون حلب، وتم التوقيع على اتفاقية سلام، ودخلت القوى المنتصرة استنبول.

الجنود البريطانيون - الذين تم استبدالهم بالفرنسيين فيما بعد - سيطروا على سكة حديد بغداد من حلب باتجاه الشرق إلى أورفة، وفي ما وراء القوقاز قامت قوة بريطانية أخرى بمراقبة الانسحاب العثماني إلى حدود عام ١٨٧٧.

* * *

في العراق عندما توقفت الحرب كان العثمانيون لا زالوا يحتفظون بالموصل، ولكن البريطانيون تمكنوا من الاستيلاء على الولاية وأجبروا المسؤولين العثمانيين على الانسحاب إلى نصيبين.

دخل محارب الصحراء الأسطوري الكولونيل جيرارد ليجمن الموصل كضابط سياسي، برفقة مساعده الكولونيل نالدر وإسماعيل بك، وبعد أيام قلائل توجه الثلاثة بالسيارات إلى تلعفر لقبول استسلام الحامية العثمانية فيها، ومن هناك إلى سنجار، حيث (كان وقتاً حساساً في حياة الجبل ووصل الكولونيل ليجمن في الوقت المناسب لإنقاذنا من الهلاك)^(١) وذلك وفق كلمات هو شرو، وفي الموصل دعا ليجمن جمعية من

(١) إسماعيل، ص ٦٧-٦٨. الميجر ن. ن. إي. باري: سيرة ليجمان، ص ٣٦٠. راجع أيضاً ونستن: ليجمان، ص ٢٠٢.

زعماء الأيزديين إلى عقد اجتماع حضره إسماعيل يرافقه هو شرو وخمسة وثلاثون زعيماً من سنجار.

بعد قبول تعابير الشكر والامتنان من المطارنة الأرمن والكلدان تشاور إسماعيل مع ليجمن الذي عرض عليه حاكمية سنجار. امتنع إسماعيل عن قبول العرض باعتبار أنه هو شرو أجدر به، وكان هو يسعى إلى ما هو أكبر !

وفي اليوم التالي وصل وفد من الشيخان مؤلف من الشيوخ والزعماء يترأسهم الشيخ الرئيسي الأعلى والأمير سعيد بك، الذي يصفه نالدر بأنه شخص رقيق ويبدو عليه الضعف والنعومة، وهو في حوالي الثلاثين، وفي الحقيقة كان في الثامنة عشرة من عمره.

أعلن ليجمن بأن هو شرو سوف يتولى المسؤولية في سنجار، عندها التفت إلى موضوع مَنْ سوف يتكلف بأمر المدخولات الأميرية، كان هو يميل بإعطائها إلى إسماعيل، وعندما وصلت ميان خاتون وعقدت اتفاقاً مع هو شرو، توصيتهما المشتركة كانت تنص على تقسيم المدخولات الاجمالية من السناجق بين سعيد وإسماعيل، وبموافقة إسماعيل صادق ليجمن على التسوية.^(١)

كان أحد الواجبات التي تكفل بها المسؤولون الجدد المعنيون هو المشاركة في استفتاء للرأي هو التقدم الحاصل على مستوى كل العراق حول موضوع مستقبل الحكومة المقبلة في الدولة (كانت بريطانيا وفرنسا تناقشان كيفية تنفيذ الاتفاقيات الخاصة بالتقسيم التي أبرمت خلال فترة

(١) إسماعيل، ص ٦٨-٧٠. ل. س. نالدر الضابط السياسي في الموصل: تقرير قسم الموصل للعام ١٩١٩.

الحرب، وخاصة وأن الجنود البريطانيين كانوا حالياً يحتلون سوريا والعراق، ورفضت روسيا الاتفاقيات).

في ولاية الموصل دُعيت كل أقلية للتعبير عن رأيها، والبيان الأيزدي الموقع (باسم مجموع الشعب الأيزدي في ولايات ديار بكر والموصل من قبل حوالي خمسين شخصاً بما فيهم كل الزعماء الأيزديين) أفاد بأنهم يرغبون أن يكونوا من رعايا بريطانيا العظمى، وأنهم (سوف لن يقبلوا أبداً بأن تحكمنا حكومة عربية).^(١)

عاد إسماعيل إلى سنجار لفترة احتفالات تضم الزيارات، الخطابات والحفلات مُمجدة مجئ الحكم البريطاني.

كانت ميان خاتون منشغلة برأب الصدع حيث رتبت زيارة لليجمن لمشاهدة المعبد في لالش، وهو الزائر الأجنبي الأول منذ سنوات عديدة.^(٢)

ولد ابن لأحد الأمراء الأيزديين فأعطي له اسم ليجمان بك (*). في مذكراته يسجل إسماعيل فرعه حيث أنه بعد مرور أربعة أشهر على تسوية الموصل ذهب إلى بغداد لإعادة عائلته واحتجزها هناك على أساس أن الأيزديين لا يرغبون في وجوده بسنجار. غادر ليجمان الموصل بعد أسابيع قليلة، وكتب نالدر الذي خلفه:

(١) الحكم الذاتي في العراق، ص ٢٧. مذكرات كرتود بيل لشهر شباط ١٩١٩.

(٢) إي. س. ليدي دراور: عبر دجلة والفرات، ص ١٨٤.

(*) تزوج هذا الأمير من ابنة إسماعيل بك كوبرس (تيمناً بجزيرة قبرص، حيث حطت سفينة إسماعيل في العام ١٩٠٩ بعد عاصفة عنيفة اثر انطلاقها من استنبول). (إسماعيل، ص ٣١. اليزايث دين بيكت و إي. و. ماكداول: في أرض يونان ويقطينته، ص ٤٨).

أثبت إسماعيل بصورة مطلقة بأنه ليس محل ثقة، وبأنه غير قادر على الامتناع عن إثارة المسائل التافهة من كل نوع، وفي الأخير وجد أنه من الضروري إرساله إلى بغداد، وسعيد بك، يستعيد الزعامة المطلقة.^(١)

وبعد سنوات من الخلافات العائلية لم تبقَ لدى إسماعيل أية شكوك حول ما حدث، فقد تأكد لديه أن فريق سعيد بك قام برشوة زعماء سنجار لتقديم شكاوى ضده، علق تقرير نالدر أن سعيد بك (الذي يدار كلياً من قبل والدته ميان السيدة العجوز المستبدة، ولا أعتقد أن مصالحها الشخصية تتطابق دائماً مع مصالح القبيلة) كانت ميان خاتون في ذلك الحين في الرابعة والأربعين من العمر وكانت في ذروة نشاطها.^(٢) ناشد إسماعيل كرتود بيل لزيادة الراتب الذي يصرف له، وحاول دون جدوى اقناع بريطانيا بتعليم ابنه عبد الكريم في انكلتره، حتى أنه طلب من الكابتن هيوستن حالياً في دائرة الحرب بلندن، فيما إذا كان بمقدوره ترتيب عودته إلى سنجار، رسالته التي كتبها شخص ثنائي اللغة شكرت صديقه لإعادته المخطوط، وعرض عليه إرساله نسخة أخرى، كما طلب منه أن يجلب له في زيارته المقبلة للعراق سيارة على أن لا يتجاوز السعر ١,٥٠٠ روبية، [ما قيمته ١٥٠ جنيهاً] أو إذا كان ذلك صعباً فهو يكتفي بدراجة بخارية.^(٣)

(١) إسماعيل، ص ٧٠. 2 / CO 696 نالدر: تقرير قسم الموصل للعام ١٩١٩، ص ١٨.

(٢) رسالة إسماعيل في ٢٩ آب ١٩٢٠ إلى هيوستن 2 / CO 696 نالدر: التقرير، ص ١٩.

(٣) إسماعيل، ص ٧٠-٧١. همفري بوومان: نافذة الشرق الأوسط، ص ٢٢٢. رسالة إسماعيل في ٢٩ آب ١٩٢٠ إلى هيوستن.

استغرق نفي إسماعيل سنتين ونصف السنة، عاش خلالها في بغداد مع عائلته على راتب خصصته له الحكومة، وقام أحياناً بزيارات إلى البصرة وإلى معسكر اللاجئين في بعقوبة^(*) حيث تعرف على بعض اليتامى الأيزديين الذين تم إنقاذهم من قبل الأرمن في (وان) عندما هرب رجال القبائل الحليين إلى ما وراء القوقاز، تذكر زوجة قائد المعسكر في مذكراتها هذه الزيارات وتصفه بأنه (كان رجلاً طويل القامة، بلحية طويلة سوداء وعيون وديعة سمراء، ويرتدي ثوباً فضفاضاً تعلوه عمامة بيضاء وعباءة بنية فاتحة اللون).^(١)

في النصف الثاني من العام ١٩٢٠ تمردت القبائل العربية ضد الاحتلال البريطاني، من بين صفوف الضحايا كان ليجمن الذي قتل في قرية على مقربة من الفرات، وبنهاية العام نصبت بريطانيا مفوضاً سامياً جديداً ليسوبوتاميا السير بيرسي كوكس الذي أتاح لإسماعيل العودة إلى سنجار في العام ١٩٢١، فاستعاد مستحقاته من حصة المدخولات الأميرية، وبعد سبع سنوات سمى إسماعيل ابنه الأصغر باسم كوكس بك تيمناً بالسيد كوكس.

أسست دولة العراق في العام ١٩٢١ تحت الأنتداب البريطاني بملك أختير من العائلة التي حكمت مكة إلى أن أطيح بها من قبل ابن سعود، أعترف بسيادة العراق على الموصل وفق اتفاقية عام ١٩٢٦ التي عقدت مع الدولة التركية الجديدة التي أنشأها كمال باشا التي بعثت من

(*) كان المعسكر يأوي مَنْ بقي على الحياة من الطوائف الآثورية في مناطق هكاري وأورمية، الذين شقوا طريقهم عبر غرب بلاد فارس إلى العراق.

(١) إسماعيل، ص ٧٠. ستيفنس / براور: عبر دجلة والفرات، ص ١٨٧ و ١٩٩-٢٠٠. بيتي كنليف أوين: عبر بوابات الذاكرة من البوسفور إلى بغداد، ص ١٥٦-١٥٧.

جديد الجيش العثماني السابق، واستعادت ولايات الاناضول المحتلة من قبل الأرمن والإيطاليين واليونان، بينما انسحب الفرنسيون من أورفة وبيره جك لتعزيز قبضتهم على سوريا، وعقدوا لاحقاً اتفاق سلام منفصل مع كمال.

الحدود بين سوريا والعراق رسمت أخيراً في العام ١٩٣٣ عن طريق تسوية نصت على إهمال فكرة تقسيم منطقة جبل سنجار إلى قسمين، وأعطى الجبل كله إلى العراق.

احتفظ هو شرو بلقب زعيم الجبل إلى أن توفي بعد تجاوزه التسعين وذلك في العام ١٩٣٢، وكانت له آراء منفتحة وتقدمية، حيث دعم فكرة لجمن بفتح المدارس للأطفال الأيزديين في بلدة سنجار، بدأ المشروع بوقوع حادث مشؤوم حيث غرق طالبان من اصل خمسة في النهر الذي فاض نتيجة سقوط أمطار غزيرة، وهما في طريقهما إلى المدرسة، لكن هو شرو أقنع أولياء أمور الطلبة بعدم المبالغة في الحادث، ورتب بأن يتم تنقيح النصوص المنهجية للكتب المدرسية لحذف الكلمات والحروف التي يعترضون عليها.^(١)

وصف إداري بريطاني هو شرو بأنه (مستبد خرف) في سنوات عمره المتقدمة (رغم أنه أصبح أباً لمولود جديد بعد الميقات المألوف حتى في العام ١٩٣٢) إزدادت التحديات لسلطته على جبل سنجار من قبل زعيم المهركان داوود الداوود.

(١) بومان ص ٢١٧-٢٢٢. ستيفنس / براور، ص ١٩٠. هاري جارلس لوك: الموصل وأقليتها، ص ١٢٦ IO L/MIL/17/15/42 شمال الجزيرة، ص ١٤٠-١٤٩ و ١٥٥-١٥٧.

في نيسان عام ١٩٢٥ بعد تحدي داوود لمرات ثلاثة أوامر للمشاركة في اجتماع في بلدة سنجار أرسل البريطانيون الجنود في آليات مدرعة لترهيبه، لكن تأثير هذا العرض أفسد عندما أسقطت إطلاقاً بندقية أحد رجال القبيلة طائرة مرافقة للقوة الجوية الملكية وهي استطلاعية تزيد سرعتها على ١٠٠ متر / دقيقة مما أدى إلى مقتل طاقمها الاثنين.^(١)

قادر إسماعيل بك - راضياً في النهاية عما كان يستلمه مما يستحقه من المدخولات الأميرية^(*) - حياة هادئة ورزينة في بلدة سنجار، منزله كان مبنياً على خرائب حامية رومانية، كان يمتلئ بالوجهاء الأيزديين والزوار الغرباء المحبين للاستطلاع من العراق وبريطانيا وأماكن أخرى، دخل ابنه عبد الكريم المدرسة في بغداد، وطفلان يصغران في السن هما: ونسا، وأخوها يزيدخان، دخلا المدرسة الداخلية للبعثة الأمريكية في الموصل والتي تمت إعادة تأسيسها تحت رعاية ادموندز ماكديويل وزوجته اللذين بدءا عملهما بمدرسة للفتيات في العام ١٩٢٤.^(٢)

(١) ادموندز: حجة إلى لالش، ص ٦١-٦٢. مقال "عملية جوية ضد زعيم الأيزدية" الشايمز، ٢١ نيسان ١٩٢٥، ص ١٤. ر. ه. و. أميسن: عبادة الملك طاووس، ص ٩٥. البريكادير كلبرت براون: الليفي العراقي ١٩١٥-١٩٣٢، ص ٤٤ AIR 23 / 143-158. متحف القوة الجوية الملكية، قسم سجلات الملاحة الجوية، رسالة مؤرخة في ١٢ تموز ١٩٨٣ إلى المؤلف.

(*) ثلث الدخل كان مخصصاً للأغراض العامة، بما في ذلك الدعم المالي المقدم إلى أعضاء عائلة چول، والثلثان الآخران يقسمان مناصفة بين الأمير سعيد بك وإسماعيل بك. (مقابلات مع الأميرة ونسة الأموي في شباط وتموز ١٩٨٤).

(٢) إسماعيل، ص ٧٢. بيكت / ماكديوال: أرض يونان، ص ٢٥-٣٠ و ٤٤-٥٢ و ١٠٥ و ١١٥. PCUSA، BFM، التقرير السنوي، المجلد ٨٨ (١٩٢٤-١٩٢٥) ص ٢٥٤-٢٥٥. راجع أيضاً جيرالد رايتلنكر: آثار القرون الوسطى في غرب الموصل، العراق، المجلد ٥ (١٩٣٨) ص ١٥٥-١٥٦ والشكل رقم ٢٦.

وفي تموز من العام ١٩٢٤ عرضت قوة الليفي العراقي - وهي قوة دفاعية محلية نظمت من قبل البريطانيين من الآثوريين والكرد والمتطوعين الآخرين - على الأيزديين فرصة الانضمام إلى خيالة مؤلفة كلياً من قبل الأيزديين، ورغم أن الزي الرسمي كان خاكياً إلا أن رجال القبائل ترددوا في التخلي عن ثيابهم التقليدية البيضاء، وإسماعيل الذي كان قد حمل شارة القوة الجوية الملكية منذ أيام الحملة من العام ١٩١٨ تطوع لفتح الطريق على الآخرين.

مرتدياً الزي الرسمي لقوات الليفي العراقي تمكن إسماعيل من تجنيد ٢٠٠ من رجال القبائل، ولكن بعد فترة أهمل المشروع عندما أدرك البريطانيون أنه رغم كون الأيزديين جيدين في كيفية التعامل مع الخيل (إلا أنه من الصعوبة تدريبهم ولا يخضعون بسهولة للانضباط).^(١)

خلال مشكلة عام ١٩٢٥ أقلقت الحملة المستمرة لإسماعيل الحياة المدنية المحلية، وتعرض القوالون الذين كانوا يطوفون بسنجاك سنجار إلى النهب والسرقة من قبل جماعة استأجرهم أمير آخر من عائلة چول، وهو نائف بك الذي كانت ابنته متزوجة من الأمير سعيد بك.

شك إسماعيل في أن مغزى المحاولة هو الإخلال بحقوقه، ولكن السلطات البريطانية تحركت بسرعة وفي الوقت المناسب، واستعادت السنجاك بعد تعنيف نائف بك، وجاءت ميان خاتون نفسها إلى سنجار لتشهد احقاق العدالة.

المسؤول البريطاني الذي زار جبل سنجار في هذا الوقت، يتذكر زيارته إلى إسماعيل واصفاً إياه بأنه رجل في حوالي الأربعين من عمره،

(١) براون، ص ٣٣. إسماعيل، ص ٧١-٧٢.

له لحية سوداء منتشرة بغير اتساق، وتعبير كئيب ملؤه الحزن طالما يلاحظها الزائر على وجوه الزعماء الأيزديين عند لقاءهم بذوي السلطة والمسؤولية، كان يرتدي بنطالاً وجوارب الركوب، وقميصاً عسكرياً بريطانياً رمادي اللون، ومعطفاً يصل إلى وسط قامته خاكي اللون، وعمامة بيضاء على الطريقة العربية ملتف حوله عقال أسود، عند دخولنا لمنزله، غير إسماعيل ملابسه بمعطف طويل من النوع القوزاقي، واعتمر بمسدس وخنجر قوقاسي مستقيم. كان أرض غرفة الضيوف مغطى بالبسط والسجاجيد، وكانت كميات غير محدودة من الصور الفوتوغرافية، الكتابات والمسدسات والسيوف وبندقية صيد مركب عليها تلسكوب، وخنجر قوقاسي آخر، وصورة سنجاق محفورة على غمده، كلها كانت معلقة على الحيطان، في زاوية علق كيس يحوي على عدد من البخور التي تحرق في لالش.^(١)

بعد ثلاث سنوات استقبل إسماعيل الصحفي الألماني بول شوتز كان يقود السيارة من حلب إلى تبريز في محاولة فاشلة للعثور على مستوطنات ألمانية في القوقاز، وعند وصوله بلدة سنجار وجد هو وصاحبه الطبيب إسماعيل متمدداً على الأريكة في دهليز منزله:

كان وجهه مصفراً، خدوده مقعرة وعظمها بارز،
وججمته تبرزها لحيته السوداء، مثل هذا الرأس يمكن أن
يكون منحوتاً من نفس الخشب الذي نحت منه رؤوس
الأساقفة الروس، عيونه السوداء العميقة الرزينة كانت تنم
عن الوداعة وتظهر آثار المعاناة والحزن، لا أستطيع أن
أذكر رؤيته وهو يبتسم أو يضحك أبداً.

(١) ادموندز، ص ٥٨-٥٩.

سعل إسماعيل بصورة حادة، وأشتكى من آلام في الصدر، وبعد وصف دواء لمرضه أقيّد الاثنان إلى غرفتين في أعلى البيت جيدة التأثيث، وبينما هم يتأملون ضياء القمر على منحدر الجبل والصحراء الواسع إلى الجنوب تناهى إلى مسمع شوتز أصوات قريبة من غرفته، فتح الباب ليرى خادمتة تقوم بترتيب بُسط لفرّاش إسماعيل في الممر بالخارج. في صباح اليوم التالي استقبلهم إسماعيل في غرفة الضيوف، حيث لاحظوا من بين السجاجيد والسيوف والبنادق وصور باهتة مقطوعة من مجلة قديمة للملوك الأوروبيين المخلوعين، لوحة أرمنية تمثل صلب المسيح، وبوستر ملون لدعاية مكائن الخياطة من طراز كرتزнер ومكعبات الحساء الانكليزية.

وافق على التحدث عن الدين الأيزدي، وأخبرهم بأنه (سبق له وأن أُملى أسرار مبادئ العقيدة على قس سوري).

يقول شوتز بأن ذلك كان كتاباً صغيراً كتب بالأبجدية العربية، لكن على الأرجح في اللغة الكردية، أضاف إسماعيل بأن كتاباً قديماً يقال بأنه يعود إلى ٤٠٠٠ سنة يدعى (الكتاب الأسود) مكتوب باللغة الكردية، تعرض للضياع في هجمات الأعوام ١٨٩٢-١٨٩٣، ويزعم بأن الكتاب الأصل موجود حالياً في ألمانيا، وقد سمع إسماعيل بأن أحد أعيان الموصل يملك نسخة منه.

شعور إسماعيل تجاه ديانته مقلقة على التراث الثقافي الأيزدي يسطع عبر التفاصيل الغزيرة التي دونها شوتز بسرعة، والتي انتقدها لاحقاً باعتبارها مُحرفة ومشوشة وغير منسقة أو متطابقة^(*) يتكلم بحزن عن

(*) يشير شوتز إلى إسماعيل على أنه شقيق الأمير سعيد بك (وليس عمه).

نصف القرن الماضي من مذابح وتغيير الديانة القهري إلى الاسلام، مما أدى إلى انكماش عدد أفراد الطائفة الأيزدية التي كانت في يوم ما طائفة واسعة الانتشار ومزدهرة، نظرتة إلى المستقبل كانت - على غير طبيعته - غير مألوفة وعابسة، أراهم باعتزاز صورة فوتوغرافية لعبد الكريم وهو يرتدي الزي الاوروبي لمعلم من بغداد، لكنه استدرك بأن التعليم يدمر العقيدة، وذلك بتمكينها الجميع على أن يكون لهم آراؤهم الخاصة، خمس الطائفة يرغب في التعليم، والبقية الأخرى باقية على ولائها واخلاصها لديانتهم، ومشيراً إلى ابنه البالغ من العمر عشر سنوات (من المفترض أن يكون يزيدخان بك) قال إسماعيل: إنه سوف يعطيه أسرار الديانة الأيزدية (من القلب) وهو بدوره سوف ينقلها مرة أخرى (من القلب) إلى ابنه.

ساق الرحالة إلى الموصل وكلمات إسماعيل للتوديع ترن في أذن شوتر: دَوْن مبادئ وتعاليم ديانتنا وأنشرها في كل اللغات الاوروبية، حتى تخلص عقيدتنا قبل أن تندثر!^(١)

* * *

تدخل ميان خاتون في حادث سنجاق سنجار أظهر بوضوح مَنْ كان يأخذ بزمام الأمور في الشيخان، وفي العام ١٩٢٢ سجل كاتب بريطاني بأن:

(سعيد بك، رجل كتيب تظهر عليه الوداعة، وله عينان صافيتان ولحية سوداء، وفم واهن مع التعابير الدالة على

(١) باول شوتر: Zwischen Nil und kaukasus ص ١٣٥-١٤٢.

عدم قدرته على امتلاك القرار، صفات شخص يُدار ولا
يدير.^(١)

وبعد مرور سنتين وصف مراسل خاص لتايمز اللندنية عندما كان في
زيارة إلى باعدري وصف سعيد بك: شخصية ذات مظهر استثنائي مميز،
طويل القامة نحيل، له أيدٍ ناعمة ورقيقة، ولحية سوداء متموجة تدريجياً
تنتهي في نهاية مستدقة، يظهر أنه أكبر سناً من عمره الحقيقي، حَوَّلَ
طفيف في عينيه الكئيبتين يضفي عليه انطباعاً ضعيفاً بالشر.

والكاتب الذي قام بزيارة ميان خاتون وصفها قائلاً: امرأة مبتهجة
وسيمة، وافرة الصحة، تنتصب واقفة في الفناء العلوي الذي أسود من
الدخان في القسم الخاص بالنساء، هناك إلى جانب النار المشتعلة،
كانت تستقبل زوارها، ولاحظ بأنها (بصورة جليلة تحقر ابنها الضعيف)
وبعد سرد الحادث العنيف لمقتل علي بك وجده، تضيف المقالة:

سعيد بك ليس من النوع الذي ينتقم للعداوات القديمة،
لأنه مولع بمنظر الشراب عندما يكون أحمر قانياً، وخاصةً
العرق عندما يكون أبيض، ومع ذلك فتنة وسحر في سلوكه
تلازمه على الدوام، ويبدو أن الثمل لا يفعل غير أن يزيد
من حزنه وكآبته الطبيعية.

كما قال الكاتب بأن الأمير كان (المالك المعتز لخمسة سيارات
أمريكية)^(٢)، عند بلوغه السابعة والعشرين كان سعيد بك قد تزوج
لخمسة مرات.

(١) ستيفنس / دراور: دجلة والفرات، ص ١٩٠.

(٢) مقال لوك "أقليات الموصل (٣): الأيزدية" التايمز، ٢٧ آب ١٩٢٤، ص ٩ و ٢٨ آب
١٩٢٤، ص ٩. راجع أيضاً أميسن، ص ٩٥ ٩١.

يقول الدمولوجي بأنه قتل زوجته الأولى في العام ١٩٢٥، زوجته الثانية ابنة نائف بك توفيت وفاة طبيعية، لكن زوجته الرابعة التي تركته لتتزوج من جديد في مسقط رأسها سنجار قتلت هي الأخرى، قال سعيد بك مناقشاً مبدأ تعدد الزوجات مع امرأة إنكليزية في العام ١٩٢٩: (عندكم المرأة تتمتع بقوة كبيرة، لذا فإن الزوجة الواحدة تكتفي، ولكن عندنا حيث المرأة لا تتمتع بأية قوة على الإطلاق، فليس للامرأة أهمية).^(١)

في العام ١٩٣٠ تلقت الحكومة العراقية ومستشاروها البريطانيون شكاوى مفادها أن:

الأمير لم يكن فقط يبذل المدخولات التي لا يعتد بها والتي تتوالى على دائرته على الشراب والراقصات في مدينة الموصل، بل إنه بينما هو ثمل يرتهن القرى الأيزدية مع عصابة من المحامين الصعاليك بمعدلات فائدة عالية ليحصل على أموال أكثر ليبذرهما على اسرافه وملذاته.

تم اعتبار إمكانية وضع الأيزديين تحت القوانين المنظمة لشؤون الطوائف المسيحية واليهود، واستفسر آراء الوجهاء والأعيان من سنجار وشيخان.^(٢)

كان بديل سعيد بك يتوفر في ابن عمه حسين بك بن الأمير ميرزا بك، الذي تم تجاوزه في الخلافة لدى انتقالها إلى الأمير علي بك. في العام ١٩٢٥ كتب زائر إلى باعدري:

(١) روزيتا فوريس: الصراع، ص ٣٢٢-٣٢٣. الدمولوجي: اليزيدية، ص ٣٠.

(٢) ادموندز، ص ٨. الدمولوجي، ص ١٨.

رغم أن ليس لديه أي مطالبة بموقع الأمير، إلا أنه وبصفة
غير رسمية يتمتع بقدر من القوة في منزل الأمير، حسين ذو
شخصية ممتعة، ويتمتع بالذكاء، له شخصية متزنة، وبمقدور
الانسان أن يقول بأنه سيكون زعيماً مثالياً.

لكنه كلما تقدم في السن استسلم لمصيره وفضل حياة الانعزال،
تهديد يقل تأثيره على نفوذ ميان خاتون.^(١)

(مذكرة شيخان) التي وقع عليها بابا شيخ والزعماء الأيزديون
نُظمت لاستخدامها في اجتماع عقد في الموصل في العام ١٩٣٣ مع
السير فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق، مسؤولو
الحكومة لم يجدوا أي عيب في هذه الوثيقة التي كتبت بمهارة، والتي بينت
بشكل واضح (القواعد الأساسية) التي يتوجب الالتزام بها من قبل
الأيزديين، وذكرت بصراحة أن الأمير "لا يمكن فصله أو إزاحته إلا في
حالة الموت الطبيعي أو الاغتيال (لا سمح الله)".

وبعد مداولات كثيرة وافقوا على هذه القاعدة متغاضين عن سابقة
تاريخية حيث قام والد ميان خاتون بالتصرف بصفة الوصي، عندما خلع
العثمانيون عمها وتم التأكيد على أهلية الأمير للمدخلات الأميرية
وذلك باصدار قرار رسمي.^(٢)

بالترتيب مع والي الموصل كان سنجاق سنجار في جولته للعام
١٩٣١ حول الجبل تحت إشراف هو شرو، وبعد أن تم جمع التبرعات

(١) أميسن، ص ٩٢-١١٦. ادموندز، ص ٥٣-٥٤. الدمولوجي، ص ٣٠. مقابلة مع الأميرة
ونسة في تموز ١٩٨٤.

(٢) ادموندز، ص ٨-٩ و ٢٥-٣٠. ستيفن همسلي لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠، ص
١٩٣. AIR 23 / 159.

أعلن الفقير بأنه سوف يسلم السنجاق فقط إلى ابن عم الأمير حسين بك، وفي الحال وحسب الأصول قدم سعيد بك التماساً موقعاً من قبل ٨٠٠ من رجال القبائل تطالب بإعادة السنجاق.

استمر الخلاف لمدة ثلاثة أشهر، بينما احتفظ والي الموصل بالسنجاق في الحجز لحين التوصل إلى تسوية، وفي كانون الأول من العام ١٩٣١ وصلت التعليمات من بغداد بأن السنجاق يعود إلى سعيد بك، وأخيراً أعيد إلى الأمير في أيلول من العام ١٩٣٢.^(١)

وبالضرورة ذكر اسم إسماعيل في هذه الخلافات، لكن اهتماماته كانت قد بدأت تتحول من السياسة إلى المواضيع السطحية كالتي ناقشها مع شولتز، قرر إسماعيل أنه رغم عدم قدرته على القراءة والكتابة وحالته الصحية السيئة، فإنه سوف ينقل مبادئ الديانة الأيزدية إلى الاجيال المقبلة كتابة، وكذلك تاريخ الجبل وتجاربه الشخصية، وعلى مدى السنوات القليلة التالية، قام بإملاء كل ما يعرفه إلى متعاون عربي موثوق به.

في العام ١٩٢٩ انخرطت ابنته ونسا - البالغة من العمر اثني عشر عاماً - في المدرسة الداخلية الأميركية للبنات في بيروت، وفي زيارة إلى المدينة أصبح إسماعيل مريضاً، لم يبق لديه أي مال حيث نفذ ما كان معه فأدخل إلى مستشفى الجامعة الأميركية وذلك بفضل رئيس الجامعة الدكتور بايارد دودج.

(١) عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية، ص ٣٩. هـ. عزيز كونل: الأيزدية في التاريخ، أصول الأيزدية وتاريخهم الديني والسياسي والاجتماعي (مخطوطة تركية غير منشورة) ص ١٦٤ - ١٦٧. راجع كذلك فيلد: الأيزدية في العراق.

بعد عودته إلى الجبل، أرسل إسماعيل مخطوطاته للدكتور دودج،
المذكرات كتبت في لغة عامية واضحة، أكتملت خلال العام ١٩٢٥،
تاريخ سنجار لا زال في صيغة مخطط تمهيدي، ينتهي عند العام ١٨٧٥،
بينما كان وصفه للديانة الأيزدية خليطاً من التقاليد الشفوية وتعليقات
من قبل الخبراء الأيزديين، عندها كان قسطنطين زريق استاذاً مساعداً في
الجامعة، أخذ على عاتقه القيام بتحقيق وتنقيح المخطوط الذي نشر في
العام ١٩٣٤ تحت عنوان (الأيزديون: الماضي والحاضر).^(١)
لم يكن المؤلف في وقت النشر باقياً على قيد الحياة، النجم المذنب
الذي أبهر هذا العدد الكبير من المؤمنين والمتشككين قد خبا لمعانه، في ٩
آذار من العام ١٩٣٣ ذهب إسماعيل بك إلى الموصل للقاء ونسا التي
كانت قد عادت لتوها من بيروت، وفي ذلك المساء وبعد تناول العشاء
مع سعيد بك توفي إسماعيل وهو في الخامسة والأربعين من عمره.^(٢)

* * *

وبعد مرور شهور قليلة قامت ميان خاتون وابنها بزيارة إلى عائلة
الفقير، وبعد تقديم التعازي حسب ما هو معمول به لأخيها الفقيد،
قدمت ميان خاتون اقتراحاً تستطيع بموجبها عائلة الفقير الاحتفاظ
بحياتها المرفهة، الأمير سعيد بك يرغب في معالجة الخلاف العائلي وذلك

(١) انظر مقدمة الدكتور زريق لكتاب إسماعيل.

(٢) الدمولوجي، ص ٢٦.

عن طريق الزواج من ونسا ابنة إسماعيل التي كانت آنذاك تبلغ السادسة عشرة.^(١)

بعد مداولات ومشاورات طويلة بين أفراد العائلة، وفترة قصيرة قطعت خلالها المساعدة المقدمة لهم، أخيراً تم الاتفاق بأن تتخلى ونسا عن دراستها وطموحها للعمل في ميدان الطب والزواج من سعيد بك، أقيم حفل الزفاف في العام ١٩٣٤ وانتقلت ونسا إلى العصر الحجري الجديد في باعدري لتصبح رسمياً زوجة الأمير.

(منذ العام ١٩٢٩ تزوج سعيد بك أربع مرات آخر، بما فيهن خوخى، وأختها، وهما من بنات نائف بك) زواج ونسا الطالبة الشابة المتعلمة على الطريقة الأمريكية والمفرطة في التدليل من الأمير الثمل بورك بولادة ابنة سميت ليلى وتوفيت في السنة الأولى من عمرها، لكن إهمال سعيد بك لزوجته الجديدة كان يعوض عنه عطف ميان خاتون الحادة الذكاء، التي عرفت في ونسا مواطن قوتها، التي لا وجود لها لدى ابنها، حينما كان الأمير يبقى منعزلاً في قصره، كانت الخاتون الشابة وحماها تطوفان حول القرى في الشيخان، وفي احتفال الخريف اختارت ميان خاتون نفسها لونساً ثوب المراسيم المطعم بالجواهر.

زار هنري فيلد وهو باحث في علم الانسان من شيكاغو باعدري في حزيران العام ١٩٣٤ ولاحظ بأن ونسا (فتاة جميلة) لا زالت في العقد الثاني من عمرها. . متوسطة الصغر في الحجم، لها شعر وعيون بنية غامقة وبشرة فاتحة، تملك وجهاً مدوراً إلى حد ما.

(١) المؤلف مدين بالشكر للأميرة ونسة الأموي التي كشفت له تفاصيل حياتها في باعدري في المقالات التي أجراها معها في تشرين الأول ١٩٨٣ وشباط وتموز ١٩٨٤. وهناك تفاصيل أكثر في سيرتها الذاتية التي تنوي نشرها.

فيما وصف الأمير كونه شخصاً صغير الحجم له وجه بيضوي وأنف مستقيم وشعر وعيون بنية، كان للأمير صفة مميزة، لحيته المنتشرة بغير اتساق كانت تلف في عقصة طويلة بحيث تنتهي إلى نقطة مستدقة، سجل فيلد مثله كمثال الرحالة الآخرين بأن التعبير المتسم بالسكينة والحزن في عينيه البنيتين الغامقتين ينقصه التألق والاتقاد الذي تجده عادة لدى الأيزديين، وأختتم بأن (حيوية الأمير قد انخفضت ومقدرته العملية لم تعد كما كانت حادة) مضيفاً أن (مزاجه يميل إلى كونه حالة مرضية وحسه الدعابي أصبح مقيداً كثيراً).

كان فيلد وجماعته يتحادثون بعد العشاء مع سعيد بك وونسا عندما:

لدهشتهم وبهجتهم، وصلت والددة الأمير، لها مظهر صارم، طويلة القامة ترتدي حماراً يشبه النوع الذي ترتديه الراهبات، وجهها لوحده كان مكشوفاً، بينما كان رأسها مغطى بقماش أبيض دار حول وجهها وهو يسقط في ثني طويل منسدل على أكتافها وظهرها، ثوبها الأزرق الغامق تشبث بالأرض، من عيون باردة مخترقة أسقطت علينا نظرتها الثاقبة مشوباً بالشكوك. . وجهت إلينا عدداً من الأسئلة عن العالم الخارجي، مما أبقانا نتبادل اطراف الحديث لبعض الوقت بينما كانت ونسا والأمير جالسين بكسل وهما يراقبان المشهد.^(١)

ظهر بأنه أعيد تنظيم العالم الخارجي من قبل القوى المنتصرة بريطانيا وفرنسا، وتم تغييره مرة أخرى، بريطانيا الملتزمة بخطة بعيدة المدى لنقل السلطة إلى السلطات المحلية عبر الامبراطورية سحبت قواتها البرية من

(١) فيلد: الأيزدية في العراق، ص ١٠-١١ وشمال الجزيرة، ص ٤٣-٤٤ و ٨٠.

العراق في العام ١٩٢٩، رغم أنها أبقت بعض أسراب القوة الجوية الملكية.

وفي بغداد تحرك حكام الدولة الجديدة، المستقلة منذ ١٩٣٤، بسرعة لإنشاء جيش خاص بهم، وفي العام ١٩٣٤ تم إصدار قانون يجعل الخدمة العسكرية إلزامية عامة في كل أنحاء العراق.

الأيديون في جبل سنجار طلبوا بأن يتم استثنائهم من قانون الخدمة الإلزامية الجديد، أو على الأقل السماح لهم بأداء الخدمة في وحدة عسكرية أيزدية خاصة، رُفضت مناشداتهم، وبينما اقترب موعد التسجيل كان الأيزديون يفكرون فيما إذا كان عليهم الاستماع والعمل بنصيحة الأمير سعيد بك باللجوء إلى التحلي بالصبر أو الاستجابة لدعوة داوود الداوود بحمل السلاح.

بينما الحكومة العراقية تهيأت لفرض القانون بالقوة، في ايلول من العام ١٩٣٥ احتل لواء من الجنود العراقيين تدعمه الطائرات المقاتلة والمدفعية والآليات المدرعة الجبل، المقاومة الوحيدة التي أبدت بوجه هذه القوة أتت من قبيلة المهركان، وبعد مجابهة قصيرة نفذ عتاد المتمردين، وتمكن داوود المصاب بجراح من الهرب وعبر الحدود إلى سوريا، فعقدت المحاكم العسكرية لأسابيع عدة، وأصدرت أحكام في أكثر من ٤٠٠ قضية، أعدم شتقاً تسعة من زعماء الحلقة، وحصل أكثر من ٣٠٠ شخص على أحكام بالسجن تتراوح بين عشر سنوات إلى مدى الحياة (وفي السنة التي تلت أخلي سبيل العديد من هؤلاء السجناء).^(١)

(١) روجر لسكوت: Enguete sur les Yezidis Syrie et Djebel sindjar، ص

١٩٥-١٩٠. مقال " ثورة عبدة الشيطان والعمليات الثأرية في العراق " التايمز ٢٦ تشرين

الثاني ١٩٣٥، ص ١١. ادموندز، ص ٦٢-٦٤. ومذكراتي ادموندز في تموز ١٩٣٦ و

عاد الهدوء إلى باعدرى، وتعززت سلطة ميان خاتون على جبل سنجار بموت حمو شرو وإسماعيل بك وهروب المشاغب داوود الداوود، ولكن في شتاء الأعوام ١٩٣٧-١٩٣٨ وصلت أخبار مفادها أنه مشاكل جديدة قد أثرت في سنجار من قبل يزيد خان بك بن إسماعيل الذي كان في السابعة عشرة من عمره والذي شاهده ذات مرة شوتر وهو يتعلم التعاليم والتقاليد الأيزدية جالساً قرب والده.

كانت ونسا في غرفتها بالقصر في وقت مبكر من إحدى الأمسيات في العام ١٩٣٨ عندما دخل سعيد بك والدموع في عينيه، أخبرها بأنه قد خرج لتوه من اجتماع ناقش مؤامرة يزيد خان لتنصيب نفسه حاكماً على سنجار، وأنه قد اتخذ قراراً بوجوب قتل شقيق ونسا، أخبر سعيد بك ونسا بأنه عجز عن تغيير القرار، لكنه وعدها بأن يعلمها بالنتيجة طالما أنه سيكون أول من يعرف بمقتل يزيد خان.

- "لا!"

صرخت ونسا، وهي تسحب مسدساً من تحت وسادتها: (إنه هو سيسمع بأنك قُلت أولاً!) وأطلقت خمس مرات، والطلقتان الأوليان أصابتاه في الساق اليسرى واليد اليسرى، والأخرى ذهبت طائشة. وسط هذا الاضطراب ساعد سائق ونسا الأرمني هاكوب ونسا للهرب في سيارتها البويك إلى الموصل ومن هناك إلى بغداد، حيث أوجدت لها عائلة هاكوب مكاناً للاختباء، وكان إسماعيل قد أنقذ هذه العائلة بسنوات قبل ذلك.

١٥ أيلول ١٩٣٦ ضمن أوراق ادموندز بمركز الشرق الأوسط في كلية سانت انتوني - أوكسفورد. لونكريك: العراق ١٩٥٠-١٩٥٠، ص ٢٤٢-٢٤٣. مخطوطة كونل، ص ١٨٩-١٩٢.

استعاد سعيد بك عافيته من الجروح لكن البحث عن ونسا أستمّر، تم تعذيب السائق لكنه رفض الافشاء عن مكان اختبائها، وبعد فترة أفلحت ونسا في عبور الحدود إلى سوريا متنكرة في زي ممرضة وشقت طريقها إلى حلب، حيث وجدت ملجأً تحتمي به لدى رجال القبائل الأيزديين الذين يعيشون في القرى الواقعة حول دير سمعان. سمح لها فيما بعد من قبل الفرنسيين بالبقاء في حلب.

* * *

بدأت الحرب العالمية الثانية كفصل آخر من تاريخ المنازعات بين القوى العظمى في أوروبا، مبتدئة بتقسيم بولندا بين ألمانيا وروسيا، هذه المرة تركيا وبصورة عقلانية اختارت الحياد، وكذلك فعلت العراق. في ذلك الوقت كان رشيد عالي الكيلاني أحد السياسيين العراقيين البارزين، وهو سليل الشيخ عبد القادر الصديق الصوفي للشيخ آدي، وكان صديقاً قديماً لإسماعيل وسمح لونسّا بالعودة والعيش في العراق تحت الحماية الرسمية للدولة في بغداد.

شهد العام ١٩٤٠ انتصارات ألمانيا في أوروبا الغربية، وفرنسا التي لم يتم احتلالها في الحرب العالمية الأولى أجبرت على وضع السلاح جانباً، والبريطانيون يستعدون للدفاع عن سواحلهم، وفي ربيع العام ١٩٤١ اجتاحت الالمان دول البلقان وأجبروا إمدادات حربية بريطانية على الانسحاب إلى مصر.

تحدى رئيس الوزراء العراقي رشيد عالي - متأثراً بمدى قوة السيف الألماني، ومستخفاً بالقوة البريطانية في الهند والخليج الفارسي - حقوق بريطانيا في استخدام الاراضي العراقية لنقل جنودها، وخلال ثلاثين يوماً احتلت القوات البريطانية العراق من جديد حيث بقيت حتى العام ١٩٤٧.^(١)

أصبحت ونسا الآن مطلقة من سعيد بك واعتنقت الإسلام، وتزوجت طبيباً سورياً، ووضعت في معسكر للاعتقال. ولم يتخذ سعيد بك زوجة أخرى.

وفي تموز من العام ١٩٤٤ كان الأمير في فندق كوكب الشرق حيث - وفقاً للدملوجي - (توفي بين ظهراني أشخاص تحرم الديانة الأيزدية الاختلاط بهم).^(٢)

عم حضور ميان خاتون - وهي الآن في السبعينيات من عمرها - الاجتماعات التي عقدت لاختيار خلف للأمير الراحل، مرشحها كان في الثالثة عشر من عمره، تحسين بك بن سعيد بك من زوجته خُوخى، أشارت ميان خاتون إلى أنه رغم كونه شاباً يافعاً إلا أنه من أصول أفضل من إخوانه المولودين لأمهات تنتمي لبسميرا أو طائفة الشيوخ، وجذبت الانتباه إلى يقظته، وشخصيته المتسمة بالذكاء، وعرضت أن تقوم بمهام الوصية إلى أن يبلغ سن الرشد.

(١) ادموندز، ص ٦٤-٦٨، يقدم تفاصيل عن الأحداث في جبل سنجار إبان الاحتلال البريطاني الثاني.

(٢) الدملوجي، ص ١٨-١٩ و ٣٠.

سوارو بك، أخ لجمان المسمى باسم لجمن تيمناً، كان مسنداً من فريق آخر، ولكن في الأخير اتفق على أن يكون تحسين بك أميراً.^(١)

بينما كانت الحرب العالمية الثانية قد ورطت كل القوى العظمى، لكن المعارك الحاسمة كانت تخاض بعيداً عن موطن الأيزديين، وعندما انتهت كل شيء انسحبت قوى الاحتلال الفرنسية والبريطانية من العراق وسوريا تاركة حكومات محلية تأخذ بزمام الأمور.

وفي أوروبا والمناطق الأخرى من آسيا مات الملايين من الناس، لكن هذه المرة المناطق الآسيوية التي كانت تحكم من قبل السلطات بقيت سالمة، خرجت الطوائف الأيزدية في العراق وسوريا وما وراء القوقاز دون أن تمسها أي أذى.

سنوات وصاية ميان خاتون الثانية، تميزت بالازدهار وعدم وقوع أحداث.

وفي العام ١٩٤٨ بلغت المدخولات الأميرية الإجمالية ٨,١٨٥ ديناراً عراقياً (٨,١٨٥ جنيهًا سترلينياً)، وحصيلة التبرعات التي جمعها سنجاق سنجار وصلت إلى ٤,٠٠٠ دينار في السنة، وسنجاق شيخان ١,٥٠٠ دينار، ربع الدخل الأميري من التبرعات التي جمعت على ضريح الشيخ آدي بلغ ١,٥٠٠ دينار، ومن معبد الشيخ شمس الدين والينبوع الأبيض ٥٠٠ دينار كل على حدة، والدخل الإجمالي استنتج من القرابين التي قدمت على الضرائح والمراقد الأخرى.^(٢)

(١) المصدر نفسه، ص ١٩-٢٠ و ٢٩-٣١. ادموندز، ص ٣٠. راجع كذلك رسالة غير مؤرخة من يوسف رسام إلى الكولونيل لاين ضمن أوراق ادموندز. مخطوطة كونل، ص ٧٦-٧٧.

(٢) الدملوجي، ص ٣٦.

في مايس ٢٥ من العام ١٩٤٩، أنهى صديق الدمولوجي الذي غطى اختلاطه ومعرفته بالأيزديين الآن أكثر من أربعين عاماً كتابه المؤلف من ٥٠٠ صفحة حول الطائفة وشمل ثناءً وتقديراً جديراً بالذكر لميان خاتون:

إنها الآن في الخامسة والسبعين من عمرها، وأتذكر رؤيتها وهي في شبابها عندما كانت جميلة وجذابة [أعطى تفاصيل شجرة عائلتها] تزوجت من ابن عمها الأمير علي بك وهي في الثامنة عشرة، وبعد وفاته أصبحت وصية على ابنها سعيد بك، وفيما بعد على ابنه تحسين بك، الذي أصبح أميراً وهو في الثالثة عشرة، وأظهرت عبقريتها وقدرتها لأول مرة عندما كان علي بك على قيد الحياة، حينما تقاسمت ضرائب الحكومة بعد مواساته وذلك بتذكيره بمحنتهم خلال المحاكمة والمعاناة الصعبة وانضمامها إليه لقضاء ثلاث سنوات في المنفى بـسيواس، الذي فرض عليهم من قبل الحكومة العثمانية. حكيمة وتمتع بالذكاء وبعد النظر، وتفرض هيبتها واحترامها على أبناء قومها، سلطتها عليهم تصل إلى مدى لا يجرؤ أحد على معارضتها، الكل يرتعد خشية في حضورها ويتوتر لدى غيابها، متغطرة، فخورة، ومختالة، لكن عندما يلتقي بها أحد تسطع شخصيتها المتسمة بالعظمة والنبيل.

إنها متشائمة إلى حد كبير، لا تثق بأحد، ورغم دخلها الكبير فهي بخيلة وتمسك قبضتها بشدة كي لا ينسل منها فلس واحد، إنها تكره وتزدري رجال العائلة الأميرية، وتتصف بالمكر والخدعة والغدر، قادرة على أعمال القتل القاسية تجاه معارضيها.

وهي حالياً الحاكمة الفعلية المتنفذة، وهي القادرة على الأخذ والعطاء، تكافئ وتمسك وتسمح حسبما تشاء ملائماً، ومن الصعب التصور كيف ستصبح الأمور عند رحيلها، لدى الأخذ بنظر الاعتبار بأنها تشارف على نهاية حياتها، وأن كل شيء يتعلق بها هو قديم باستثناء قدرتها العقلية.

توفي مؤلف هذه السطور في العام ١٩٥٨، نفس السنة التي أطيح فيها بالنظام الحاكم في بغداد والذي أنشأه البريطانيون، ولم تعيش ميان خاتون لتشهد ولادة عهد جديد حيث أنها توفيت في ٣١ كانون الأول من العام ١٩٥٧ وهي تناهز الثالثة والثمانين من عمرها.^(١) ونسا ابنة أخيها، وذات مرة كنتها، عانت الكثير (بما في ذلك الشائعات الكاذبة بأنها قتلت)^(٢) قيل إنه تم مصالحتها مع والدتها وأخواتها وإخوانها، عندئذ كانت قد انتقلت إلى القاهرة، أرملة منذ العام ١٩٦٨، قامت بتربية أطفالها ولا زالت تشارك في المناسبات الاجتماعية في نادي لاينز وأماكن أخرى مع ابنتها الصغرى (ميان) وصهرها، رجل أعمال مصري وبطل الكرة السريعة.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٣. جرجيس عواد: بيلوغرافيا الأيزديين، المشرق، العدد ٦٣ (١٩٦٩) ص ٦٨٨. توماس بوا: La vie sociale des kurdes المشرق العدد ٥٦ (١٩٦٢) ص ٦٠٩ و ٦٤٥.

(٢) ادموندز، ص ٥٨.

الفصل الثالث عشر

الأيديون في ما وراء القوقاز

يرجع أصل الطائفة الأيزدية في الاتحاد السوفيتي إلى الاستيلاء على ما وراء القوقاز من قبل القياصرة الروس، ففي العام ١٨٠١ سلم آخر ملوك جورجيا بلاده إلى الروس، وفي العام ١٨٢٨ تخلت بلاد فارس عن ولاية أيريقان (يلفظ أيريقان منذ العام ١٩٣٦) وحصلت روسيا على بعض المقاطعات الصغيرة من الامبراطورية العثمانية في العام ١٨٢٩.

وعند انسحاب الجيش الروسي من الأناضول بعد حرب ١٨٢٨-١٨٢٩ سمح لخليفه الأيزدي حسن أغا، زعيم قبيلة حسنلي^(*) بنقل رجال قبيلته وقطعان مواشيهم من مقرات سكنهم القديمة على السفح الجنوبي لجبل آارات إلى مواطنهم الجديدة في ولاية أيريقان في الصيف يرعون قطعانهم على السفح الشمالي من آارات، وفي الشتاء ينتقلون إلى مقربة من سرمالو على الضفة اليمنى من نهر آراس، وفي تقرير نشر

(*) أنظر P.65.

في العام ١٨٤٠ من قبل وزارة المالية الروسية أدرج سبع وستون عائلة أيزدية مؤلفة من ٣٢٤ فرداً.^(١)

الكونت باسكيفيتج القائد الروسي في الحروب ضد بلاد فارس والامبراطورية العثمانية كان قد عُين نائباً عن القيصر في بولندة في العام ١٨٣١، أخذ معه فريق حراسة من قرى ما وراء القوقاز، أحد هؤلاء الفرسان كان أيزدياً من سرمالو ذكر اسمه في تقرير أخباري لأعماله البطولية في فن الفروسية في المناورات الروسية - البروسية المشتركة التي جرت في كاليج في أيلول عام ١٨٣٥ بحضور القيصر نيكولاوي وحموه الملك فردريك ويليام الثالث، واستدعي الفارس فيما بعد إلى برلين بصفته ضيفاً على الجيش البروسي، وهو الأيزدي الأول الذي يقوم بزيارة إلى أوروبا الغربية.^(٢)

في العام ١٨٣٠ حينما كان رشيد أغا يقوم بإخضاع الكرد في الأناضول فر عدد من الأيزديين عبر الحدود، الارشمنديت الأرمني غازار تير غيفونديان الذي كان قد حاول دون جدوى تعليم أطفال ميرزا أغا في^(*) رضوان هو الآخر شق طريقه إلى الأمان في إيريقان، حيث حصل على منصب في مدرسة المقاطعة.^(٣)

(١) ج. جوين: De I origine des peuples habitant la province d'Armenie. راجع أيضاً: obozreniye Rossiskikh oladeny za kavkazom ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) مقال لموريس فاكنر في ألكمانيه تسايترك (١٨٤٦) العدد ١٢٣، ص ٩٧٧. أوكست فرايهر فون هاكستاوزن: ما وراء القوقاز، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(*) راجع الفصل الخامس.

(٣) خ. أبوفيان: الكرد الأيزدية، مقال غير منشور كتب في ١٨٤٦. موريس فاكنر: Reise nach persein und dem Lande der kurden ج ٢، ص ٢٥٤-٢٥٥.

كان مدير المدرسة في ايريقان خاجاتور أبوفيان رائد الأدب الأرمني المعاصر، ولد في العام ١٨٠٥ عندما كانت الولاية لا زالت تابعة إلى بلاد فارس، وفي الوقت الذي ألحقها بها روسيا في العام ١٨٢٨ كان يخدم شماساً في دير بأكمايدزين.

في شهر أيلول من ذلك العام، نقل لمرافقة المكتشف الألماني فردريك باروت في أول بعثة ممولة روسياً إلى آارات، ولدى وصول المتسلقين إلى القمة في محاولتهم الثالثة حفر أبوفيان حفرة في الجليد ونصب صليباً خشبياً يواجه الشمال، وبعد ذلك رتب باروت لأبوفيان مقعداً دراسياً بالدراسة في جامعة دوربات البلطيقية (وتسمى حالياً تارتو) حيث كان المستكشف يقوم بالتدريس، وبعد العودة إلى ما وراء القوقاز عين أبوفيان مديراً لمدرسة ايريقان في العام ١٨٤٣.

وفي صيف ذلك العام قام بزيارته اثنان من الرحالة الألمان: البافاري مورتز فاكنر وصل في مايس بعد زيارته لبحيرة سيپان، انضم إليه أبوفيان في جولة في ولاية ايريقان، وبعد ذلك استمرا في تبادل المراسلات، وفي آب قضى أبوفيان أياماً قليلة برفقة الاخصائي البروسي بعلم الزراعة البارون أوكست فان هاكتاوزن في جولة بأطراف المقاطعة، وقاموا بزيارة إلى معسكر حَسَنلي حيث التقوا بالزعيم الجديد تيمور آغا بن حسن آغا، وتبادلوا كلمات مجاملة مع الفارس المنتمي إلى فريق حراس الكونت باسكيفيتج قيل لهم إن هناك طائفة أيزدية ثانية في ما وراء القوقاز، والتي لم يزوروها ^(١) (في العام ١٨٥٥ عرف تقرير للجيش الروسي بمستوطنة

(١) موريس فاكنر، Reise nach dem Ararat und dem Hochland Armenien

ص ٤٧-٥٤. هاكتاوزن، ج ١، ص ٢٢١-٢٥٣. أ. ن. مورافييف:

Gruziya I Armeniya ج ٢، ص ١٢٩-١٣٢.

أيزدية أخرى تتألف من ٣٤٠ فرداً، يترأسها خليل آغا وذلك في مقاطعة سردار ئاباد على الضفة اليسرى من نهر آراس).^(١)

في العام ١٨٤٤ عين الأمير ميكائيل فورونتسوف نائباً عن القيصر في القوقاز، وكان أحد أعماله الأولى التي قام بها هو توجيه دعوة إلى الزعماء الكرد والترك إلى حفلة في تفليس (تعرف بتفليس منذ العام ١٩٣٦) من بينهم تيمور آغا الذي كانت عمامته الحمراء المتقدة بارزة بين أغطية الرأس السوداء التي يرتديها القوزاق والأساقفة الأرمن، والعمامات البيضاء التي يلبسها الملالي الأتراك، وعندما عاد الزعيم إلى قبيلته مع هدايا كثيرة من نائب القيصر خاجاتور أبوفيان الذي أصبح الآن صديقاً يوثق به للأيزديين دعي للحضور إلى احتفال القبيلة.^(٢)

تتعامل الأعمال الأدبية لأبوفيان بصورة أساسية مع الأرمن ومعاناتهم خلال الحروب الروسية - الفارسية، لكنه كتب أيضاً عن الكرد معتنياً بصورة خاصة بالأيزديين معتمداً في ذلك على معرفته الخاصة وما تعلم من أصدقائه في رضوان مبيناً المناحي الأخرى لحياتهم الدينية، لاحظ الزيارات الدورية المتكررة التي يقوم بها حاملو السنجاك القادمون من لالش، الصداقة التاريخية بين الأيزديين والأرمن وكذلك العادات والتقاليد المشتركة بين الطائفتين قادتته إلى الاعتقاد بان الدين الأيزدي منشؤه هرطقة تعود إلى القرن العاشر حدث داخل الكنيسة الأرمنية.^(٣)

(١) AKG، المجلد ١١، Akty، ص ٤٢٧-٤٢٨، المادة ٤٣٥. خطط الكولونيل لوريس ملنكوف في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٥٥ لإدارة العشائر الكردية.

(٢) موريس فاكنر: Reise nach persien ج ٢، ص ٢٥٤. أبوفيان الكرد والأيزدية، ج ٨، ص ٢٢٢-٢٢٩.

(٣) مقال أبوفيان " الأيزدية " Kavkaz ١٨٤٨ العددان ٨ و ٩ في ٢١ و ٢٨ شباط.

في صباح يوم من نيسان عام ١٨٤٨ غادر أبوفيان قسمه الداخلي متوجهاً إلى المدرسة ولم يره أحد بعدها، وبقي لغز اختفائه دون حل.

* * *

نشرت مقالة أبوفيان حول الأيزديين قبل اختفائه بأيام قلائل، وتقرير موريتز فاكنر المعتمد بصورة كبيرة على المواد التي وفرها أبوفيان ظهر في العام ١٨٥٢، وما سجله هاكستاوزن عن أسفاره نشر في العام ١٨٥٦ لذلك فإن الطائفة الأيزدية الصغيرة في ما وراء القوقاز مرت بفترة غموض ناهزت العشرين عاماً (خلال حرب القرم في العام ١٨٥٥ ضم الجيش الروسي على الجبهة القوقازية جنوداً أيزديين من الخيالة يفترض أنهم لم يكونوا يدرون بأن أميرهم كان يدعم العثمانيين هؤلاء الفرسان كانوا جزءاً من فرقة ألكساندروبول التي كان يقودها نائب القيصر الجنرال ن. ن. نورافير لكن تفاصيل المعارك غير معروفة).^(١)

امتدت منافع وواجبات الحكم البيروقراطي لتشمل الأيزديين في العام ١٨٦٠ عندما أعلن القيصر سلسلة من المراسيم التي ألغيت بموجبها قنانة الارض وحددت السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها زعماء القبائل في ما وراء القوقاز.

في العام ١٨٧٤ قُدم طلب إلى والي مقاطعة ايريفان بأن يسمح للزعماء الدينيين المسلمين السنة بجمع ضريبة العشر من الكرد المحليين،

(١) ن. ن. مورافيف: Viona za kavkazom v 1855 g، ج ١، ص ٣٠ و ٥٥.

وعندما علم الوالي بأن معظم الكرد في الولاية هم من الأيزديين، رفض طلب المسلمين وأجرى مسحاً اثنوغرافياً قضائياً عن الأيزديين والذي وصل في النهاية إلى أربعة وستين صفحة لدى نشره في العام ١٨٩١ من قبل الفرع القوقازي للمجتمع الجغرافي الامبراطوري الروسي، وكان مؤلف الدراسة التي انتهت في العام ١٨٨٤ أحد الحقوقيين الأرمن يدعى سولومان أداموفيتش يكيازاروف.^(١)

في أمسية حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ كانت قبيلة حسنلي لا تزال ترعى قطعانها على السفوح الشمالية من آارات بينما تقضي الشتاء في سرمالو، وعندما كان يكيازاروف يجري دراسته، وصف زائر آخر زعيمهم حسن آغا بن تيمور آغا بـ (كونه رجلاً وسيماً قوي البنية، له وجه معبر وذو هندام مرتب وجيد).

وفخذ أصغر من نفس القبيلة كان يقوده خليل آغا كان يستخدم سفوح جبل أراكاتسي^(*).^(٢)

وفي صيف عام ١٨٧٧ استولت القوات الروسية بإمرة الجنرال تير كوساكوف على بايزيد وتقدمت باتجاه سهل كيرت اله وبعد أسابيع قليلة أجبر التهديد العثماني بهجوم معاكس تير كوساكوف على التقهقر فاتباعه فيض من المدنيين عبر الحدود طلباً للحماية والأمان، وكان بضمنهم ٣٠٠٠ أيزدي يقودهم علي بك ابن أخ الأمير ميرزا بك وبعد الحرب تم إسكانهم في مقاطعة ألكساندروبول بضم هؤلاء المهاجرين قدر

(١) س. أ. يكيازاروف: مقال في ZKORGGO العدد ١٣ (١٨٩١) ص ١٧١-٢٣٤.

(*) يعرف هذا الجبل لدى الكرد باسم جبل أتكر المترجم.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٧ و ٢٠٢-٢٠٣. ف. آي. ديفتسكي: مقال في SMOMPK العدد ٢١ (١٨٩٦) ص ١١١.

يكيازاروف عدد الأيزديين في مقاطعة ايريفان في العام ١٨٧٧ بـ ٨٠٠٠ أيزدي.^(١)

حدثت هجرة أخرى بين العامين ١٨٧٩ و ١٨٨٢ عندما هاجرت قبيلة سبكي الأيزدية التي صادفها جوستين بيركنس في العام ١٨٣٧، والتي هي الآن تحت قيادة زعيمها عمر آغا، باتجاه الغرب من منطقة بايزيد التي يسيطر عليها العثمانيون إلى مقاطعة كاكزمان في ولاية قارس، والتي تم التخلي عنها مؤخراً للروس، وخلال سنوات قليلة أنشأت القبيلة أربع عشرة قرية يعيش فيها ١٧٣٣ شخصاً.^(٢)

الاحصاء الامبراطوري للعام ١٨٩٧ (الأول من نوعه) ذكر ١٤,٧٢٦ من رعايا القيصر الأيزديين، والجداول المنظمة من قبل نائبة القيصر تشير في بداية العام ١٩١٢ بازدياد عدد الأيزديين إلى ٢٤,٥٠٨ - أكثر من ١٧,٠٠٠ منهم يسكنون ولاية ايريفان، و ٢,٠٠٠ في تفليس وحولها وأكثر من ٥,٠٠٠ في الولايات الملحقة بروسيا في العام ١٨٧٧، وبعد أربع سنوات ذكر عدد نفوس الأيزديين في ما وراء القوقاز بـ ٤٠,٨٨٢ أغلب الأيزديين كان في الولايات

(١) يكيازاروف ORGO العدد ١٣ (١٨٩١) ص ٢٣٠. علي بك هو ابن سفر بك (الذي لم يظهر في أي من شجرات نسب آل كول) وربما كان من آل باسمايا الذين يقربون مير ميرزا بك من علاقات مصاهرة. راجع صديق الدمولوجي، ص ٣١٣. ومقال يكياتزاروف في ORGO العدد ١٣ (١٨٩١) ص ١٣. وكذلك ادورد دي كوفاليفسكي: الكرد الأيزدية، نشرة جمعية RBG العدد ١٤ (١٨٩٠) ص ١٩٥.

(٢) ف. س. يانوفيتش: SMOMPK مقال في العدد ٣٤ (١٩٠٤) ص ٢٠. الأمير ف. آي. ماسالسكي: مقال في IIRGO العدد ٢٣ (١٨٨٧) ص ٣٢.

الملحقة بالامبراطورية، لكن عدد الأيزديين في تفليس كان قد ارتفع إلى ٦٩٧، ٤.^(١)

عمل المبشرون السويديون البروستانت لسنوات في ما وراء القوقاز وفي الاغلب في صفوف الأرمن، وحوالي منعطف القرن بدؤوا يلاحظون الأيزديين في تفليس وهم يعيشون في الأكواخ المنتشرة خارج المدينة، وهم يقصدون المدينة يومياً بحثاً عن العمل، السويديات القائمات بأعمال التبشير أهتممن بصورة خاصة برعايتهم وتنظيم المناسبات الاجتماعية لهم مع المساعدين الأرمن العاملين بصفة مترجمين، ولم يبذل أي جهد لاهتداء الأيزديين لكن سجلت حالة واحدة في العام ١٩١٣ عن اعتناق أيزدي للمسيحية.^(٢)

إن زيارة إسماعيل بك إلى ما وراء القوقاز في العام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ وجهوده لتوحيد الطوائف الأيزدية تحت حماية الكنيسة الأرمنية، كانت قد ذكرت في فصل سابق، تكللت بقبول نائب الملك توصية إسماعيل بك بتعيين أحد وجهاء سرمالو زعيماً للأيزديين في القوقاز^(٣) ويظهر بأن مجموعة قواعد السلوك التي أعلنها إسماعيل بك في إيغدير قد نفذت وعمل بها، ترجمة روسية للنسخة الأصلية الكردية وصلت إلى يد

(١) كافكازسكي كالندر، الأعداد ٦٨-٧٢ (١٩١٣-١٩١٧) العدد الكلي للأيزدية البالغ ٣٥٢١٠ الذي يظهر في ١ / ١ / ١٩١٦ في تقويم ١٩١٧ يبدو وكأنه يضم أيضاً ٥٦٧٢ أيزدياً كانوا يعيشون في منطقة ألكساندروبول.

(٢) م. أنهولم: مقال في SM العدد ٧ (١٩١٩) ص ١٥١-١٧٥، ماريا كوتوالد: الأيزدية، مقال في الكلوبوس العدد ٧٣ (١٨٩٨) ص ١٨٠-١٨١. أ. ف. ويليامز جاكسن: ملاحظات عن رحلة إلى بلاد فارس JAOS العدد ٢٥ (١٩٠٤) ص ١٧٨-١٨١.

(٣) مقال في تفلسكي لستوك، ١٩٠٩، العدد ٤٠، ٢٠ شباط، ص ٢.

المستشرق الألماني أدولف در الذي ترجمها إلى الألمانية ونشرت في مجلة
نمساوية في العام ١٩١٩، وليس واضحاً إلى أي مدى وصلت منجزات
البرنامج التعليمي للمطارنة الأرمن.^(١)

* * *

خلال السنوات الثلاث الأولى للحرب العالمية الأولى حدثت
العمليات العسكرية على الجبهة القوقازية على التراب العثماني، وإلى
حد ما في الاقاليم الشمالية الغربية لبلاد فارس، ولكن في نهاية العام
١٩١٧ الثورة الروسية والدعوة إلى السلام التي أصدرتها الحكومة
الجديدة نتجت عنها هجرة جماعية للجنود الروس تاركين الجبهة
متوجهين إلى بيوتهم. حوفظ على خطوط الجبهة بصورة ضعيفة من قبل
أفواج الأرمن في الجيش الروسي، لكن ضعفها حال دون تمكنها من منع
العثمانيين من إعادة احتلال الأقليم الذي كان قد فقد في السنوات
الثلاث الماضية.

تم التوقيع على معاهدة سلام مع روسيا في بريست - ليتوفسك في
آذار عام ١٩١٨ مما مكن العثمانيين من السيطرة على ولاية قارس رغم
مقاومة الوحدات الأرمنية التي أصبحت تحت قيادة حكومة شكلت
جديداً في إيريفان، وبحلول نهاية نيسان كان الجنود العثمانيون قد
سيطروا على ساري قاميش وقارس ووصلوا في العام ١٨٧٧ إلى الحدود

(١) الدكتور أ. در: مقال في أنثروبوس، العددان ١٢ و ١٣ (١٩١٧-١٩١٨) ص ٥٥٨ و
٥٧١-٥٧٤ (نشر المقال في نيسان ١٩١٩). أ. شاميلوف: مقال في Revolutsiya I
kul tura ١٩٣٠، العددان ١٥ و ١٦، ص ٨٦-٨٨.

بمحاذاة فرع أربا جاي لنهر ناراس، الأيزديون في ولاية قارس غير راغبين في العودة إلى الحكم العثماني لذا انضموا إلى فيض اللاجئين المدنيين الباحثين عن ملجأ في جيورجيا وأرمينيا.^(١)

وفي مايس من العام ١٩١٨ عبر العثمانيون نهر أربا جاي لشن حرب قصيرة الأمد ضد جمهورية إيريقان، قام رتل بالاستيلاء على ألكساندروبول وتقدم باتجاه شمال جبل أراكاتس حيث قتل ثمانون أيزدياً في كوردسكي بامب نحو سكة حديد ما وراء القوقاز المتوجه إلى باكو، وتوجه رتل آخر باتجاه جنوب الشرق على طول الضفة اليسرى لنهر آراس لتأمين الخط الذي تم انشاؤه مؤخراً نحو تبريز.

في سردار آباد تم التصدي للرتل الجنوبي من قبل قوة أرمنية مؤلفة من ٤,٠٠٠ رجل تضم في صفوفها ٧٠٠ فارس أيزدي يقودهم جهانگیر آغا، وبعد أيام قليلة قام ٢٠٠ رجل من قوة جهانگیر آغا بتقديم المساعدة إلى الأرمن للتصدي للرتل الشمالي عند ممر باش أباران على منحدرات جبل أراكاتس ولكن في الأسبوع الأول من شهر حزيران تم التوصل إلى هدنة سمح للعثمانيين بموجبها باستخدام السكة الحديدية الرئيسية لكنهم سوف يتخلون عن إيريقان و أجميازدين للأرمن.^(٢)

بعد خمسة أشهر من استسلام العثمانيين تغير مجرى الأحداث، جاءت القوات البريطانية إلى ما وراء القوقاز لضمان انسحاب العثمانيين وتمكين الأرمن إعادة الاستيلاء على قارس، وصلت امدادات المواد الغذائية من أمريكا للتخفيف من معاناة الأهالي وعوائل اللاجئين، نظمت

(١) شاميلوف: مقال في Zarya Vostoka ١٩٢٤، العدد ٥٥٣.

(٢) سيركي أفاناسيان: La victoire de sardarabad ص ٤٧-٤٨. خ. م. شاتوييف: كرد أرمينيا السوفيتية، ص ٣٠. راجع أيضاً كايالوف: سردارآباد. كذلك و. إي. د. ألن وباول موراتف: سوح القتال في القوقاز، ص ٤٧٥-٤٧٧.

انتخابات في العام ١٩١٩ لبرلمان أرمني وخصص مقعد واحد لممثل عن أيزدي أشغله يوسف بك تيموريان من سرمالو.^(١)

كان الاحتلال البريطاني لمنطقة ما وراء القوقاز وجيزاً، فقد أُخلت باكو في آب من العام ١٩١٩ وغادر آخر جندي بريطاني باتوم في حزيران العام ١٩٢٠، وشغل الفراغ من قبل الروس جنود الجيش الأحمر الجديد الذين صلبتهم الحرب الأهلية، احتلوا باكو في نيسان عام ١٩٢٠، وهددوا جمهوريتي جيورجيا وأرمينيا غير المحميتين.

في خريف عام ١٩٢٠ توصلت حكومة تركيا وروسيا إلى تفاهم بشأن ما وراء القوقاز، فأستعد الجنود الترك مرة أخرى لاستعادة الولايات المفقودة في العام ١٨٧٧، تقييم سوفيتي للقوات الموجودة لدى حكومة إيريفان في تشرين الأول من العام ١٩٢٠ سجل بأن المشاة كانوا غير مدربين والخيالة دون المستوى المطلوب، باستثناء سرية أيزدية من ثلاثة ضباط و ٢٠٠ جندي في اجميازدين تحت قيادة شاخ باغوف^(٢) أعاد الترك احتلال ساري قاميش وقارس وألكساندروبول.

وفي شهر كانون الأول استسلم الأرمن بينما نصبت حكومة شيوعية في إيريفان استولى جنود الجيش الأحمر على الجمهورية في آذار من العام ١٩٢١ في وقت تم التوقيع على معاهدة سلام نهائية بين تركيا وروسيا. بنود اتفاق عام ١٩٢١ مكنت الروس الاحتفاظ بباتوم واسترجاع ألكساندروبول (تم تغيير اسمها إلى ليننكان في العام ١٩٢٤ وتسمى حالياً بكموري)، ومن تلك النقطة يتبع الحدود خط أربا جاي

(١) ريجارد هوفانيسيان: جمهورية أرمينيا، ج ١، ص ٤٤٩ و ٤٧٥، ج ٢، ص ١٧.

(٢) تقرير الرفيق زفيريف (الممثل السوفيتي في باتوم) عن جيش أرمينيا، ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠.

إلى أن يصب في نهر آراس، ومن هناك شرقاً بمحاذاة نهر آراس إلى حدود بلاد فارس، وإحدى النتائج المترتبة على الاتفاقية هي إعطاء تركيا كل جبل آارات والمدن إكدير وسورمالو جنوب نهر آراس، وبقيت الحدود التي تم تصحيحها على حالها لأكثر من ستين سنة، وأعيد إسكان الأيزديين من منطقة سرمالو من قبل السلطات السوفيتية في القرى على المنحدرات الجنوبية لجبل أراكاتس والتي تركها الكرد المسلمون والترك.

فريوسف بك - الذي عرفه مصدر كونه رئيس عائلة بسميرا الوحيدة في ما وراء القوقاز - إلى فارس بعد سيطرة الجيش الأحمر، لكنه عاد في العام ١٩٢٣ واستأنف عمله كزعيم للأيزديين على جبل أراكاتس.^(١)

* * *

وبمرور الزمن تولد لدى الأيزديين شعور خاص بالانتماء إلى جبل أراكاتس أعلى قمة جبلية في جمهورية أرمينيا رغم أن أقدم ذكر للمستوطنات الأيزدية على منحدراته يعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، ومع ذلك فإن التقاليد المحلية الموروثة تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير.

وفي منتصف العشرينيات من القرن العشرين، أُخبرت الكاتبة الأرمينية ماريتا شاكنيان من قبل أيزدي من قبيلة حسنلي بأن أحد أجداده ويدعى

(١) تتناول أرسطوفا بالتحليل أصل ومحلات إقامة الأيزدية في أرمينيا السوفيتية.

مير چوبان آغا بك أتى في القرن الثامن عشر بقبيلة من ولاية وان العثمانية إلى جبل أراكاتس الذي كان حينذاك تحت السيطرة الفارسية، وبعد فترة انتقلوا إلى جيورجيا، لكنهم اضطهدوا على يد الملك هرقل الحادي عشر، الذي حكم من العام ١٧٦٢ إلى ١٧٩٨، وعادوا على أثر ذلك إلى جبل أراكاتس.

الأكثر صلابة وإبهاماً هي الشهادة الصامتة لنصف درزينة من تماثيل الصخور المطلية بالألوان للخيول ترتفع إلى أربعة أقدام وثلاثة إنجيات، لجامها وسراجها وركابها واضحة الخطوط والمعالم، وهذه التماثيل منصوبة في المقبرة القديمة خارج قرية هونداغساغ على السفح الشرقي لجبل أراكاتس.

يعتقد القرويون الأيزديون بأن أجدادهم نصبوا هذه التماثيل لحراسة ضرائح الأسياء السابقين للخيول، لوحظت لأول مرة من قبل مارييتا شاكنيان وصورت في العام ١٩٦٧ من قبل البعثة الإيطالية - الأرمنية (انظر الصورة ٣٤) ويعتقد الخبراء بأن عمر التماثيل يعود إلى ٣٠٠ سنة، ومن الجائز ان تكون مصنوعة من قبل مهرة أرمن.

المكتشفون الآخرون لاحظوا التشابه بينها وبين تماثيل الشيران والخراف في المقابر القديمة في جولفا أبعد باتجاه جنوب نهر آراس، وعند خوسروا على ساحل الجنوب الغربي لبحيرة أورمية.^(١)

ليس هناك ما يثبت ادعاء قرويي هونداغساغ بأن تماثيل الخيول هي من أصل أيزدي، لكن الأيزديين عاشوا بصورة عامة في هذه المنطقة منذ

(١) مارييتا شاكنيان: Progulki po Armeniyi ص ٢٥ و ٢٨-٣٠. أدريانو ألباكو -

نوفيلو Documenti di Armena: ج ٢، ص ١٤-١٥. ج. م. فيي Assyrie

chrtienne: ج ٢، ص ٧٢٨-٧٢٩.

منتصف القرن السادس عشر، وعندما فتح شاه فارس ملكية الأراضي حول خوي إلى قبيلة دونبلي، إلى الشمال مباشرة من بحيرة أورمية، تحولت أغلبية هذه القبيلة لاحقاً إلى الإسلام، وفي العام ١٩٠٥ تمكن رحالة روس من العثور على مستوطنة أيزدية واحدة فقط شمال غرب فارس - قرية جبارلو، فيها خمسة وعشرون بيتاً ككل^(١) ذكريات هذا الفرع الذي كان مزدهراً يوماً ما من الطائفة الأيزدية خلدت وتذكر إلى الآن في مراسيم لالش الدينية، حيث لا يزال يعلن البيعة لسنجاق تبريز الذي بقي عاطلاً عن العمل منذ فترة طويلة.

* * *

أظهرت إحصائيات العام ١٩٢٦ أن ١٤,٥٢٣ كوردياً أيزدياً يعيشون في الاتحاد السوفيتي منهم ١٢,٢٣٧ في أرمينيا، و ٢,٢٦٢ في جورجيا و ٢٤ في أماكن أخرى، وفي أرمينيا يعدون ٨٠ بالمثلثة من نفوس الأكراد، أما في جورجيا فيعدون ٢٢ بالمئة منهم^(٢). حافظ الأيزديون في أرمينيا على هيكلمهم القبلي وغط حياتهم الرعوية، ولكن مرسوم استملاك الأراضي الذي أعلن في العام ١٩٢٠ عزز صلاحيات موظفي الحكومة الذين شجعوا بدورهم الأيزديين على

(١) شرف الدين بدليسي: شرفنامه. باسيل نيكيتين: Les Afsars d urumieh، JA، العدد ٢١٤ (١٩٢٩) ص ١٠٩-١١٨. مينورسكي: مقال في MPIV العدد ١ (١٩٠٩) ص ٢٣-٢٤.

(٢) شيرين آكينار: المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ص ٢٠٨-٢١٥، يضم تحليلاً للإحصاء السوفيتي عن الكرد والأيزدية.

الاستقرار في القرى ومنحهم حقوقاً في تملك الأرض ضد إجحاف زعماء القبائل، وحرّم يوسف بك من موقعه كزعيم قبيلة وأحيل على التقاعد في ليننكان. (شخص يدعى شامير يوسفوفيتج تيموروف من ليننكان من الجائر أن يكون ابنه، انضم إلى الحزب الشيوعي في عام ١٩٢٤ وحصل على وظائف سياسية وعسكرية تستأهل التقدير والمكافأة).^(١)

وعبر كل هذه السنوات الصعبة أفلح الأيزديون في الإبقاء على ديانتهم حية وذلك من قبل سبعة قوالين كانوا قد أتوا إلى ما وراء القوقاز برفقة سنجاق موسكوفي في العام ١٩١٤، وعندما أقفلت الحرب الحدود العثمانية انتشروا بين الطوائف الأيزدية في مقاطعات تفليس، واريقان، وألكساندروبول، وباكو و باتوم، والتجأ رئيسهم القوال حسين ومعه السنجاق إلى قرية في منطقة ألكساندروبول.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعث القوالون عدداً من الرسائل والبرقيات إلى الأمير سعيد بك لكنهم لم يحصلوا على أي جواب فانتهوا إلى الاعتقاد بأنه باستثناء ما وراء القوقاز فإن الطائفة الأيزدية بكاملها قد أبيدت في الحرب.

وبعد أن أخذ الشيوعيون بزمام الحكم بدأ القوالون يدركون بأن السلطات السوفيتية كانت تمنع رسائلهم من الخروج من البلاد ووصولها مقصدها، ولم يفلحوا حتى العام ١٩٢٦ في إيصال صوتهم إلى باعدري، ليعينوا أنهم لا زالوا على قيد الحياة، وفي عام ١٩٢٧ توجه قوالان آخران لإعادة الباقيين واسترجاع السنجاق، لكنهما اختفيا دون أثر.

(١) شاميلوف: Kurdsy Pastuch ص ٩٢-١٠١.

وأخيراً وصلت باعدرى رسالة من القوال حسين مفادها أن خمسة من مجموعة عام ١٩١٤، واثنان من مجموعة عام ١٩٢٧ لا زالوا على قيد الحياة لكنهم غير قادرين على مغادرة الاتحاد السوفيتي، وناشدت ميان خاتون وابنها عون السلطات البريطانية، ولكن الوقت لم يكن مؤاتياً حيث أن بريطانيا كانت لتوها قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، ولكن الحكومة النرويجية التي كانت تقوم بإدارة المصالح البريطانية هناك في ذلك الوقت استطاعت الحصول على الإذن للقوالين بمغادرة البلاد برفقة سنجاق موسكوفي فسافروا عن طريق البحر إلى لندن، وأخيراً وصلوا العراق في عام ١٩٢٩ بعد غياب دام خمس عشرة سنة، ورحلة استغرقت ١١,٠٠٠ ميل.^(١)

* * *

تأسست المزرعة التعاونية الأيزدية الأولى في عام ١٩٢٨ على الضد من بقية أرمينيا والاتحاد السوفيتي ككل، كان التغيير بطيئاً، وكانت أكثر من ثلاثة أرباع الحقول الزراعية على جبل أراكاتس تفلح في العام ١٩٣٦ من قبل أفراد، وبحلول العام ١٩٤٠ كان كل الفلاحين في المنطقة أعضاء في المزارع التعاونية.^(٢)

(١) الدمولوجي، ص ٣١٠-٣١٤. أو. فلفسكي: مقال في Atiest العدد ٥١ (نيسان ١٩٣٠) ص ٩٩-١٠٠. آدموندز: حجة إلى لالش، ص ٥٤. لم يتمكن المؤلف من الحصول على معلومات الارشيفات الدبلوماسية البريطانية والنرويجية ذات العلاقة.

(٢) شاتوييف: Kurdy، ص ٦٩-١٠٤.

الاحصائيات السابقة تتعلق بالعدد الكلي للكرد في أرمينيا، حوالي العام ١٩٣٠ خسر الأيزديون موقعهم كمجموعة عرقية مميزة ومنذ تلك الفترة عوملوا كبقية الكرد وألغيت ضريبة العشر الدينية، وعانى الشيوخ والبيرة الكثير من الصعاب واختفت طبقة الفقراء حيث تم ضم تلك العوائل في طبقة الشيوخ (وبعد مغادرة القوالين إلى العراق انقطعت اتصالاتهم مع لالش).

حلم إسماعيل بفتح المدارس للأيزديين في ما وراء القوقاز تحقق بينما كان لا زال على قيد الحياة حينما حلت السلطات الشيوعية في ايريقان محل الكنيسة الأرمنية، ولتسهيل التعليمات غيرت الألقباء الكردية من العربية إلى الحروف اللاتينية وذلك في العام ١٩٢٨، ثم إلى الكليريكية في العام ١٩٤٥.

وفي جورجيا حيث كان الأيزديون يشكلون أقلية داخل أقلية تمكنوا من الحفاظ على مقامهم على هوامش طبقة البروليتاريا في تفليس، الإرسالية التبشيرية السويدية أغلقت أبوابها في العام ١٩٢١، الأمريكي الباحث في علم الإنسان هنري فيلد زار تفليس في أيلول عام ١٩٣٤ والتقى بعدد من الأيزديين برئاسة أحمد ميرازي في ناد كوردي محلي، وتمكن د. فيلد من اجراء أبحاثه على واحد وخمسين بواباً أيزدياً، يتذكر زعيمهم رؤية سنجاق موسكوفي وهو في طريقه إلى لالش في العام ١٩٢٨.^(١)

* * *

(١) هنري فيلد: "أيزدية العراق" ضمن كتاب فيلد و ج. ب. كلوب، ص ١٣. فيلد مساهمات في انثروبولوجيا القوقاز، ص ٨٦-٩٠.

احتلت ألمانيا الاتحاد السوفيتي في حزيران العام ١٩٤١، وبعد خمسة عشر شهراً وصل الجنود الألمان إلى قولغا عند ستالينغراد وأصبحوا في مدى خمسين ميلاً من حقول النفط في أقصى شمال القوقاز، وبعض المجموعات العرقية في ما وراء القوقاز انخدعت بوهم انهيار السوفيت واحتمال تدخل تركيا، لكن الأيزديين بقوا على ولائهم لحُمايتهم الأرمن.

وفي شتاء ١٩٤٢-١٩٤٣ أعاد الجيش الأحمر السيطرة على ستالينغراد، وانسحبت القوات الألمانية في القوقاز بالسرعة التي وصلت بها، وحينما انتقلت جبهة المعارك باتجاه الغرب بقيت ما وراء القوقاز موضعاً خلفياً في الصراع إلى أن تحققت هزيمة ألمانيا الحاسمة في العام ١٩٤٥. حقق اثنان من الأيزديين ما يميزهم خلال السنوات الخمس والعشرين الأولى من الحكم السوفيتي في ما وراء القوقاز أحدهم يمثل الجيل الذي مر بمرحلة الانتقال الصعبة من الحكم القيصري إلى النظام السوفيتي والآخر كان نتاج المجتمع الجديد.

ولد عرب شاملوف في العام ١٨٩٧ قرب قارس، التي كانت آنئذ تحت الحكم الروسي، وكصبي كان يقوم بمهام رعي قطعانه في شهور الصيف، وخلال الشتاء يذهب إلى المدرسة لتعلم اللغة التركية والأرمنية والروسية، وعند نشوب الحرب العالمية الأولى عمل كمترجم لدى الجيش الروسي وانضم إلى خلية شيوعية خارجة عن القانون، وفي العام ١٩١٧ أصبح ولسنوات الأيزدي الأوحده العضو في الحزب الشيوعي، وخلال السنوات القصيرة لاستقلال أرمينيا، خدم شاملوف الجيش الأحمر في شمال القوقاز حيث تعرف هناك على س. م. كيروف رفيق

لستالين أعتيل بلننغراد في العام ١٩٣٤، وفي العام ١٩٢٤ أناط به الشيوعيون الأرمن مهمة دمج الأيزديين في المجتمع السوفيتي.

نشرت مذكرات شاميلوف في العام ١٩٣١ واعيد نشرها في صيغة موسوعة في العام ١٩٦٠^(١) وتوفي في العام ١٩٧٨.

أيزدي آخر هو سامند علييفيج سيابندوف، ولد في العام ١٩٠٩ قرب قارس وترعرع في تفليس حيث كان والده يعمل بواباً، انتقلت العائلة إلى جبل أراكاتس في العام ١٩٢٦، وبعد الدراسة في ليننغراد أصبح الابن ممثلاً عن مقاطعته في برلمان ايريفان، وخلال الحرب العالمية الثانية خدم في الجيش الأحمر بصفة مفوض سياسي وميز نفسه في العمل في مناسبات عديدة، من الدفاع عن موسكو في العام ١٩٤١ وإلى المعارك التي نشبت على طول فرشس هاف في شرق بروسيا في ربيع عام ١٩٤٥، وعاد إلى الحياة المدنية بأرمينيا برتبة مقدم وحصل على لقب بطل الاتحاد السوفيتي.^(٢)

صديقه من قريته بقي أفو ماكاروفيتج كالوييف وعدد آخر من رجال الجيش الأحمر من منطقة جبل أراكاتس اشتركوا في العملية الأخيرة للاستيلاء على برلين، وكانوا الأيزديين الاوائل الذين شوهدوا في تلك المدينة منذ العام ١٨٣٥.^(٣)

* * *

(١) شاميلوف: Kurdsy ص IX-V و ٣-١٠١. توماس بوا: الكرد، المشرق، العدد ٥٣ (١٩٥٩) ص ١٣٧-١٣٨. ومقالة عن شاميلوف في Lafrigue et l'Asie العدد ٦٣ (١٩٦٣) ص ٥٠-٥٣.

(٢) شاتوييف: uchastiye ص ٣٨-٥٠. بوا، المشرق، العدد ٥٣ (١٩٥٩) ص ١٣٩. ذكر أن الكولونيل سيابندوف، كان لا يزال حياً في العام ١٩٩١.

(٣) شاتوييف: uchastiye ص ١٣٨-١٣٩.

وشهد النصف الثاني من القرن العشرين انحداراً بطيئاً نحو الهاوية، وسقوطاً مفاجئاً للامبراطورية السوفيتية، كان عهد نظام مستبد قاسٍ تحول إلى إدارة فاسدة لامبالية مكنت الأيزديين من التقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي أبعد بكثير من أحلام إسماعيل بك.

في أرمينيا الهيكل التقليدي القبائلي للمجتمع الأيزدي والذي لاحظته باحث روسي في علم الانسان حتى في وقت متأخر كالعام ١٩٥٨^(١) تحولاً تدريجياً إلى طائفة مندمجة وموحدة من الشيوخ والسيرة والمريدين، واستمرت السلطات في تصنيفهم ككورد حتى في احصاء كل الاتحاد الجاري في كانون الثاني العام ١٩٨٩، ولكن منذ ذلك الوقت غادر العديد من الكرد المسلمين أرمينيا نتيجة الخلاف مع آذربيجان، ومرة أخرى عاد الأيزديون يعرفون كمجموعة قومية.

يقدر الآن نفوس الأيزديين في أرمينيا بـ ٥٥,٠٠٠، وهو يضاهي مرتين عدد مجموع الكرد الكلي في الجمهورية الذي تم تعداده في العام ١٩٥٩^(٢) حوالي ٥,٠٠٠ منهم يعيشون في إيريقان، بينما يعيش البقية حول جبل أراكاتس وفي منطقة تالين غرب الجبل إضافة إلى ٣,٠٠٠ أيزدي يعيشون في جيورجيا، أغلبهم في تفليس.

في السنوات الأخيرة للحكم السوفيتي كان هناك تسامح تام تجاه ممارسة شعائر الدين في كل من أرمينيا وجيورجيا رغم القيود الرسمية على المطبوعات الدينية واستخدام المباني لأغراض دينية، الأيزديون

(١) س. أ. توكراف Etnogrniya narodov SSSR ص ٣٠٤.

(٢) أظهر الإحصاء السوفيتي في ١٢ كانون الثاني ١٩٨٩ وجود ٥٦١٢٧ كردي في جمهورية أرمينيا.

اعتمدوا على التقاليد الدينية المنقولة شفاهاً واستمروا في ممارسة شعائرهم الدينية في بيوتهم، وفي غياب الاتصال بلالش مثل الشيوخ الطبقات الثلاث (*) بينما حافظ الپيرة على وحدة العقيدة.

وفي العام ١٩٧٧ اخترق شعاع من الضوء آتٍ من الخارج ظلام العصر ولفترة وجيزة. . بايزيد بك ابن إسماعيل بك قام بزيارة إلى الطائفة الأيزدية في ما وراء القوقاز، ويُعرف القليل عن البواعث لدى السلطات السوفيتية للسماح بالزيارة، التي جاءت بعد سبعين سنة من جولة والده الزاخرة بالأحداث، وخمسين سنة بعد أن غادر آخر قوال الاتحاد السوفيتي، لكن لو كان إسماعيل بك على قيد الحياة، لأدرك بمتعة لا يضاهيها شيء بأن السلطات السوفيتية في إيريقان أجرت ترتيبات خاصة للمطران الأرمني فاسجين لاستقبال الأمير الأيزدي والترحيب به في كاتدرائية اجمادزين.^(١)

* * *

الفصل التالي من تاريخ الأيزديين في ما وراء القوقاز قد انفتح بالكاد، وارتقاء زمام الحكم السوفيتي في نهاية عام ١٩٨٠ مكنت الطائفة الأيزدية لاختيار وفد يمثلها لدى السلطة التشريعية الأرمنية، وفي أيام احتضار الاتحاد السوفيتي حقق الأيزديون الاعتراف بهم كأقلية قومية متميزة.

(*) راجع الفصل الثالث.

(١) الأمير معاوية بن إسماعيل اليزيدي (كول): حدثنا زرادشت. . ص ٢٩ و ٩٥ و ٩٧.

شيخ أيزدي أعلى يخدم بصفة مستشار خاص لدى الحكومة الأرمنية فيما يتعلق بشؤون الأيزديين، كما أنشأت الأكاديمية الأرمنية للعلوم قسماً أيزدياً منفصلاً بمعهدا للدراسات الشرقية.

شكل اتحاد قومي أيزدي لدعم وتشجيع رخاء وازدهار الطائفة والصداقة مع الشعب الأرمني. كان رئيس الاتحاد عزيزي عمار تمويان، وهو طويل القامة بليغ اللسان من قرية قرب إيريقان، ولد في العام ١٩٣٩ ومهنته معلم في مدرسة.

المؤتمر الثالث للاتحاد الذي انعقد في شهر تشرين الأول من العام ١٩٨٩ مستعيداً ذكريات الجهاز السابق الذي اجتمع في الأيام الأولى للحكم السوفيتي ولكن سرعان ما تم قمعه حضره ٦٠٠ مندوب.

ينشر الاتحاد (صوت الأيزديين) وهي جريدة تصدر مرة كل شهرين في اللغتين الكردية والأرمنية، كما يدعم ويساند الاتحاد برنامجاً أيزدياً وصورة مواظبة على راديو إيريقان، أغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد هم من الشيوخ، ثلاث أعضاء من تلك الطبقة: بروف درويش شمويان وزايل حسنيان اللذان توفيا في الأعوام ١٩٩٠ و ١٩٨٩ على التوالي، وشقيق الأخير حسن حسنيان الذي يعمل مستشاراً خاصاً لدى الحكومة الأرمنية في الشؤون الأيزدية، ساعدوا الاتحاد على القيام بتنظيم إحصاء عن عدد الأيزديين في أرمينيا، خطوة مهمة في اقناع السلطات في موسكو وإيريقان لمنحهم صفة قومية.

المؤتمر الرابع للاتحاد الأيزدي القومي من المقرر أن يعقد في إيريقان في نهاية العام ١٩٩٢ الذي سوف يضم وفوداً ومندوبين من الدول الأخرى، ومن الجائز أن يعبر الطريق لاعادة توحيد كل الطائفة الأيزدية لأول مرة منذ العام ١٩١٤.

الخاتمة

بالكاد مرت خمس وثلاثون سنة على وفاة ميان خاتون، لكن خلال تلك الفترة تغيرت حياة الطائفة الأيزدية في منحٍ عديدة. عددياً زاد نفوس الأيزديين من (١٠٠,٠٠٠) في منتصف الخمسينات من القرن الماضي إلى ما يقارب أكثر من (٢٠٠,٠٠٠) اليوم. عددهم في العراق يمكن أن يقدر بـ (١٢٠,٠٠٠)، والذي ينبغي أن يضاف إليه ما يقارب (٦٠,٠٠٠) في ما وراء القوقاز، و (٢٠,٠٠٠) في تركيا وألمانيا، و (١٠,٠٠٠) في سوريا. ونظراً لقلة المعلومات الرسمية والمهجرات الكبيرة داخل العراق، وبين تركيا وألمانيا في السنوات الأخيرة، فإن الأرقام السابقة يجب أن تعتبر مقارنة^(١) مجموع الـ ٤٠٠,٠٠٠ مريد وتابع والذين ادعى به الأمير تحسين بك في العام ١٩٨٩^(٢)، من الجائز أن يضم الأيزديين الذين يخفون انتمائهم الديني لأسباب مختلفة.

(١) هذه التقديرات تفوق قليلاً ما نشر في طبعة ١٩٨٧ من هذا الكتاب، ما يعكس تقادم الزمن وتوفر معلومات أحدث.

(٢) مقال جيرالدين بروكس عن الأيزدية في وول جورنال (٢ حزيران ١٩٩٢).

التعليم إلزامي لكنه غير ديني يوفر في كل دولة حيث يعيش الأيزديون، تفتحت أعين وآذان الجيل الجديد على حكمة البشرية المتراكمة، وأحياناً مصفاة لتعكس ثقافة وفلسفة المجموعات الغالبة، الخدمة العسكرية الآن حقيقة واقعة مقبولة.

بنمو العدد وارتفاع مستويات التعلم يواجه الأيزديون مشكلة الانسجام مع العالم الخارجي المضطرب، وبصورة أدق الشعور القومي الناهض لدى الشعب الكردي، ذو حكم ذاتي في المنطقة الآمنة للأمم المتحدة، تصل سلطاتها إلى لالش وباعدرى، لكنها لا تمتد إلى سهل شيخان أو جبل سنجار. شرق تركيا كان ومنذ سنوات عديدة في حالة اضطراب وقلق من قبل النشطاء الكرد.

بعض الأيزديين يعملون من أجل تقارب أكبر مع إخوانهم الكرد وآخرون أكثر حذراً، متذكّرين الاضطهاد الماضي من قبل كور محمد الرواندي، وبدرخان بك البوتاني والاثنان يعتبران أبطالاً لدى الشعب الكردي.

في أرمينيا تبحث الزعامة الأيزدية عن سبل لتعزيز موقعها القومي الذي تم الحصول عليه مؤخراً، وذلك بالابتعاد عن الكرد المسلمين والتأكيد على ارتباطاتهم بالأرمن المسيحيين.

التجارب المختلفة للأيزديين العراقيين وأمرائهم منذ وفاة ميان خاتون هي جزء من تاريخ العراق المعاصر، حقل يناسب المختصين في المستقبل. ومع ذلك يمكن ملاحظة أن كل الأحفاد الخمسة لميان خاتون: الأمير تحسين، وخير الله، وفاروق، وجلال، وميرزا، لا زالوا يعيشون في العراق، كتنها خوخي خاتون أرملة الأمير سعيد بك ووالدة تحسين بك

توفيت في شهر مايس من العام ١٩٩٢، وثلاثة من أولاد إسماعيل بك قد توفوا: عبد الكريم (الذي تزوج من إحدى بنات بسميرا التي جعلتها ميان خاتون يتيمة في العام ١٩١٣) توفي في العام ١٩٥٣، أخواه غير الأشقاء يزيد خان توفي في العام ١٩٨٢ وتوفي بايزيد في العام ١٩٨١. أولاد إسماعيل الباقيين على قيد الحياة منتشرون، كوكس بك، الذي سمي تيمناً باسم السير بيرسي كوكس يعيش في باعدري، ومعاوية بك وابنه أنور يعيشان في ألمانيا، حيث يترأسان مركزاً دينياً أيزدياً زرادشتياً^(*).

ونسأ التي تحفل حياتها بالأحداث تم ذكرها في الفصول السابقة وتعيش في القاهرة.^(١)

تحد كبير آخر يواجه الأيزديين ألا وهو استعادة الارتباطات مجدداً بين الزعامة السياسية والدينية في العراق وهؤلاء المشتتين في أرمينيا وألمانيا، ويمكن أن يكون من الصعب تحقيق ذلك في وقت تهدد فيه العدوات والخلافات العرقية استمرارية وجود هذه الطوائف.

وفي الوقت الذي أقوم فيه بالكتابة هناك الكثير من الغموض وعدم اليقين في أرمينيا المستقلة حديثاً، بعثت الطائفة الأيزدية إلى الحياة من جديد، لكن مصائر الجمهوريات السوفيتية السابقة في ما وراء القوقاز غير مضمونة، حتى في ألمانيا ملجأ وجنة العديد من الأيزديين القادمين من

(*) راجع الهامش السادس من الفصل الثالث.

(١) المؤلف مدين للأمير معاوية بن إسماعيل وأخته الأميرة ونسه الأموي للمعلومات الحديثة التي قدمها عن أفراد عائلة كول ومساهمتهما في إكمال شجرة النسب في نهاية الكتاب.

تركيا، هناك علائم لا تبشر بالخير فيما يتعلق بعدم التسامح، بدأت بالظهور.

تمكن الأيزديون من البقاء رغم كل الملاحقات والاضطهادات المتكررة، واليوم لا زالوا يواجهون التمييز في العديد من المناطق، بينما التعليم عرّضهم إلى الكثير من اخطار المجتمع العلماني المعاصر، بينما هم يلجئون قرناً جديداً في تاريخهم العريق بإمكانهم تذكروا أيام أسلافهم وكلمات القصيدة التأملية التي أملاها إسماعيل بك قبل خمسين سنة إلى أحد أحفاد بدرخان بك^(١) الذي كان قد قام باضطهاد الأيزديين :

« أوه ابن الانسان، أوه أيها البائس الفقير: إن هذا العالم دارٌ وهم
كالأحلام في الليل، أو كظل شجرة
في كل يوم تأوي صديقاً جديداً
أين سليمان الذي كان يحمل بيده زمام السيطرة والنفوذ ؟
أين بلقيس ملكة سبأ، التي كانت ذائعة الصيت ذات مرة ؟
لا تحزن، فإنهم تركوا هذا العالم
أين النبي سليمان ؟
أين بلقيس، التي كانت تومض شعاعاً من الذهب ؟

(١) نشر الأمير جلادت عالي بدرخان النص الكردي للقصيدة في مكتبة هاوار بدمشق عام ١٩٣٣. كما نشر أخوه الدكتور كامران عالي بدرخان الترجمة الفرنسية لها في هاوار، العدد ١٥ (٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣) ص ٩. وتم ترجمة فرنسية أخرى لتوماس بوا في Cahievs l Est العدد ٢، المجلد ١ (١٩٤٧) ص ٥٥-٥٦ وفي المشرق، العدد ٥٥ (١٩٦١) ص ٢٠٠ و ٢٣٥. وسجل الأمير جلادت القصيدة بالكردية في كانون الثاني ١٩٣٧ لكارل هادانك الذي نشرها مع ترجمة ألمانية. والترجمة الإنكليزية في هذا الكتاب اعتمدت الترجمات الفرنسية والألمانية المذكورة أعلاه. وتم ترجمة إنكليزية أخرى في كتاب سامي سعيد أحمد: " الأيزدية: حياتهم ومعتقداتهم " طبعة هنري فيلد، ص ٤٦٠-٤٦١.

لا تحزن، إنهم أيضاً يرقدون تحت التراب، تحت الاحجار
أين خدر ؟ أين الياس ؟
ابن الدرويش الذي كان يحمل بيده عقداً من الخرزة وعصا؟(*)
لا تحزن، فكلهم يرقدون تحت التراب
أوه ابن الانسان، الشرهون في هذا العالم
يجمعون لا الذهب ولا الغنى
لا يدوم العالم لأحد، ولا حتى لنبي الله
العالم أرض الدراويش، الذين يطوفون في الانحاء ليسوا إلا أناس عاديون
والذين يبالغون في الخيال والظن لا يفوزون
أين حزة ؟ أين علي ؟
أين القديسون وأين الأنبياء؟(**)
إنهم في ضرائحهم وقد تحولوا إلى رماد
القبر عميق ومظلم، يغص بالشعابين والنمل
أوه صاحب المقام الرفيع (الله)
تعالوا، أبناء قومي، تعالوا لنتحب ونأسى ونأسف
شفاه احبائنا الملونة لم تعد تحاكي
أنبكى ونذرف الدموع، لكن أسانا دون جدوى
لأن نهايتنا هي القبر والكفن
لا تنح أكثر، لا تندب أكثر، وأمسخ دموعك
ما يحدث هو من فعل الله، الذي لا يفعل الا الخير
إنه يبارك ما هو صالح ويعفو عن السيء
إنه يعافى مع الزمن وخزات القلب المتألم..

(*) راجع الفصل الثالث.

(**) كان حمزة عم محمد، والخليفة علي كان ابن عم النبي وصهره كذلك.

الملحق - ١ -

الكتب الأيزدية المقدسة وترنيمة الشيخ آدي

١ - كتاب الجلوا (كتاب الوحي).

٢ - مصحف رش (الكتاب الأسود).

الكتابان الرئيسيان المقدسان للأيزدية، الجلوا منسوب إلى الشيخ آدي بن مسافر، والكتاب الأسود إلى أحد أحفاد ابن أخيه وهو الشيخ حسن بن عادي، حيث تم ترجمتهما إلى اللغة الانكليزية من قبل البروفيسور إي. ك. براون من جامعة كمبريدج، وذلك في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

اعتمدت ترجمة براون على مخطوطة حصل عليها أوزوالد هـ. باري وهي موجودة حالياً في المكتبة الوطنية بباريس مصنفة تحت الرقم BN Syr. MS NO.324^(١) نص سابق للكتابين المقدسين (Leeds Syr. MS

(١) أوزوالد باري: ستة أشهر في دير سوري، ص ٣٧٤-٣٨٠.

7. NO) تم العثور عليه مؤخراً وترجم مع تحليل نقدي، من قبل البروفيسور (R. Y.Ebied) وكذلك البروفيسور ر. ي. عبيد.^(١) الترجمة التالية لكتابي الجلوا والمصحف الأسود يتبع ترجمة براون باستثناء بعض الفقرات، حيث اعتمدت على عبيد / يونك حيث تظهر الثغرات نستعيز عنها [...]، كل النصوص المتوفرة بها ثغرات وفجوات وأخطاء تم الحفاظ على تهجئة براون.

٣ - ترنيمه الشيخ آدي :

لأجل هذا النص - المعتد به ولفترة طويلة باعتباره الكتاب الأيزدي الأصلي الوحيد - اعتمدت على الترجمة المنشورة في كتاب لا يارد (نينوى وبابل)^(٢) (راجع الفصل الثامن للجدل المثار حول هوية مؤلف هذه الترجمة).

في العام ١٩٣٠ قام البروفيسور جوسيبوري فورلاني من جامعة فلورنس بنشر تحليل نقدي لهذه النصوص^(٣) يتوجب قراءة هذا بالتزامن مع تحليل عبيد / يونك المذكور سلفاً.

نصوص جديدة لكتابي الجلوا والمصحف الأسود وترنيمه الشيخ آدي اكتشفت من قبل الدكتور هنري فيلد في العام ١٩٣٤، الترجمة الإنكليزية لهذه النصوص من قبل الدكتور أنيس فريجة من جامعة بغداد، نشرت في العام ١٩٤٦.^(٤)

(١) ر. ي. عبيد و م. ج. ل. يونك: تاريخ وطقوس إيزيدية الموصل، Le Museon العدد ٨٥ (١٩٧٢) ص ٤٨١-٥٢٢.

(٢) أوستن لا يارد: اكتشافات في خرائب نينوى وبابل، ص ٨٩-٩٢.

(٣) كوسيبوري فورلاني: دين الأيزيدية.

(٤) أنيس فريجة: نصوص أيزيدية جديدة من بلد سنجار، JAOS العدد ٦٦ (١٩٤٦) ص ١٨-٤٣.

كتاب الجلوا

(كتاب الهالة المقدسة)

من كتاب (الجلوا)

وجد الملك طاووس قبل جميع المخلوقات . بعث خادمه إلى هذا العالم لينذر ويبعد شعبه المختار عن الخطأ، أولاً عن طريق المنقول شفاهاً، ثانياً عن طريق هذا الكتاب جلوا، الذي لا يسمح للغرباء بقراءته أو النظر إليه.

القسم الاول:

كنت ولازلت إلى الآن، وسوف أستمر في الوجود إلى الابد، أحكم كل المخلوقات وأصدر الأوامر في شؤون وأعمال هؤلاء الذين هم تحت تسلطي، أستجيب لكل من يضع ثقته فيّ ويدعوني عند الحاجة، ليس هناك أي مكان يخلو من وجودي، حيث لست حاضراً فيه.

اهتم بكل الاحداث التي يطلق عليها الغرباء اسم الشر لأنها لا تتفق ورغباتهم لكل عهد وصي، ويتم هذا بمشورتي، كل جيل يتغير مع عظيم هذا العالم، بحيث كل واحد من هؤلاء العظام بدوره وطوره يقوم

بمسؤولياته، أُمْنَح الغفران طبقاً لاستحقاقات العدل لتلك المزايا حيث الطبيعة تعطي كل صفة.

الذي يتحداني سوف يندم ويحزن، سوف لا تتدخل الآلهة الأخرى فيما يخصني وأعمالي وما أقرره يبقى، الكتابات التي هي في أيدي الغرباء، رغم أنها كتبت من قبل الانبياء والرسل، فإنهم أهملوها وتمردوا وقاموا بتحريفها، وكل كتاب (يخلط بين الآخر ويبطله. . الخطأ والصواب يتم بينهما باثباتها) عند ظهورها. سوف أوفي بوعدني إلى هؤلاء الذين وضعوا ثقتهم في ذاتي، وأنفذ ميثاقي وعهدي، أو أتصرف عكس ذلك، طبقاً لقرار هؤلاء الحكماء والأوصياء ذوي البصيرة، الذين منحتهم سلطتي لعهود مقررّة، أراقب كل الامور، أوجه وأعلم هؤلاء الذين يتبعون تعاليمي، الذين يجدون في توافقهم معي السعادة والبهجة أعظم من أي سعادة، حيث تبتهج الروح.

القسم الثاني:

انا أكافئ وأعاقب نسل آدم هذا بشتى الطرق المختلفة التي أنا عالم بها، في أيدي هذه أحمل السيطرة على الأرض وما هو فوقه وما تحته. لا أحتبس المساعدة عن الأعراق الأخرى ولا أمتنع عن تقديم الخير إليهم، فكيف أنكره على هؤلاء الذين هم قومي المختارون وخدمي المطاعون، أسلم سلطتي وسيطرتي إلى أيدي هؤلاء الذين أثق بهم، الذين هم طبقاً لمشيتي أصدقاء بطريقة ما إلى المؤمنين ويلتزمون بنصائحي، أخذ وأعطي، أجعلكم أغنياء وأجعلكم فقراء، أجعلكم سعداء وأجعلكم

تعساء، وفقاً للظروف والفصول، وليس هناك من يملك حق التدخل، أو سحب أي رجل من تحت سلطاني.
أجلب الألم والمرض على كل من يحاول إيقافني، الشخص الذي يحسب علي، لا يموت مثل الرجال الآخرين.
لا أسمح لأي إنسان بالبقاء في العالم التحقّي أكثر من المدة المقررة من قبلي، وإذا شئت أرسله عائداً إلى هذا العالم ثانية وثالثة أو أكثر، عن طريق تناسخ الأرواح، ويتم هذا وفق شريعة كونية.

القسم الثالث:

أهدي دون كتاب، وارشد إلى الطريق بوسائل غير مرئية أصدقائي وهؤلاء الذين يلتزمون بمفاهيمي وتعاليمي، التي هي غير مرهقة، وتنسجم مع العصر والظروف، وأعاقب هؤلاء الذين ينتهكون قوانيني في العوالم الأخرى.

ابناء آدم لا يعرفون الأمور التي هي مقررة، حيث غالباً ما يقعون في الخطأ.

بهائم الارض والسماء، وسمك البحر، كلها في يدي وتحت سلطاني، الكنوز والذخائر المدفونة في قلب الارض مكشوفة لي، وأجعلكم تراثونها واحداً بعد الآخر، وأجعل رموزي وعلامات التساؤل تظهر هؤلاء الذين يتقبلوها لبيحثوا عنها لي في ميعادها المحدد.

معاداة واعتراض الغرباء لي والذين يتبعوني لا يؤذي إلا أنفسهم، لأنهم لا يعرفون بأن القوة والغنى إنما هما بيدي، وأنا أمنحهما هؤلاء من نسل آدم الذين يستحقونهما نظام العوالم، ثورة العصور وتغيير

أوصيائها هي لي منذ الأبد، والإنسان الذي لا يمشي معتدلاً، فإنني سوف أعاقبه في الوقت الذي أحده أنا وأعيده إلى ما كان عليه.

القسم الرابع:

الفصول أربعة، والعناصر أربعة، هذه أقسمت على الاحتفاظ بها لتلبية احتياجات مخلوقاتي، كتب الغرباء مقبولة لدي طالما هي تتوافق مع تعاليمي ولا تعاكسها، لأن غالبيتها حُرِّفت. هناك ثلاثة يعارضونني وأسماء ثلاثة أكرهها، الذين يحفظون سري فإن وعودي لهم سوف تتحقق. كل الذين عانوا في سبيلي سوف أعوضهم دون خذلان في إحدى العوالم، أرغب في أن يتوحد كل توابعي في قطيع هؤلاء على أساس النصائح والوصايا، ورفض الأقوال والتعاليم غير الصادرة مني، لا تذكر اسمي أو صفاتي كما يفعل الغرباء وإلا ترتكبون الذنب لأنكم غير عالمين.

القسم الخامس:

عاملوا رموزي وإيقوناتني باحترام وإجلال، لأنها ستذكركم بما أهملتموه من قوانيني وتعاليمي، وكونوا مطيعين لخدمتي واستمعوا لما يحاولون إيصاله لكم من معرفة ما لا يمكن رؤيته والتي يستلموها مني.

كتاب الاسود

(مصحف رَشْ)

في البداية خلق الله من جوهره الكريم لؤلؤة بيضاء، وخلق الله طائراً يدعى أنفار ووضع اللؤلؤة على ظهر الطائر، وبقيت هناك أربعين ألف سنة.

في اليوم الأول: الأحد، خلق ملاك يدعى عزازيل الذي هو طاووس مَلَكُ (ملاك الطاووس) رئيس كل الملائكة. في يوم الاثنين خلق الله دردائيل الذي هو شيخ حسن. في الثلاثاء خلق الله اسرافيل الذي هو شيخ شمس. في الاربعاء خلق الله جبرائيل الذي هو شيخ أبو بكر. في الخميس خلق الله عزرائيل الذي هو سجادين في الجمعة خلق الله الملاك شمنائيل الذي هو نصر الدين. في السبت خلق الله الملاك نورائيل الذي هو... جعل الله الملاك طاووس رئيساً عليهم جميعاً، بعد ذلك خلق الله هيئة السموات السبعة، والأرض والشمس والقمر [...] خلق الله الإنسان، والحيوانات والطيور والبهائم ووضعهم في ثني كسائه فنهضوا من اللؤلؤة بصحبة الملائكة، فأطلق صرخة مدوية على اللؤلؤة، عندها سقطت فتبعثرت متشتة إلى أربع قطع وتدفقت المياه من داخلها فأصبحت البحر، كان العالم مستديراً دون صدع، عندها خلق الله جبرائيل في صورة طائر، وأودع في يديه مصير الزوايا الأربع، وبعدها

خلق الله مركباً وأقام على متنها ثلاثين ألف عام، وبعد ذلك جاء إلى لالش وسكن فيها، أطلق صرخة في العالم فتخثر البحر وتحول العالم إلى بر واستمرت العوالم الأخرى في الاهتزاز.

وأمر جبرائيل بأخذ قطعتين من اللؤلؤة البيضاء، وضع الله إحداها تحت الأرض، بينما استراحت الأخرى على باب الجنة، بعدها وضع الله فيها الشمس والقمر، وخلق النجوم من بقاياها، وعلقها في السماء تزييناً. كما خلق الله الأشجار المثمرة والنباتات في الأرض وكذلك الجبال لزخرفة الأرض، خلق الله العرش على السجاد عندها قال الله الجبار: أيتها الملائكة سوف أخلق آدم وحواء، وأجعلهم بشراً ومنهما سوف ينهض من خاصرة آدم، شهراً ابن جبر، ومنه سوف ينهض الناس فرادى على الأرض، قوم عزازيل، لأدراك طاووس ملك، الذي هو الشعب الأيزدي، بعدها سوف أرسل شيخ آدي بن مسافر من أرض سوريا، وسوف يأتي ويسكن في لالش).

عندها نزل الله إلى الأرض المقدسة وأمر جبرائيل لجمع التراب من الزوايا الأربع للعالم: التراب، الهواء، النار، والماء، وجعل منها رجلاً ونفخ فيه روحاً بسلطانه، أمر جبرائيل بوضع آدم في الفردوس، حيث يجوز له تناول الفواكه من كل شجرة خضراء باستثناء القمح حيث يحرم عليه أكله، وبعد مائة سنة قال طاووس ملك مخاطباً الله: كيف يتكاثر آدم ويزداد عدداً، أين هو نسله؟ فقال له الله: في يدك وضعت القوة والسلطة والإدارة. عندها جاء إلى آدم وقال له: ألم تأكل من القمح؟ فأجاب آدم: لا، لأن الله حرم علي ذلك حيث قال: يحرم عليك أكله. فقال له ملك طاووس: إذا أكلته فكل أمورك سوف تتحسن. ولكن بعد

أن أكله انتفخ بطنه، فأخرجه ملك طاووس من الجنة وتركه، وصعد إلى الجنة ثانية.

بعد ذلك انتفخ بطنه لانعدام وجود مخرج، لكن الله أرسل طائراً، فأتى وساعده، وعمل له مخرجاً فجاءه الفرج، وواصل جبرائيل غيابه عنه لمائة سنة فحزن وبكى، فأمر الله جبرائيل، وجاء فخلق حواء من تحت إبط آدم اليسر، عندها نزل الملك طاووس إلى الأرض لأجل قومنا - أقصد الأيزديين الذين عانوا الكثير - ورفع لنا الملوك إلى جانب ملوك الآشوريين القدماء: نسروك الذي هو ناصر الدين، وكاموش الذي هو الملك فخر الدين، وآرتيموس الذي هو الملك شمس الدين. بعد هذا كان لدينا ملكان: شابور الأول والثاني اللذان استغرق عهدهما مائة وخمسين عاماً، ومن ذريتهما جاء أمراؤنا وإلى اليوم الحاضر وقسمنا إلى أربعة أفخاذ وبطون.

يحرم علينا أكل الخس لأن اسمها مشابه لأسم نبيتنا خسا، وحبوب الفاصوليا، وكذلك استخدام الصبغ البني الغامق، ولا نأكل السمك، احتراماً للنبي جوناك، ولا الغزلان، لأنها قطع أحد أنبيائنا. بالإضافة إلى هذا فإن الشيخ وحواريه لا يأكلون لحم الديك، احتراماً وتقديراً للطاووس، لأنه أحد الآلهة السبعة الذين تم ذكرهم وصورته في شكل الديك.

كما يمتنع الشيخ وحواريوه عن أكل اليقطين، وكذلك يحرم على الشيخ وحوارييه من استخدام المياه الراكدة أو ارتداء الملابس قعوداً أو تنظيف أنفسنا في المواضع الخصوصية كما يفعل المحمديون، أو القيام بأداء الوضوء في حماماتهم، وكذلك لا يسمح لنا نطق أسم الشيطان لأنه

اسم إلهنا، ولا أي اسم يشبهه، مثل كتان، شر، شط، ولا أي لفظ يشبه الملعون،... نعل، أو ما شابه.

قبل [...] كانت ديانتنا تدعى بالوثنية: واليهود، المسيحيون، المسلمون، والفرس ابتعدوا عن ديننا. كان الملك أهاب وثارمان منا، وهكذا كانوا يدعون إله أهاب بيلزبوب الذين يدعونه اليوم بيننا بير بوب. كان لدينا ملك في بابل الذي كان اسمه بوختي نوسور وثاهاسوروس في بلاد فارس، وفي القسطنطينية ثاكريكالوس.

قبل وجود الأرض والسماء كان الله على المياه في مركبة في وسط المياه، عندها غضب من اللؤلؤة التي خلقها فرماها بعيداً، ومن أثر اصطدامها نتجت من اللؤلؤة الجبال ومن رنينها وجدت التلال الرملية، ومن دخانها خلقت السموات. وبعد ذلك صعد الله إلى الجنة، وقام بتكثيف السماء وأسندها بدون دعائم وانطوى على الأرض. بعدها أخذ القلم بيديه وبدأ يكتب أسماء معشر مخلوقاته كلها. من جوهره والضوء خلق الله ستة آلهة الذين كانت عملية خلقهم مثل استخدام قنديل لإشعال قنديل آخر، عندها قال الإله الأول للإله الثاني: خلقت الجنة فاصعد إليها، واخلق شيئاً آخر. وعندما ارتفع وُجدت الشمس، فقال للتالي: انهض، فجاء القمر إلى الوجود. ووضع الثالث السموات في حركة، وخلق الرابع النجوم، والخامس خلق نجمة الصباح، وهكذا.

ترنيمۃ الشيخ آدي

ليسود السلام عليكم
قدرتي على الفهم تحيط بحقيقة الأشياء ،
وحقيقي أنا تختلط بي.
وحقيقة نسبي واضحة من نفسها
وعندما عرفت كانت كلها في.
جميع الذين في الكون هم تحت سلطاني ،
وكل الأماكن المسكونة والصحارى
وكل شئ خُلِقَ هو تحت سطوتي.
وأنا القوة التي تحكم سابقة لكل وجود
وأنا هو الذي تكلمت الحقيقة.
وأنا الحاكم العادل، وسلطان الارض
وأنا هو الذي يعبدہ الرجال في مجدي ،
يأتون الي ويقبلون أقدامي.
وأنا هو الذي منحت السموات غلوها.
وأنا الذي أطلقت الصرخة في البدء.
وأنا الشيخ الوحيد الأوحد.
وأنا هو الذي يكشف عن نفسي كل شيء.

وأنا هو الذي أتاه كتاب الأنبياء السعيدة
من إلهي الذي يحرق الجبال
وأنا هو الذي يقصده كل الرجال المخلوقين
في طاعة وخشوع لتقبيل أقدامي.
أجلب الثمار من أول عصير الشباب المبكر
إلى حضوري وأحول نحوي حواربي
وأمام ضيائه يتلاشى ظلام الصباح ويتبدد.
أرشد من يسأل التوجيه
وأنا هو الذي تسبب في عيش آدم بالجنة
ونمرود ليعيش في نار محرقة متأججة.
وأنا هو الذي أرشد أحمد نحو العدل
وقدته نحو ممري وطريقي.
وأنا هو الذي يقصده كل المخلوقات
وذلك لاغراض النيلة ومواهيبي.
وأنا هو الذي زار كل الأعالي ،
والخير والاصلاح تنبثق من رحمتي.
وأنا هو الذي جعل كل القلوب تخشى
مقصدي، هم يسبحون بحمد قوتي وسلطاني المروع.
أنا هو الذي قصده الاسد الكاسر ،
غاضباً، فصرخت فيه وتحول إلى حجر.
أنا هو الذي قصده الأفعى، ويارادتي حولته إلى ثرى.
وأنا هو الذي ضربت الصخرة وجعلتها ترتعش ،

وجعلت تتدفق من جانبها أحلى المياه.
وأنا هو الذي أرسل إلى الارض حقيقة معينة.
من لدني هو الكتاب الذي يجلب الراحة للضعفاء.
وأنا هو الذي حكم بالعدل، وعندما حكمت كان ذلك حقي.
وأنا هو الذي جعل الينابيع تمنح المياه ،
أكثر حلاوة ولطافة من كل المياه.
وأنا هو الذي سبب لها أن تطهر في رحمتي ،
وبسلطاني سميتها الطاهرة.
وأنا هو الذي خاطبه رب السماء قائلاً ،
أنت حاكم عادل وسلطان الارض.
وأنا هو الذي كشفت عن بعض أعاجيبي ،
وبعض فضائلي ظاهرة في تلك الموجودة
وأنا هو الذي جعل الجبال تنحني، لتتحرك تحتي وبمشيئتي.
وأنا هو الذي أمام سلطانه المروع تصرخ البهائم البرية ،
فتحولوا الي خاشعين عابدين، يقبلون أقدامي.
وأنا آدي الشامي [الدمشقي] ابن مسافر.
يقيناً إن الرحمن منحني ألقاباً ،
العرش السماوي، والمقعد، والسموات السبع والأرض.
في سر معرفتي لا اله الا أنا. هذه الاشياء خاضعة لسلطاني.
وبأية حالة تنكرون هدايتي.
أوه أيها الرجال ! لا تنكروني بل أخضعوا لمشيئتي ،
الذي يموت في حبي سوف ألقيه في وسط اللجنة بمشيئتي ورغبتني،

ولكن الذي يموت متكرراً لي، سوف يلقي في العذاب والبؤس والتعاسة ،
أنا أقول أنا الأوحـد وأنا الأعلى، أخلق وأغني من أشاء.
الثناء لي، وكل الأشياء التي شئتـها.
والكون مضاء ببعض مواهبـي وقدراتي.
أنا الملك الذي يسبح نفسه، وكل ثراء الخلق تحت سلطاني.
لقد جعلتكم تعرفون أيها الناس بعض طرائقي،
الذي يعمل بمشيئتي عليه نسيان العالم.
والحديقة في العُلا لأولئك الذين يبهجونـي.
بحثت عن الحقيقة، وأصبحت الحقيقة الصادقة ،
وبمثل هذه الحقيقة سوف يملكون المكان الأعلى مثلي.

الملحق - ٢ -

نصوص رسائل أيزدية إلى الباب العالي والسير ستراتفورد كنگ

نصوص رسائل أيزدية إلى الباب العالي والسير ستراتفورد كنگ في برقيته المرقمة ٢٣ في ٢٩ تشرين الأول العام ١٨٤٩ إلى السفير البريطاني باستنبول، كتب كريستيان رسام نائب القنصل في الموصل ما يلي :

لي الشرف لأن أقدم إلى سعادتك رسالة من الطائفة الأيزدية، التي سلمها إليّ كل من حسين بك والشيخ ناصر والزعماء الآخرون يوم أمس لإرسالها إلى سعادتك، ليعبروا مرة أخرى عن شكرهم وامتنانهم العميق للعطف الكبير الذي أظهرتموه تجاه قومهم، وخاصةً تجاه القوال يوسف والوفد الذي توجه إلى القسطنطينية، كما كتبوا أيضاً رسالة إلى رشيد باشا [الباب العالي] يشكرون سموه للتأكيدات التي قطعها للقوال يوسف، وعبروا عن استعداداتهم لمدة أربعة أو خمسة سنوات من النظام (الخدمة العسكرية الإلزامية - المترجم) وأن يقدم لهم بعد ذلك بعض الضمانات بشأن ديانتهم، كانت نصيحتي لهم بأن يقدموا رسالتهم

عبر الباشا، وأنهم التمسوا من سيادته أن يرفعها. آمل من سيادته أن يقوم برفع رسالة الأيزديين، وإن الباب العالي دون شك سيسره ما ورد فيها من تفانيهم في خدمة السلطات ووزيره.

والرسالة الموجهة إلى السفير البريطاني السير ستراثفورد كينغ تُقرأ كما يلي :

((مثال الزعماء العظام، فخر النبلاء ذوي الصيت، السفير الرفيع المقام البك، أطال الله عمره آمين. نكتب إلى سعادتكم أنه قبل أيام قليلة عاد القوال يوسف إلى منطقتنا وسرد علينا كل ما لاحظته في الاستقبال المضياف الذي أقامه سعادتكم له، والدعم والتشجيع والنصائح المخلصة بشأن رفاهيتنا نحن الطائفة الأيزدية، جميعنا نقدم شكرنا لسعادتكم، إنه من عطف سعادتكم الذي لا حدود له أن تقدموا يد المساعدة إلينا والتي لم نكن نحلم بنيلها، وتأكدنا من اخلاصكم تجاهنا عند تسلمنا للمراسيم الملكية التي فيها أمرت الدولة العلية بموجبها أن لا يتعرض أحد لأبنائنا وبناتنا، والتحریم المطلق على بيعنا كعبيد، وإن الدولة العلية مصممة على حماية أرواحنا وممتلكاتنا، مَنْ يكون من الدناءة والوضاعة أو عاقاً بحيث لا يقدر لطفكم الفائق ؟ لا، لقد أصبح كرمكم محفوراً في أفئدتنا، فيما يتعلق بما نَقَله إلينا القوال يوسف عن أن الدولة العلية قد عقدت العزم على رفض التجنيد العسكري الالزامي على طائفتنا، جوابنا أن مرسوم سيدنا السلطان مطاع ولا أحد سوف يخرج عن طاعة هذا المرسوم الهام، ولكن نأمل في أن الدولة العلية سوف تستثينا لمدة خمس سنوات إلى أن تتحسن أحوالنا وطائفتنا - التي كانت تضطهد من قبل الوزراء السابقين - أن تنمو وتزدهر بعد ذلك متى ما طلبت الدولة

العلية منا أداء الخدمة الالزامية، فسيكون شبابنا على استعداد تام في خدمة الامبراطورية. فقط نأمل أنه عند فرض التجنيد علينا بأنكم سوف لا تخلطون أبناءنا بالجنود المسلمين، ولكن يتم فصلهم في وحدات خاصة مع الجنود المسيحيين وأن السلطات سوف لن تهدد عقيدتهم. ليس لدينا ما نرد به أفضال سعادتكم، لكننا ندعو الله دائماً بأن يحميكم ويطيل من أمدكم، لشهركم في دعم البؤساء والفقراء التعساء)).

الرسالة مؤرخة في ١٤ ذي القعدة ١٢٦٥ هـ (١ تشرين الأول ١٨٤٩) وموقعة من قبل الشخصيات التالية، من اليمين إلى اليسار: [الصف الاعلى] حسين خرتو شيخ خالد شيخ لاشكي، مراد قاسم، الياس وايا، تمو كالو، شيخ باريان شيخ عبدال، شيخ دالو شيخ كوجك، شيخ ميرزا شيخ إسماعيل، عبدي أمير الدانادية، حسين أمير الشيخان الأيزدية، والشيخ ناصر شيخ الأيزدية [الأخيران وقعا بالأختام].

[الصف الاوسط] قوال يوسف قوال خدر، قوال ئادو قوال خدر، قوال خليل قوال حميد، قوال علي قوال سليمان، قوال إسماعيل قوال جيم، قوال محمد قوال خدر، قوال مراد قوال يوسف، قوال پير سينو پير حسني پير ئابو، و سالدو شالو.

[الصف الادنى] إبراهيم هوشابا، رشتا جبل لايلون، درويش باتي، مراد بازو، شيخ سليمان إسماعيل، وخدر محمد.

نسخة من رسالة الأيزديين إلى الباب الاعظم تحمل نفس التاريخ الموجود على الرسالة الموجهة إلى السفير، لكن دون أية تواريخ وتقرأ كما يلي :

((نموذج النبلاء رفيعو المستوى، فخر البابات العلية من الشامة الرائعة والأصل النبيل، سموكم الباب الاعظم، حفظكم الله دوماً ورعاكم بفضل أنبيائه ورسله آمين.

يقدم هذا الالتماس إلى سموكم الرؤوف: نحن الطائفة الأيزدية خدمكم، بعثنا إليكم خادكمم الشيخ يوسف لإيضاح همومنا على عتبة شفقتكم وعطفكم. وسرنا كثيراً عندما سمعنا بأن سيادتكم يتعاطف مع وضعنا وبأنكم تدخلتم نيابة عنا لدى مولانا وسيدنا السلطان عبد المجيد - نصره الله - لتمدوا حمايتكم على عقيدتنا، وطائفتنا ورفاهنا كما هو الحال مع بقية رعاياكم الآخرين، المسيحيين واليهود. كان موضع بهجتنا (أعلمنا الشيخ يوسف بأن مولانا السلطان شعر بالعطف تجاهنا) وأصدر أمراً بتحريم بيعنا واستعباد أطفالنا، وأن لا يسمح لأحد بالتدخل في أمور ديننا. نحن الطائفة الأيزدية قاطبة نقدم امتناننا مثلنا كمثّل بقية رعاياكم، نحن المعدومون والفلاحون البسطاء ندعو الله دوماً أن يشمل مولانا السلطان عبد المجيد بتفضيله وأن يطيل في عمره ويمنحه النصر على كل أعدائه وأن يقوي الدولة العلية. نحن نتوسل إلى رؤفتكم بأن تنظروا إلينا بعين العطف والشفقة، لأن الحماية التي أضفتموها علينا وعلى عقيدتنا لم نلها من قبل أبداً من أي وزير سابق. بالإضافة إلى أن الشيخ يوسف قد أطلعنا على أنه في نية الدولة العلية أن تفرض علينا نظام التجنيد الإلزامي، نحن عبيدكم، وهذه فكرة لا نرجل منها، عالمين بأنه في الماضي وخاصة في عهد السلطان مراد - أنار الله ضريحه - نحن قدمنا الخدمات العسكرية إلى سمو مقامه عندما طلب منا الجنود، وكنا دوماً على استعداد في خدمة مولانا السلطان، لكننا نلتمس من تقديركم الواسع

الحكمة بأن يتم استثناءنا من الخدمة الالزامية لمدة خمس سنوات، إلى أن تتحسن أحوالنا وتنمو وتزدهر طائفتنا التي اضطهدت من قبل الوزراء السابقين. بعد ذلك متى ما طلبت سيادتكم منا أداء الخدمة العسكرية فإن شبابنا سيكونون على استعداد أتم في خدمة الدولة الامبراطورية. نحن فقط نستعطف الفهم والتقدير الرؤوف للدولة العلية بأنه عندما تجندون من صفوفنا فسوف لن تخلطوا أبناءنا مع الجنود المسلمين، ولكن تفصلونهم في وحدات خاصة بهم أو بالاندماج مع الجنود المسيحيين، وبأن لا أحد سيهدد عقيدتهم. إننا من رعاياكم ومنذ أمد طويل، عندما كنا نتعرض للملاحقة والاضطهاد افترضنا بأننا نُعتبر قطعاً مهماً دون مالك، لكننا على ثقة تامة أننا رعايا مخلصون لفخامة مولانا السلطان وعلى يقين بأن أي غبن يلحق بنا فإن لنا دولة ستعمل على إزالة ذلك الظلم والاجحاف بحقنا. وكذلك كنا شبيهاً بالغنم المفقود والضائع لكننا الآن لدينا من يحمينا ودولة نفخر بها. سوف لن ننسى الأعمال الصالحة التي قام بها سيدنا الذي نكن له كل الاعجاب والتقدير سعادة كامل باشا (والي الموصل) الذي في يوم وصوله إلى منطقتنا أظهر عطفاً عظيماً بحالتنا وحقق العدل بين صفوفنا، عطفه تجاهنا كان عظيماً، ونحن ندعو الله الجبار أن يحمي لنا سعادة مولانا عبد المجيد خان ويحميه وينصره على أعدائه ويديم إلى الابد الدولة العلية ويقويها)).

الملحق - ٣ -

مقابلة مع زعماء الدين الأيزديين

أجريت هذه المقابلة باللغة الكردية في معبد شيخ آدي بلالش، شمال العراق، وذلك في ٦ مايس من العام ١٩٩٠ وسجلت على شريط فيديو من قبل ديني فيلم متوقفاً اطلاق نسخة رسمية، أذن للمؤلف بنشر هذه الترجمة الانكليزية باعتبارها بدائية وغير رسمية، شارك السادة التالية أسماؤهم في المقابلة: (شيخ الياس بابا شيخ، قوال سليمان زعيم القوالين، بير كمال بابا جاويش، فقير حاجي زعيم الفقيران، فقير حسين ممثلاً عن والده فقير حسن المضيف لدى مطبخ الشيخ آدي، شيخ درويش شيخ الأمراء).

ولم يتم تحديد هوية القائم بإجراء المقابلة في شريط الفيديو، لكنه كان خلف خدر، مريد ويقوم بمهام التعليم في مدرسة باعدري، قرب لالش. الزعماء الدينيون يقدمون ويعرفون بأنفسهم، الشخص الأول الذي بادر إلى الكلام هو الشيخ إلياس بابا شيخ :

- أنا الأكثر سناً في هذا المكان، عزازيل هو روح عقيدتنا، أجهل لقب بابا شيخ.

- أنا القوال سليمان بن القوال شلو، وأنا زعيم القوالين (بابا قوال) القوالون يستشيرونني في كل الأمور.

- أنا بابا جاويش، خادم الشيخ آدي. خادم مالك البيت (المعبد) خادم الناس، أخدم الشيخ آدي. لقد مضى على وجودي في هذا الموقع ٤٣ عاماً.

- أنا الفقير حاجي بن الفقير شامو، وأنا فقير الشيخ آدي، بالحكمة التي حصلت عليها في صفوف رجال العلم والمعمرين أخدم الشيخ آدي كما فعله أجدادي، نحن أئمة الناس، نحن نخدم الناس بحكمة الله.

- أنا حسين بن الفقير حسن، أنا ابن مضيف مطبخ الشيخ آدي.

- أنا الشيخ درويش شيخ الأمراء، أودي واجبي الديني كراع (مُجَبَّور) لمعابد عشيرة الشيخ حسن.

الاسئلة والاجوبة

س: بابا قوال (*) كيف نعبد الله القوي الجبار ؟

ج: الله هو الخالق، ليس المخلوق. خلق الله الأرض والسماء والكون. خلق المخلوقات. عبادة الله واجب على كل مخلوقاته. نحن نتبع الله بنفس النحو الذي تتبع فيه الأديان الأخرى الله. خلق الله كل الملائكة، البشر، الطيور، وكل أنواع المخلوقات، نحن وكل المخلوقات ملك له.

س: كم مرة يؤدي الأيزدي فيها الصلاة وما هي الوجهة التي يتبعها في كل مرة ؟

ج: واجب علينا أداء الصلاة ثلاث مرات في اليوم ونحن نواجه الشمس. نواجه الشرق في الصباح والغرب في المساء. وفي الليل نواجه الشرق.

س: كم عدد الملائكة الذين خلقهم الله القهار ؟

ج: بصورة رسمية هناك سبعة ملائكة. مَلَكُ طاووس بالطبع هو زعيمهم.

س: ما هو موقع المَلَكُ طاووس بالنسبة للملائكة وتجاه الله ؟

(*) كل الأسئلة موجهة إلى بابا قوال الذي يجب بدوره عليها.

ج: الملك طاووس هو بالطبع زعيم الملائكة، بعد الله يأتي الملك طاووس، لكن الله هو الخالق بينما الملك طاووس مخلوق.

س: وفقاً لعقيدتنا فإن الله خلق الأرض والسماء، هذا العالم، هذه الأرض والسماء، كيف خلق الله كلها ؟

ج: وفقاً لديانتنا فإن الله خلق اللؤلؤة، ووقف الله على الشمس، ودعا الشمس لتتحرق اللؤلؤة فتدفقت المياه وأصبحت بحراً. عندها ألقى الله بقطعة من اللؤلؤة في البحر حيث تصاعد الدخان من البحر وتحول إلى السماء. كل هذا طبقاً للديانة الأيزدية، وخلق الله الملائكة، خلق آدم وصنع العالم.

س: خلق الله جهنم والجنة، فلماذا ؟

ج: عندما خلق الله الإنسان، أدرك أن الإنسان سوف يقتترف الذنب. لو لم يكن هناك في يوم الآخرة مكاناً جيداً وآخر يشبه السجن - لا جنة ولا نار - فكيف يخشى الناس الله ؟ دونهما فإن الإنسان لا يخاف الله، لذا خلق الله الجنة للصالحين والنار للطالحين.

س: حسب أديان عديدة الإنسان هو سليل آدم وحواء. هل نحن الأيزديون من سليلي آدم وحواء، أو من سلالة أخرى ؟ لو كنا من سلالة أخرى، فما هي ؟

ج: العقائد الفردية لديها معتقدات فردية. نحن لا نعتقد بآدم، لأننا لم ننحدر من آدم.

س: بالإشارة إلى مكة، هل تتمتع بأية أهمية لدينا، في الماضي أو الحاضر ؟
ج: فيما يتعلق بديانة المسلمين، لكن ليس لها أية أهمية بالنسبة إلينا، لا علاقة لنا بها، لكن نكن بعض الاحترام لها وذلك يعود إلى إبراهيم (الخليل) لأنها بيت إبراهيم.

س: إذا كان إبراهيم مرتبطاً إلى حد ما بمكة، فما هو ارتباطنا بإبراهيم ؟
ج: قدم إبراهيم قرباناً لله، كان أول من عرف الله. إبراهيم سابق على كل الديانات، اليهود، المسيحيون والمسلمون جاءوا من بعده، وبالطبع جاء الشيخ آدي من بعده. لذا تكن كل الأديان الاحترام لإبراهيم، لأنه كان على استعداد للتضحية بابنه قرباناً لله، ونحن أيضاً نكن له الاحترام بسبب ذلك.

س: نحن نصوم لثلاثة أيام في الصيام الرسمي. لِمَنْ نحن نصوم ؟
ج: حالياً نحن نصوم باعتبارنا أيزديين، صيامنا أقدم من الديانة الأيزدية. الصيام بالطبع هو لله. العبادة والصيام لله. نحن نصوم فردياً وكأيزديين، لكن الصيام لله، صام الشيخ آدي، كما نصوم نحن لأجل الله.

س: مَنْ هو الشيخ آدي وماذا فعل لأجل هذا القوم ؟
ج: دعني أوضح بشأن الشيخ آدي، عندما يكون هناك حاكم جديد أو يستبدل وال، يتغير عدد من القوانين، ولكن بالطبع ليس كلها. وجدنا قبل الشيخ آدي، كنا موجودين في هذه الجبال، جاء الشيخ آدي من سوريا، وعثر على هذا المكان و تتبع ديننا، تمكن من أن ينال قبول أهل هكاري. والله - بالطبع - منحه الفضيلة ومعرفة إنجاز المعجزات، قبل هذا الدين واعترفنا به زعيماً لنا.

س: يوم الحج الإسلامي (*) يصادف يوم الحج لدينا، لماذا ؟
ج: كان ينبغي ان لا يكون كذلك، يوم حجنا لا علاقة له بيوم حج المسلمين، يوم الحج لدينا هو تكريم للملكوت شيخ حسن، قبل شعبنا

(*) ويعرف أيضاً بـ (عيد الاضحى) والذي يحتفل به من قبل الحجاج المسلمين خارج مكة وفي كل البلدان الاسلامية، ويصادف تقديم إبراهيم الخليل لأبنه اسحاق قرباناً.

هذا لأن يوم الحج لدى المسلمين هو لتكريم إبراهيم، وليس للمسلمين أو محمد، يوم الحج هو لأجل إسماعيل وإبراهيم.

س: في عقيدتنا غالباً ما تذكر أسماء مثل شمساني، ئاداني، قاتاني، وپیراني، مَنْ هم هؤلاء؟ متى وجدوا وعاشوا؟

ج: نحن بالطبع، منقسمون إلى شيوخ وپیران، وشيوخنا منقسمون إلى طوائف: شمساني، ئاداني، وقاتاني. ليس هناك بالطبع تزواج بين طوائف الشيوخ. الشمساني بالطبع من عائلة الشيخ شمس، الآداني من عائلة الشيخ آدي، القاتاني ينحدرون من عائلة الشيخ أبي بكر، هذه الطبقات أنشئت في عهد الشيخ آدي. الپیرانی يشير إلى طائفة الپیران، وهذه الطائفة وجدت عقب عهد الشيخ آدي.

س: تصادف سنتنا الجديدة أول أربعاء من شهر نيسان، منذ متى ولماذا؟

ج: سنتنا الجديدة أقدم من الشيخ آدي، إنه يوم مقدس، كان ينبغي أن لا يكون يوم الأربعاء، المرة الأولى التي تم الاحتفال به في يوم الأربعاء، عندما صادف ذلك اليوم السنة الجديدة وبقي كذلك، يقال إنه عطلة نحتفل بها بكرمياً للطاؤوس مَلَكْ.

س: عند وفاة شخص أيزدي، ما هي المراسيم والاجراءات الواجب اتباعها؟

ج: عند وفاة أيزدي، أو عندما يعرف بأنه في طريقه إلى الموت، يتوجب استدعاء أخيه الابدي (أخ الآخرة) أو شيخه. وقبل رحيله يجب أن تمس شفاهه كرات التراب (برات) والماء من معبد الشيخ آدي، يتوجب نقل الجسد إلى غرفة لغسله، في الماضي كان يغسل الجسد على لوحة خشبية أو يستخدم باب خشبي لهذا الغرض، وفي حال غياب شيخ الشخص المتوفى، أي شيخ في المنطقة يستطيع القيام

بغسله، وعند الانتهاء من عملية الغسل يلف الجسد بقطعة من القماش، يفضل أن يكون من اللون الأبيض، الملابس الداخلية والثوب يجب أن تكون من قماش أبيض، البنطلون وما شابه غير مقبولة. يجب استخدام الروب التقليدي والملابس الداخلية والغطاء الأبيض. نحن لا نستخدم الأكفان، يتوجب حمل الجسد على قطعة من الخشب إلى مكان الدفن، بالطبع مع المراسيم الضرورية لدى وضع الجسد في القبر، أما أخوه الأبدي أو شيخه ينبغي أن يقوم بوضع روب فوقه قبل نثر الثرى عليه، الأحذية غير مسموح بها، لأنه في الارض المقدسة في بيت الله، وتعتبر الأحذية ذنباً، لكن الذهب مسموح به هناك، ومع ذلك نحن لا نترك الذهب في القبور لأن ذلك غير مسموح به.

س: لا يجوز دفن طفل ما لم يتم اختتانه أولاً، فلماذا ؟

ج: طبقاً لقوانيننا فإن الرجل الأيزدي ينبغي أن يختتن، من عهد الشيخ آدي وجب ختان الرجال الأيزديين.

س: يتوجب على الرجل الأيزدي أن يلبس قميصاً تحتياً أو داخلياً مع حافة دائرية عند منطقة العنق لماذا ؟

ج: هذه قاعدة في ديانتنا في السابق لم تكن خياطة فتحة العنق للقميص الداخلي عادة لدى العائلة، كانت فتحة العنق تقطع وتخيطة من قبل الأخت الأبدية (أخت الآخرة) أو من قبل الشيخ، لكن وضع هذا التقليد جانباً والعائلة تقوم بذلك أيضاً.

س: يُفترض بالرجال الأيزديين أن يربوا الشوارب، لكن منذ احتكاكهم بالآخرين يقوم البعض منهم بحلاقة شواربهم، لماذا لا يصح لهم القيام بذلك ؟

ج: من واجبتنا تربية الشوارب، في السابق كان هذا مطلوباً في كل الديانات، وبمرور الزمن ضعفت التقاليد الدينية، وهذا أمر طبيعي في العالم بالنسبة لنا نحن الأيزديون، كان هذا ولا زال واجباً علينا تربية الشوارب.

س: عندما أنظر إلى البابا فقير وهو يجلس بيننا، أرى أنه يلبس كساءً على شعره، ما أهميته، ولماذا يتوجب على الفقيران ارتداء هذا الغطاء للشعر؟

ج: أغطية الشعر تلبس عادة من قبل الدراويش، الشخص الذي يرتدي غطاء الشعر، عليه الابتعاد عن ملذات هذا العالم وأن يعاني الألم لأجل التقرب إلى الله، في الأيام الخوالي كان هذا الغطاء الصوفي الثقيل يلبس لمعاناة الألم والتقرب إلى الله، كلما ابتعد الشخص عن الملذات والغرائز، كلما تقرب إلى الله. لذا فإن الدراويش يرتدون هذا الغطاء لأجل المعاناة والاقتراب من الله.

س: الكرات الترايبية (برات) تعطى في دار الشيخ آدي، لماذا؟
ج: تعتبر هذه الكرات طلاسـم الشيخ آدي، ووفقاً لعقيدتنا، عندما يكون الشخص في وضع حرج أو موقف خطر، إذا حمل كرة في يده ودعا الملك طاووس، فإن المساعدة آتية حتماً.

س: لاحظت بان الكرات موضوعة بالقرب من طاووس الشيخ آدي، إذا كان هذا ما يدعون به، منذ متى يجري الأمر على هذا المنوال، وماذا يعني ذلك؟

ج: بدأ هذا التقليد بعد فترة الشيخ آدي، تضاء شمعة وتنصب إلى جانب كل طاووس الطواويس يحتفظ بها دوماً في الداخل إنها تشكل رموزاً للشيخ آدي، مقدسة وقيمة جداً لذا ترسل لتعرض على الناس من

قبل القوالين، لرشدهم إلى طريق الشيخ آدي، نهج قومهم، يؤخذ كل طاووس إلى كل من المواطن السبعة.

س: قبل فترة رأينا ينبوع زمزم، ما أهمية زمزم لدى الأيزديين ؟
ج: عند وصول الشيخ آدي إلى هذه المنطقة، كان هناك فقط كهف عديم المياه، وكان هذا مكان الشيخ آدي، حيث كان يدعو ويصلي، وعندما وصل الشيوخ من بغداد لاختبار قابلياته أو ملاحظته خارج المنطقة، سألوه عن المياه للوضوء. فوقف الشيخ آدي ودعا الله والملك طاووس في طلب المساعدة، عندها أصدر أمراً إلى الجبل الذي انفتح وتدفقت منه المياه، لذا فالمكان الذي كان يستخدمه الشيخ آدي للصلاة والذي خرجت منه المياه دعي بزمزم، وهي كلمة عربية.

س: هل بإمكانك أن تخبرنا عن البناء الهرمي للدين الأيزدي وواجبات كل مسؤول أو المختص بتلك الدائرة ؟

ج: يأتي أمير الشيخان بعد الشيخ آدي في المرتبة، هناك مجلس ديني، وأمير الشيخان بمثابة رئيسه وزعيم كل الأيزديين. في المجلس الديني هناك الأمير حاج، الذي هو نائب عن أمير الشيخان في رئاسة المجلس الديني. يتألف المجلس الديني من البشيمان، البابا شيخ، وزير الشيخان، ورئيس القوالين. كل واحد من هؤلاء لديه مسؤوليات منفصلة. على سبيل المثال، البشيمان تنحصر مسؤوليته في كونه زعيماً لطائفة الآداني، سليلو الشيخ حسن، البابا شيخ مسؤول عن الخدم، الكوچك والمعمرين.

وزير الشيخان تقع على عاتقه مسؤولية طائفة الشمساني، ورئيس القوالين مسؤول عن كل القوالين، هذا المجلس الديني هو سلطة كل المسؤولين عن الدائرة الأيزدية وأمير الشيخان هو زعيم الجميع.

س: في دار الشيخ آدي هناك مضيف مسؤول عن المطبخ، وكذلك البابا
چاوويش، ماهي واجبات هؤلاء ؟

ج: القائمون على المطبخ هم من الفقيران الذين يقومون بخدمة هذه
الدار، المضيف مسؤول عن العناية بالدار، إشعال القناديل وما شابه،
أما الجاوويش فيتوجب عليه أن يكون ذكراً وغير متزوج. وجرت
هذه العادة منذ القدم، وظيفته هي بصفة دائمة حيث يقوم بالإشراف
على رعاية أمور الدار وخاصة الجانب الديني منها، وهذه الوظيفة
قديمة جداً في هذه الدار.

س: رأينا الينبوع الأبيض وطالما كنا نسمع به ما مدى أهمية هذا الينبوع
بالنسبة لنا ؟

ج: إنه ينبوع مقدس، وشكل دائماً جزءاً من الأرض المقدسة، ويعتبر
الينبوع الأبيض سمة من سمات الأيزدي، على كل أيزدي أن يتم
تعميده بهذه المياه قبل مماته، ولو عاش الأيزدي بعيداً من هنا ولم يكن
بمقدوره الحجى إلى هنا، فذلك بالطبع شأن آخر.

س: ماذا عن مراسيم الزواج ؟

ج: أحد أعضاء طائفة الشيخ حسن ينبغي أن يقوم بتلاوة مراسيم
الزواج، بعد ذلك يتوجب تسجيل الزواج لدى الدوائر الحكومية.

س: على الشخص الذكر الأيزدي أن يكون له شيخ، والشيخ يأتي لأول
مرة إلى بيته عندما يكون الطفل في الشهر التاسع أو الحادي عشر من
عمره ويقطع خصلات من شعره فلماذا ؟

ج: منذ عهد الشيخ آدي، يتوجب على كل مريد أن يدبر قطع خصلات
شعر ابنه من قبل شيخ. كما أن الاختتان واجب في ديننا فكذلك
قطع (البسك).

س: يمكن أن يقال بأن لكل دين كتاب مقدس، كالتوراة والإنجيل والقرآن، هل لدينا مثل هذا الكتاب المقدس أم لا ؟ إذا كان لدينا مثل هذا الكتاب فماذا حصل له ؟ وما هو اسم الكتاب ؟

ج: بالطبع يتوجب أن يكون هناك كتاب لكل دين، كتبنا المقدسة تدعى الجلوا والمصحف الأسود، في الـ ٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة الأخيرة نحن عانينا من اضطهاد مستمر بسبب هذا القمع والملاحقة فقدنا كل كتبنا، أخذها الآخرون وبقينا صفر اليدين، طالما تعرض موطننا وقرانا إلى النهب والسلب، وغالباً ما لجأ مواطنونا إلى الكهوف أو الغابات وبسبب الاضطهاد المستمر والجرائم التي ارتكبت خلالها فقدنا كتبنا، فقدنا الكتب لكن تعاليم الدين بقيت حية.

س: نحن الأيزديون لا يوجد عندنا شغار في الزواج (Pêguhûrk) ويجب أن يتم الزواج قبل حلول شهر نيسان، لماذا ؟

ج: هذه عادة قديمة لدينا، أعتقد إنها وجدت قبل عهد الشيخ آدي، لقد قيل لنا دوماً في بعشقة وياهزاني بعدم حرث الأرض قبل منتصف شهر نيسان، وكان الامر كذلك قبل فترة الشيخ آدي.

س: هناك كلمة يمتعض منها الأيزديون كثيراً إذا ما تفوهت بها في حضورهم، فلماذا يمتعض الأيزديون لدى سماعهم لهذه الكلمة ؟

ج: هذا واضح. فالملك طاووس ليس شخصاً عادياً، إنه ملاك، بل رئيس للملائكة، يأتي بعد الله في المرتبة، أعماله جديرة بالثناء، لم يفعل أي شيء فيه تحدي لله، نحن لا نقبل أن يطلق عليه أسماء لا تليق به، له أسم رائع. ليس من العدل اعطاؤه اسماً سيئاً، هذا الأمر يشابه اطلاق اسم اللص على شخص عظيم ونبي، نحن نعتزف باسمه الحقيقي وليس هذا الاسم الخاطيء القبيح.

س: ذات مرة كان هناك العديد من الكوچك. من هو الكوچك ؟ ماهي

الواجبات الملقاة على عواتقهم، فيما اذا كانت هناك أية واجبات ؟

ج: نحن لا نعلم فيما اذا كان أصل هذه الكلمة فارسياً أو كوردياً، كان

الأشخاص الحاملين للقب الكوچك يؤدون الخدمات الدينية في دار

الشيخ آدي، كانوا يقومون بالاعتناء بالناس في دار الشيخ آدي.

وكانوا يعلمون الغيب، على سبيل المثال، إذا فقد أحدهم ابناً أو كان

ابنه مريضاً، كان يأتي إلى الكوچك، على كل حال، لم يبق العديد

منهم في هذه الأيام.

س: في بعشيقة وباهزاني لدى كل شخص، شخص آخر مسن (اختيار)

لماذا هكذا هو الأمر هناك وليس هنا ؟ وليس الأمر كذلك في

الشيخان، ماذا يعني ذلك ؟

ج: من حيث الأهمية لدى الأيزديين، هذه القرى تأتي بعد معبدنا

الرئيسي، إنها مراكز قديمة، لأنه لما تم تدمير معبدنا ذهب الملاك شمس

إلى باهزاني والملاك شيخ حسن توجه إلى بعشيقة، القوالون ينتمون

إلى المركز الديني في بعشيقة والذي يغطي كل من بعشيقة وباهزاني،

إثنان من المسنين يعتبران أعضاء في المركز، أحدهم يمثل المسنين في

باهزاني والآخر يمثل المسنين في بعشيقة.

س: إحصائياً ما هو عدد الأيزديين في العراق ؟

ج: لا نملك احصائيات دقيقة، لدينا عدد تقريبي، فالحكومة لا تصدر

الأعداد الصحيحة.

س: ما هي أعيادنا الرسمية ؟

ج: الأعياد الأيزدية الرسمية هي: قبل كل شيء، احتفال السنة الجديدة

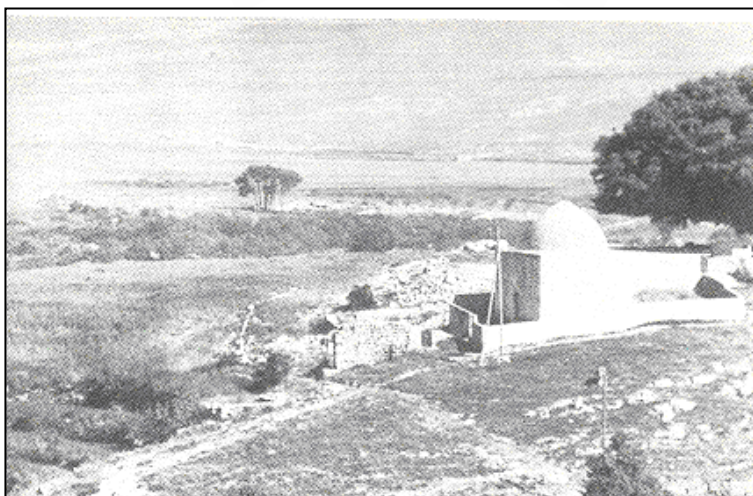
الذي هو عيد مقدس يقام في أول أربعاء من شهر نيسان، بعد ذلك

يأتي عيد أيزيد، بعده احتفال تجمع الشيخ آدي احتفال الصيف
واحتفال الشتاء وعيد خدر الياس، هذه هي الأعياد الرسمية.
س: فيما يتعلق بمهور العرائس، يجدها الأيزديون غالية جداً مما يسبب
مشاكل، هل دفع المهر مسموح به في الديانة أم لا ؟
ج: تقريباً كل الأديان تحرم دفع المهر للعروسة، من الجائز أن الأديان
تسمح بقضايا رمزية، لكن المهور الغالية تعتبر إثماً.
س: ما هو تعريف القِيم (الجبور) ؟
ج: إذا كان هناك معبد في قرية، فالقِيم هو الشخص الذي يقوم على
رعاية أمورها كإشعال القناديل، والحفاظ على النظافة، وكذلك إيلاء
الاهتمام بالأمور الدينية في القرية كما أن مختار القرية مسؤول عن
الشؤون الحكومية، فإن القِيم مسؤول عن الأمور الدينية.
س: في لالش هناك ممثلون لطبقات عديدة، متى وجد هؤلاء كلهم ؟
ج: وجدوا في عهد الشيخ آدي، كل الشيوخ والپيران أينما وجدوا،
جاءوا أصلاً من هذا المكان، على سبيل المثال شخص يعيش في
السهل ويأتي إلى هنا ليتم تعيينه رسمياً كپير، سيدخل المدرسة هنا،
ويعيش هنا لمدة عشر أو عشرين سنة ويعود بعدها مرة أخرى إلى
موطنه القديم حيث يصبح الزعيم الديني في منطقته.

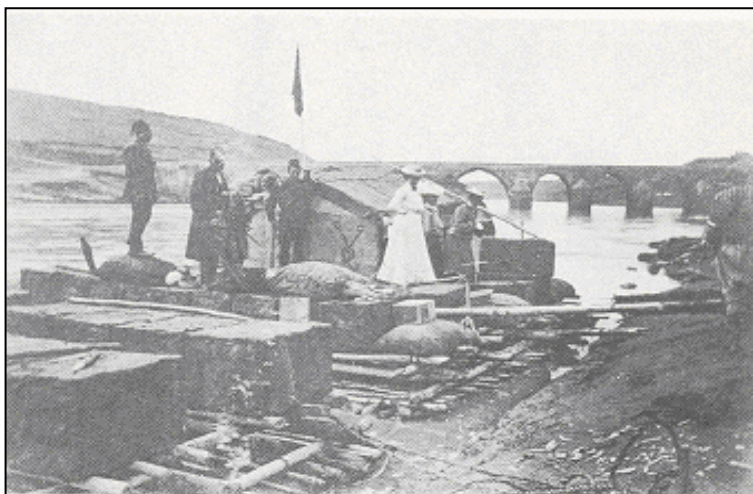
المؤلف في سطور

- تلقى جون غيست تعليمه الجامعي بكلية ترينتي بكامبرج، وكلية هارفرد المهنية.
- من مواليد انجلترا، ويحمل الآن الجنسية الامريكية.
- خدم خلال الفترة ١٩٤١ - ١٩٤٦ في الجيش البريطاني في العراق وإيران ومصر وأوروبا.
- عمل في مجال التجارة والتعاملات المصرفية بنيويورك خلال الفترة ١٩٤٦ - ١٩٨٩.
- له كتاب بعنوان بعثة استكشاف الفرات، نشرته مؤسسة كيغان پول العالمية.

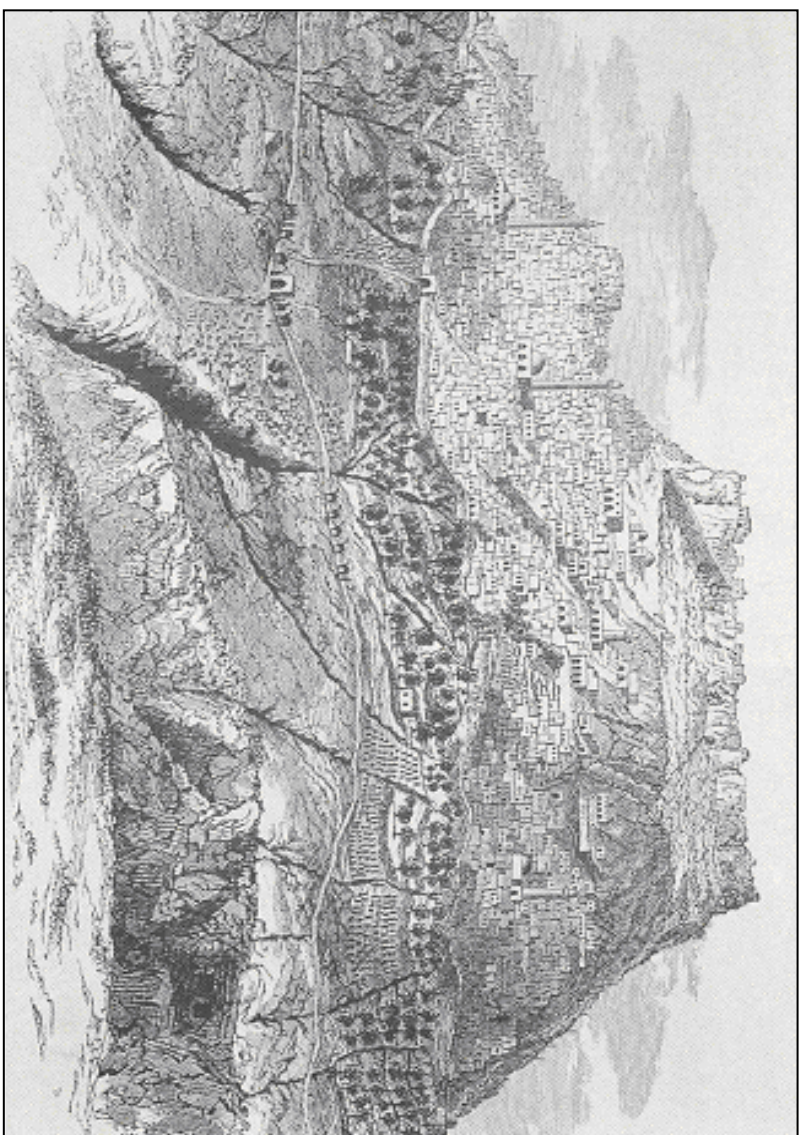
مجموع الملحق الصور



(١) اطلال قرية فنافار (بيت فار) اللبنانية، التي ولد فيها الشيخ آدي، حيث لاتزال بقايا مدفن والده مسافر شاخصة للعيان.



(٢) عبارة نقل المسافرين على نهر دجلة في مدينة دياريكر الواقعة شرق تركيا، سنة ١٩٠٣.



(٣) ماردین الواقعة فی جنوب شرق ترکیا، حیث یقع مقر البعثۃ الامریکیۃ فی الجبهة الیسری من الصوره، سنۃ ١٨٨٩.



(٤) مدينة الموصل حوالي سنة ١٨٥٠.



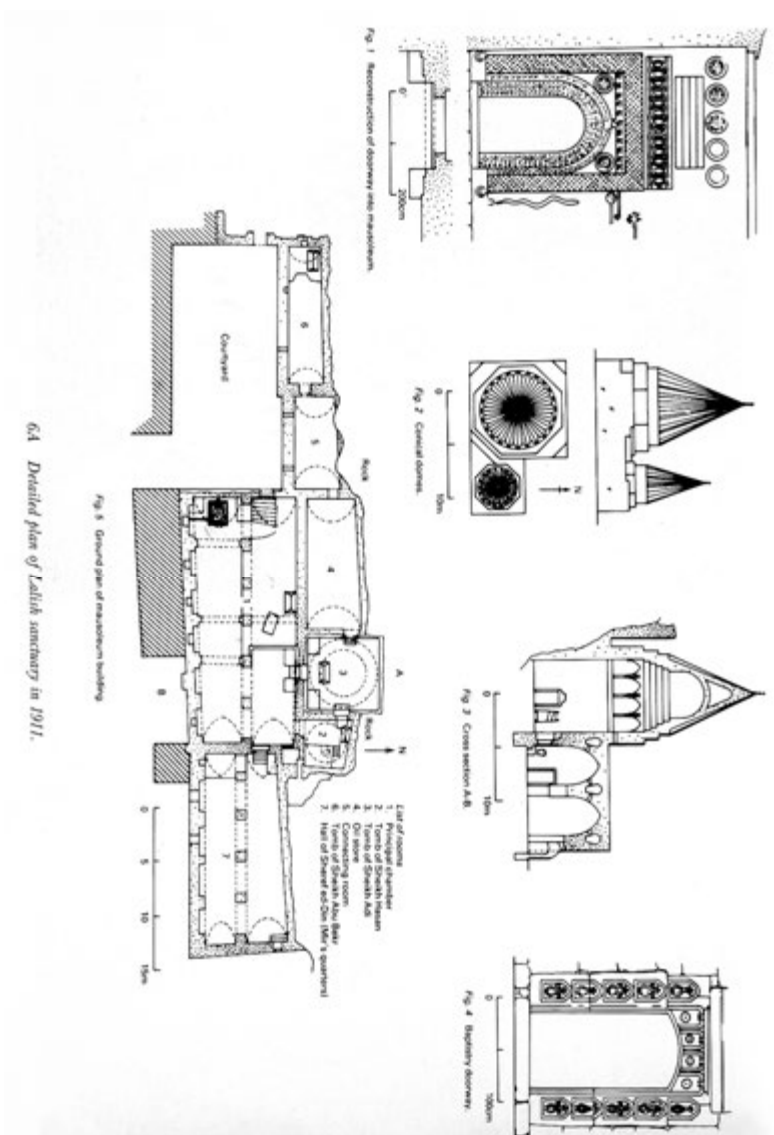
(٥) منظر عام لعبد لالش سنة ١٨٥٠.



(٦) مخطط تفصيلي لموقع معبد لالش ١٩١١.



(٧) معبد لالش تحيطه اشجار التوت من الخارج.



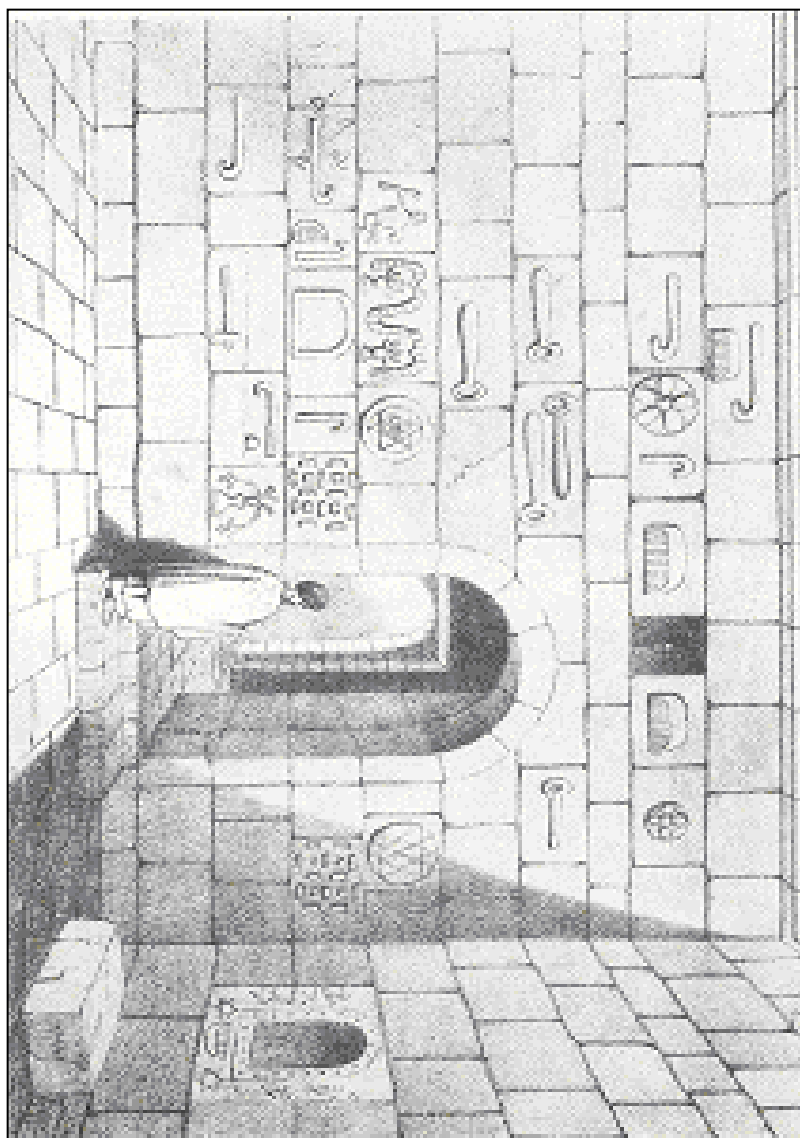
(٣) ماردین الواقعة في جنوب شرق تركيا، حيث يقع مقر البعثة الأمريكية في الجهة اليسرى من الصورة، سنة ١٨٨٩.



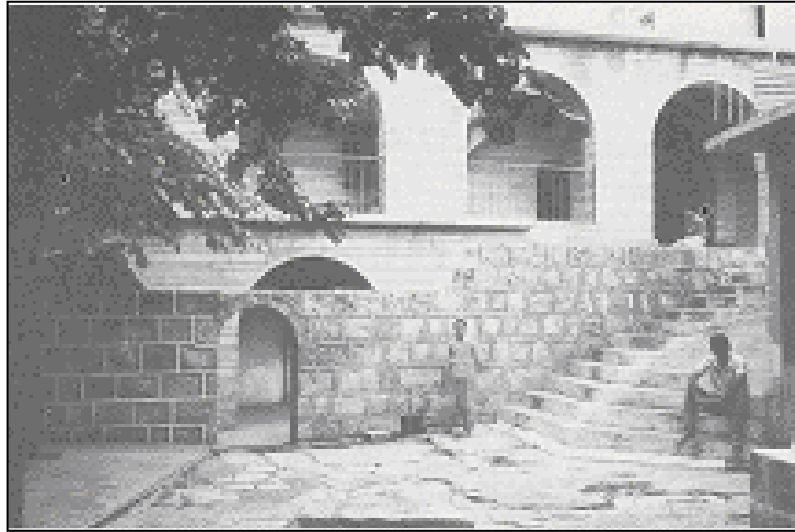
(٨) الزائرون في المدخل الداخلي للباحة. لالش ١٩٨١.



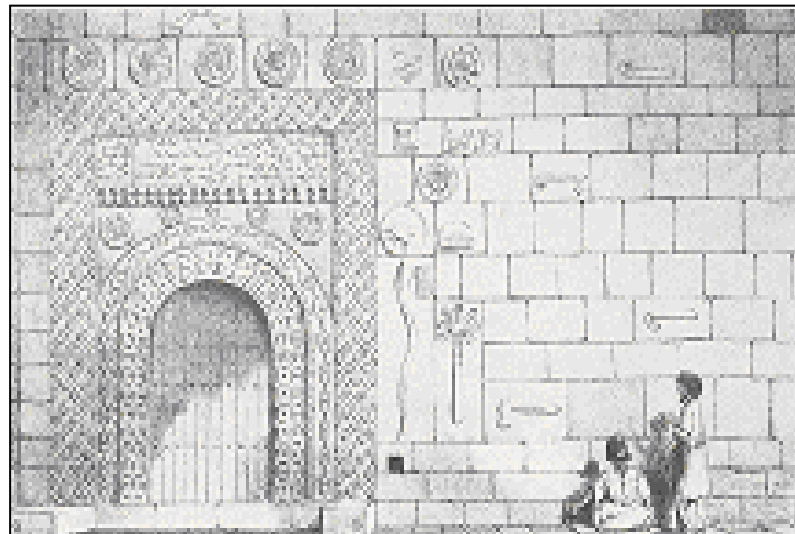
(٩) معبد لالش، تفاصيل المدخل الرئيسي، لاحظ الترميمات الحديثة في اللوحة المنقوشة في الجهة اليسرى.



(١٠) الجدار الغربي للباحة الداخلية، معبد لالوش سنة ١٨٤٩.



(١١) الجهة الغربية للباحة الداخلية، معبد لالش سنة ١٩٩٢.



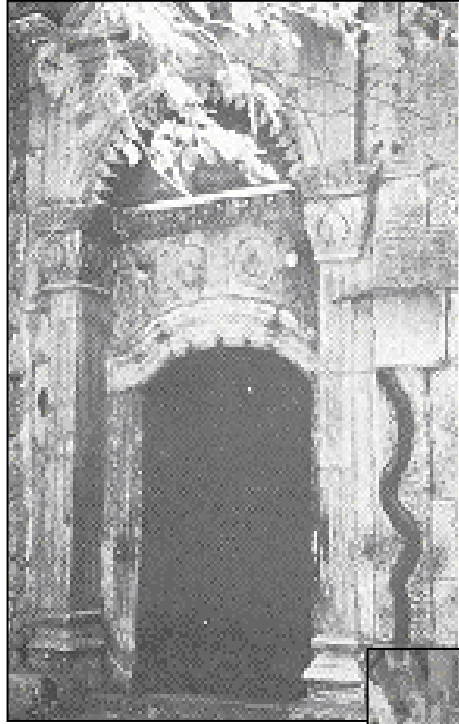
(١٢) الجدار الشرقي للباحة الداخلية مع باب يؤدي الى ضريح الشيخ آدي، معبد لالش سنة ١٨٤٩.



(١٣) الجدار الشرقى للباحة الداخلية للمعبد بكاميرة أثلستان ريلى، لالش ١٨٨٦.



(١٤) الجدار الشرقى للباحة
الداخلية للمعبد، بكاميرة
ليرووت بيل، لالش ١٩٠٩.



(١٥) المدخل المؤدي الى ضريح
الشيخ آدي، لالش ١٩٧٨.



(١٦) مدخل ضريح الشيخ
ثادي في لالش، الصورة تضم
كل من بابا جاووش
پيركمال، وفقير مراد
والمؤلف.



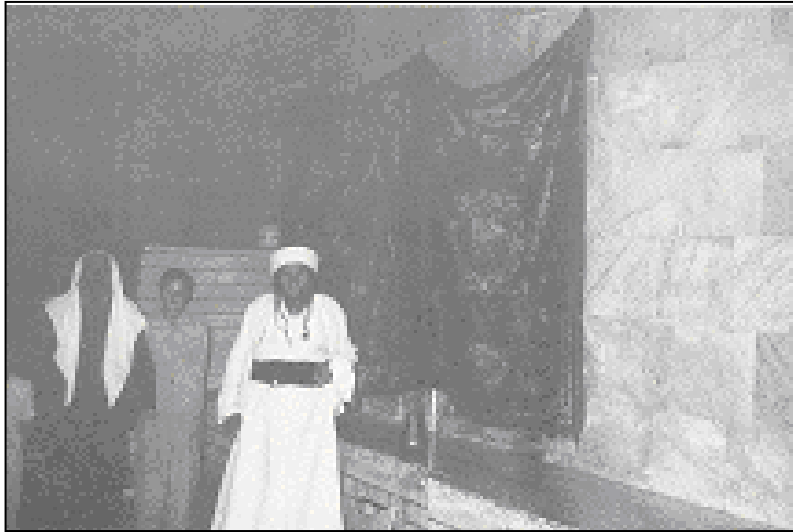
(١٧) صورة مقربة لدخل ضريح الشيخ آدي، لالش.



(١٨) الرموز القديمة على الجدار الشرقى للباحة الداخلية، لالش ١٩٩٢.



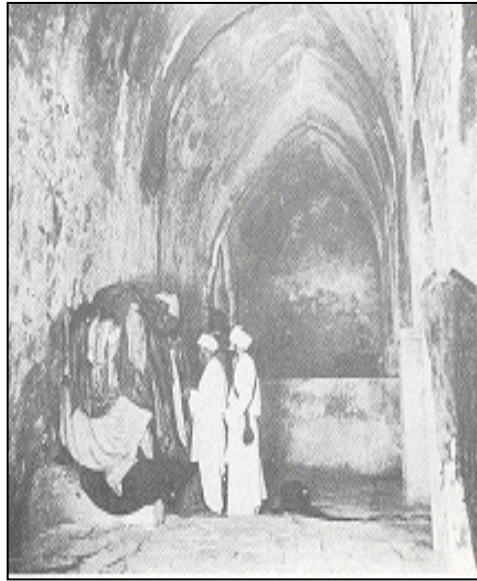
(١٩) البابا جاووش بجانب ضريح الشيخ ابو البركات، لالش سنة ١٩٩٢.



(٢٠) الستارة التي على شباك غرفة ضريح الشيخ آدي، لالش. لاحظ الطاسة المستخدمة في صلاة التقديم في القديس.



(٢١) البابا جاووش عند ضريح
الشيخ حسن، معبد لالش سنة
١٩٩٢، اللوحة المنقوشة بعد
ترميم ضريحي الشيخ آدي
والشيخ حسن.



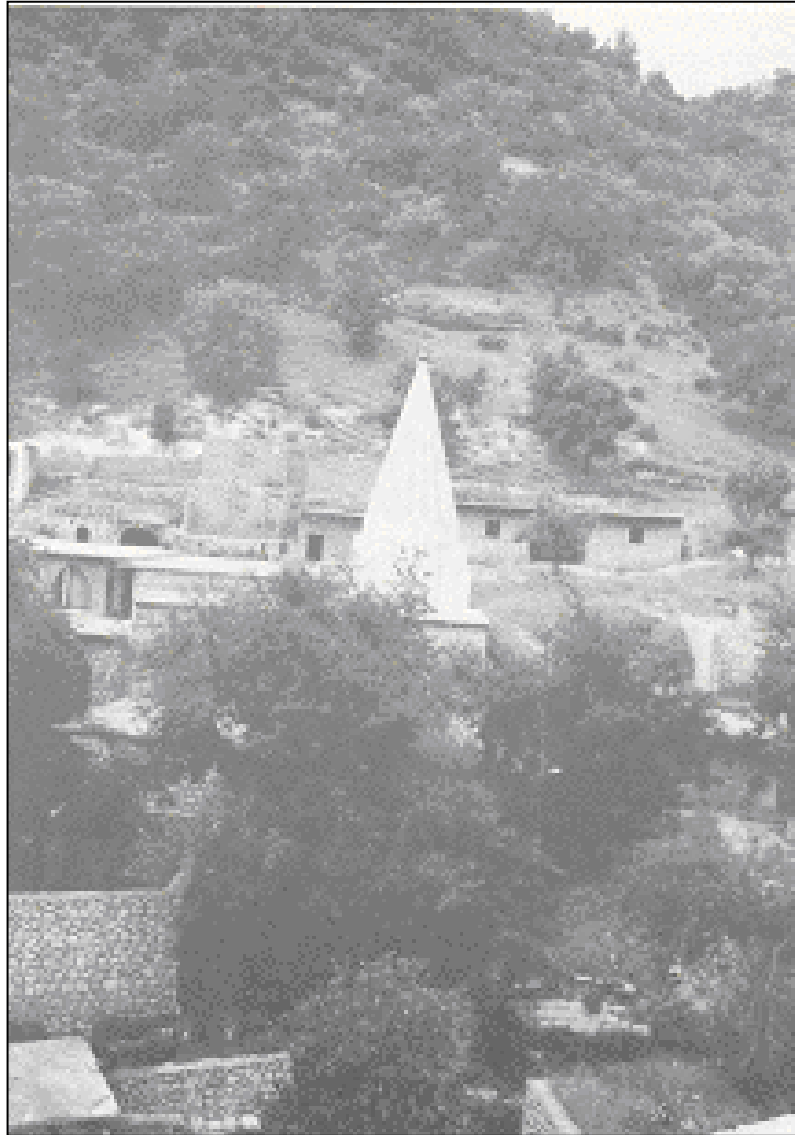
(٢٢) ضريح الشيخ آدي،
لالش ١٩٤٣.



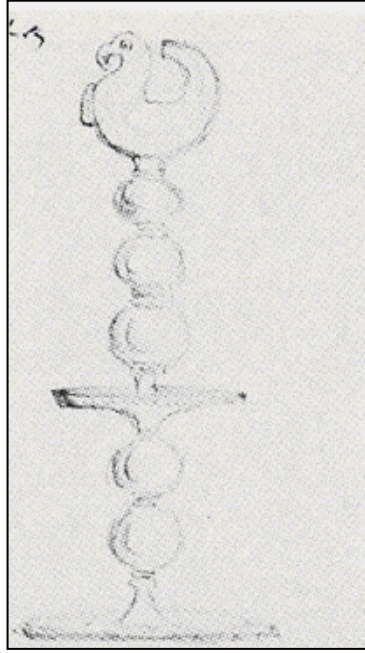
(٢٣) ضريح الشيخ آدي، لالش ١٩٨٩.



(٢٤) فقير مراد عند ضريح الشيخ ابو بكر، معبد لالش سنة ١٩٩٢.



(٢٥) مزار الشيخ شمس الدين. لالش ١٩٩٢.



(٢٦) رسم تخطيطي للسنگاق،
من قبل لايارد في رضوان، شرق
تركيا سنة ١٨٤٩.



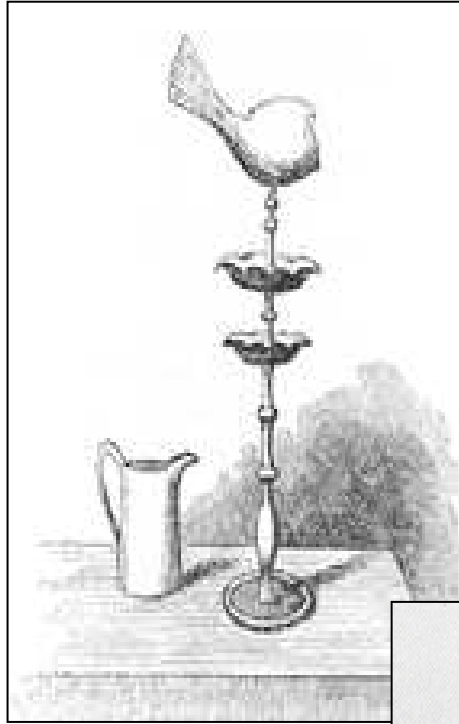
(٢٧) لاسو، الموسيقي الاعمى، رسم تخطيطي من قبل س.ج.



(٢٨) رسم تخطيطي لقوالة اليزيدية، هنرؤي لايار، ١٨٤٩.



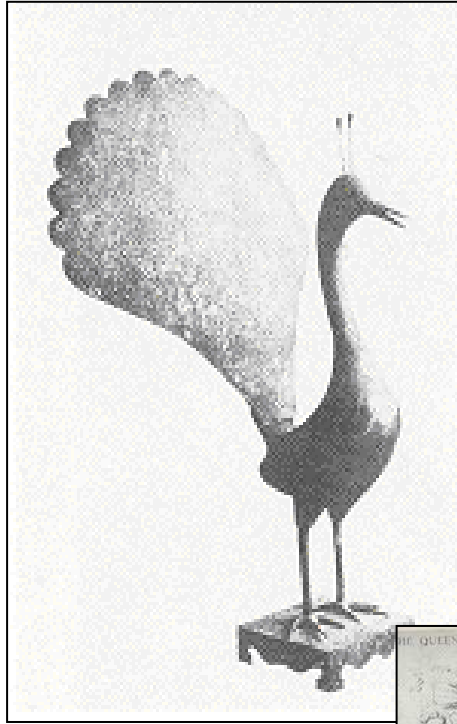
(٢٩) القوالة اليزيدية مع سنجاق (شينكار او سنجار)، سنة ١٩٩٠.



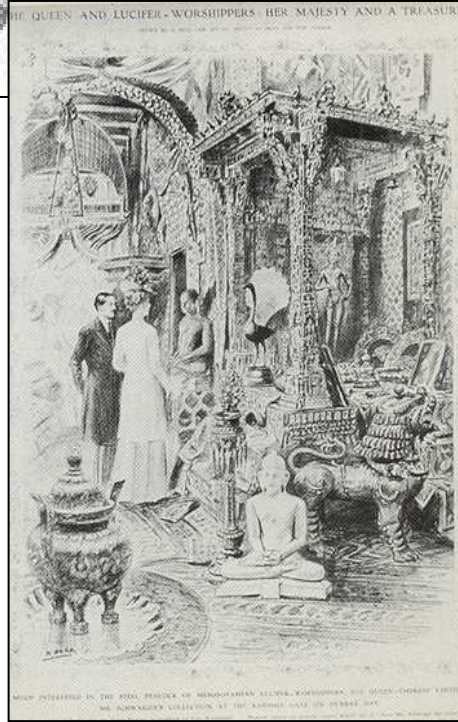
(٣٠) رسم تخطيطي لسنجاك
الشيخان، من قبل بادجير في
بعشقة، سنة ١٨٥٠. العروة،
والبلبله اضيفت من قبل الفنان.



(٣١) سنجاك الشيخان في
سنة ١٩٩٠.



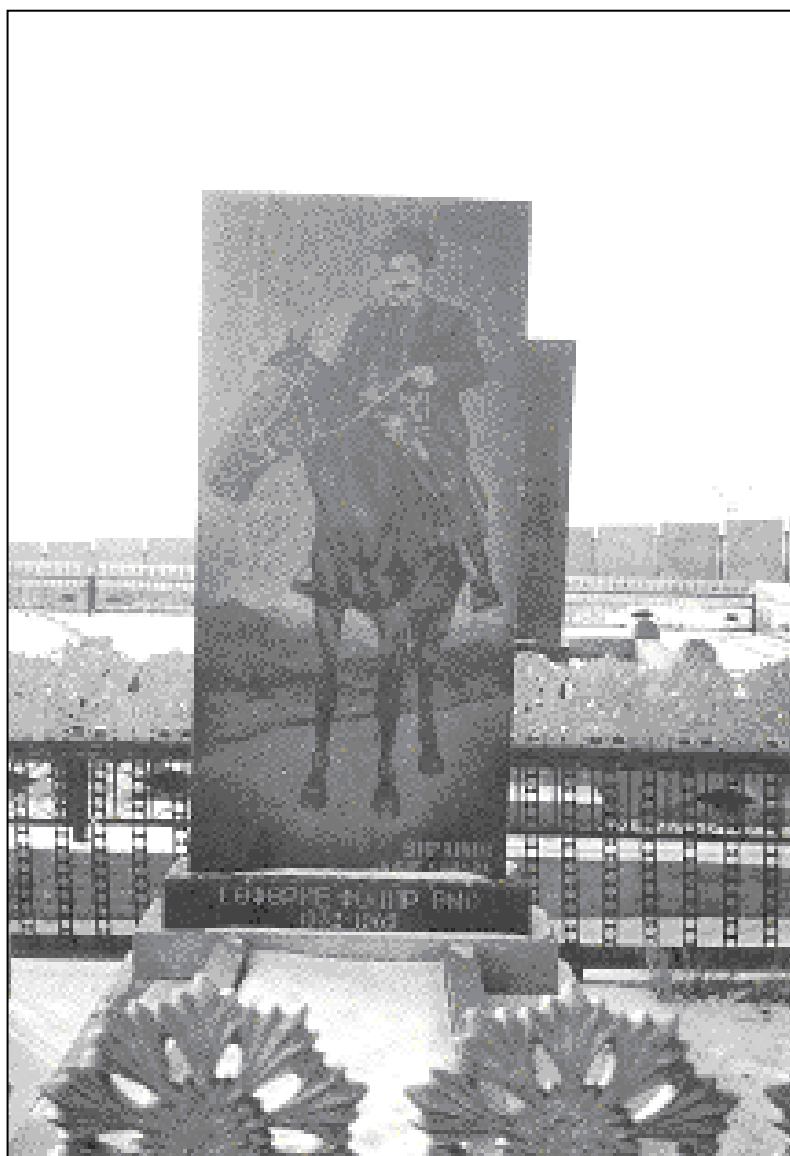
(٣٢) السنجاق المزعوم ملكيته
لعائلة بغدادية سنة ١٩١١.



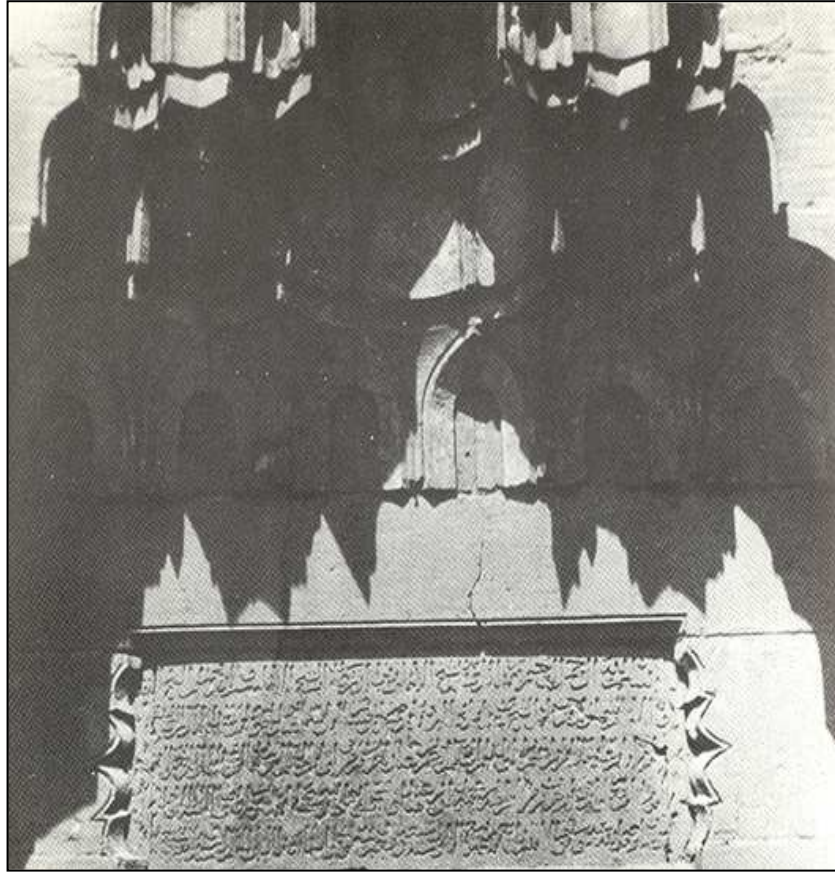
(٣٣) سنجاق مزعوم آخر، دلهي
سنة ١٩١١.



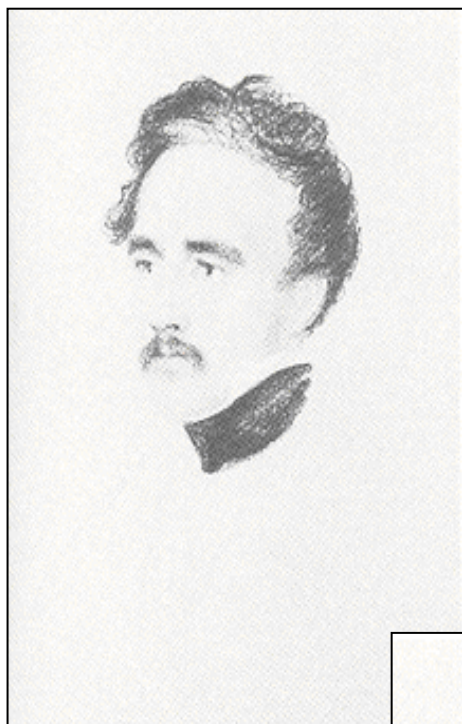
(٣٤) الاحصن في هوندا غاساك، ارمينيا.



(۳۵) ضریح یزید حدیث، هوکتمبریان، ارمینیا.



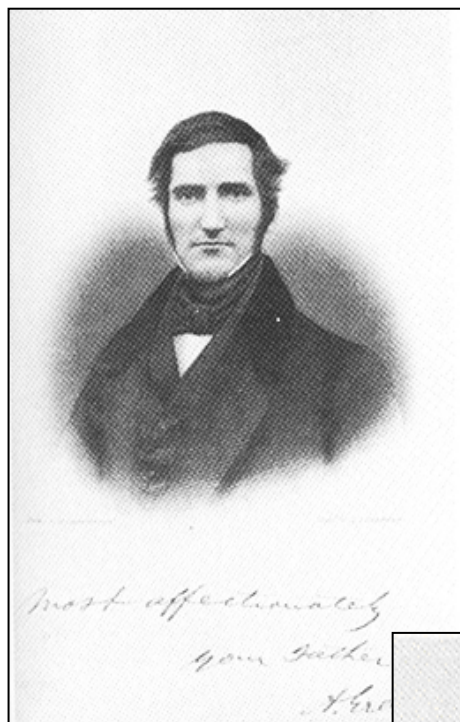
(٣٦) ضريح زين العابدين يوسف، البوابة المنقوشة، القاهرة.



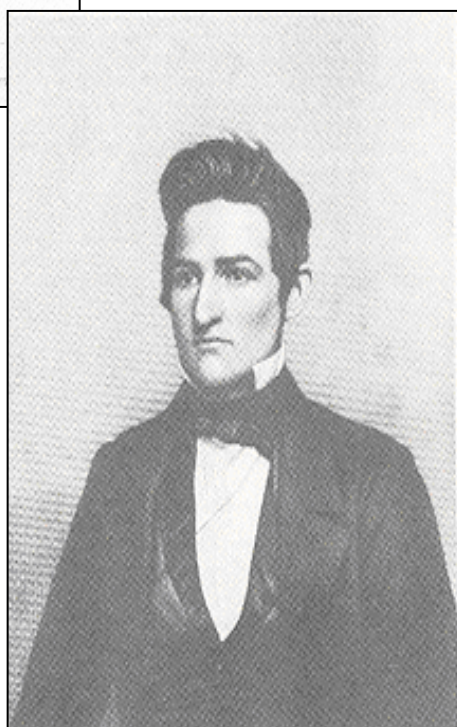
(٣٧) هاري الايارد، سنة ١٨٢٠.



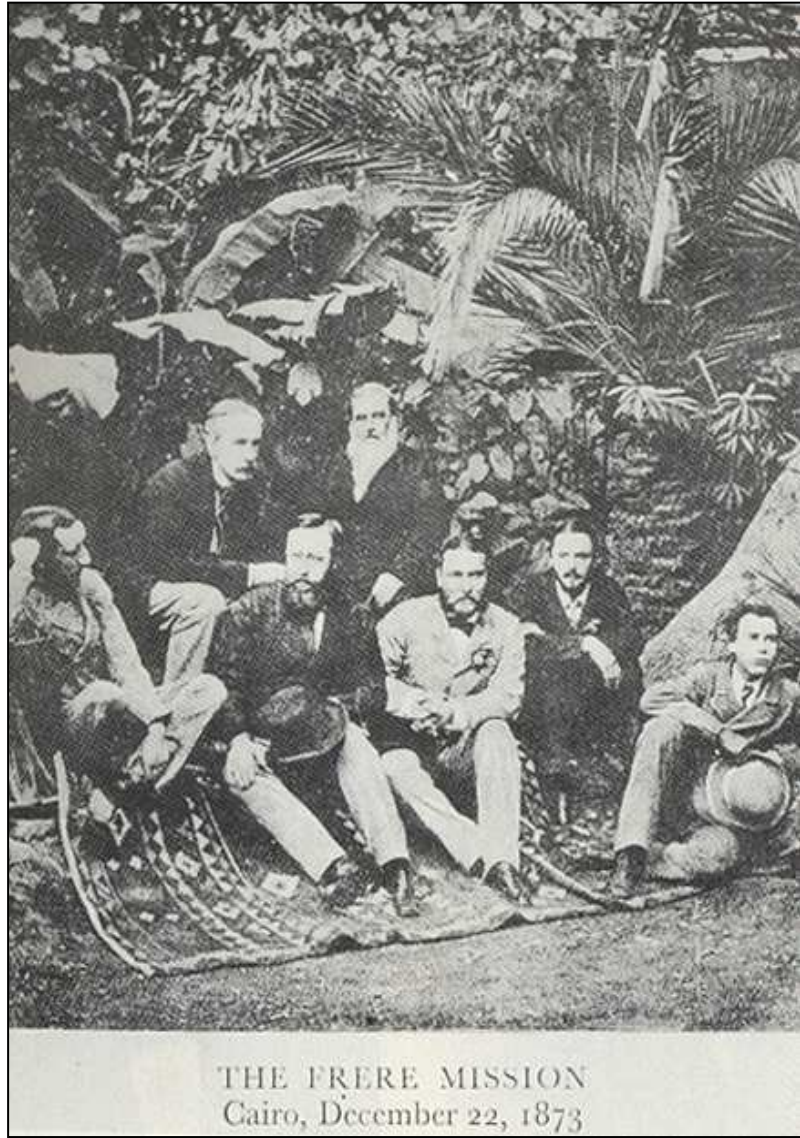
(٢٨) كرستيان رسام سنة ١٨٢٨.



(٢٩) آساهل كرانت م.د، اخذت الصورة في ١٨٤١ مع اوتكراف لآخر رسالة له في ٥ نيسان ١٨٤٤.



(٤٠) السيد هنري لويديل ، م.د حوالى سنة ١٨٥٠.



(٤١) جورج بيرسي بادجير (الصف الخلفي، يميناً).



(٤٢) شيخ ناصر في ١٨٤٩.



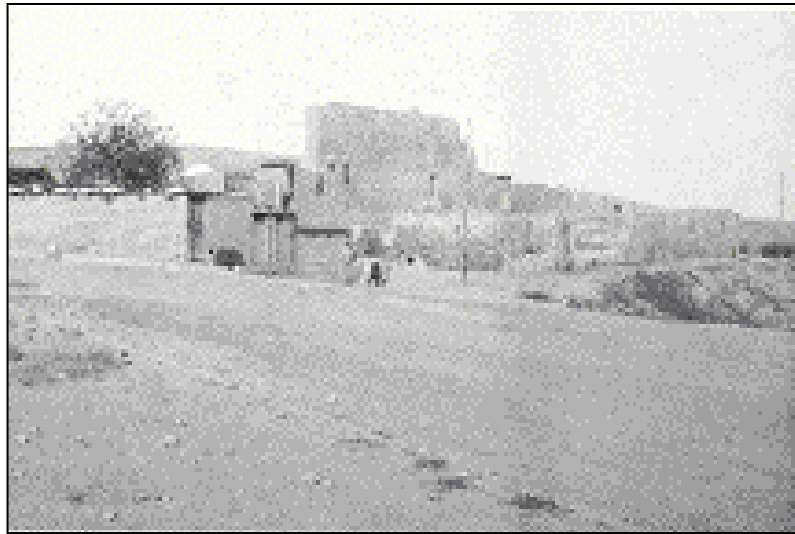
(٤٢) مير حسن بك واخوه عبيدي بك في ١٨٤٩.



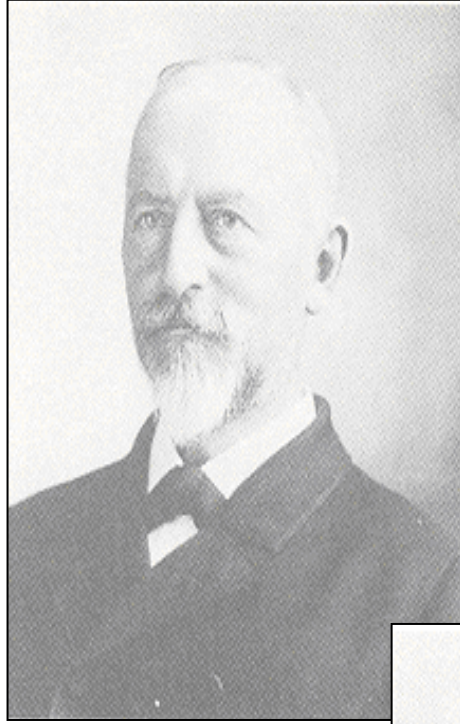
(٤٤) مير حسن بك حوالي سنة ١٨٧٠.



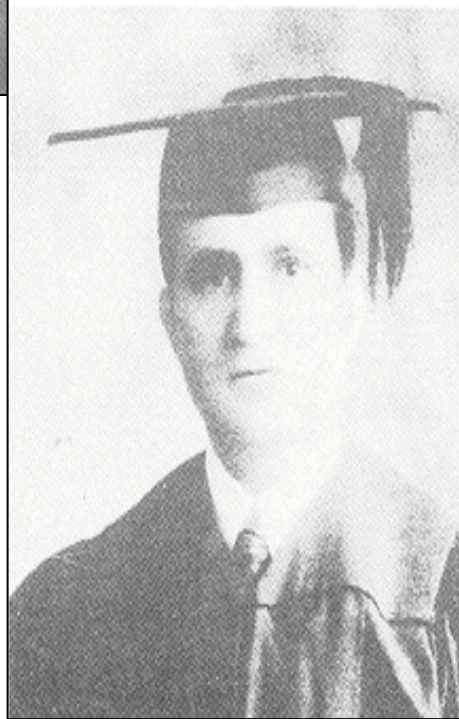
(٤٥) الامير علي بك جالس، وخلفه المستخدم الارمني (كير تروربيل) وعلى يمينه القوالة، وعلى يساره امين سر الجالدين. بكاميرة (كير تروربيل سنة ١٩٠٩.



(٤٦) باعدري: قصر علي بك المهدم في ١٩٩٢.



(٤٧) السيد آلفس ن. الميعوث
الامريكي في ماردين، تركيا
١٨٦٩ - ١٩١٥.



(٤٨) ايسيا جوزيف، ب، أ، جامعة
كولومبيا، مدينة نيويورك، ١٩٠٦.



(٤٩) كابتن هـ. و. كابتن ر. ي بعيد استكشاف سطح جبل سنجار مع رئيس عشيرة
عربية، تموز ١٩١٨.



(٥٠) اسماعيل بك يتفحص الـ
R.A.F.R.E8 (هاري ديت)
ويستطلع قاذفة القنابل في ١٩١٨.



(٥١) ميان خاتون ومير سعيد بك
حوالي ١٩٣٠.



(٥٢) اسماعيل بك حوالي سنة ١٩٣٠.



(٥٢) ونسى وميان خاتون، حوالي سنة ١٩٣٥.



(٥٤) احدث صورة للاميرة



(٥٥) مير سعيد بك (في العمق اليمين)
عند الباب الرئيسي لضريح الشيخ
آدي - الصورة لـ (روسيتا فوربيس)
سنة ١٩٢٩.



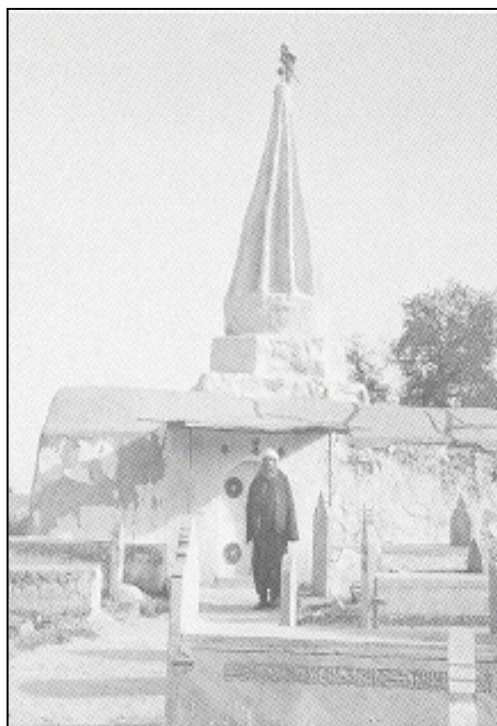
(٥٦) الامير تحسين بك وجدته ميان خاتون حوالي سنة ١٩٤٥.



(٥٧) الامير تحسين بك (الشخص الثاني في الجهة اليسرى) وامه خوخي خاتون. سنة



(٥٨) قصر ميان خاتون الجديد، باعدري سنة ١٩٩٢.



(٥٩) مزار الامير علي بك المتوفي
سنة ١٩١٣، وميان خاتون المتوفية في
١٩٥٧ والامير سعيد بك المتوفي في
١٩٤٤ وخوخي خاتون المتوفية في
١٩٩٢، باعدري.



(٦١) الامير جلال بك، الاخ غير الشقيق
لـ (الامير تحسين بك) سنة ١٩٩٠.



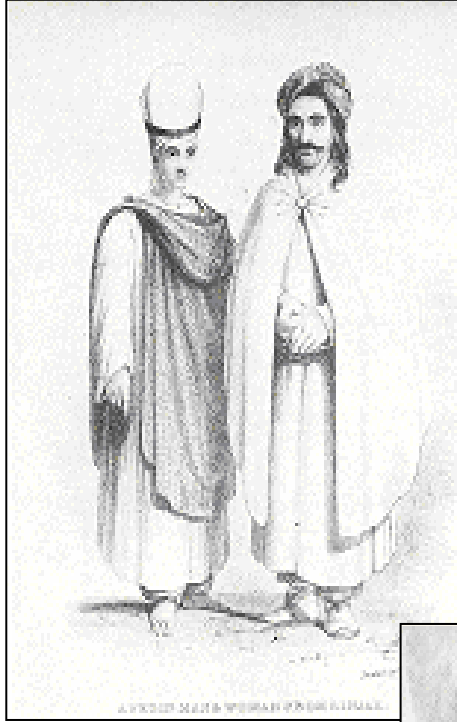
(٦٠) الامير خير الدين بك، الاخ غير
الشقيق لـ (الامير تحسين بك) سنة ١٩٩٠.



(٦٢) الشيخ الياس بن البابا باشيخ، والقوال سليمان (رئيس القوالين)، سنة ١٩٩٠.



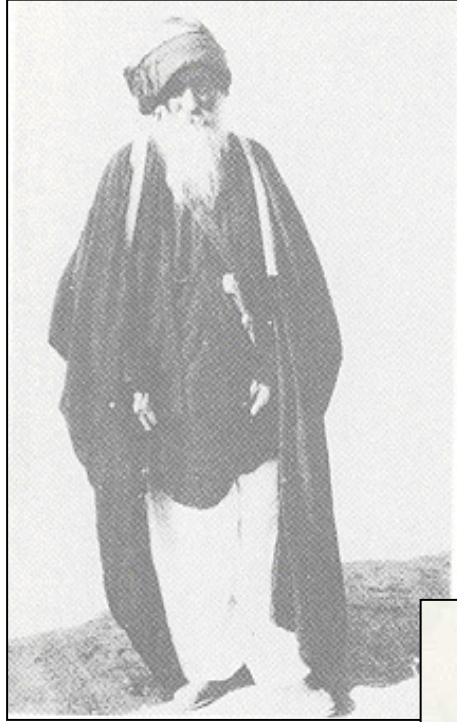
(٦٣) الفقير حاجي، (رئيس الفقراء) سنة ١٩٩٠.



(٦٤) يزيديون من سنجار حوالي
سنة ١٨٢٠.



(٦٥) اغا اليزيديين من جبل
سنجار.



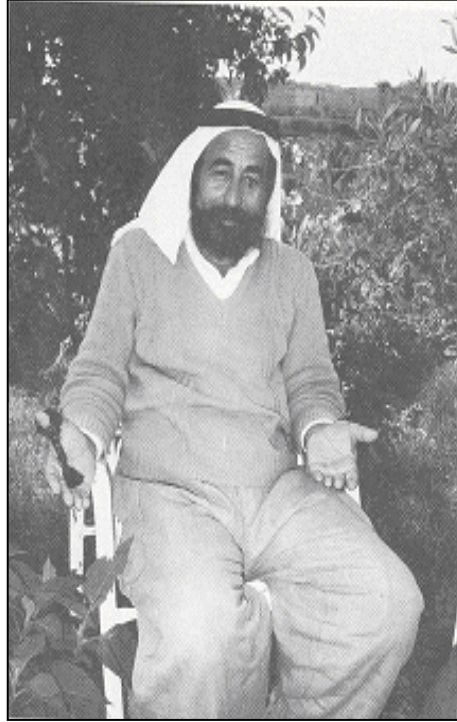
(٦٦) **حمو شرو، قائد اليزيديين**
في جبل سنجار ١٨٩٠ - ١٩٣٢ ،
سنة ١٩٣٠.



(٦٧) **هنري فيلد، انثروبولوجي**
(باحث في علم طبيعة الانسان
وعاداته ومعتقداته) مستكشف
سنة ١٩٢٨.



(٦٨) الامير معاوية سعيد، ابن اسماعيل بك، حوالي سنة ١٩٨٠.



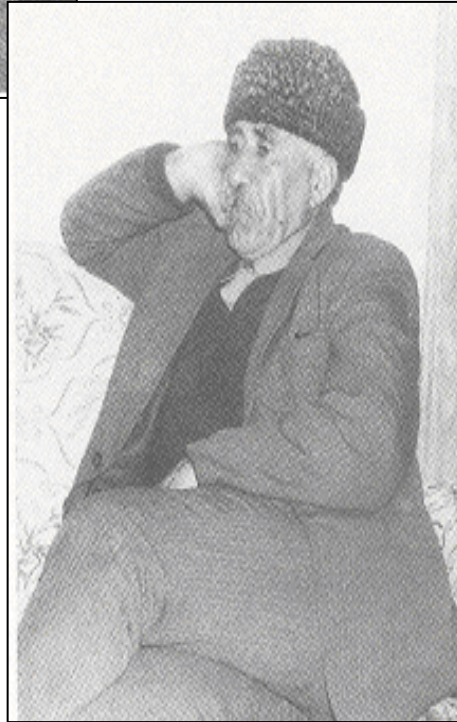
(٦٩) الامير كوكوس بك، ابن اسماعيل بك ١٩٩٢.



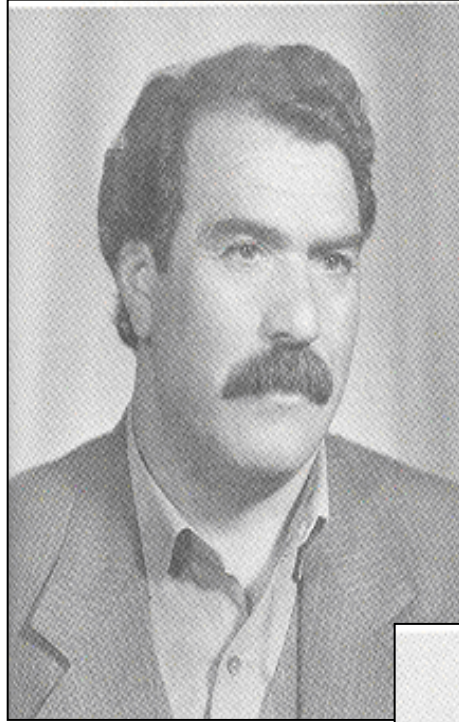
(٧٠) الامير بايزيد بك بن اسماعيل بك والكاثوليك الارمن سنة ١٩٧٧.



(٧١) عزيز عمار تامويان، رئيس
الرابطة الوطنية اليزيدية في
ارمينيا.



(٧٢) الشيخ بروف دافريش
شامويان المتوفي سنة ١٩٩٠.



(٧٣) الشيخ زيل حسنيان
المتوفي سنة ١٩٨٩.



(٧٤) الشيخ حسن حسنيان،
المستشار الخاص للحكومة
الارمينية حول القضايا
اليزيدية.



(٧٥) المؤلف وقرويون يزيدون عند ينبوع القصائد، كوروكافاك (حمدونا سابقاً)
شرق تركيا سنة ١٩٨٢.

